THE DUTCH SEABORNE EMPIRE 1600 - 1800



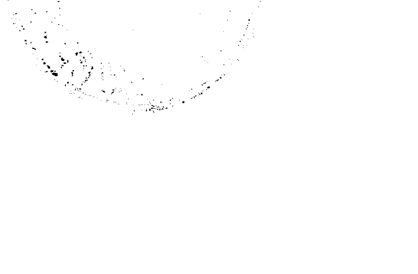
إمبراطورية هولندا البحرية

١٦٠٠ - ١٨٠٠

تاليف : ك . د . بوكسر

ترجمة : شوقي جلال

إمبراطورية هولندا البحرية



THE DUTCH SEABORNE EMPIRE 1600 - 1800

C . R . BOXER

HUTCHINSON & CO. (PUBLISHER) LTD

176 - 202 GREAT STREET , LONDON W 1

FIRST PUBLISHED 1965

إمبراطورية هولندا البحرية

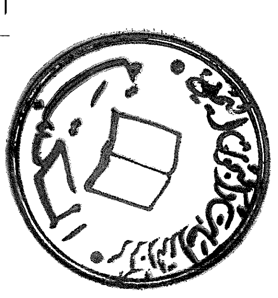
١٦٠٠ - ١٨٠٠

تأليف : ك . د . بوكسر

ترجمة : شوقي جلال

الطبعة الأولى

1994

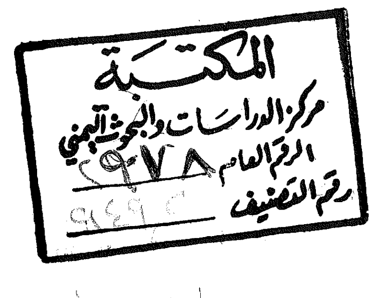


منشورات المجمع الثقافي

Cultural Foundation Publications

ص. ب ٢٣٨٠ ـ ابوظبي ـ الإمارات العربية المتحدة ـ هاتف : ٢١٥٣٠٠

P.O. BOX : 2380 - ABU DHABI - U . A . E . - TEL. 215300 - CULTURAL FOUNDATION



مقدمة

كانت وما زالت منطقة الخليج العربي، في دائرة اهتمام الباحثين والدارسين والمؤلفين. ففي قول الضابط البحري البريطاني «أرنولد تي. ولسون» ما يؤيد ذلك:

«من بين الخلجان كافة لا يوجد خليج كان وما يزال موضع اهتمام كبير للجيولوجي، وعالم الآثار، والمؤرخ، والجغرافي، ورجل الدولة، ودارس الاستراتيجية كالخليج العربي».

وإذا كان للمنطقة وزن تاريخي وجغرافي واقتصادي، فإن صراع القوى الأوروبية، وتنافسها فيما بينها للحصول على ثروات الهند والدول الشرقية ما كان ليحسم إلاّ بالسيطرة على البوابة الرئيسية لثروات الشرق، وهي الخليج العربي.

إن المُؤَلَّف (امبراطورية هولندا البحرية) للمؤرخ الإنجليزي (ك. د. بوكسر) هو واحد من الكتب، التي تُـؤَرِّخُ لفترةٍ مهمة من القرن السابع عشر، شهدت إنشاء الإمبراطورية البحرية الهولندية، على يد شركة الهند الشرقية، وصراعاً حاداً بين القوى المتنافسة – آنذاك – للسيطرة على الخليج العربي.

فالكتاب يؤرِّخ لحقبة تاريخية مُهمة، والكاتب مُؤَرِّخٌ مختَصٌّ في النشاط البحري البرتغالي والإسباني والهولندي، والكشوف الجغرافية في القرنين: السادس عشر والسابع عشر، وهو ذو معرفة واسعة باللغات اللاتينية، الأمر الذي يضفي على الكتاب صفة الوثيقة التاريخية.

يسرنا أن نُقَدِّمَ هذا الكتاب في ترجمة عربية، عسى أن يفيد منه الدارسون والباحثون، ويضيف إلى المكتبة العربية وثيقة تاريخية عن منطقتنا.

والله من وراء القصد.

المجمع الثقافي

فهرســـت

Abbreveiations

AGN	Algemenc Geschiedenis der Nederlanden
BGN	Bijdagen voor de Geschiedenis der Nederlanden
BMHGU	Bijdragen en Mededelingen van het Historisch Genootschap gevestigd te Utrecht
BTLVNI	Bijdragen tot de Taal-land-en Volkenkunde van Nederlandsch Indie
EIC	English East India Company
Knuttel	Catalogus van de pamfletten-verzameling berustende in de Koninkiljke Bibliotheek, by W.P.C. Knuttel
LV	Linschoten Vereeniging
MM	The Mariner's Mirror. Journal of the Society for Nautical Research
TG	Tijdschrift voor Geschiedenis
VOC	Dutch East India Company
WIC	Dutch West India Company

مدخـــل

على مدى الأعوام الخمسين أو المائة الماضيـة، انحسر ايمان الانسان بأن حركـة التاريخ أكدت تعاظـم سيطرة الانسان على الطبيعة بـاطراد، إذ منيت عقيدته هذه بضربة قاسية. ان هــ.جــ-ويلز، الرجل الذي تحلى بطاقة إبداعية فائقـة، وروح انسانية تفيض بهجة، وتفـاؤل مطلق، كان في باكورة شبـابه يرنو في ثقة إلى المستقبل، مؤمنا بأن العلم، سليل العقل، هو ترياق الانسانية، ودواء كل داء. ولكنـه في سن النضـج ألف كتـابه «مـوجـز التاريخ» وشـابت نظرته فيه بعض السوداوية وإن ظل متشبثا بالأمل.

إن الحرب العاليـة الأولى التي سفكت دماء الملايين مـن البشر في وحشية وغباء، كانت مصداقا لواقع مؤسف وهو ان الانسان قادر على إحداث كوارث بشرية تصيب العالم أجمع. إن ضياع حرية الانســان، وما منيت به الانسانية من أعمال وحشية وتحقير للكـرامة خـلال العشرينيات والثلاثينيـات على يد الفـاشية والشيـوعيـة ثم مـا أعقب هذا من تجدد للصراع العـالمي، كل هـذه الأحداث قتلت في النهاية نظرة ويلز المتفـائلة. ولهذا نراه عندما تقدم في السن وانقشعت الغمامة عن ناظريه كتب بلغة تقطر حزنا كتابه «العقل وقد تقطعت به الأسباب». تلاشى أمله في البشريـة أو كاد. ويمكن القول دون أن نتجاوز الحقيقة كثيرا، لقد شهـد ويلز في حياته كل ما تنبأ به في شبـابه – الابتكارات التقنية المذهلة والتي امتدت أيضا لتشمل مجالات النشاط البشري التي أثرت في لب المجتمع الانساني ذاته. وان هذه القدرة الفريدة التي تميز بها الانسان على سبر أغوار الطبيعـة بكل مـا فيها من تعقـد، والقدرة العجيبـة على ابتكار آليات تيسر له استثمار معارفه، ظلت هي وحدها أساس الأمل الذي تشبث به مهما كان واهيا.

إذا كان انســان مثل ويلز لـه نزعته الانســانية المشبوبـة والعقلانيـة قد تقـوض ايمانه فليس لنـا أن ندهش إذ نجـد من هم دونه قـدرا عاجـزين عن

الصمود إزاء منـاخ اليأس الذي خيم على العـالم الغربي خلال حقبـة ما بين الحربين العالميتين، ويتجلى سقوط الـوهم في فنون الرسم والموسيقى والأدب. نلمس ذلك واضحـا في كل مكان في العالم الغربي. وقد جسدت هذه الأعمال من المشاعر والتعبيرات الكآبـة والهرب من الواقع الاجتماعي والتاريخي الى عالم من المشاعر والتعبيرات الذاتية المليء بـالخوف والانطوائية. ونلحظ أن الحياة الفكرية، خارج ساحة العلم، سارت في الدرب نفسه الذي سلكته الحياة الفنية تقريبا وان أبدت قدرا اكبر من المهارة الابداعية والصلابة، ونزع الفكر الديني عن الالـهيات والفكر الفلسفي وعلم الاجتماع الى الانـزواء في اطار المشكلات التقنية التي تتسم بتعقـد مهني فريد ولكنها ذات أهميـة اجتماعية محدودة. وكف المشتغلـون بهذه العلوم عن تعليـم العامـة من النسـاء والرجـال وعن تنشيط فكرهم ناهيك عن تعزيز ثقتهم وايمانهم.

وعانى التـاريخ وفلسفة التـاريخ من هذا المنـاخ، مناخ الانحـلال الثقافي والانحســار المهني. ذلك لأن العاملين في هـذا الحقل، كما يحدث في الكثير من المبـاحث الفكريـة الأخرى، عمـدوا إلى تضييق حدود بـؤرة اهتمامهم بحيث تقتصر على مجالات البحث شـديدة التخصص. وانسحب اكثـر المؤرخين من ساحة الثقافة العامة بغية الحفاظ على المبحث الأكاديمي عند أعلى مستوى له. وتركوا معنى التاريخ وهدفه إلى الفلاسفة المحترفين، وأنفقوا ساعات تفرغهم ليمزقـوا إربا أي دراسة بلغ الحمق بصـاحبها أنه حـاول أن يسبغ فيها على قصة البشرية معنـى وغرضا، فان كتابـا ومؤلفين مثل هـ.جـ.ويلز وأرنولد توينبي على ما بينهـم من تباين في الفكر والنظرة، تعـرضت اعمالهم للافساد والتشويه بمهـارة فائقة. وشاعـت أخطاء فاحشة في الـدراسات والأغلاط في التأويـلات، وسقطت المعـاني، وفترت العـزائم. وقليلـون هم المؤرخـون الأكاديميون الذين اعتصموا ببسـاتينهم الصغيرة يفلحونها، وأخذتهم العزة ولم يشعروا بأي ضعـة ازاء أولئك الذين اتخذوا هدفا لهم استئنـاس البرية. والنتيجة ساد منـاخ من التشوش الفوضوي نظرة الانسان الغـربي وموقفه

من ماضيه.

ومنذ مائة عام، ومع أول فيض من الاكتشافات الأثرية أحس الباحثون بقدر اكبر من الثقة، إذ بدا تاريخ البشرية في نظر الأغلبية يؤكد وجود قانون واضح صريح للتقدم الانساني، ولم يكن الماضي سوى معبر الى المستقبل. وأول من ألمح إلى ذلك فلاسفة الحقبة الأخيرة من عصر النهضة - بودان في فرنسا، وبيكون في انجلترا - وأضحت فكرة التقدم بنداً من بنود عقيدة مشتركة وايمانا التزم به عصر التنوير، ولم يعد معنى التقدم قاصرا على التقدم التقني الذي كان محور فكر بيكون، بل يعني كذلك التقدم المعنوي والخلقي أيضا. وقبيل القرن التاسع عشر أثبت تاريخ الانسان للكثيرين من الباحثين ان ثمة تحسناً طرأ على طبيعة الانسان ذاته وكذا على الأدوات والأسلحة التي يستخدمها، ولكن هذا التفاؤل أو هذا الايمان بقدرة الانسان على السلوك العقلاني تقوضت دعائمه بفعل بعض الاكتشافات في مجال العلم الطبيعي والتاريخ ونتيجة لبعض الأحداث. ففي منتصف القرن العشرين برزت نوازع الانسان اللاعقلانية وبدت أقوى من قدراته الفكرية. وكشف فرويد وماركس زيف ما سمى سلوكاً عقلانيا سواء لدى الأفراد أم في المجتمع، وكذلك ما كشفته الحفريات عن تاريخ نشوء وانهيار الحضارات أكد على ما يبدو وجود نمط دوراني في حركة مصير الانسان مما أفاد خطأ أي فكرة عن التقدم المطرد، واستهوى هذا بطبيعة الحال الداعين إلى فكرة أن حضارة الغرب مآلها إلى انهيار محتوم. ولكن أكثر الشواهد اقناعا، وربما أكثرها تدميرا لثقة الانسان في المصير البشري، هو افتقاد الاحساس بأي مظهر لسيطرة الانسان على نفسه وهو الاحساس الذي تولد عن حربين عالميتين وثورات دموية. ولم يعد يؤمن بقوانين التقدم لحركة التاريخ سوى أولئك البشر أو تلك المجتمعات الذين رأوا أن الحياة تمضي وفق الطريق الذي رسموه لها، وأعني بهم الثوريين وأولهم الماركسيون. أما من عداهم فقد بدت لهم فرضية ردة حركة التاريخ وتراجعها هي وفرضية التقدم سواء - يقفان على قدم المساواة.

وكان هذا التحرر من الوهم في الغرب أمراً ملائماً للمؤرخين الأكاديميين، ذلك أنه خفف عنهم أقسى مشكلاتهم. فإذا كانوا من المؤمنين المتدينين فقد قنعوا بأن يتركوا المعنى النهائي للتاريخ لله، وإذا كانوا من العقلانيين فقد لاذوا اما بالحاجة إلى المزيد من المعرفة التاريخية أو بالمشكلات الفلسفية لموضوع هو بطبيعته خلو من ذات المعالجة الموضوعية التي أسبغت سلطة وثقة على البحث العلمي وركزوا أساسا على عملهم المهني. وكان هذا عملا ضروريا وعظيم الشأن على نحو فريد. إن الشيء الذي نادراً ما يسلم به القارىء العادي هو قصور المادة الواقعية المتاحة للمؤرخ منذ مائة عام، بل ومنذ خمسين عاما مضت. إذ نادرا ما كانت المحفوظات التاريخية «الأرشيف» ميسورة له، وكانت أكثر مستودعات السجلات غير مبوبة أو مصنفة، فضلا عن أن جميع الأحكام العامة عن شخص أو حدث أو عملية تاريخية هي في الغالب الأعم نوع من التخمين إن لم تكن تخمينا خالصا. وأمكن بعد جهد جهيد إلقاء الضوء على ملايين الوقائع، ثم ترتيبها ووضعها في سياقها على نحو مترابط منطقيا. وشاع التخصص، واستشرى مثلما يستشرى السرطان، وبرزت التفصيلات الدقيقة، ولكنها أخفت معالم قصة البشرية.

وبات من المستحيل على المؤرخ المحترف أن يغامر، عن ثقة، بالخروج عن اطار مجاله المباشر، وقد يكون هذا المجال واقعا دقيقا شديد الدقة – مثل اضراب عمال السكك الحديدية في اركانساس وميسوري عام ١٩٢١، أو أسماء الأماكن في روتلاند، روين في القرن السابع عشر. والتاريخ الشفوي عن بارونس، وفلسفة هنكار في رايمز. وهكذا أصبح من العسير للغاية على المؤرخ المحترف أن يصل عبر هذا إلى عقل الانسان العادي، أو أن يجعل موضوعه جزءاً من ثقافة انسانية. وبدت الصورة التاريخية العامة نتيجة النشاط الدؤوب الذي لم يتوقف عنه الملايين. وطبيعي أن البعض بذل محاولات للوصول إلى توليفة أو مركب لهذه الصورة العامة وظهرت الحاجة إلى محاولات لتدريب شباب المؤرخين المحترفين، أو الحاجة إلى نقل بعض

المعارف عن التــاريخ إلى طلاب المباحث العلمية الأخــرى. وأدى هذا إلى ظهور آراء متصــارعـــة عن فترات طـويلـــة، وهي آراء تلخص كـلا من الــوقـائع والتحليلات. وصدرت بين الحين والآخر مؤلفات تعكس هذه البراعة والحكمة حتى أصبحت جزءاً من الميراث الثقافي للغــرب. وحاول بعض المؤرخين، بدافع المال أو الشهــرة أو الجهـد الابداعــي أن يشركوا العـامــة معهم في معــارفهم وفهمهم عن الماضي.

ولكن الهوة بين المعرفة المهنية وبين التاريــخ عند الجماهير أخذت تتزايد وتتسع باطـراد. إذ أصبح التاريخ المهني أكثــر دقة وعمقــاً بينما ظل التاريخ للعامة أمراً تقريبياً ضحلاً.

وهذه السلسلة التي بين يدي القارىء هي محاولة منا لكي تعكس اتجاه حركة هذه العملية. وسوف يتولى كتابة كل مجلد منها مؤرخ محترف على أعلى درجــة من التميز التقني. بيـد أن هــذه المؤلفــات لن تكون في فــراغ، ذلك لأن السلسلة موضوعة على أساس أن تشكل معاً وحدة وغرضا. ولكن ربما يكون الأفضل أن نبدأ بالحديث عما لا تستهدفه.

انها ليست مرجعا، إذ لا توجـد سير وتواريخ حياة مختصرة ومقطعة عن الفراعنة أو أبــاطرة الصين أو البابوات، ولا توجد قــوائم بتواريخ المعارك، ولا تواريخ مختصرة عن فنون الــرسم والأدب والموسيقى. كما وأن هذه السلسلة لا تؤلف تــاريخا عاما شامــلا. ذلك أن جميع الأحداث الدقيقــة والحاسمة في تاريخ البشريــة قد لا تجد بالضرورة مكــانا لها. نعم، البعض منها لــه مكان، والبعض الآخر لا مكان له. وتتوفر بكثرة الأعمال المرجعية التي تلتزم الدقة في سرد الوقــائع بصورة أو بأخرى، ولا حاجــة بنا إلى تكرارهــا. وليس هدفي أن أضيف تصنيفــات جـديدة إلى مــا هــو قائم منهــا. كما وأنها ليست تــاريخاً «فلسفيا» ولا تــزعم السلسلة أنها ستميط اللثــام عن نمط متكرر في التــاريخ

سوف يفصح عن غـرضـه. ان الفلسفـة هي الأساس، وفيما عـدا الاستخدام اللغوي، خارج موضوع التاريخ مثلما هي خارج موضوع العلم. ونقول أخيرا ان هذه السلسلة لن تشمل كل المجتمعات الانســانية. والمعروف انه سيصدر منهـا مجلـدان مخصصــان عن روسيـا، ولن يصــدر أي كتـاب عن ألمانيـا. وستصدر دراسات عن تـاريخ الصين واليابان دون أندونيسيـا. وثمة كتاب عن اليهود كتبوه عن أنفسهم بينما لا يوجد كتاب عن الفرس. ومع هذا تحمل السلسلة عنوان «تـاريخ المجتمع البشري» وهو عنوان تبرزه أسبـاب معقولة جدا. إذ إن هذا التاريخ له فكرة رئيسية ووضع في الزمان.

والفكرة هي الأكثـر وضوحا والأكثر اغفالا، هي واضحـة لأن كل امرىء مدرك لها ابتـداء من القرويين المنعزلين مـن سكان الجزيرة النـائية الى المدن المكتظة بسكانها في العالم الغربي، وهي مهملـة لأن النهج الجديد الذي اتبعه المؤرخون المحترفون والغـربيون هو أن يشغلوا أنفسهم إمـا بالتاريخ المهني التفصيلي الذي لا يمكن أن تكون له فكرة رئيسية عامة أو بالجوانب الروحية والميتافيـزيقية لمصير الانســان والتي لا تدخل ضمن نطـاقه الميـز. ومن ثم يكون السؤال: ما هي الفكرة الرئيسية لسلسلة «تاريخ المجتمع البشري؟»: ان الوضع الـذي فيه الانســان الآن اسمى من وضعه في الماضي. ان ثمـة ثورتين عظيمتين ثورة العصر الحجري الحديث والثورة الصنـاعية – تمكن الانسان بفضلهما من أن يقيم مجتمعات واسعة شديدة التعقيد على نحو فريد حققت خلالها الأجيـال البشرية تقدمـا مذهلا فيما يختص بـالرفاهـة المادية، ثم ان الثـورة الثـانيـة، وهي الأهم ثـورة تهاوت فيها انماط الحيـاة القـديمـة ازاء متطلبات المجتمع الصناعي، كما وان الحياة في أحياء لندن ولاجوس وجاكرتا وريودي جانيرو وفلايفـوستك ستغلب عليها وشيكا القسمات المشتركة فيما بينها وتكون أكثـر من مظاهر الاختلاف، ومن ثم فإن هــذه هي اللحظة التي يتعين فيها ان نجري عملية تقييم شاملة ونستعرض كل ماحدث ونستكشف أسباب حـدوثه، وان نستعيـد مجتمعات الماضي بينما نحن لا نـزال على صلة

وثيقة بالكثير منها بحيث نشعر على نحو تلقائي بالضغوط والاحتياجات التي تفرضها انماط الحياة في تلك المجتمعات. بيد أنني على الرغم من ذلك آمل في أن أضفي احساسا بالوحدة من خلال المقدمات التي اعتزم كتابتها وأقدم بها كل كتاب من كتب السلسلة، وأعرف أن المؤلفين أنفسهم لن يشغلوا بالهم كثيرا بالفكرة الأساسية الحاكمة. وانما سيكون هدفهم اعادة بناء المجتمعات التي هم خبراء فيها. إذ سيكتشفون في وضوح تام بنية هذه المجتمعات .. الأساس الاقتصادي لها، وتنظيماتها الاجتماعية، وتطلعاتها، وثقافاتها، ودياناتها، وصراعاتها. وسوف يقدمون في الوقت ذاته احساسا بالوضع الذي كانت عليه بالنسبة لأولئك الذين عاشوا فيها ونظرتهم إليها. وسيكون كل كتاب عرضا مرجعاً معتمداً من حيث مادته؛ ومستقلا بذاته عن غيره في السلسلة. ومع هذا سيوفر الكتاب مع بقية كتب السلسلة رؤية عن كيفية تحول المجتمع ونموه منذ أن عمل الانسان فيه بالصيد ثم التقاط الثمار لغذائه وحتى عصره النووي الالكتروني. وما كان بالامكان ان يتحقق هذا إلا بفضل الاختيار الدقيق لخيرة الكتاب وأفضلهم. واستلزم هذا بطبيعة الحال أن يكونوا من بين أكثر الباحثين تميزا، ممن يتحلون بقدرة على الكتابة بأسلوب شيق للقارىء العام. واستلزم أيضا أن يكونوا ممن يتصفون بالحكمة فضلا عن التعاطف الثابت ازاء الاحتياجات الغريبة للناس، وأن يكونوا كذلك أصحاب فطنة، وأناة في الحكم، وتذوق للحياة واقبال عليها، هذا الاقبال الذي عزز حياة الناس العاديين، رجالاً ونساء، في أحلك الأزمنة، ولهذا فإن مؤلفي كتب هذه السلسلة هم مؤرخون أصحاب عاطفة وحكمة أو عقل وقلب معا.

ان المجتمعات البشرية شديدة التباين بقدر تباين الطبائع البشرية ومن ثم يمكن القول ان انتقاء هذه السلسلة هو بدرجة ما نوع من المختارات على أساس شخصي. ولعل شخصاً آخر صينيا أو روسيا أو هنديا أو افريقيا قد يختار سلسلة أخرى، بيد أننا غربيون ومن ثم نكتب لأبناء الغرب. والجدير بالذكر ان تغريب العالم بفضل التكنولوجيا الصناعية هو أحد الموضوعات

الرئيسية في هذه السلسلة. وان كل مجتمع وقع عليه الاختيار انما كان داخلا ضمن التيار الأساسي لهذا التطور أو ينتمي إلى ذلك المحيط البدائي الشاسع الذي انبثق عنه كل التاريخ. وأغفلنا بعض المجتمعات لأنها ستصور فقط، وعلى نحو غير واضح، المجتمعات التي تعرض لها السلسلة، وأغفلنا بعضها الآخر لأن تاريخها غير معروف جيدا بحيث يمكن للباحث أن يسبر أغوارها ويصل إلى رؤية واضحة عنها حسب النهج المتبع، وأغفلنا مجموعة ثالثة لأنها غير ذات شأن يذكر.

وهناك بطبيعة الحال قوى اجتماعية ذات شأن كبير للغاية - الاقطاع أو التحول التكنولوجي أو الدين على سبيل المثال - والتي صاغت في الوقت نفسه مجتمعات بشرية متباينة. ويمكن لنا أن نعرف الكثير بفضل الدراسة المقارنة لتأثير هذه القوى. بيد أنني رفضت هذا النهج ما أن نصل إلى مرحلة التاريخ المسجل أو الموثق. وسبب رفضي لهذا المنهج هو في رأيي أن البشر يدركون هذه القوى ولهم خبرتهم بها في مجتمعاتهم وان خبرة البشر هذه في المجتمع هي موضوع هذه السلسلة واهتمامها الأول.

أخيراً، قد لا نكون بحاجة إلى القول إن المجتمع ليس دائما مرادفا للدولة، ففي أوقات ما، وعلى نحو ما نجد عند اليهود، قد يفتقر المجتمع الى ارض ثابتة متعارف عليها. ولكن اليهود على الرغم من هذا يمثلون موضوعا رائعا ومتميزا لدراسة التكتلات الاجتماعية الطفيلية، وليس من المتصور اغفال هذا لأنهم يمثلون في أحسن الأوضاع، خبرة بشرية واسعة تكتلا اجتماعيا مزروعا في مجتمع غريب.

وثمة فكرة رئيسية تتعلق باطراد نمو سيطرة الانسان على بيئته، وهو موضوع اعتقد ان هذه السلسلة سوف توفيه حقه أيضا. والهدف هو استعادة قدر قليل من الثقة في قدرة الانسان ليس فقط على تحمل الكوارث المتكررة التي تلحق بوجوده بل والثقة أيضا في قدراته الفكرية. وقد لا نكون

بحاجة إلى القول بأن الكثير من عاداته، الفكرية والعاطفية، هي عادات وحشية. ولسنا بحاجة إلى التأكيد هنا على استمرار قدرته على فعل الشر. كذلك فإن نهمه لا يزال قويا الى حد كبير كما كان يوم ان بدأ يدب على الأرض. ومع هذا كله فإن المعجزات التي خلقها بفضل دهائه وبراعته تشكل الجانب الأكبر من حياتنا اليومية التي نرى أعاجيبها وكأنها امر عادي.

ان عبقرية الانسان - التي ترتكز على قدرته على الاستدلال العقلي - حققت انتصارات مذهلة على العالم المادي - وعلى مدى فترة قصيرة من الزمان على نحو يثير الدهشة. وان هذه الانتصارات، التي كثيرا ما نتجاوزها وكثيرا ما نقلل من شأنها، حرى بها أن تغرس فينا تفاؤلا حذرا. وان هذه البراعة العقلية يمكن ان تتجه، ان عاجلا أم آجلا، وعلى نحو قد يكون شاقا أليما وبطيئا، الى المشكلات الأصعب والمستعصية في حياة الانسان وأعني بها العلاقات الاجتماعية للبشر والعلاقات الشخصية. ولا أقول يجب أن تتجه فقط، بل ربما يتعين قبولها باعتبارها السبيل الأصوب لتنظيم حياة البشر. ان قصة تقدم الانسان على مدى الأحقاب والقرون، وعلى الرغم مما اعترضها من عثرات وما شهدته خلالها من كوارث، حري بها أن تعزز فينا الأمل والارادة.

ولكن يتعين علينا أن نشير اشارة تحذير هنا. ان تاريخ المجتمع البشري اذا ما نظرنا إلى تفصيلاته، غلبت عليه المأساة دون الأمل المشرق. وسوف توضح لنا هذه السلسلة كيف ان حياة الملايين من البشر المغمورين الذين عاشوا وماتوا كانت حياة اضناها البؤس والعوز والجوع والقسوة الوحشية، وقليلة تلك المجتمعات التي وفرت لذويها السلام. ولم يستتب الاستقرار لأكثر من بضع قرون، كما كان الرخاء وحتى عهد قريب جدا، ضربة حظ تنعم به أقلية محدودة. وكانت هناك مظاهر السلوى وليدة الاشباع، والسكينة الناجمة عن ممارسة الشعائر والطقوس، والأمل في مستقبل باسم، كل هذا خفف من وطأة الشعور بالمأساة في أغلب الأحيان، ولكن نادرا ما محا

آثار البؤس الذي خيم على الجميع باستثناء حفنة قليلة من البشر منذ بداية التاريخ، واخيرا تضخمت هذه الحفنة بنسبة كبيرة داخل عدد قليل من المجتمعات المحظوظة، ومما يثير الشفقة ان نلاحظ على مدى التاريخ البشري ان اغلبية الناس لم يجنوا غير الشوك والحسك في حياتهم. وان الاعتقاد بتقدم البشرية لا يتناقض مع الادراك الواضح لمأساة حياة الأفراد، بل ومأساة العصور والثقافات والمجتمعات. ان الخسران والهزيمة هما أيضا موضوعان رئيسيان في هذه السلسلة، شأنهما شأن التقدم والأمل.

شهد العالم فيما بين عامي ١٤٥٠ و١٧٠٠ واحدة من أعظم التحولات في القوة والاقتصاد العالميين. إذ قبل هذا التاريخ لم يكن لأوروبا الغربية شأن يذكر في شئون العالم. والمعروف انه خلال القرنين الأولين الميلاديين: فقط لاحت امكانية بزوغ امبراطورية الصين، وبوسعها ان تضم الأراضي الغربية. ولكن خيم على أوروبا ظلام حقيقي إبان الفوضى السياسية التي أعقبت سقوط الامبراطورية الرومانية. حقا ان قيمتها كمصدر للغة الرئيسية أضفى - عليها مكانة رفيعة إلى حد ما في نظر بلدان البحر المتوسط،. كما وان هيكلها الاجتماعي الذي كان مهيأ جزئيا من أجل الحرب، منحها طاقة كبيرة على ممارسة العنف والتوسع. وهذا واقع تشهد على صدقه الحروب الصليبية. ولعل ثمة شاهدا آخر اكثر وضوحاً هو حرب المائة عام بين بريطانيا وفرنسا التي اكدت في جلاء تماثل نوازع تدمير الذات في أوروبا الغربية خلال العصر الوسيط. بيد ان هذه الطاقة على الاعداد للحرب تأسيسا على قاعدة شبه قومية، والتي كانت قسمة مميزة للحقبة الأخيرة من العصور الوسطى، كانت عاملا هاما في نهضة أوروبا الغربية لكي تصل الى مكانة تهيىء لها السيادة على العالم.

وربما لم يشهد التاريخ قبل ذلك مجتمعات يغلب عليها الطابع الزراعي وسادتها الروح العسكرية الى حد مبالغ فيه، وأصبح الشغل الشاغل لجميع الحكومات هو تطوير قواتها المسلحة. وطبيعي ان هذا الاهتمام كان في بداية

الأمر محاولات تجريبية خاضعة للصدفة، غير أن القوة الدافعة له تزايدت مع تزايد مظاهر تعقد الحروب سواء من حيث القوة البشرية أو المواد والمعدات. ذلك ان المدفعية والسفن الحربية المزودة بالمدافع، وما اقتضاه هذا من دفاعات وتحصين للموانىء والمدن الاستراتيجية، لم تستلزم فقط حشد أكبر قدر من الموارد المالية والتقنية للدولة، التي تحولت هي الأخرى الى ادارة اشد تعقيدا من الادارات التي عرفها الغرب من قبل، بل استلزم أيضا المزيد من التحكم في طاقات البشر سواء عن طريق القوانين الاجبارية أو الانتماء من خلال التعبئة الايديولوجية. ولم يكن التوسع الكبير لبناء الامبراطورية امرا ممكنا الا بعد ان تحققت هذه العملية.

وطبيعي ان هذا ليس سوى رافد واحد بين كم هائل من الأسباب التي قادت الى الثورة العالمية في القرنين السادس عشر والسابع عشر، بيد أنه رافد حيوي. وارتكزت أوروبا على رادع القوة في سبيل هيمنتها على العالم. وحسمت أمورها اعتمادا على القتل وسفك الدماء. ولكن الأسباب التي أفضت إلى القتال كانت معقدة ومتنوعة – النهم والحماس الديني والفضول والغيرة بل ومحاكاة الآخرين، وربما حاجة الانسان البيولوجية الى الاندفاع في تهور نحو استعمار الأراضي الفضاء التي كانت يوما حاجزا جغرافيا وقد تحطم. وتداخلت كل هذه الأسباب وكثير غيرها، ودفعت كلا من أسبانيا وفرنسا وبريطانيا العظمى الى التوسع فيما وراء البحار. وكان توسع الامبراطورية الهولندية وثيق الصلة بتوسع البندقية في مطلع العصر الوسيط حيث كانت الدوافع التجارية واضحة دائما ولكن فعالية التوسع الهولندي لم ترتكز فقط على الشهرة التجارية والقوة البحرية، بل ارتكزت أيضا على طبيعة المجتمع الهولندي ذاته.

وتدين المقاطعات المتحدة بنشأتها إلى الحرب، ذلك أن الحرب هي التي حددت وحسمت حدودها، وساعدت على انشاء الهيكل الاجتماعي لمدنها، وأعطتها قدرا كبيرا من زخمها وقوتها الدافعة الى التوسع التجاري. وسرعان

ما اكتسى التمرد ضد الحكم الاسباني بمناخ الحروب الصليبية الدينية وهو التمرد الذي بدأ أساسا من أجل «الحريات» المدينية والطبقية التقليدية والتي كان الناس في العصور الوسطى مصممين على الكفاح من أجلها. وكان أشد المناهضين لأسبانيا قسوة هم بطبيعة الحال الكالفينون المتفانون لعقيدتهم، الذين سارعوا إلى تولي مسئولية شمال هولندا بغية تشديد مقاومتهم. وكشفوا عن براعة في حربهم ليس فقط بسبب قوة الأسلحة بل وأيضا بسبب التوسع التجاري العدواني. وأوقفوا تجارة نهر شلت Schedt حيثما استطاعوا واحتكروا لأنفسهم منطقة البلطيق. ومع اطراد الحرب انضم اليهم رجال من الجنوب يضارعونهم اخلاصا وتفانيا، خاصة أهالي انتويرب Antwerp الذين استهوتهم الحياة التجارية التي انتشرت سريعا في امستردام، كما استهوتهم حرية العبادة والفرص الاجتماعية المتاحة لأبناء عقيدتهم. وهكذا أصبحت التجارة أداة من أجل اطراد الحياة، وفرعا من فروع الحرب، وقوة جذب لمن جمعتهم رؤية واحدة ازاء العقيدة الدينية والمهنية والوضع الاجتماعي. وكان مؤسسو الشركة الهولندية في غرب الهند من كبار المؤمنين بالمذهب الكالفني، الذين تراودهم نزعة تدمير القوة الاسبانية. وخلال العقود الأولى من عمر الجمهورية الهولندية غلب مناخ الحروب الصليبية على الكثير من انشطتها التجارية. حقا كان اله الحرب هو القابلة التي تلقفت الجمهورية الهولندية. وكان اله الحرب ضنينا فيما أتاحه من فرص لامستردام التي بدا نموها المادي والتجاري والفكري أشبه بمعجزة في نظر معاصريها. واصطلحت العقيدة الدينية للأقلية والعدوان التجارى من جانب القلة علاوة على النزعة الوطنية المدينية الحادة، وأدوا جميعا من خلال الحرب إلى خلق دولة وأمة لم يكن العرق ولا اللغة ولا الثقافة بل ولا الجغرافيا قد هيأوا لها استعدادا كافيا.

وأثبت الهولنديون أنهم واقعيون متميزون بعد أن صهرتهم بوتقة الحرب، وهي حرب اتسمت بوحشية شرسة وامتدت زمنا طويلا، كأنها بلا نهاية. وعلى الرغم من أن التجار الكالفنيين حفزوهم الى شن حرب من أجل

غـزو البرازيل الا ان هذا الاتجاه العنيـد سرعـان ما خبـا واضمحل. وأصبح شعار هـولندا «تجارة لا حـربا صليبيـة»، وغدت التجـارة مع الكـاثوليكيين الرومـان عملا طيبـا شأن أي عمل مع غيرهم ولم يعد يستهـوى أحدا، حتى أكثر الناس حماسـا، تدمير أسبانيا أو القضـاء على الكاثوليكية الـرومانية في عقر دارها، بل ولا حتى اعادة فتح المقاطعـات الجنوبية المنفصلة. وتأكد لدى الهولنديين ان كلمة السر هي الأمن وحريـة التجارة والتسامح طالما وأنها هي أساس الاستمرار. ومع هذا اضطر الهولنـديون الى خوض غمار حرب طوال الشطـر الأكبر من القـرن السـابع عشر. ودفعهم إلى الحرب منـافسـوهم التجاريون، وأولهم البريطانيـون ثم الفرنسيون. واستهلكت الحرب الجانب الأعظم من الناتج القومي لهولندا. وعانت من ذلك أكثر من أي بلد آخر في ذلك الـوقت. ويمكن القـول ان هـولندا كـان لـديها جيش كبير واسطـول ضخم بـالقيـاس إلى عـدد السكان، ولكن لم يكـن ضخما بالقـدر الكـافي للتصـدي للأعداء. وتبـدو هذه الحقيقة أكثر وضـوحا بالنسبة لبلـد صغير يقوم نظام الدولة فيه، بحكم وضعه الخاص، على عدم القيام بدور فعال. ولكن على الرغم من الحرب المتصلـة، والضرائب الباهظـة، لم يكن الهولنديـون ضحية حـالة الخوف من الأجانب التي يعاني منها البعض دون مبرر. ولعل السبب في عدم وجود نزعة قومية هستيرية عمياء هو طبيعة نظام الدولة في هولندا حيث كان من الطبيعي أن يتجه الولاء إلى المدينة أو المقاطعة وليس إلى أسرة أو إلى بلد.

وجوهـر الأمر، كما يوضح الاستاذ بـوكسر، أن المقاطعات المتحـدة كانت اتحادا كونفدراليا بين ولايات ومدن، تسـودها جميعا، وبدافع الحذر، حقوق وحريات دفاعية، واتحاد كونفدرالي قام فيه بيت آل أورانج House of Orange، سادة الـولايات بـالوراثة بـدور مشبوه. ولولا اسهـاماتهم الماليـة الضخمة لفـرضت امسترادام نوعـا من السياسـة الموحدة لتحـد من فوضى المصـالح الفردية، ولسقطت زعامتهم تدريجيا مع الزمن. ولقد شهد القرن السابع عشر زيادة في مـدة النظام الأوليجاركي في جميع المقاطعـات السبع في المدن كبيرها

وصغيرها، ومع زوال الخطر الخارجي وهزيمة لويس الرابع عشر في حرب الخلافة على أسبانيا، انتقل المجتمع الهولندي عن قناعة الى حالة الكمون تلك، وأحست البرجوازية بسعادة ذاتية، وهي السعادة التي حرمتها منها خلال القرن السابع عشر الأخطار الخارجية التي كانت تتهددها. ولم يتخلص الهولنديون كدولة من رباطهم مع ماضيهم في العصر الوسيط. انهم لم يعملوا، كما عمل منافسوهم التجاريون الكبار، على انشاء نظام دولة شديدة المركزية قادرة على اتخاذ اجراء حاسم وسري وسريع. وهذا هو السبب في أن كثيرين من المؤرخين الهولنديين رأوا في التوسع السريع للسلطة الهولندية فيما بين ١٥٨٠–١٦٤٠ معجزة. ان المعجزة تتمثل في أن الهولنديين استطاعوا أن يجيشوا الجيوش والأساطيل الضخمة، وأن يدفعوا أجور هذه الجيوش والأساطيل من وعاء آخر غير وعاء الضريبة على الرغم من المنافسة الشديدة بين الدولة وبين المدن، وأيضا على الرغم من الحقوق والامتيازات الراسخة التي كانت بمثابة عقبة دائما في الطريق. وقد تأتى لهم هذا أساساً بفضل تفاني الأوليجاركيات الكالفنية التي كانت تملك حسا قويا وحيويا بمصيرهم كطبقة وأمة معا.

لقد طبعوا المجتمع الهولندي وبصورة قوية لا تمحى بالسمات الشخصية المميزة لطبقتهم. وتصور بوضوح لوحات رمبرانت أو هالز وجوههم الحذرة الحكيمة الراضية في غير تفاخر، وتخفي القليل من حوافزهم غير الواعية، ولكنها تعبر في بلاغة وجلاء عن طابع الرصانة والتفاني والتضحية بالحياة، وإن واجهات قصورهم الأنيقة على طول كيزير جراتث وهرينجراتث في امستردام والتي تبدو في أناقتها جليلة متحفظة انما تنم عن وحدة وترابط أجيال البرجوازية في فكرها وسعيها – هذا المزيج من العمل الشاق، والمخاطرة المحسوبة والانغماس الحذر في الملذات. ويحدث كل هذا دون تفاخر أو غرور أو مباهاة وقد أصبح طابعا أساسيا مميزا للشخصية الهولندية. وتجسد حياتهم الحذرة شبه المنعزلة، كبرياء الاعتزاز بالنفس الذي

جعلهم يتوحدون مع مدنهم التي عاشوا فيها جيلا بعد جيل وكافأتهم بأن منحتهم سلطة ومناصب أسمية.

وكم كان يسيرا ان يتحول هذا المجتمع الى مجتمع منافق فاضح فاسد، لا يبالي بالطموحات، غارق في ملذاته منصرف عن الاصلاح أو التغيير. والحقيقة أنه قبيل القرن الثامن عشر كاد أن يخيم هذا المصير على هولندا. غير أن هذه النوازع في القرن السابع عشر، وعلى الرغم من اطرادها، لم تسيطر على سكان الشمال في هولندا الذين كانوا يعيشون بدورهم على حافة الهاوية حتى كادوا أن يقعوا فريسة شلل اجتماعي تام. وانقذوا أنفسهم المرة تلو المرة من الهزيمة الكاملة بفضل ما يتحلون به من شجاعة وتضحية بالنفس، وكسر الحواجز التي تفصلهم وفتح خزائنهم للتصدي للفرنسيين. وكانت قبضتهم واهية في الغالب الأعم في مراكزهم الموجودة في الخارج سواء في أوروبا أم في شرق وغرب الهند فيما عدا جاوة ومولوكا. وتزايد ايمان الهولنديين بأن الثروة دوّارة، وألفوا الاعتقاد بأن ثروتهم عرضة للضياع هباء في أي لحظة. لقد فقدوا موقعهم في فورموزا، وتم طردهم من البرازيل، وألقى بهم البريطانيون خارج نيويورك. وكانت التجارة في المحيطات نوعا من المقامرة، إما أرباحا ضخمة أو خسائر فادحة. وسادت الحياة الهولندية إبان الأيام الأولى للجمهورية حالة حمى واندفاع، وتفجر هذا بطرق عديدة غريبة — هوس خيالي من أجل بصل زهرة التيوليب أو شغف مماثل بالخزف الصيني، والاندفاع مرارا وتكرارا نحو المضاربات المزمنة في بورصة امستردام.

وانطوت سياستهم كذلك على عنصر فظ غير حاسم يمكن أن يؤدي، كما أدى بالفعل، إلى ثورات هزت دعائم الأوليجاركيات السائدة وان لم تطح بها تماما، ان الصفاء الذي يتجلى في أغلب الأعمال الفنية الهولندية، والجمال والنظام في مدن هولندا هي مظهر خادع بمعنى من المعاني، يحكي صورة عالم مستقر نادرا ما عرفته المقاطعات المتحدة إبان القرن الأول من وجودها. وظل الشك في حاجاتها إلى المضاربة — اقتصاديا وسياسيا ودينيا وفكريا —

عاملاً قائماً في الحياة الهولندية حتى نهاية القرن السابع عشر، وربما كان هذا عاملا من العوامل التي ساعدت على تعزيز ظاهرة التسامح الواسعة التي سادت شمال هولندا فيما يتعلق بالدين والسياسة ومن ثم جعل منها ملاذا لديكارت، ومأوى لسبينوزا، وحافزا قويا حفز جون لوك على نشر كتاباته.

كان المجتمع الهولندي منغمسا في الواقع بعمق ولعله كان أكثر انغماسا من أي مجتمع آخر في عصره. ولم يكن لدى حكام المقاطعات ولا ارستقراطية هولندا أي تصورات وهمية عن العظمة الاقطاعية كما لم تلههم أبهة الكنيسة عن السعي اليومي التماسا للربح والسلطة. وعلى النقيض من انجلترا لم تخضع مشكلات هولندا السياسية ولا تقسيماتها الاجتماعية لأي أوهام تتعلق بالماضي. العالم الواقعي هو عالم هولندا. لقد نما لدى هولندا حس بالواقع العقلي بفضل طبيعة موقفها الاستراتيجي المحفوف بالأخطار وبسبب طبيعة نشاطها الاقتصادي. وتأكد هذا الحس وازداد قوة بسبب المشكلات الاجتماعية الناجمة عن النمو السريع لحياة الحضر، وبسبب تركز عدد كبير من السكان في مساحة صغيرة وضنينة من الأرض، وأكثر أجزاء هذه الأرض تأثيرا وفعالية، وهو الأرض الواقعة بين مصب نهر الراين - والشاطىء الجنوبي لمنطقة زويدر زي Zuider Zee لا يزال أقلها مساحة. ويمكن القول إن هذه المساحة، وفقا لمعايير القرن السابع عشر كانت مكتظة بالسكان مما أدى إلى نشوء مشكلات تتعلق بالتنظيم الاجتماعي - نمو المدن والرفاهية والنقل والغذاء مما كان يقتضي قدرا من الذكاء في مواجهتها، ومراقبة يقظة لمشكلات جديدة بطبيعتها مثلما كانت أكثر الحلول الهولندية، وان روعة وجمال حياة المدن الهولندية وما اتسمت به من نظام ونظافة أسر لب أوروبا. ولقد سحرت بوجه خاص عددا من رجالات الفكر الانجليز من أمثال سير وليام بيتي، وجون لوك، وسير وليام تمبل الذين عنوا بالمشكلات العملية للحياة الاجتماعية. ونعرف أن البندقية هي الوحيدة التي كان لها مثل هذا النجاح. بل ان مدينتي لومباردي وتوسكاني اللتين انجبتا مدينة برجوازية

تضارع مدن هولندا من حيث تعقد البنـاء ووفرة الثراء وجودة النظام اخفقتا في انجاز مـا حققته مدن هـولندا. إذ عجزت مـدن البندقيـة عن أن تتجرد من بقايا السيطرة الاقطاعية ومن ثم كـان استقرارها يتهدده دائما نشوب حرب أهلية، كذلك فإن الأوليجاركيـة التجارية في هذه المدن لم تنجح على الاطلاق في تأمين سيطرة مطلقة للحكومة. وطبيعـي ان المقاطعات المتحدة، في الريف وفي المدن كانت تعاني، كما أشار الاستاذ بـوكسر، من حالة فقر غير محتمل ، غير أن مستوى الوفرة الاجتماعية، كما تعبر عنه مظـاهر الراحة في الحياة المدنية كان أفضـل كثيرا من أي مستوى آخـر عرفتـه أوروبا آنذاك. وجعلهـم هذا، بالاضـافة إلى مظاهر الثـراء الواضحة التي يتمتع بها أثـرياء هولندا، هـدفا لحسـد واعجاب جميع البلـدان الأخـرى في شمال وغرب أوروبـا، وخاصـة بريطانيا.

ان علاقات الترابط بين الفن والمجتمع لا تزال غامضة، ولكن يبدو أن ثمة قدرا من الحتمية فيما يتعلق بازدهار الفن الهولندي في القرن السابع عشر. ان هـولندا لها تـراث عريق في الانجـاز الفني كعراقـة الفن في ايطاليـا. ولم يكن شمال هولنـدا وحده هـو صاحب الهيمنة واليـد الطولى في الـرسم خلال تلك الحقبة وفي تلك المنطقـة ذلك أن روبنز وفـان ديك واتباعهما أحـرزوا امتيازا وتفوقا كفنانين هولنديين إبان الاحتـلال الاسباني، وهو ما عجز عن مجاراته جيرانهم الشماليون في العقـود الأولى من القرن السـابع عشر. لقد كـان الفن الهولندي أكثر قتامة وأعمق جذورا في الـواقع اليومي وهو ما نراه واضحا في رسـومـات رمبرانت للشيـوخ من الـرجـال والنسـاء الـذين حنكتهم الخبرة وأضناهم الزمان، أو المناظرة الطبيعية لكيوب أو الشواطىء عند فيرمر. ولكن مع العقـد الثامـن من القرن السـابع غشر سـار الفن الهولنـدي حثيثا نحـو الانحـلال. ولا يمكن للمـرء أن ينسى كيـف أن أغلبيـة الفنـانين الهولنـديين ووجهوا بالرفض من جانب معاصريهم. فقد مات هالز في بيت متواضع فقير، وافلس رمبرانت، وعمل ستين حارس فندق صغير ليستعين بذلك على الحياة،

واضطر فرمير الى رهن رسوماته ليحصل على الخبز. وفي القرن السابع عشر كانت المجتمعات الارستقراطية أكثر ثقة بذوقها الفني من مواطني الطبقة المتوسطة في امستردام وهارلم، كما وأن فرنسا، على نحو ما يشير الاستاذ جيل عن حق، والتي توقفت جيوشها عند خط المياه Water Line، رأت روحها تغمر مجال الفن في أراضي هولندا التي لم تقهر.

وعكس ذلك كان صحيحا بالنسبة لموضوع المعرفة، ذلك أن التأمل الفكري والفلسفي الذي كان في جوهره معاديا لنظم الحكم المطلقة، ازدهر في المناخ الحر الذي نعمت به المقاطعات المتحدة على نحو ما حدث في بريطانيا، ان هولندا لم تكن فقط ملاذا لكبار الفلاسفة التأمليين من أمثال ديكارت أو رجال التشريع من أمثال بيتر بابل وكذلك بالنسبة للفيلسوف جون لوك لفترة من الزمن بل انها أنجبت أيضاً علماء ومفكرين من المواطنين ذوي مكانة دولية عالية أمثال سبينوزا وهيجنز Huygens وليفهويك Leeuwenhoek وعلى الرغم مما حققته هولندا من انجازات جيدة في مجال العلم الا انها لم تتخذ اجراء من أجل وضع مؤسسات تعزز قواعده أو تدعم تطوره. بينما على الرغم من أن لويس الرابع عشر استهجن الكثير من جوانب الفلسفة التأملية إلا أنه أدرك القيمة الكامنة للعلم وأنشأ أكاديمية العلماء لدعم تقدم العلم. ولم ينشىء الهولنديون أكاديميات للعلوم، كما لم يفعل ذلك بيت آل أورانج. ولكن وعلى الرغم من عدم توفر مساندة عامة إلا أن إسهامات هولندا في مجال العلم والفلسفة بل وأيضا في مجال مباحث علمية فرعية أخرى – مثل الهيدروليكا والزراعة والجغرافيا والقانون وغيرها – كانت اسهامات مذهلة بالنظر إلى اجمالي السكان. ووجد العلم والفلسفة حافزا لهما في الاتساع العظيم لمجال المعرفة التي يسرتها الاستكشافات الجغرافية. وحققت التجارة عبر المحيطات ما هو أكثر من الربح، إذ وسعت من آفاق معارف العقل.

كم كانت التجارة عبر المحيطات غنية عظيمة النفع لهولندا، مثيرة للعقل والفكر والخيال أيضا كما كانت حافزة للعلم والتكنولوجيا. بيد أننا نخطىء

اذا ما تسرعنا في الحكم وبالغنا في قيمتها وأثرها ودورها بالنسبة للمعجزة الهولندية في القرن السابع عشر. ويعود بنا الاستاذ بوكسر المرة بعد الأخرى الى تلك العوامل التي كان لها دورها هي الأخرى – تجارة بحر البلطيق الغنية التي كانت لهولندا الهيمنة عليها، وكذلك بطبيعة الحال التجارة الأوروبية المزدهرة التي اتخذت الانهار وسيلة لها وسيطرت عليها هولندا. ويوضح لنا أيضا ان كثافة السكان في ذاتها حفزت كلا من الزراعة والصناعات الحرفية ومن ثم خلقت سوقا رائجة بين أبناء الطبقة المتوسطة التي كانت آخذة في التضخم وربما لو أن جميع أراضي هولندا كانت قد اتحدت لشهدت هولندا جميع مراحل التقدم الاقتصادي السريع الأخرى في مرحلة باكرة قبل بريطانيا. ان الفحم والصلب في بلجيكا والطاقة المولّدة من مساقط المياه التي كانت ميسورة في أردينز Ardennes كان بإمكانها جميعها أن توفر العناصر الجوهرية الأساسية لثورة صناعية ولكن كان الهولنديون يفتقرون اليها. وحيث ان هولندا كانت خالية من كل مظاهر الصناعة الثقيلة فيما عدا بناء السفن، لذلك ظلت الصناعة فيها مرتكزة على الصناعات الحرفية. ومع تباطؤ سرعة حركة التوسع التجاري في هولندا، اتجهت حركة التنمية الاقتصادية الى خارج البلاد نحو الاستثمار وتصدير رأس المال بدلا من التقدم في اتجاه التنمية الصناعية. وترتب على هذا ان المجتمع الهولندي بعد عام ١٦٥٠، تغير ببطء شديد وغلب على هيكله طابع الثبات الملحوظ. وطبيعي ان المجتمع الثابت يؤكد بوضعه هذا انه مجتمع عادي مبتذل. وبعد عام ١٧٠٠ لم تعد هولندا تسهم إلا بالنزر اليسير في حضارة أوروبا. وإذا الجمال الرائع لمدنها الطافية على سطح الماء التي بلغت أوج الحداثة والفعالية في القرن السابع عشر قد اكتسى بطابع العصر. وإذا بنا ازاء بلد بغير تاريخ يعود ليعيش في الماضي.

جـ. هـ. بلومب

الباب الأول

حرب الثمانين عاما
ونشوء أمة

في العاشر من يونيو ١٦٤٨ أرسل فرنسسكو دي سوسا كوتينو، سفير البرتغال في لاهاي، برقية إلى سيده الملك معلنا ان هولندا فرغت توا من الاحتفال بتوقيع معاهدة السلام في مونستر بين مبعوثيها ومبعوثي الملك فيليب الرابع ملك اسبانيا وقال «اقتصر نداء السلام هنا على قراءة بنود المعاهدة في المحكمة العليا في الساعة العاشرة من صباح الخامس من الشهر الجاري – ووقع الاختيار على هذا اليوم والساعة لأنه في مثل هذا اليوم والوقت منذ ثمانين عاما مضت تم اعدام كونت اجونت وكونت هورن على يد دوق ألفا في بروكسل. وشاءت المقاطعات ان تستهل عهد حريتها في اليوم نفسه والوقت الذي مات فيهما هذان السيدان دفاعا عنهما. وبدا واضحا ان سوسا كوتينو تأثر للمعنى الذي استهدفه من تحديد الزمان حكام المقاطعات المتحدة في هولندا الحرة لهذه المناسبة التاريخية، ذلك لأنه عاد وأكد عزمهم وتصميمهم على اختيار هذا التاريخ في برقية أخرى أرسلها بعد خمسة أيام إلى نظيره في باريس، وبذل أقصى ما في جهده، كوطني برتغالي، للحيلولة دون توقيع المعاهدة، التي اطلقت الآن احدى يدي اسبانيا، العدو التقليدي للبرتغال، للتعامل معها بينما اليد الأخرى لا تزال مشغولة بالحرب ضد فرنسا. وأرسل تقريرا، أفاد فيه، عن صواب، ان معاهدة مونستر أبعد ما تكون عن أن تصادف ترحيبا عاما من سكان المقاطعات المتحدة المزعومة. واختتم برقيته الثانية بملاحظة فلسفية اذ قال «ان الله يرفع ويحط قدر البشر لحكمة لا يعلمونها، وعادة ما يتجهون إلى عكس السبيل المتوقعة. وسوف يشهد الأحياء الكثير من التحولات التي سوف تجرى خلال فترة قصيرة.

لم تكن الأعوام الثمانون بالفترة القصيرة بالقياس إلى متوسط أعمار الناس في تلك الأيام، إذ كان هذا المتوسط ما بين ٣٠ و٣٢ عاما في أغلب بلدان أوروبا وان القليلين من شباب هولندا في يونيو ١٥٦٨ هم الذين امتد بهم العمر ليشهدوا اليوم الذي وصفه سوسا كوتينو. ولكن ما كان لنا أن نجد مواطنا عاقلا في هولندا أو اسبانيا ممن هم على قيد الحياة في عام ١٦٤٨ وينكر أن الأعوام الثمانين السابقة كانت أيام تحولات وتقلبات لم يسبق لها مثيل. ففي عام ١٥٦٨ شكل الهولنديون تكتلات مركبة من ولايات ومدن يتحدث أهلها اللغة الفلمنكية أو الفرنسية. وشكلت معا اتحادا غير محكم الروابط يضم سبع عشرة مقاطعة تحت لواء ملك اسبانيا هابسبرج الذي امتدت أملاكه من جزر فريزيان في بحر الشمال الى الفلبين في بحر الصين. ومن المسلم به ان المؤمنين بمذاهب اللوثرية ودعاة مذهب اعادة التعمير Ana-baptism والكالفنية وغيرها من المذاهب البروتستانتية المارقة قد تدفقوا بكثافة الى هولندا على نحو ما تشهد بذلك اضطرابات دعاة تحطيم الايقونات من المذاهب الاصلاحية التجديدية في عام ١٥٦٦ والذين نهبوا الكنائس وحطموا الأيقونات وأساءوا معاملة القساوسة. غير أن اغلبية الناس كانوا لا يزالون على المذهب الكاثوليكي الروماني، بينما كان البروتستانتيون أقلية في صورة جماعات متناثرة في طول البلاد وعرضها. وكانوا في مقاطعات الشمال أقل كثيرا مما هم في الجنوب. واستطاع دوق ألفا أن يهزم بسهولة (في ٢١ يوليو ١٥٦٨) قوات الاحتياط التي استنفرها وليام ولويس من آل أورانج في أول محاولة للمقاومة المسلحة ضد الحكم الاسباني والاضطهاد الديني. ولم تعد تلوح في الأفق فرصة أخرى كبيرة يمكن فيها لهؤلاء المتمردين المحبطين المفككين ان يتحدوا اسبانيا ثانية دون مساعدة فعالة من انجلترا أو فرنسا. أما نبلاء شعب الفلاندر أو مقاطعة الولون ممن كان يمكن أن تعقد عليهم الآمال ليكونوا زعماء ثورة ناجحة فإن منهم من مات أو أودع السجن أو هرب أو قتله الخوف. وكانت مقاطعة انتويرب، من الناحية الاقتصادية هي مركز التجارة والتمويل دون منازع لأوروبا بشمال الألب وبيرينيس. وعلى الرغم

من أن امستردام كانت المدينة الرائدة والمركز الملاحي في شمال هولندا، وحققت ازدهارا مطردا من خلال عمليات الشحن التجاري الى منطقة البلطيق وفرنسا وشبه جزيرة ايبريا إلا أنها لم يكن بإمكانها ان تكون المنافس، ناهيك عن أن تكون البديل لمقاطعة انتويرب كمركز تجاري رئيسي للعالم الغربي.

وبعد ذلك بثمانين عاما تغيرت الصورة تماما. ذلك ان المقاطعات المتحدة السبع للأراضي المنخفضة الحرة باتت متمايزة تماما عن جاراتها العشر الشمالية وهي الأراضي التي ظلت على ولائها - أو أعيد فتحها - للتاج الأسباني والكنيسة الرومانية. ولم تؤمن المقاطعات الشمالية السبع استقلالها الكامل فحسب بل كانت سيدة امبراطورية بحرية وتجارية تفوقت على الامبراطورية البرتغالية، ونافست امبراطورية الأسبان، وامتدت من جزر التوابل في أندونيسيا الى شواطىء الكاريبي. وبدلا من ان تخضع الأراضي المنخفضة الحرة لحكم ملك هابسبورج أصبحت تخضع لحكم أوليجاركية محلية، وكان أول من تولى حكمها أمير ثري قوي النفوذ من آل أوراج وحفيد لاجىء مطارد في عام ١٥٦٨ والذي تزوج أميرة من الأسرة المالكة الانجليزية. ومع حلول عام ١٦٤٨ اختفت الكالفنية تماما من الأراضي المنخفضة الجنوبية مثلما اختفت جميع أشكال المذهب البروتستانتي الأخرى. وكانت الكالفانية هي المذهب الرسمي والعقيدة الوحيدة المقبولة في المقاطعات الشمالية السبع على الرغم من أن أنصارها الملتزمين بها كانوا أقل من ثلث السكان. والجدير بالذكر ان القوات المتعددة المشارب والأجناس التي سحقها دوق ألفا بسهولة شديدة في عام ١٥٦٨ نجحت هذه المرة بفضل جيش ممول بصورة حسنة وله قيادة متميزة ونظام جيد حتى أصبح ينظر اليه باعتباره الأول ولا ثاني له في أوروبا. وحاز الاسطول الهولندي الذي لم يكن له وجود في عام ١٥٦٨، شهرة بأنه أفضل أسطول في المحيط الأطلسي وذلك بفضل سلسلة من الانتصارات تمثلت ذروتها حين دمر م.هـ ترومب اسطول الأرمادا الاسباني في ٢١ أكتوبر ١٦٣٩. وأخيرا وليس آخرا لم تحل فقط

امستردام محل انترويب كعاصمة تجارية لأوروبا بل حققت أوج ازدهارها حتى غدا اسمها علما في اقصى بقاع العالم على نحو لم تشهده لندن أو باريس أو البندقية. وايا كان رأي سكان بعض المقاطعات الأخرى في معاهدة مونستر Munster إلا أن أوليجاركية المدن في هولندا كانوا راضين عنها كثيرا وعبروا عن ذلك بالاحتفالات البهيجة واطلاق الألعاب النارية واضاءة الشوارع والمدن ليلة الخامس من يونيو ١٦٤٨. ولم يفسد شعورهم هذا بالرضى حلول صيف مطير على غير العادة وما أدى اليه من تعفن القش في الحقول. إذ لم تكن الزراعة هي عصب ثروتهم آنذاك.

ان العوامل الدينية والعسكرية والجغرافية أدت جميعها أدوارها في الاسهام في نشوء الأمة الهولندية على مدى سنوات حرب الثمانين عاما لتكون أشد امبراطوريات عصرها قوة ومنعة. وان هذا الصراع الذي بدا من أول أمره غير متكافىء انتهى بأن قبل الملك الكاثوليكي الملتزم أكثر من غيره الشروط التي فرضها عليه بعد ذلك خصومه من المواطنين الذين انتفضوا فجأة ضده. والسبب الوحيد الغالب لنجاح الهولنديين هو التطور الاقتصادي اللافت للنظر. حقا للمقاطعتين البحريتين المعروفتين باسم هولندا وزيلاندة، أما الثروة الزراعية التي أصابتها المقاطعات الخمس الباقية فهي غير ذات بال عند المقارنة بنجاح المقاطعتين الأوليين. ونخص بالذكر الطفرة المفاجئة والدرامية للتجارة البحرية الهولندية منذ عام ١٥٩٠ وما بعده والتي تشكل نوعا من المباغتة غير المتوقعة لمعاصريها كما تشكل لغزا في نظر الأجيال التالية. ويقول في هذا الصدد سير جوزيا تشايلد Josiah Child في عام ١٦٦٩: «ان الزيادة المذهلة التي حققها الهولنديون في تجارتهم المحلية والخارجية وفي ثرواتهم والشحن البحري هي موضوع يحسدهم عليه أبناء عصرهم، ولعلها قد تكون اعجوبة في نظر أجيال المستقبل»(*) ولكن كيف تأتى

* الطبعة الرابعة – لندن. وقد صدرت الطبعة الأولى في عام ١٦٩٤

* J. Child, Anew Discourse of Trade .

لمقاطعتين من الدرجة الثانية ولا تثيران الحماس نسبيا في بحر الشمال ان تشكلا قلب الاتحاد الكونفيدرالي الذي أصبح أهم أمة بحرية في العالم خلال عمر جيل واحد؟

ان نهضة القوة البحرية الهولندية بدت في نظر الكثيرين أيامها وفيما بعد حدثا مثيرا ومباغتا، وقد نمت وارتكزت على أسس صلبة كانت موجودة منذ زمن طويل قبل عام ١٥٦٨. والأسباب الأساسية للنمو الاقتصادي الذي حققته المقاطعتان البحريتان نجد تفسيرا واضحا لها في عريضة قدمتها ولايات هولندا الى الامبراطور شارل الخامس بعد فترة وجيزة من اخضاعه للمقاطعات السبع للأراضي المنخفضة لسلطانه في عام ١٥٤٣ - وهو الحدث الذي يمثل ذروة عملية معقدة اشتملت على سياسة توحيد وثيق العرى والاستخدام الموسمي للقوة وما أصابته من ثروة.

من الصحيح تماما أن مقاطعة هولندا تمثل اقليماً صغيرا جدا، ويحيط بها البحر من الجوانب الثلاثة. ويتعين حمايتها من البحر عن طريق أعمال وجهود اصلاحية عديدة تقتضي نفقات باهظة، من ذلك انشاء الحواجز والسدود الترابية والقنوات والطواحين وانتزاع أراض من البر واستصلاحها واستزراعها. زد على هذا ان المقاطعة المعروفة باسم هولندا تشتمل على كثبان رملية ومستنقعات وبحيرات تتسع مساحتها يوميا علاوة على احياء جرداء لا تصلح لزراعة أو رعي، لهذا كله نجد الرجال من سكان هذا الاقليم اذا ما أرادوا توفير معاش لزوجاتهم وأطفالهم وأسرهم اضطروا إلى أداء أعمال مثل الصناعات اليدوية والأعمال التجارية. واتبعوا اسلوبا حكيما في هذا كأن يحضروا المواد الخام من الأراضي الأجنبية ويعيدوا تصديرها في صورة منتجات مصنعة بما في ذلك أنواع مختلفة من الأقمشة والملابس. ويصدرون منتجاتهم إلى أماكن عديدة مثل ممالك أسبانيا والبرتغال وألمانيا وسكوتلاندا، وبخاصة الدانمرك والبلطيق والنرويج ومناطق أخرى مماثلة ويعودوا من تجارتهم مع هذه البلدان ومعهم سلع وبضائع من منتجاتها وأهمها القمح

وغيره من الحبوب. ومن ثم فإن العمل الأساسي للاقليم لا بد وأن يحتاج إلى شحن بالسفن والمهن المرتبطة بها، التي يتكسب من خلالها كثيرون رزقهم، مثل التجار وربابنة السفن والملاحين والبحارة ونجارى السفن وغير ذلك من مهن. وهؤلاء يقومون بعمليات قيادة السفن وما يستتبعها غير أعمال الاستيراد والتصدير التي تشمل جميع السلع، يأتون بها من هناك ويبيعونها هنا في الأراضي المنخفضة وفي المناطق المجاورة لها مثل برابانت وفلاندرز وغيرهما. (*)

بعبارة أخرى أن تجار وبحارة هولندا وزيلاندا كان لهم نصيب كبير، وربما الأكبر في تجارة النقل البحري بين البلطيق وغرب أوروبا إلى ما قبل منتصف القرن السادس عشر وقبل أن يبدأ الصراع مع أسبانيا. وربما كانت صناعات الألبان والصناعات الزراعية في شمال الأراضي المنخفضة أهم بكثير مما قد يظن أصحاب عريضة ١٥٤٨، ومع ذلك كان من الصحيح ان صناعة صيد الأسماك الواسعةالنطاق في بحر الشمال، وكذلك النقل البحري مع البلطيق وفرنسا وشبه جزيرة ايبريا أعظم شأنا بكثير. وواضح ان أحد اسباب نمو تجارة هولندا الخارجية هو الوضع الجغرافي للأراضي المنخفضة المطلة على بحر الشمال، وسهولة اتصالها بالأسواق في ألمانيا وفرنسا وانجلترا، ولكن السبب الرئيسي في انعقاد لواء الريادة لهولندا دون منافسيها الأساسيين، وفي المدن الأخرى، هو أن سكان هولندا وزيلاندا اداروا سفنهم بكفاءة اقتصادية أفضل، بالاضافة الى قدرتهم على تقديم أجور شحن أقل والبيع بأسعار أدنى من منافسيهم.

وثمة قسمة أساسية ميزت التجارة البحرية – وأشكال أخرى من الأعمال المشابهة – في الأراضي المنخفضة الشمالية وهي القسمة المعروفة باسم المشاركة Rederij وهذا نمط شديد المرونة من المشروعات التعاونية

---

* E. Luzac, Holland Rijkdoun. ٢ مجلد – طبعة ليدن ١٧٨٠ – المجلد الأول ص ٥–٦.

التي يشترك فيها فريق من الناس يتضـامنون بشأن شراء أو امتلاك أو بناء أو تأجير السفن وشحنها وكـذلك حمولتها من البضائع. وكان الشـائع الى ما قبل النصف الثاني من القرن السابع عشر أن يكون ربان السفينة أو قبطانها شريكا في ملكية السفينة وصاحب مصلحة مباشرة في بيع حمولتها. وصاحب السفينة المسمى Reders قد يسـاهم في رأس المال بنسب مختلفـة، ويتدرج هؤلاء بين مستويات عديدة ابتداء من التجار الأغنياء الذين يدعمون بحصص كبيرة إلى النوتي الصغير بدراهمه القليلـة. وزعم كاتب في عام ١٦٤٤ «انك لا تجد مركب صيد كبيراً أو صغيراً أو حتى قاربـا للصيد تم تجهيزه وانطلاقه من هذه الأرض الا وهو شراكة بين أشخاص عـديدين. وقال ايضا انك لا تجد سفينـة واحـدة من بين مـائة تعمل في هذا المكـان الا وهي مملـوكـة لمشروع تعاوني من نوع الـريديرج Rederij. وعلى أيـة حال فـإن هذا الأسلـوب في العمـــل يسّـر نظام الاســـــتثمار في مجال صناعـة الســـفن وصنـاعة الصيد وساعـد على الانتشـــار الواســـع لنظام الملكية كما عمل على دمج وتوحيد المجتمعين التجاري والبحري الى حد كبير.

وكان طبيعيا تماما في مجتمع من التجار والبحارة مثل هذا المجتمع الذي وصفه أهلـه في عام ١٥٤٨، أن تتجـه السلطات السيـاسية والاقتصـادية إلى التركيز في أيـدي طبقة التجـار وبخاصة الأثـرياء منهم. وضمنت هـذه الفئة الأخيرة سيطرتها في نهاية الأمر على المدينة أو على المجالس المحلية خلال فترة الخريف من العصور الوسطى، وفيما يختص بكل من هولنـدا وزيلاندا نجد أن أغلبيـة أعضاء مجالس المدينتين هم إمـا من مـلاك السفن أنفسهم أو من المستفيدين مبـاشرة من فرع أو عـدة أفرع من التجـارة عبر البحار - تجارة الحبوب والأخشاب في الشمال، والنبيذ والخمور والفاكهة والملح في الجنوب أو صيد أسماك الرنجة أو صناعـة تصدير الأسماك. ووضح هذا كثيرا من تلك العريضة التي أسلفنا ذكرها والمقدمة من ولايات هولندا الى شارل الخامس في عام ١٥٤٨، وتعاظم نفـوذ مجالس المدينة الذي زاد ولم ينقص بفعل الحرب

ضد الأسبان. واقترنت هذه الحرب، باستثناء فترات قصيرة نسبيا، بزيادة مطردة في التجارة الهولندية عبر البحار، خاصة بعد سنة ١٥٩٠. وفي المقابل نلحظ ان التجارة البحرية منحت سلطة سياسية واقتصادية أكبر لأعضاء مجالس المدن ولأبناء الطبقة المعروفة باسم وجهاء القوم وهي الطبقة التي تضم اعضاء هذه المجالس.

ونعود لنؤكد من جديد ان هذا التطور كان واضحا في مقاطعتي هولندا وزيلندا البحريتين اكثر منه في المقاطعات الأخرى، التي غلب عليها الانتاج الزراعي وسادتها طبقة النبلاء الزراعيين (كما هو الحال في جلدرلاند) وأغنياء الفلاحين (مثل مقاطعة فريزلاند). إذ مارس هؤلاء سلطة أوسع تفوق سلطة مجالس المدن. وفي جميع الأحوال كان وضع مجالس المدن في جميع المقاطعات فيما يختص بأول أمير من أسرة أورانج أقوى كثيرا مما كانت عليه في عهد دوقات آل بورجندي Burgundy أو ملوك أسبانيا. وعلى الرغم من الزيجات الثلاث الناجحة التي اقترن بها وليام سايلنث بأميرات من الورثة الأثرياء الا انه كان كمتمرد نصف ناجح، وتزايد اعتماده باطراد على الدعم المالي والأدبي من المدن. حقا ان هولندا وزيلاندا اعترفتا به في عام ١٥٨١ حاكما عليهما – ومن ثم الذين نصبوه بدورهم في نهاية الأمر. غير أن العديد من المدن التي ناصرت ثورة الأراضي المنخفضة تنصل أهلها من دين بريل Den Briel بعد ان وقع في أسر الجماعات المعروفة باسم شحاذو البحر Sea Bergers في عام ١٥٧٢ وهي جماعة شبه قراصنة وأنكروا أنهم منحوه مثل تلك السلطة على الرغم من ان هذه هي إحدى الصفات الشرعية لحكام المقاطعات.

وان انقسام الأراضي المنخفضة الى شمال تسوده البروتستانتية وجنوب كله كاثوليكي روماني لم يكن نتيجة حتمية بل محصلة تفاعل عوامل متباينة جغرافية وعسكرية ودينية واقتصادية – ومن بينها مجالس المدن التي كان لها دور عظيم الشأن. لقد حارب وليم الأول وهو من آل أورانج في سبيل حرية المقاطعات المتحدة السبع، وتصور (وهو الذي تحول على التوالي من

اللوثـرية إلى الكاثـوليكية الرومـانية الى الكالفنيـة) قيام دولة يتعـايش فيها البروتستانتيـون والكاثـوليكيون الـرومان على أســاس من الاحترام المتبادل والمساواة أو على أســاس التسامح المتبادل على أقـل تقدير. غير أن المجمـوعة الرئيسيـة التي تمثل القلب من بين مـؤيديـه الكالفنيين في صفـوف جماعات شحاذي البحر نظروا نظرة ازدراء الى هـذا الضرب من التسامح. وعقد هؤلاء العزم على فـرض سيادة مـذهبهم البروتستانتي الخاص بأي وسيلـة كانت. وهذا ما فعلته أغلبيـة المدن التي استسلمت لهم خلال صيف ١٥٧٢، شريطة ألا – يتعرض سكـان هذه المدن من الكاثـوليك الرومـان للأذى والسماح لهم بأداء شعـائرهم الدينيـة في كنائسـهم. بيـد أن هذه الشروط تهاوت تـدريجيا وأغفلها المنتصرون الـذين ملأوا مجالس المدن بأنصارهم الـذين عينوهم من قبلهم محل أصحـابها الـذين أبـدوا أي مظهــر من مظـاهـر التردد من دفع البروتستانتية واظهارها على الكاثوليكية الرومانية، وبعد أن ضمنوا لأنفسـهم السيطرة على مجالــس المدن طردوا رجـال الدين الـرومانيين وقصروا حـرية التعبير على العلمانيين من الكاثـوليك الرومـان بدلا من كفالـة حريـة العبادة العـامة. واستطـاعت الأقليـة البروتستانتيـة المكـافحة العمل بهذه الصــورة لأسباب منها ان الكثيرين من المواطنين الكاثوليك الرومان كانوا من بين حوالي ٤٠٠٠ نسمة فـروا من هولندا وحدهـا خلال صيف الأحداث الداميـة في عام ١٥٧٢. وبهذا أصبح بـالامكـان ملء امـاكنهم الشـاغـرة بمـواطنين وتجار بروتستـانت ممن سبق لهم ان تركـوا الأراضي المنخفضة عندمـا عمد كل من الكاردينال جرانفيل ومحاكم التفتيش ودوق ألفا Alva على التوالي الى تشديد اضطهـادهم للمنشقين عن العقيدة، وعـاد هـؤلاء المنفيون الآن مع جماعـات شحاذي البحار Sea Beggers. وعلى الرغم من أننا لا نملك معلـومات كافية عن التحـولات التي طـرأت على تشكيل جميع مجالس المدن خـلال السنـوات الأولى من الثورة ضد اسبانيا، إلا أننـا قد لا نخطىء إذا ما افترضنا ان أغلبية أصحاب المال والمكانة في المجتمع سلكوا على نحو ما سلك نظراؤهم في الثورات الأخرى السابقـة عليهم أو المعاصرة لهم. معنى هذا ان الكثيرين من المواطنين

الأثرياء الذين انتخبوا أعضاء مجالس المدن رأوا السلامة في مسايرة الأحداث الجديـدة بدلا من ان يصيبهم مـا هو أسـوأ. وحتى يحفظوا وضعهم المتميـز ومصالـحهم المادية في أعمالهم – ناهيك عن ضمان أمن زوجاتهم وأطفالهم – أعلنوا قبولـهم البروتستـانتية سواء عن نية صادقـة أم لا. ومع مرور الوقت، فقد أصبـح واضحا ان الجمهوريـة الهولنديـة ظهرت لتبقى، ازداد تـوافقهم وتأقلمهم مع الكالفنية الرسمية ولو ظاهريا – بيد أنهم قاوموا عادة، بصورة نشطـة أحيانـا، وسلبيـة اكثر الأحيـان جهود الكـالفنيين المتطـرفين بعامـة والقساوسـة أو رجال الـدعوة والـوعظ أو Predikants بوجـه خاص حين يحاول هؤلاء جعل مصـالح الدولـة – والتجارة – في المرتبـة التاليـة لمصالح «العقيدة المسيحية الصحيحة بعد الاصلاح».

وإنها لمشكلة مركبة أن نحاول معرفة إلى أي مدى وعلى أي نحو من حيث السرعة تخلى الشماليون من سكان الأراضي المنخفضة عن عقيدتهم القديمة الى العقيدة الجديدة، غير ان بامكـاننا ان نشير بايجاز الى مختلف الضغوط التي مارستهـا الاقلية الكالفنيـة الحاكمة ضد العـامة والخاصة من أهـالي البلاد لحملهم على التحول الى العقيـدة الجديدة. ونظرا لأن جميع الوظـائف البلدية والحكومية تم احتجازها على الفور لأولئك الـذين اعترفوا باعتناقهم الكالفنية الارثوذكسيـة، فإن هذا السبب وحده كاف ليكـون حافزا للخاصـة من أبناء المدن للملاءمـة مع الوضـع الجديد. وازداد هـذا النزوع سرعة بفعـل الأزمة السياسية الدينية في عامي ١٦١٨/ ١٦١٩ عندما وقع انقلاب الأمير موريس ضد أولـدنبا رنفلت Oldenba renvelt واجـــراءات المجمع الكنسي في دور درشت التي سـاعـدت جميعهـا على تعـزيـز نفـوذ القسـاوسـة الكـالفنيين وأنصارهم من العامة. ومع الوقت جرى التوقيع على معاهدة مونستر Mun-ster في عام ١٦٤٨ وأصبحت الأغلبيـة العظمى من خاصة النـاس كالفنيين بحكم الانتسـاب الى الكنيسة ان لم يكـونـوا عناصر نشطـة بوضـوح. وعلى الطـرف الآخـر من الميـزان الاجتماعي نلحظ ان جميع الاجـراءات والتـدابير

المتعلقة بالاشراف على المؤسسات الخيرية ومساعدة الفقراء أصبحت بعد فترة من الزمن في يد رجال الدين الكالفنيين وأشياعهم بعد طرد رجال الدين من الكاثوليك الرومان ومصادرة أديرتهم وبيوت الصدقات والاحسان الخاصة بهم وكذلك ما عرف باسم مؤسسات التقوى. وحفز هذا الكثيرين من الفقراء والكادحين من سكان الحضر، خاصة العاطلين وأولئك الذين كانوا يعانون من البطالة الموسمية (مثل البحارة والصيادين) الى السعى للتلاؤم مع العقيدة الجديدة ولو من أجل الحصول على الخبز لأنفسهم ولعائلاتهم. وتولى الكالفنيون شئون الاشراف والرقابة على مناهج ومقررات التعليم في المدارس الابتدائية التي كانت أكثريتها موجودة في مبان صادرها الكالفنيون من الكنيسة الكاثوليكية الرومانية. ولا بد وأن هذا الاجراء أدى الى المزيد من إحكام قبضة العقيدة الاصلاحية الجديدة على الأجيال المتعاقبة من أبناء جميع الطبقات.

وثمة بحوث أعدها مؤخرا كل من اينو فان جلد Enno van Gelder وفرهيدن A.L.E. Verheyden تناولت الأصول الاجتماعية لـ ١٢٣٠٢ ضحية أدانهم «مجلس الأحداث الدموية» الذي اشتهر بسمعته السيئة، خلال الفترة ١٥٦٧–١٥٧٧. وتشير هذه البحوث إلى ان قطاعا كبيرا من سكان الأراضي المنخفضة اتخذ إما موقفا سلبيا أو معاديا نشطا ازاء الكنيسة الرومانية في ستينيات القرن السادس عشر وتورطت في هذا أعداد كبيرة اشتملت على ارستقراطيين وتجار وأطباء جراحين ومحامين وصيادلة وحدادين ونجارين وبنائين وحلاقين وكثيرين غيرهم من أصحاب مهن وحرف ومشارب مختلفة. وعلى الرغم من أن أغلبية هؤلاء ليسوا كالفنيين، كما هو محتمل، إلا أن المرجح ان الكثيرين منهم ممن كان مصيرهم النفي أو السجن قد أصبحوا كالفنيين في المدن حيث حاولت جماعات «شحاذو البحار» فرض حكم الاختيار الإلّهي. وفي ظل هذه الظروف كان لا بد وان يكون تقدم البروتستانتية في المدن أسرع منه في الريف وان يتسم بالبطء في الأحياء

الـريفيـة حيث ظل السـادة من ملاك الأراضي على ولائهـم للعقيدة القـديمـة واقتدى بهم المستأجرون. وهكذا بدا تقدم العقيدة الجديدة في شمال الأراضي المنخفضة متبـاين المستويات. ومن المشكـوك فيه الى قبيل معاهـدة مونستر الحكم بأن البروتستانتيين على اختلاف مللهم ونحلهم كانت لهم الاغلبية على ابناء بلدهم ممن ظلـوا على ولائهم لروما او كانوا على وفـاق معها بصورة أو أخرى.

ونظرا لأن نفوذ أبنـاء الطبقة الحاكمة في المدن لم يهتز إلا بصـورة عابرة نتيجة التمرد الذي تفجر ضد اسبانيا ونظرا لأن أبناء هذه الطبقة كانت لديهم القدرة على دعم موقفهم باعتبارهم الحكام على مدى حرب الثمانين عاما، فان بالامكان ان ندرس بتفصيل اكثر وظيفتهم ومكانتهم، في ضوء مقاطعة هولندا باعتبارها الأهم شأنا. كانت مدن هذه المقاطعة يديرها منذ الحقبة الأخيرة من العصـور الـوسطى، مجالس تتألف من ٢٠ الى ٤٠ عضـوا من أغنى وأكـرم المواطنين ويجرى انتخابهم من بين مواطني كل مدينة الذين عرفوا «بالحكمة والثراء» ويتولون السلطة مدى الحياة، أو الى حين اعتزامهم الهجرة للحياة في مكـان آخر ويمـلأ أقـرانهم الأماكن الشـاغـرة بمـواطنين لهم نفس المكانـة الاجتماعيـة. وينتخب أعضاء مجالس المدن من بينهم كل عـام عمدة أو عمـد المدن وأعضاء المجالس التشريعية الذين يشكلون الحكومة المحلية أو السلطة ذات السيادة، ومهمتهـم الأساسية تطبيـق العدالة وتنظيـم الضرائب المحلية بـالنسبة لمواطنيهم في المدينـة. ويتولى الحرس المدني أو مجمـوعات الميليشيـا مهام الحفـاظ على الأمن والنظام، وهو مـا يشبه إلى حد مـا جماعات الحرس الوطنـي في انجلترا ولكن يتولى امـر قيادتهم العليـا أعضاء الطبقـة الحاكمة. وغالبا ما يقوم العمدة بدور الضابط المسئول أو الكولونيل لجماعات الحرس. ونرى أشكـالهم مألوفة لنـا في لوحـات رسامين من أمثال رمبرانت في لـوحة «حراس الليل»(١٦٤١) – وفرانز هالز في لـوحة «الوليمة» للحرس الوطني في سانت أدريان (١٦٢٧).

وبعد أن توقفت ولايات هولندا عن ولائها للملك فيليب الثاني ملك اسبانيا في عام ١٥١٨ أصدرت قانونا يحظر على أعضاء مجالس المدن التشاور مع ممثلي النقابات الحرفية (الذين انبثقوا عنها أساسا في العصور الوسطى) أو مع ممثلي الحرس الوطني بشأن أمور المقاطعات. وهكذا استفاد أبناء الطبقة الحاكمة من الصراع ضد أسبانيا من أجل دعم وتعزيز وضعهم كأوليجاركية وطنية دائمة وكذلك من أجل حرمان المواطنين العاديين من أن تكون لهم أي كلمة مباشرةفيما يختص بالادارة المحلية أو ادارة المقاطعات. ويمكن القول ان هذا النظام لحكم الخاصة كان متشابها في جميع مدن المقاطعتين البحريتين مع وجود فوارق في التفصيلات من حيث عدد العمد (من ١ إلى ٤) أو عدد أعضاء المجالس التشريعية (من ٧ إلى ١٢). ويمكن أن نضيف إلى هذا أنه خلال القرن السابع عشر اشترى الرأسماليون الحضريون أبناء الطبقة الحاكمة أغلبية الأراضي في مقاطعات هولندا وزيلندا وأوترشت. وساعدهم هذا على استخدام مجالس المدن من أجل تعزيز تطور التجارة والصناعة في المدن على حساب الصناعات المنزلية والريفية في الأقاليم.

كانت كل ولاية من ولايات المقاطعات السبع ولاية ذات سيادة وكانت الولايات في هولندا تتألف من وفود يعينها حكام المدن الثماني عشرة علاوة على وفد اضافي يمثل نبلاء المقاطعة ولكل ولاية حق ارسال وفد بأي حجم تشاء، ولكن الوفد له صوت واحد مهما كان عدده. وكانت المدن في زيلندا لها جميع الأصوات عدا واحد. وتمتع نبلاء جلدرلاند والملاك الزراعيون. ولكن الملاحظ أنه حتى في المقاطعات التي لم تكن فيها الهيمنة لممثلي علية القوم من سكان الحضر، على نحو ما كان الحال في المقاطعتين البحريتين، كان هؤلاء يمارسون سلطة ونفوذا بفضل مكانتهم الاقتصادية، وجرت العادة ان تنتخب المجالس المحلية حكام المدن وتقوم ولايات المقاطعات بشغل المناصب القضائية والقيادية في الريف. وبهذه الطريقة، وكما يقول بروفسور ح.ح. رينيار، فإن الاعتراف بسيادة ولايات المقاطعات يعني هيمنة الشرائح العليا

من الطبقة المتوسطة على كل الجمهورية الهولندية فيما بين عامي ١٥٨١ و١٧٩٥. أو كما قال و/ب.م. فليك ان الجمهورية الهولندية كانت خاضعة في واقع الأمر لسيطرة أوليجاركية أو طبقة من الأغنياء تضم حوالي ١٠٠٠٠ نسمة احتكروا تقريبا جميع المناصب الهامة في المقاطعات والمجالس المحلية*.

وكانت السياسة الخارجية مسئولية ادارةعموم الولايات في لاهاي، إذ بعد اتحاد أوترشت Utrecht في عام ١٥٧٩ وافقت المقاطعات المتمردة على أن تكون في هذا المجال على الأقل جبهة متحدة أمام العالم الخارجي. ولم تكن ادارة عموم البلاد سوى جمعية أو مجلس للمفوضين الممثلين لولايات المقاطعات السبع ذات السيادة، والملتزمين بالتعليمات التي تلقاها كل وفد من مقاطعته.

وبالنسبة لأي قرار يصدر عن هذه الادارة العامة أو الاتحاد ككل فإنه يلزم التصويت عليه بالاجماع ليكون قرارا صحيحا. وفي حالة عدم الاتفاق، أو حينما يناقش اقتراح ما ولا يتفق مع التعليمات يصبح لزاما على كل وفد العودة الى مجلس مقاطعته لاجراء المزيد من المشاورات والحصول على تعليمات جديدة، وغالبا ما كانت ولايات المقاطعات تحيل بدورها الموضوع إلى مجالس المدينة قبل الوصول بشأنه إلى قرار. ولا تعتبر أي مقاطعة نفسها ملزمة بالخضوع لأي أمر صادر عن ادارة عموم الولايات ما لم يقدم وفدها موافقتها المعتمدة على ذلك. وكل وفد له صوت واحد فقط مهما كان عدد أعضائه.

وهكذا كانت ادارة عموم الولايات المؤلفة على نحو غير ملائم هي الجهاز الإداري القومي الوحيد للجمهورية الهولندية، وكان عسيرا جدا عليها العمل

* G.J Renies, the Dutch Nation. An Historical Study. [London 1944] P. 16-31; B.M. Vlekke, Evolution of the Dutch Nation [New York, 1945] pp. 162-60

بفعاليـة وكفاءة مع تصــارع مصـالح المقــاطعات أو على الأقل إذا مــا أخفقت المقاطعات في التوفيق بين آرائها. وفي فترة الأزمات أو إذا ما إدلهمت الأمور فإن شخصا ما قويـا أو فريقا صاحب نفوذ يتولى القيــادة ويفرض قرارا مستندا في هذا إلى مزيج بين السلطة والاقناع. وواضـح ان القوتين القادرتين على توفير هذه القيادة هي مقاطعة هـولندا وبيت آل أورانـج. واعتادت هولندا ان تتحمل نظريـا ٥٨ بالمائة من عبء الجمهورية المالي وان تحملت عمليـا اكثر من ذلك. والجدير بالــذكر أن الأهمية الاقتصادية الغــالبة لامستردام عقب عام ١٥٨٥ هيأ لها دور السيادة على ولايــات هولنــدا في ادارة عموم الولايــات. ولهذا فان مقاطعة هــولندا، والتي تعني عمليا مدينة امستردام، كـانت لها القيادة اذا ما تســاوت جميع الأمــور، ومــارست هــذه القيــادة من خــلال اعلى جهــاز لها والمعروف باسم Road Pensienaris والذي يعمل متعاونا مع لجنة صغيرة تنتخبها ادارة عموم الــولايات. ومن ثم أصبحت الهيمنة الاقتصــادية لهولندا هـي ركيزة السلطــة السياسية لجوهان فان اولــدنبار نفلت Johan van Oldenbarnevelt عقب وفاة وليم الأول (١٥٨٤) وجوهان دي ويت Johan de Witt بعد وفاة وليام الثاني(١٦٥٠).

وكان أقل مــا يوصف بــه وضـع آل أورانـج في جمهوريــة أوليجاركيــة انه وضـع فريد. إذ أن الأمير حاكم مقاطعة أو أكثر، وهو عمليا القائد العام للقوات المسلحــة وادارة عموم المقــاطعــات، ولكن كانــت له كلمــة (وأحيــانا الكلمــة الحاسمة) في تعيين بعض أعضـاء هــذه الهيئات. والجدير بالــذكر ان امراء آل أورانـج أصبحوا حتما، وبحكم الميلاد والمحتد والثراء والبسالة الحربية سواء عمليا أم تقــديريــا – محور وبؤرة العــواطف الملكية التي شــاعت آنذاك بين صفوف الطبقات العليا التي كانت تتوق إلى حياة البلاد والى رأس متوج. ومن بين من حملوا هــذه العاطفة أيضــا بعض أبناء الطبقــات الدنيا الــذي يكنون الكثير من التوقير والاجلال لأمير مــن سلالة ملكية بحكم الدم إذ هــو عندهم أفضل من أمير تاجر. ومن المحتمل في هــذا الصدد أن نجد أن القدر الأكبر من

مشاعر التعاطف مع آل أورانج والتي كانت سائدة بين الطبقات الدنيا من العمال إنما ترجع أساسا إلى عزوفهم عن الحكام من مواطنيهم الأوليجاركيين أكثر مما ترجع إلى أي سبب آخر. ولكن أمراء آل أورانج، وعلى الرغم من اقترانهم بأميرات من أسر ملكية أجنبية بعد عام ١٦٤٤، إلا أنهم كانوا أكثر تأثرا بنظرة وعقلية الأوليجاركية الوطنية التي تربطهم بها علاقة وثيقة في مجال حكم البلاد ويعتمدون عليها كسند قوي يدعم وضعهم.

وعندما تعاون بصدق ومودة كل من أمير آل أورانج والحاكم الأعلى لمقاطعة هولندا، على نحو ما كان في عهد وليم الأول وأولدن بارنفلت ثم في عهد وليام الثالث وانطوني هنسيوس، بهذا أمكن حفز ادارة عموم المقاطعات وولايات المقاطعات للعمل وفق سياسة محددة ومتفق عليها مسبقا.ولكن لوحظ أنه عند وقوع احتكاك أو خلاف بين هاتين الشخصيتين البارزتين، أو حينما لا تكون لأحدهما أو لكليهما وضع السيادة التي لا تقبل التحدي (على نحو ما كان الحال بالنسبة إلى الأمير موريس في الفترة من ١٦١٨-١٦٢٥، وجوهان دي ويث ١٦٥٤-١٦٦٨، ووليام الثالث في ١٦٧٢-١٦٧٨) فإن الغيرة القاتلة بين هولندا وزيلاندا أو بين هاتين المقاطعتين البحريتين من جهة وبين المقاطعات الخمس الأخرى أو شيوع كراهية عامة ضد استعلاء امستردام بصورة مبالغ فيها، كان اتحاد المقاطعات، وهو اتحاد غير متماسك، يتحول إلى ما أسماه سير وليام تمبل «اتحاد المقاطعات المفككة». وقد يوصف الوضع في أحسن الظروف بأنه تحالف وليس اتحادا. علاوة على هذا فإن حكام الولايات حتى إذا ما تمتعوا بسيطرة سياسية لا تقبل التحدي، انما كانوا يعتمدون في هذا على تعاون أبناء الطبقة الحاكمة في سبيل توفير الوسائل المالية والاقتصادية اللازمة لانجاز سياستهم. واستطاعوا أن يدفعوا خلسة بعدد من الأوليجاركيين المواطنين إلى داخل ادارة عموم الولايات مستعينين في هذا بأصدقاء شخصيين لهم بين صفوف الادارة والارستقراطية الزراعية. بيد أنهم عجزوا عن تدمير السلطة الاقتصادية للشرائح العليا من

الطبقة المتوسطة التي جعلت من المواطنين الأثرياء - وليس حكام الولايات من الأمراء - الحكم النهائي الذين يقررون مصير الجمهورية.

وإذا كان استيلاء فريق «شحاذو البحر» على مدينة دن بريل Den Briel وعدد آخر من المدن خلال صيف ١٥٧٢ يمثل بداية المقاومة المسلحة ضد اسبانيا، إلا أن الآراء مختلفة بشأن المدى الذي يمكن أن نصل إليه في وصف ثورة الأراضي الواطئة بأنه حركة شعبية. ان الشيء اليقين ان شعورا بالاستياء واسع النطاق بل وعميق الجذور في بعض المناطق ساد آنذاك ضد كنيسة روما بين جميع الطبقات على نحو ما تشهد به وقائع اتساع نطاق الانصار الذين انضموا الى مذاهب اللوثرية ودعاة تجديد العماد والكالفنية وغيرها من صور المروق التي انتشرت وناصرتها أفواج من جميع قطاعات المجتمع. بيد أن هذا الاستياء ضد العقيدة القديمة لم يكن يعني دائما وأبدا وفي جميع الأنحاء اصرارا على نبذ حياة الفردية لرجال الدين، أو رفض الاحتفال بالقداس والغاء المراتب الدينية.

وظل الكالفنيون المكافحون دائما هم الأقلية، مثلما كان الرومانيون المكافحون في هذا الصدد أيضا في مناطق كثيرة، وآثر كل من المواطنين الموجودين في مناطق الحكم الذاتي والعمال اليدويين الحرية السياسية على الحرية الدينية على الرغم من أن الأغلبية العظمى من هؤلاء وأولئك لم يكونوا ليرتضوا ويتقبلوا اقامة محاكم التفتيش. ولا بد من الاعتراف أيضا بأن عددا كبيرا من النبلاء والوجهاء انضموا الى صفوف المقاومة مؤيدين لقضيتها بهدف توفير الزعامة الضرورية لها.

وعلى الرغم من أن هذا الخليط غير المتناسق من حشود النبلاء المناضلين وسكان المدن والحرفين والفلاحين والبحارة أشباه القراصنة كانوا جميعا ضيوفا غير مرغوب فيهم تماما لدى الطبقتين العليا والوسطى في مدن هولندا وزيلندا ومن ثم تردد أبناء هاتين الطبقتين في قبولهم، إلا أن نجاح فريق

«شحاذو البحار» في عـام ١٥٧٢ انما يرجع أساسا، وعلى الـرغم من هذا، إلى احتمال وقوع عبء ايواء الجنـود الأسبان على كاهل ابناء هـذا الحشد فضلا عن نفورهم الشديد من قيام محاكم التفتيش بين صفوفهم.

ويبدو واضحا ان عمال المدن والعاطلين - ولا بـد وأنهم كانوا كثيرين في تلك السنوات التي عمت فيهـا الاضطرابات الـدينية - السياسيـة مع ارتفاع الاسعـار - لم يكن لديهم مـا يفقـدونه بسبـب وقوفهم الى صف «شحـاذي البحار». ان الجوع والبطـالة كانا منتشريـن بوجه خاص في السنـوات ما بين ١٥٦٧-١٥٧٢ عندمـا ساءت الأوضاع الاقتصاديـة والاجتماعية في الأراضي المنخفضة نتيجـة قطع العلاقات الاقتصـادية مع انجلترا، ونتيجـة مشكلات التجارة في البلطيق فضلا عن انتشار الطـاعون في عام ١٥٧١ وارتفاع أسعار الحبوب في عامي ١٥٧١-١٥٧٢.

وكانت القشة التي قصمت ظهر البعير هـي التهديد بفرض عبء ضرائبي بـاهظ في صورة ضريبـة مبيعات تسمى «البنس العـاشر» والتي صيغت على نمط ضريبة اسبانيـة تسمى الكابلا Al Cabala وكان أول من فـرض هذه الضريبة هـو دوق ألفا Alva في ربيع ١٥٧٢ على الـرغم من عـدم استمـرار تحصيلها إثر انفجار الثورة. زيادة على هذا، فبعد ان تولت مجالس المدن أمر توجيه الثورة وساعد الكالفنيون على مزيد من تصلب موقفها فقد توفرت لدى الفقراء وأبنـاء الشرائح الاجتماعية المتواضعة أسبـاب جديدة لاتبـاع القيادة التي بامكانها وحـدها ان تهيء لهم العمل والمعاش. ومن ناحيـة أخرى، فإن الكثيرين من أبناء جميـع الطبقات من سكان المدن التي استـولى عليها ثـانية الجيش الأسباني، لم يجدوا صعوبة كبيرة في اعادة مواءمة معتقداتهم الدينية مع تعاليم الكنيسـة الرومانيـة، بعد أن تجددت وبعد أن نقتهـا من الشوائب الاصلاحـات التي قررهـا مجلس الثلاثين. واذا كانت المبـالغات المفـرطة من جانب الجنـود الأسبان والايطاليين العـاملين تحت امرة دوق الفـا قد ارغمت الكثيرين على التحـول، وقـد كان بـامكـانهم البقاء على الحيـاد او الى جـانب

المتمردين، فإن أعمالا وحشية مماثلة ارتكبهـا فريق «شحاذو البحار» دفعت الكثيرين من المتمردين الى العودة الى رحاب الكنيسة والملك والخضوع لهما.

وأشرنـا فيما سبق الى ان الكالفنيـة صـادفت انصارا في جنـوب الأراضي المنخفضة اكثر مما صادفت في المقاطعات الشمالية. والواقع ان التقسيم الذي حدث في النهـاية استهدف على مـا يبدو في أول الامر التركـز على طول محور يمتـد من الشرق إلى الغـرب وليس من الشمال الى الجنوب وضمـت مقاطعـة انتويرب طائفة كالفنية قـوية في وقت كانت امستردام لا تزال ترتبط بكنيسة روما. امـا المقاطعـات الشرقية والتي تضم اليـوم المنطقة الشماليـة الشرقية الملتـزمة بـالبروتستانتيـة فقد سـادها لفترة من الـزمن المذهب الكاثـوليكي الروماني. ولكن حين غزا الأمير بارما ثانيـة كلا من فلاندرز وبرابانت وجزءا من الشمال الشرقي وذلك خـلال ثمانينات القرن السـادس عشر لم يستطع الاندفـاع الى ما وراء خط الدفاع القـوى الذي شكلته الطبيعـة من أنهار شلد وماس ودراين وايجسل علاوة على المستنقعات في جنوب فريزلاند. وبعد موت بـارما عـام ١٥٩٢ استطـاع الأمير موريس استكمال غـزو الشمال الشرقي. وحقق خليفته فريـدريك هنري بعض المكاسب غير المضمـونة في الجنوب من بينها الاستيلاء على ماستريشت معقل الكنيسة الكـاثوليكية الرومانية. وعلى الرغم من هـذا لم يتم القضاء النهائي على الخطر الاسباني الـذي يتهدد قلب المقاطعـات الشمالية الا بعد الاستيـلاء من جديد على بـريد Bredd في عام ١٦٣٧.

وكان فـريدريك هنري، مثلـه كمثل وليام سايلنت راغبـا في منح قدر من التسامح إزاء الاعتراف العـام بالكاثوليكيـة الرومانية في المنـاطق التي عادت تحت السيطـرة الأسبانيـة وذلك على أمل أن يشجـع هذا الاجـراء المقاطعـات الخاضعة الى الانضمام الى المقـاطعات المتحدة لـلأراضي المنخفضة الحرة على الرغم من الطابع الزائف لاتحادها. ولسـوء الحظ ان العناصر الكالفنية الأكثر تشدداً كـانوا من القوة التي مكنتهم من الحيلـولة دون تنفيذ هذه السيـاسة

بأي صورة من الصور. ونعرف ان أصحاب العقيدة الكاثوليكية الرومانية من سكان «أراضي العموم» كما كانت تسمى الأحياء المفتوحة، لم يكن مسموحا لهم بأي حقوق سياسية او انتخابية، ولم يستطيعوا المشاركة بأي دور هام سواء في الحياة الاقتصادية ام الفكرية للجمهورية الهولندية. كذلك فإن الحكام الاسبان سادة الأراضي المنخفضة الجنوبية كانوا عازمين من جانبهم على استئصال الهرطقة في المقاطعات الخاضعة لسيطرة الكنيسة والملك وأدت هذه السياسة الى هجرة انصار البروتستانتية الى الشمال او الشرق، وانقرضت الكالفنية داخل المقاطعات الخاضعة لحكم بروكسل. ولكن هؤلاء المهاجرين الكالفنيين وما يحملونه من مرارة في نفوسهم، إذ هاجروا من الجنوب أضافوا قوة كبيرة عززت من نفوذ شركائهم من العقيدة من الكالفنيين في الشمال الذين كانوا على استعداد فقط لقبول اعادة توحيد المقاطعات السبع على أساس ضمان سيادة الكالفنية دون منازع من الكنيسة والدولة. وهكذا انقسمت الأقطار المنخفضة ولم يحدث الانقسام على أساس جغرافي أو لغوي أو عرقي بل على أساس مصطنع تماما فرضته التقلبات العسكرية وليدة حرب الثمانين عاما، كما فرضه النمو الموازي للتعصب الديني المتبادل.

وبعد أن استولى الامير بارما على انتويرب في عام ١٥٨٥ يسر عملية استسلام المدينة بأن عرض على الكالفنيين الذين عزموا على الهجرة (ما لم يرتدوا عن معتقدهم) ان يعطيهم سنتين فترة سماح لحين نقل اموالهم وممتلكاتهم، وأصبحت انتويرب خلال القرن السادس عشر اعظم مركز تجاري في أوروبا على نحو ما وضح لنا. وبرع أبناء مقاطعتي الفلاندرز ووالون المقيمون فيها في فنون مسك الدفاتر والاعمال المصرفية وفنون التأمين وجميعها اعمال لم تزدهر الا في جنوب الألب والبرانس. وكسبت الكالفنية أنصارا كثيرين من بين صفوف أغنياء التجار على الرغم من ان الأغنياء الذين هاجروا لم يكونوا جميعهم من البروتستانت. ونلاحظ ان

تشتتهم وانتشــارهم في جميع أنحاء أوروبـا بـاحلال العقـدين الأخيرين من القرن السادس عشر كانت له نتائج أبعد أثراً من نتائج شتات ايبيريا قبل ذلك بقرن واحد، أو مــن خروج البروتستانت الفرنسيين «الـهيجونـوت» بعد ذلك بمائة عام. واعتاد التجار الفلاندرز الاختلاف على كثير من الموانىء التجارية ابتداء من دانــزج إلى ليفورنو قبـل عام ١٥٨٥ ولكن خلال الأعـوام الـخمسة عشر التـالية تضــاعف كثيراً عددهــم وازداد نفوذهم بعـد وصول الـلاجئين اصحاب الأعمال الأغنياء من الأراضي المنخفضة الجنوبية

وان من هاجروا الى هولندا وزيلاندا – ومن بينهم كثيرون من اكبر رجال الاعمال واغنى الأغنياء – كـانت تربطهم رابطـة دم وعلاقـة عمل مع عناصر منتشرة في انحاء اوروبـا من البلطيق الى المشرق، وذلك لأن العائلات كقـاعدة عامـة لا تـهاجر دفعة واحدة إلى مكـان ما بل ينتشر أبناء العـائلات في مناطق مختلفة. ونلاحظ أن من استقـروا في ايطاليا وشبه جزيـرة ايبريا ظلوا بحكم الواقع والضرورة، على عقيدتهم الكاثوليكيـة الرومانية، ولم يجدوا أي مشقة في التعاون مع أبناء عمومتهــم من الكالفنيين او اللوثريين المقيمين في الأراضي المنخفضة الجنوبية. وهم في هذا مثل المهاجـرين من يهود شبه جزيرة ايبريا الذين اعتادوا الحفاظ على الروابط الأسرية وعلاقات العمل مع أقاربهم الذين دخلــوا جـديـداً في المسيحية أو «المتنصرين الجدد» الـذين بقـوا في اسبـانيـا والبرتغـــال. وان رؤوس الأمــوال وروابط الأعمال التـــي جـاءت مع هــؤلاء المهاجرين الى امستردام وميديلبرج وغيرهما مــن المدن الـهولندية أعطت دفعة كبيرة لتجارتهم بـوجه عام وللتجـارة في امستردام بوجـه خاص وطبيعي ان الأغلبية العظمــى من بين الآلاف الذين هـاجروا من المقـاطعات الجنـوبية لم يكـونوا من سكـان المدن الأغنياء بل من بين أبنـاء الطبقة المتـوسطة وطبقـة العمال. ومن بين هؤلاء كثيرون من صغار التجـار والحرفيين المهرة والفنانين ذوي الخبرة وكذلك عمال موسميون وغير مهـرة. وحققت صناعة النسيج في ليدن، على سبيل المثال، تقدما كبيراً بفضل تدفق رؤوس الأموال واليد العاملة،

على هذا النحو من الجنوب.

وبينما أفادت مدن هولنديـة كثيرة من هذا الكسب الذي شكل اضافة الى مواردهـا المالية والبشرية، إلا أن آثاره لم تبـد واضحة الا في امستردام، اذ زاد عـدد سكـان هـذه المدينـة بحـوالي ٧٥٠٠٠ نسمـة فيما بين عـامي ١٥٨٥ و١٦٢٢. ومن بين ١٠٥٠٠٠ هم اجمالي السكان في هذا العام الأول لمهاجرين من هناك. وكتب واحد من هؤلاء الوافـدين الجدد في عبارة تنطوي على مبالغة لها مـا يبررهـا، وذلك في عـام ١٥٩٤ «هنـا تحولت انتـويـرب ذاتها لتصبح امستردام» وثمة عـامل آخـر ساعـد على تعزيـز موارد امستردام ورأسمالها والذي أشـارت اليه فيولت بـاربور. اذ تذكـرنا ان هولنـدا – أو بقية الأراضي المنخفضة الشماليـة – لم تكن بها سوى ارض صغيرة محدودة للتملك، وأن الجزء المحـدود هـذا كـان مـرتفع السعـر جـداً لما لا يشجع على البيع او الاستئجار. ولهذا فإن كثيرين من أصحاب الموارد المتواضعة الذين يطمحون في البلدان الأخرى الى شراء او استئجار مزارع او حيازات صغيرة نجدهم هنا يستثمرون مدخراتهم في شراء اسهم وانصبة في السفن أو في أعمال الصيد أو في رحـلات للتجارة قصيرة الأجل، واستصـلاح الأراضي أو عمليات اقـراض داخل المدينة او المقاطعة. وان نمو امستردام السريع كمركز تجاري دولي انما انعكس واضحـاً في اصدار قـوائم اسبوعيـة باسعـار السلع ابتداء من عـام ١٥٨٥ – ومابعـدها – الأمر الذي لم تفعلـه لندن الا بعد حوالي ثمانين عـاماً. ويمكن ان نشير أيضا الى ان بنك تبادل العمـلات في امستردام تأسس في عام ١٦٠٩، كما تأسس بنك الاقراض في عام ١٦١٤.

واستطـاع الهولنديـون توسيع نطـاق تجارة النقل البحري التي كـانت مـزدهرة اصـلاً وتصل الى ذرى لم يسبق لها مثيل خـلال العقـد الأخير من القرن السادس عشر ويرجع الفضل في هذا جـزئياً الى شبكة التجار من ابناء مقـاطعتي فلانـدرز ووالون الموجـودين في موانىء البحـر المتوسط وشبـه جزيـرة ايبريا. وان خمس سنوات متعاقبـة عانت خلالها جنـوب أوروبا من

نقص المحاصيل (١٥٨٦-١٥٩٠) هيأت لهم فرصة جيدة للسيطرة على اسواق جديدة فيما وراء مضيق جبل طارق اذ بينما كانت سفنهم مجرد سفن زائرة موسميا لموانىء البحر المتوسط والمشرق فيما قبل عام ١٥٨٥ اذ بتجارتهم بعد هذا بعشرين عاما اضحت الثانية من حيث الأهمية للتجارة مع البلطيق، وهي المنطقة التي كان أهل انتويرب على علاقة وثيقة بها قبل سقوط مدينتهم. وتأكد ان روابط اللغة والدم والعمل أقوى، في أي وقت، من روابط الدين والسياسة. ففي ليفورنو على سبيل المثال عمل التجار من أبناء الفلاندرز المقيمين هناك بمثابة قناصل تجاريين لنظام الحكم في لاهاي وفي بروكسل، والجدير بالذكر ان كورنيليس هاجا أول مبعوث من هولندا الى الباب العالي قرر في عام ١٦١٦ ان جميع وكلاء المؤسسات الهولندية في المشرق هم من ابناء مقاطعة باربانتر من حيث مكان النشأة والميلاد، ورعايا الأمراء الذين حكموا «المقاطعات الخاضعة» باسم التاج الاسباني. وثمة عامل آخر ساعد على سرعة توسع التجارة الهولندية البحرية في تسعينات القرن السادس عشر هو استحداث سفن نقل رخيصة واكثر كفاءة وهي السفن المعروفة باسم الفلوت. ويعمل على هذا النوع من السفن عدد قليل من الأيدي العاملة، ولكنها تسع لحمولات ضخمة وتكون مجهزة بعدد قليل من المدافع، وربما لا تحمل مدافع على الاطلاق، ويمكن بناؤها بتكلفة قليلة وبأعداد كبيرة. وتعتبر بصورة ما النسخة المناظرة لسفن الحرية في الحرب العالمية الثانية.

وحقق نظام التأمين البحري تطوراً ملحوظا في امستردام خلال الفترة نفسها اذ تم تنظيم غرفة للتأمين هناك في عام ١٥٩٨ حيث تجرى اعمال الاشراف على تسجيل سندات التأمين وحسم أي نزاع يتعلق بالدعاوى المترتبة عليها، وفي عام ١٦٢٨ أعد أربعة من أثرياء التجار في امستردام خطة طموحة من أجل التأمين الاجباري على جميع السفن الهولندية التي تبحر في المياه الخطرة. ولكن كان الرفض مصير هذه الخطة، مثلما كان مصير مقترحات

أخرى تالية استهدفت احياء الخطة في صور متباينة. ولكن امستردام استمرت في تطبيق أعداد كبيرة ومتزايدة من أعمال التأمين، اشتملت على أعمال أجنبية. وجرى تطبيق نظام اعادة التأمين في امستردام قبيل الربع الأخير من القرن السابع عشر، واحتفظت المدينة بسيادتها في مجال التأمين البحري الى فترة متأخرة من القرن الثامن عشر.

وتوفرت عوامل عديدة أفضت سريعا الى توسع المشروعات البحرية الهولندية بحيث امتدت الى اقاليم بعيدة تجاوزت حدود المتوسط والمشرق وهذه العوامل هي انهيار انتويرب كمركز تجاري دولي ونمو امستردام بصورة مذهلة، وتدفق الاثرياء من رجال الأعمال وكذلك العمال المهرة الذين وفدوا من الجنوب الى مقاطعات الشمال، وعائد هذا التدفق المتمثل في زيادة الانتاج الصناعي مع زيادة الحاجة الى أسواق جديدة. ثم قرارات المقاطعة والمصادرة التي فرضها التاج الاسباني (والتاج البرتغالي ابتداء من عام ١٥٨٠) على شحنات الأراضي المنخفضة الشمالية في موانىء شبه جزيرة ايبريا في الأعوام ١٥٨٥ و١٥٩٥ و١٥٩٨، والعون والتوجيه اللذين اعتمد ابناء هولندا وزيلاندا على تلقيهما في غالب الأحيان من سكان الفلاندرز والتجار المتنصرين الجدد من أعالي البحار. ونذكر ان التجارة الهولندية المباشرة مع البرازيل على سبيل المثال، والتي كانت غير ذات شأن قبل عام ١٥٨٥ زادت بعد ذلك زيادة كبيرة. وتحققت هذه الزيادة أول الأمر في تعاون مع تجار ألمان في موانىء هانزا، ثم بالعمل المشترك مع اليهود البرتغاليين المتخفين أو مع المسيحيين الجدد. وحدث في عام ١٥٩١ أن ربان سفينة هولنديا متجها الى البرازيل التقى مع برتغاليين من جزيرة ساو تومي حيث جمع معلومات قيمة جداً عن تجارتهم مع ساحل الذهب. وبعد عودته الى الأراضي المنخفضة شرع في رحلة رائدة وناجحة الى هناك وعاد في عام ١٥٩٤ ومعه حمولة غالية من الذهب والعاج. والتزاما بهذه القوة وهذا الدأب استثمر الهولنديون هذه الأسواق الجديدة، حتى انهم قبيل عام ١٦٢١ ضمنوا

لأنفسهم ما بين نصف وثلثي تجارة النقل البحري بين البرازيل وأوروبا بينما كانت كل عمليات سك العمـلات الذهبية الخاصة بالمقـاطعات المتحدة يجرى سكها بذهب وارد من غينيا. وسار الهولنديون مرة على اثر الانجليز وطوروا الطريق القطبي التجاري الى روسيا خـلال تلك السنوات. بيد ان القدر الأعظم من طاقتهم القومية التي تفجـرت بصورة مذهلة انما اتجه أساسا الى تجارة التوابل في الهند الشرقية.

ومن أهم قسمات حـرب الثمانين عامـا، وأكثرهـا غرابـة، الطريقـة التي اتبعها الطرفان في التعامل مع الموارد التي توفرها التجارة مع العدو. ان العمل في التجـارة المحظـورة او في التهـريب يمثل عـادة سمـة من سمات الحروب بدرجة أو بأخرى، ولكن هذا النوع من العمل باشره الجانبان خلال السنوات ١٥٧٢-١٦٤٨ وتماديا فيه على نحو غير مسبوق. ذلك ان السلطات المسئولة في جمهوريـة هولنـدا، وأكثر أفرادهـا من ملاك السفن والتجـار، انقسموا في التجارة مـع شبه جـزيرة ايبيريا ومـع الأراضي الخاضعة للتـاجين الاسباني والبرتغـالي، وسمحوا (فيما عـدا فترات قصيرة متبـاعـدة) باستمـرار هـذه التجارة شريطـة ان يدفع المشتغلون بها رسما يعرف بـاسم رسوم الموانىء. وسميت عائدات هذه الرسـوم باسم «أموال الحماية والتراخيص»، وأصبحت تشكل مصدر دخل رئيسي لـلامارات البحريـة الخاصة بالمقـاطعات الخمس (روتردام وزيلاند وامستردام والربع الشمالي وفريزلاند) والذي أفاد للانفاق على السفن الحربية الهولندية وقد كان اكثرها سفنا تجارية أو جرى تحويلها الى سفن عربية. ووجد الاسبانيـون والبرتغاليون من جانبهم ان لا حياة لهم بدون المواد الخام والمصنعـة، خاصـة الحبوب والمستلـزمات البحـرية. التي تحملها الناقلات الهولندية - من البلطيق وشمال أوروبا. ومن هنا فإن نظام الحظر والمصادرة الذي كانت تفرضه سلطات أيبريا من حين الى آخر بصورة دوريـة على السفن الهولنـديـة تحول ليصبح عمليات ذات طبيعـة خـاصـة تستهدف جـدع الأنف على سبيل التشفي، وان لم يكن بـالامكان استمـرارها

على نحو فعال فترة طويلة.

وحيث ان الهولنديين عمدوا الى التوسع السريع في تجارتهم في المتوسط والمشرق وجنوب الأطلسي في أوائل العقد التاسع من القرن السادس عشر، فليس لنا أن ندهش ان حاولوا توسيع تجارتهم ايضا للوصول الى المحيط الهندي في الوقت ذاته، ان الهولنديين الذين ابحروا الى هناك في خدمة البرتغاليين، وأشهرهم جان هويجن فان لينشوتن Jan Huighen Van Linschaten قد عادوا الى أرض الوطن يحملون قدراً كبيراً من المعلومات تشير الى ان زعم البرتغاليين بانهم أرباب الغزو والملاحة البحرية والتجارة مع اثيوبيا والهند وشبه الجزيرة العربية وفارس، ليس زعما صادقاً تماما كما تلمح الى ذلك الصفة البليغة الطنانة الى أطلقها الملك عما نوئيل الأول في عام ١٥٠١. ويبدو ان الذكريات عن الخطر الذي فرضته ايبيريا عام ١٥٨٥ وتوقع خطر آخر في العامين ١٥٩٥-١٥٩٦ كل هذا جعل الهولنديين يدركون ان استخدامهم لشبونه سوقا للتوابل بات امرا محفوفا بالأخطار. وأيا كان ما حدث فانه في مارس ١٥٩٤ وجد تسعة من التجار من الأراضي المنخفضة الشمالية حوافز وأموالا كافية لتدفعهم الى تنظيم «شركة الأراضي القاصية» في امستردام، وذلك بهدف ارسال اسطولين الى اندونيسيا لجلب التوابل.

الأسطول الأول لم تكن له قيادة واضحة محددة ولذلك أديرت الرحلة ادارة سيئة. ولم يعد غير ثلاث سفن وتسعة وثمانين رجلا الى تكسل Texel في أغسطس ١٥٩٧، من بين أربع سفن و٢٤٩ رجلا بعد رحلة امتدت عامين. ولكن الشحنة المتواضعة من الفلفل الأسود التي أحضروها من بانتام غطت ما هو أكثر من تكاليف الرحلة. وأوضحت هذه الرحلة الرائدة ان بالامكان الوصول الى الهند الشرقية حتى وان كانت قيادة الاسطول قيادة سيئة. ولهذا فإن ما لا يقل عن اثنتين وعشرين سفينة جهزتها خمس شركات تجارية مختلفة - ومتنافسة الى حد كبير - غادرت موانىء هولندا متجهة الى اندونيسيا في عام ١٥٩٨. تولى امارة احداها اوليفر فان نورت، وهو ملاح من

روتردام ويعمل مدير حانة.، وأخذ طريق أمريكا الجنوبية ثم المحيط الهادىء ليبدأ أول رحلة هولندية حول العالم.

بيد أن أكثر النتائج تشجيعاً تلك التي حققها الأسطول الثاني الذي تملكه في امستردام «شركة الأراضي القاصية» وقاده جاكوب فان نيك. وعادت أربع سفن من هذا الاسطول في يوليو ١٥٩٩ بعد غيبة امتدت خمسة عشر شهراً وعلى متنها حمولة نفيسة من التوابل. وعلق على هذا رجل مجهول شارك في الرحلة قائلاً: «هولندا هي هولندا، وان مثل هذه الحمولة النفيسة الضخمة لم يشهد احد لها مثيلاً من قبل». وأجرت البلاد مراسم احتفال مدني لكبار الضباط وتجار الرحلة بينما دقت أجراس امستردام انغام البهجة والفرح. وأحس المستثمرون بالرضا التام، اذ عادوا برأسمالهم وقد حقق ارباحا تزيد على مائة بالمائة، حتى قبل وصول السفن الأربع الباقية التي جاءت بحمولتها ليزيد اجمالي الربح بنسبة ٤٠٠ بالمائة. وأكد فان نيك ان هذا الربح لم يكن وليد قوة او قسر او ارهاب، على نحو ما أشاع المغرضون من اليهود البرتغاليين في امستردام بدافع الغيرة بل هو وليد تعامل تجاري حر وأمين مع تجار اندونيسيا والتزام بقواعد التجارة «لا تسرق ممتلكات أحد، بل التزم مبدأ الاستقامة في تجارتك مع جميع الأمم الأجنبية».*

وتكاثرت بسرعة كبيرة الشركات التجارية التي تعمل بالتجارة مع جزر الهند الشرقية. ومن المسلم به أن أيا منها لم يحقق النجاح الذي حصل عليه فان نيك في رحلته الأولى. والمعروف ان أربع عشرة سفينة فقط هي التي عادت من بين الاثنتي عشرة سفينة المذكورة آنفاً والتي غادرت الأراضي المنخفضة متجهة الى الشرق في عام ١٥٩١ ومع هذا فان اغراء تجارة التوابل كان قوياً الى حد أن أربعة عشر اسطولاً تضم خمساً وستين سفينة غادرت البلاد قاصدة جزر الهند الشرقية في عام ١٦٠١. وبات واضحاً الآن ان هذه

* H. Terpstra, jacol van Neck, Amsterdams Admiral an Regent (Amsterdam, 1950) pp.31-73

الشركات الـرائدة كانت تحاول ان تستأثر بكل شيء، وان التنـافس الضاري بينهـا أدى الى زيـادة أسعار الشراء في آسيـا وهـدد بخفض أسعـار البيع في أوروبـا. وجرى تنظيم هـذه الشركـات على أساس اقليمي أو محلي، واحتـدم التنافس بوجه خاص بين شركات هولندا وشركات زيلانده. ومنذ يناير ١٥٩٨ اقترحت ادارة عموم الـولايات أن تتجمع الشركـات المختلفة أو تتعـاون ودياً بدلاً من التـورط في منافسة مهلكـة غير ان هذه الـوصية بدأ تأثيرهـا ضعيفاً آنذاك. وجرت مفاوضـات طويلة ومضـنيـة قادها بكفاءة رجل الدولة الهولندي جوهان فان أولدن بارنفلت وسـاعده في هذا الأمير موريس بأن أعطى جهوده دفعة في اللحظة الحرجـة. وانتهت المفاوضـات بالوصـول الى نوع من التلاحم بين الشركات الـرائدة المتنافسة اذ دخلت في شركـة اتحادية احتكاريـة واحدة (٢٠ مارس ١٦٠٢) ولم يكن سبب امتداد المفاوضـات لفترة طويلة هو غيرة زيلاندا فقط، وهي غيرة طبيعية، من وضع هولندا الاقتصادي المتفوق عليها، بل وأيضاً بسبب ما جُـبِلَ عليه التجـار الهولنديون المؤمنون بالتجارة الحرة من عزوف عن أي شيء له طبيعة الاحتكار التجاري. زيادة على هذا فإن بعض كبـار المديـرين في الشركات الـرائدة مثل اسحق لـومير Isaac Le Maire وبالتكار دوى موشيرون Baltagar de Moucheron، وهما من الجنوبيين تحلوا بأمـزجة تماثل أمزجـة نجوم الأوبرا في القـرن العشرين، واقتضى هذا استثمار كل مـا تميز به أولـدن بارنفلت مـن صبر وأناة، وما تمتـع به الأمير موريس من نفوذ قوى في سبيل انجـاز تشكيل شركة الهند الشرقية للأراضي المنخفضة المتحدة (التي سنشير اليها فيما بعد بـأحرف الاختصار الهولندية فوك VOC. وبلغ رأسمال الشركـة حـوالي ٦,٥ مليـون فلـورين. وقسمت الشركة الاتحادية الجديدة الى ست غرف أو مكاتب اقليمية (Kamers) والتي اتخذت مكانا لها في مـواقع الشركات الرائدة السـابقة في امستردام وميدلبرج ودلفت وروتردام وهورن وانخويزن على الترتيب.

وبموجب الصك الذي منحتـه ادارة عموم الولايات لشركـة الهند الشرقية

الهولنديــة عام ١٦٠٢ نالت الشركة حـق احتكار التجارة الهولنديــة والملاحة شرق رأس الرجــاء الصالـح وغـرب مضيق مجلان لفترة أولية تمتـد الى واحد وعشرين عاما وأصبح المجلس الحاكم الذي يضم سبعـة عشر مديراً مفوضاً لعقد معاهـدات سلام وتحالف وشن حروب دفاعية وبنـاء قلاع وحصون في المنطقـة. وله ايضـا حق ضم شخصيات مـدنيـة وبحريـة وعسكريـة ممن يقسمون يمين الـولاء للشركة وعموم الـولايات. وهكذا أصبحت شركـة الـهند الشرقيـة الهولنديـة دولـة داخل الـدولـة، ولكن الحرب المتوقعـة من جـانب مؤسسيها هي مجرد اجراء دفاعي ضد البرتغاليين الذين يزعمون احتكارهم لتجارة أوروبـا في البحار الشرقيـة بناء على سلسلـة من المراسيم والـرسائل البابـوية صـدرت خلال القـرنين ١٥، ١٦. ولكن الترخيص بشن حـرب كان كافيا لاخافة عدد من كبار المستثمرين في الشركات الرائدة. ودفعهم الى الهرب من الميـدان وايثار بيع اسهمهـم بدلاً من تـحويلهـا الى شركـة الـهند الشرقيـة الـهولندية «نظـراً لأنهم باعتبارهم تجارا عمـدوا الى هذه الشركات لا لشيء الا من أجل العمل بشرف في مجال التجــارة على أســاس ودي وفي اطـار السلم، وليس للتورط في حـروب أو أعمال عدوانية. وتنبأ هذا النقد بـأن شركة الـهند الشرقية الهولندية ستنزع غالبا الى استخدام السيف دون القلم كلما كان ذلك مفيدا لـها.»*

وان انشاء وتنظيم شركـة الـهند الغربية، والتي حصلت على امتيـازها من عموم الـولايات في الثـالث من يونيو ١٦٢١ انما جـاء مطابقـاً في نواح كثيرة لشركة الهنـد الشرقية على الـرغم من أن الدور الـهجـومي للشركة الغـربية في الحرب ضد الامبراطوريـة الايبيرية الاطلسية قد تأكد منـذ البداية. وحصلت شركة الـهنـد الغربية على احتكـار كل التجارة والملاحـة الـهولندية مع امـريكا وغرب أفريقيا. وخولت الشركة بـالمثل حق شن الـحرب وعقدت اتفاقات سلام مع السلطات المحليـة والـحفاظ على قـوات بحرية وعسكـرية والقيـام بمهام

* اعلان ٤ ديسمبر ١٦٠٨.

قضائية وادارية في تلك المناطق. وتألفت من غرف اقليمية خمس – امستردام وزيلاندة (ميدلبرج) والماس (روتردام) والربع الشمالي وجرونجن مع فريزلاند، وان مجلس ادارة شركة الهند الغربية المناظر لمجلس ادارة السبعة عشر كان هو هيئة الادارة الرئيسية وتضم ١٩ مديراً. واستغرقت شركة الهند الغربية فترة أطول من الفترة التي استغرقتها شركة الهند الشرقية من أجل زيادة رأسمالها العامل – عامين بدلاً من شهر واحد – ولكن الاجمالي الذي بلغته كان أكبر كثيراً إذ تجاوز سبعة ملايين فلورين. والمعروف ان اقتراح تشكيل شركة باسم شركة الهند الغربية جاء في وقت مبكر جداً خلال القرن السابع عشر ولكنه أرجيء بسبب توقيع اتفاق هدنة الاثني عشر عاما بين اسبانيا والمقاطعات المتحدة عام ١٦٠٩. وكانت هذه الهدنة ثمرة لجهود أولدن بارنفلت ومؤيديه من بين الأغنياء من أبناء الطبقةالحاكمة وتم توقيعها على الرغم من الأمير موريس وقطاع كبير من تجار امستردام والمتطرفين الكالفنيين والمعروفين باسم «معارضة المعارضة» ولم تطبق الهدنة جيداً في المناطق المستعمرة، وتجددت الحرب رسمياً عام ١٦٢١ – عقب محاكمة واعدام أولدن بارنفلت بتهمة الخيانة العظمى وهي تهمة زائفة – وهيأ هذا الوضع لكل من شركة الهند الشرقية وشركة الهند الغربية مجالاً واسعاً لشن أعمال هجومية.

وعلى الرغم من أن اسبانيا كانت هي العدو الأول اللدود في أراضي الفلاندرز المجاورة، حيث تحولت الحرب باطراد الى حالات حصار متفرقة ومناورات عسكرية غير محسومة، إلا أن الهجوم الهولندي ضد العالم الاستعماري الايبيري كان موجها ضد الممتلكات البرتغالية اكثر منه ضد ممتلكات الاسبان. ومنذ الوقت الذي تحول فيه رجال شركة الهند الشرقية الهولندية الى الهجوم استولوا على امبوينا في عام ١٦٠٥ ركزوا على الحصون والمستوطنات البرتغالية في المنطقة الاستوائية سواء في ملقا او الملايو او سيلان او الهند. وعندما خاطروا بمهاجمة الاسبان في الفلبين لم يحالفهم

النجاح تماما. وهنـا نجد تباينا واضحـا وقويا بين عمليات الحصـار العنيدة والنـاجحـة التي قـام بها الهولنـديون ضـد ملقـا (١٦٣٥-١٦٤٠) وجـوا (١٦٣٨-١٦٤٤) وبين الاخفاق المهين لرحلاتهم الى الفلبين في الأعوام ١٦١٠ و١٦١٧ و١٦٤٧ - ١٦٤٨. وعجـز الهولنديـون حتى عن طرد الاسبـان من قلاعهم، وهي قلاع غير قوية التحصين، في تيرنيت Ternate وتيدور Tidore حيث بقي الاسبان فيها لاكثر من عقد من الزمان بعد توقيع معاهدة مونستر والتي انسحبوا على أثرها عنـدما هدد كوكسينجا Coxinga الفاتح الصيني لفور موزا الهولندية في عامي ١٦٦١-١٦٦٢ بغزو مانيلا.

وعلى الجانب الآخر من العالم نجد ان شركة الهنـد الغربية، وان كانت قد تأسست وعينهـا على امريكـا الاسبـانية وعلى فضـة المكسيك وبيرو الا انها تركزت عمليا على سكر البرازيل البرتغالية وعلى الذهب والعاج والعبيد في غرب أفـريقيا البرتغـاليـة. وان الطريقـة المثيرة الى أسر بها بيت هن Piet Heyn أسطول الفضة المكسيكي في خليج ما تانزاس الكوبي (عام ١٦٢٨)، كادت ان تطغى وتحجب واقع أن معـاصريه وخلفـاءه العاملين في خـدمة شركـة الهند الغربيـة حققوا بعض الانتصـارات الكبرى والقليلة نسبيا ضـد الأسبان. ان صيتهم وانتصاراتهم وغناهم حققوها في الغالب الأعم على حساب البرتغاليين في جنوب الاطلسي. وهذا هـو جوهام دي لايت Johannes de Laet المؤرخ المعـاصر - والمدير - لأعمال شركـة الهند الغـربيـة ينهي حولياته عن عـام ١٦٤٤ بكلمـة تنطوى على نغمـة النصر حيث يسرد تفصيـلاً قائمـة بأسماء السفن والغنائم التي استولت عليها قوات الشركة «من ملك اسبانيا» فيما بين عامي ١٦٢٣ و١٦٣٦ والقراءة المتأنية لهذه القائمة تكشف لنا عن أن الأغلبية السـاحقة من هـذه الخسائر انصبت على ممتلكـات وسفن التاج البرتغـالي - باستثناء أسطول الفضة في عام ١٦٢٨. وفي السنوات ما بين ١٦٣٦ - ١٦٤٨ كانت هجمات شركة الهند الغربية ضد امريكا الاسبانية اقل أهمية، فيما خلا بعثة بروويز Brouwer الى شيلي عام١٦٤٢ وقد ثبت انها اخفقت. وحدث ان

جردت هولندا البرتغال من نصف البرازيل وانجولا، ناهيك عن ساحل الذهب والرأس الأخضر، ولكن غزوتهم الوحيدة الجديرة بالذكر في البحر الكاريبي هي استيلاؤهم على كوراتشاو Curacao في عام ١٦٣٤ - وبالمقارنة بالجهود العظيمة التي بذلتها شركة الهند الغربية في جنوب الاطلسي نجد ان محاولاتها من أجل تأسيس «أراض منخفضة جديدة» نيونيذرلاند» فوق جزيرة مانهاتان وعلى ضفاف نهر هدسون لم يكن لها سوى صدى متواضع.

ومن الحقائق ان تمرد البرتغاليين في برنامبكو Pernambuco عام ١٦٤٥، وهو التمرد الذي دعمته سرا بشكل او بآخر الأرض الأم التي تحررت من سيطرة اسبانيا قبل ذلك بخمسة أعوام، هذا التمرد أرغم الهولنديين على الانسحاب الى ما وراء اسوار رسيف Recife ومن عدد قليل من أماكن أخرى على طول الساحل الشمالي الشرقي للبرازيل. وصحيح ايضا انه بعد بضعة شهور من تاريخ اعلان معاهدة مونستر استعادت حملة اراضي البرازيل Luso - Brazilian التي زودتها امستردام ببعض حاجتها من الذخائر ومستلزمات السفن - أراضي لواندا Luanda وطردت الهولنديين من انجولا في الوقت الذي كادوا فيه هم وحلفاؤهم من الزنوج ان يفنوا البقايا الأخيرة الباقية من البرتغاليين في الداخل. ومع هذا لم يكن يعتقد ان موقف الهولنديين في البرازيل بات ميئوساً منه ولا اصلاح لها، واعترف الملك فيليب الرابع صراحة قبيل معاهدة مونستر بحق الهولنديين في غزو جميع المستعمرات البرتغالية والاحتفاظ بها وهي المستعمرات التي ادّعت الشركتان الهنديتان العظميان انهما صاحبتا حق فيهما.

ويمكن القول ان معاهدة مونستر تشكل من نواح كثيرة الحد الفاصل للعصر الذهبي للمقاطعات المتحدة، فقبيل عام ١٦٤٨ كان الهولنديون عن يقين أعظم أمة تجارية في العالم دون منازع، ولها مراكزها التجارية الخارجية

«والمصانع» المحصنة المنتشرة في العـالم من أركانجل الى رسيف ومن نيو إلى امستردام الى نجازاكي. واذا لم تكن السيطرة على بعض هـذه الأماكن قـوية ومستقـرة فإن البعض الآخر حقق أربـاحاً مشجعـة. والواقع ان الانجـازات الهولندية في الميـاه الأوروبية وحدها كانت انجـازات مثيرة. وفي هذا يقول ك. ويلسـون: «لقـد استطاع بكفاءة استثنائيـة الاستيلاء على حوالي ثلاثـة أرباع عمليـات نقل الخشب، ومـا بين ثلث ونصف معادن السـويـد. ونقلت السفن الهولندية ثلاثة أرباع الملح الـذي تصدره فرنسا والبرتغال الى البلطيق. وأكثر من نصف الأقمشـة التي تستـوردهـا منطقـة البلطيق يجرى تجهيـزهـا أو صناعتها ملابس جاهزة في هولندا.* هذا جميعه عـلاوة على انهم كانوا اعظم المصدرين والموزعين لمختلف سلع المستعمـرات مثل التوابل والسكر والخزف وغيرها.

وهذا الانجـاز غير المسبوق مرده أسـاسا الى الطاقـة الديناميـة والروح التجاريـة التي سادت مـوانىء هولنـدا وزيلانـدا، اللتين تحملتا العبء المالي للحرب ضـد اسبانيا. وشكلتـا رأس رمح للتوسـع الاستعماري، وذلك بفضل الموارد التي حققتها لهم عمليات النقل بأساطيلهم والتجارة عبر البحار. ولهذا كان منطقيـا ان يستحوذ كبار التجار ومـلاك السفن في مدن هذه المقـاطعات على قيـادة الجمهوريـة الجديـدة، ويفيدوا من سيطـرتهم على مجالس المدن وولايات المقاطعـات لكي تكون الأولوية لمصـالحهم هم. وسبق أن رأينا كيف انـه عندمـا تضـاربت مصالح المقـاطعـات المختلفة بـدأت مصـالح هولنـدا وامستردام تكـون لها الغلبـة والسيادة شريطـة الاتفـاق فيما بينهما. ويعـد توقيع معاهدة مونستر خير مثال على هـذا ولقد كان خصوم المعاهدة كثيرين وأقوياء، ومن بين هؤلاء أنصـار آل أورانج الذين رغبوا في الحفاظ على التحالف الفرنسي ودعـم مصالح الأسرة الحاكمة عـن طريق الحاق الهزيمـة بالأراضي

* C.Wilson, Profit and Power. A study of England and the Dutch Ware (Cambridge, 1951)

المنخفضة الجنوبية ومساندة قضية ستوارت الفاشلة، وتأييد مقاطعة زيلاندا في حربها الخاسرة ضد البرتغال في البرازيل في حالة عدم وجود دعم كاف من الدولة لشركة الهند الشرقية، ومقاطعة اوترشت ومدينة ليدن انطلاقا من مزيج من الدوافع الدينية والسياسية. ومع هذا فإن حكام المدن الأخرى في هولندا، وأولها امستردام كان باستطاعتهم دفع المعاهدة وفرضها على الرغم من معارضة كثيرين من أبناء بلدهم ودون الرضوخ لملك اسبانيا ولمطالبه الملحة مثل فتح الملاحةَ عبر نهر شلد والسماح رسميا بالكاثوليكية الرومانية في المقاطعات المتحدة. وان اصرار الهولنديين على اغلاق نهر شلد لم يكن سببه فقط خوف امستردام من أن تستعيد انتويرب قدراً كبيراً من أهميتها كمركز تجاري دولي في حالة فتح طريق الملاحة عبر النهر بل بسبب خوف بعض موانىء جنوب هولندا وزيلاندا (روتردام وميديلبرج وفلاشينج) من أن تتدهور تجارة العبور الخاصة بهم أيضا.

وأوضحت معاهدة مونستر ان الحركة التي بدأت قبل ثمانين عاما في صورة انفجار غضبة شعبية انتهت بتشكيل جمهورية اتحادية غير محكمة الترابط وعلى رأسها فريق من أغنياء التجار. وقبل ان نناقش هؤلاء الحكام من مواطني المدن بتفصيل اكثر، قد يكون من الجدير ان نسأل إلى أي درجة نشأت أمة جديدة تحت قيادتهم. وإذا ارتضينا معيار الوعي بالقومية الذي وضعه رينان – وجوهره «توفر مهام عظيمة مشتركة ومتكاملة وارادة فعلها ايضا، فإن انتصارات عام ١٦٤٨ ترقى الى هذا المستوى. آن لهم ان يستعيدوا بفخر ذكرياتهم عن هذه الأعمال البطولية مثل حصار ليدن واغاثتها، والحملات المظفرة بقيادة موريس وهنري فريدريك، واستيلاء بيت هن على اسطول الفضة، وتدمير أحد جيوش الأرمادا الاسبانية عند مضيق جبل طارق (١٦٠٧) وتدمير آخر في «غرفة ملك انجلترا في داونز Downs (١٦٣٩)، وفي هذه السنة الأخيرة تغنى الشاعر جوست فان دن فوندل في احدى قصائده بالتوسع الذي لا نظير له الذي حققته التجارة الهولندية «إذ

وصلت أراضي بعيدة غريبة بلغت أقاصي مشرق الشمس». وعكست هذه القصائد مشاعر كثير من الهولنديين ومجلس ادارة الـ ١٧: «الى حيث يقودنا الريح إلى جميع البحار والشواطىء، حبا في امتلاك مرافىء العالم الرحيبة التي نستكشفها». وإذا أخذنا عظائم الأمور والمهام التي تحدث عنها رينان ورأينا انها تشتمل على التعليم والآداب والفنون البصرية فإن ثمة أسماء تكفي لتذكرنا بانجازات الجمهورية الفتية مثل أسماء جروتيوس وهيجينز وهوفت وفوندل وهالز ورمبرانت. أما عن المستقبل فإن الهولنديين تطلعوا في ثقة الى مزيد من التوسع في جزر الهند الشرقية. وعلى الرغم من أن وضعهم في البرازيل كان محفوفا بالأخطار إلا أنه كانت لا تزال هناك امكانية انشاء امبراطورية لهم في جنوب الاطلسي.

لهذه الأسباب، ولغيرها، كان كثير من أهالي المقاطعات المتحدة في الأراضي المنخفضة الحرة يدركون بكبرياء أنهم فعلا أمة حرة على طريقتهم الخاصة. ولكن كان لا يزال هناك كثيرون آخرون تؤرقهم شكوك مثيرة، أو من يعوزهم سبب خاص يدعوهم الى الابتهاج بالسلم الذي أقرته معاهدة مونستر. وزعم الكالفنيون المناضلون آنذاك ثقتهم في بناء أمة كرما وتعطفا من الله وبعونه تعالى وتأييده الفعال. بيد أنهم نظروا الى أبناء بلدتهم ممن لا يزالون على عقيدتهم الكاثوليكية الرومانية، وهم كثيرون، باعتبارهم مواطنين من الدرجة الثانية مع احتمال ان يصبحوا خونة. بل انهم نظروا شزرا الى كثيرين من المنشقين البروتستانت باعتبارهم أضعف عودا ومن ثم أخوة ولكن اقل شأنا. والافتقار الى أمير أو ملك كان سببا لمزيج من الحرج والأسف بين بعض قطاعات السكان وان تباينت اسباب كل فريق. ونظراً لأن التمرد الأصلي كان موجهاً ضد أميرهم الشرعي فان هذه الحقيقة لم يكن من السهل نسيانها في الداخل أو في الخارج. بل ان رجلا جمهوريا متشدداً مثل جوهان دي ويث عبّر فيما بعد عن قلقه ازاء هذه النقطة. وتفاقمت مشاعر الغيرة فيما بين المقاطعات بالنسبة لبعض الأمور لمجرد نجاح عملية التوسع الهولندي عبر

البحـار والى ما قبل عـام ١٦٤٨ امكن استيعـاب ابناء مقـاطعـات برابـانتر والوللـون والفلاندرز الذين هـاجروا من الأراضي المنخفضة الجنوبيـة خلال العقود الأولى من حرب الثمانين عاما، هذا على الرغم من ان امستردام كانت لا تـزال تضمن غيرة ممن كانـوا اكثر نجـاحاً، هم وابنـاؤهم ولكن كان هنـاك أجـانب كثيرون ومهـاجرون لم يتم استيعـابهم كـاملاً داخـل الجمهوريـة الهولنديـة، وكان يمكن ان يصبحوا مصـدر ضعف، خاصة في حـالة الحرب، ضد أي جيش يتألف أساسا من مرتزقة أجانب.

وأخيراً كيف نظرت الأمم الأوروبيـة الأخرى والأكثـر عراقـة الى النشوء المفاجىء للجمهـورية البرجـوازية التي حظيت بأول اعتراف عـام بها في عام ١٦٤٨؟ يتعين دائماً أن نغفل من الحسـاب انتقـادات أبنـاء الأسر المالكـة والمنافسين التجـاريين. وليس لنا ان ندهش لأن جيمس الأول أبدى مـلاحظة لها طبيعتها السيئة عن هـولندا في عام ١٦٠٧ حين قال «ليدعـوا جانباً أولئك المتعطشين بطريقة ملؤها الغرور الى ان يحملوا لقب دولة حرة». ومن الأهمية بمكان أنـه بعد توقيع معـاهدة مـونستر بقرن من الزمـان وبعد ان اصبحت بريطانيا العظمى والمقاطعات المتحـدة حلفاء ثم أعداء على التوالي، إذا بنا نجد المفـوض الانجليزي في مـدريد يكتب في تـواضع عن نظيره الذي وصل لتـوه فيقول: «إنه شـاب حقاً ولكنه كريم ودود، وتبدو عليه الكثير من سمات المحتد النبيل أكثر من أي إنسـان آخر سبق لي أن رأيته من أبناء امتـه ان كان لنا أن نسميها أمة»*

* Keene to Castries, Madrid, 14 March 1949 Clpud R. Lodge: the Rrivate Correspondence of Sir Benjamin Keene, K.B. Cambridge, 1933, pp. 106.

الباب الثاني

حكومة الأقلية من أغنياء المدن والمغامرين التجار

الخاصة من أبناء المدن الذين انتصروا بمعاهدة مونستر كانوا متخلفين من نواح كثيرة عن آبائهم وأجدادهم الذين تحملوا عبء النضال ضد أسبانيا خلال أيام الأمير موريس وليم سايلنت. فبعد ان كان الخاصة من أبناء المدن طبقة معنية أولاً وأساساً بالتجارة وثانيا بالحكم والإدارة محليا، إذا بهم في عام ١٦٤٨ يضعون أقدامهم على أول الطريق ليصبحوا أقلية مغلقة من الحكام الأغنياء ولتكون الأولوية في نظرهم هي النقيض تماماً. ففي عام ١٦١٥ أكد عمدة امستردام بأن حكام المدينة كانوا اما تجارا نشيطين أو أولئك الذين تقاعدوا مؤخراً عن ميدان الأعمال. وبعد سبعة وثلاثين عاماً نجد تجار امستردام يشكون من ان حكامهم لم يعودوا تجاراً كما كانوا، ولا نشطين غارقين في أعمال التجارة عبر البحار، بل باتوا يحصلون على دخلهم من ريع البيوت والأراضي وفوائد الأموال. بعبارة أخرى اصبح التجار ذوي أملاك يعيشون على ريع املاكهم. وانطوت هذه الشكوى الفريدة على مغالاة واضحة اذ يكفي ان يفكر المرء في الإخوة بيكر اصحاب النفوذ وفي تجار وحكام امستردام أصحاب فكرة الدفاع عن المدينة ضد الأمير وليم الثاني في عام ١٦٥٠ والذين امتدت علاقاتهم التجارية واتسعت لتشمل الجزء الأكبر من المعمورة زيادة على هذا فإن بعض الحكام في المدن اعتادوا العيش أساسا على دخولهم من عائد العقارات، ولم يعطوا التجارة إلا قسطا ضئيلا من اهتمامهم. بيد ان شكوى عام ١٦٥٢ عكست في الحقيقة واقعا هو أن الكثيرين من أبناء طبقة الحكام بدأوا يتحولون من اطار المشاركة النشطة في التجارة الى العيش اعتمادا على عائد الأرض والاستثمارات ودخولهم السنوية علاوة على

مرتباتهم المتواضعة. وازداد هذا الاتجاه وضوحا مع الزمن على مدى القرن السابع عشر وإذ بأحفاد من كانوا الأقلية الغنية الحاكمة من التجار في الثلاثينات أصبحوا هم الأقلية الغنية الحاكمة من أبناء المدن «البرجوازيين» في التسعينات من هذا القرن. ولكن يجب ان نتذكر ان عضوية المجلس المحلي في امستردام كانت مهنة تقتضي التفرغ الكامل لشاغليها قبل ١٦٥٠. إذ كان التجار أعضاء المجلس لا يكادون يجدون وقتا لمراعاة شئون أعمالهم. ومن ثم كان حتمياً بشكل أو بآخر الفصل بين العمل والوظائف الحكومية وبين المشاركة المباشرة في التجارة، وأصبحوا طبقة رسمية في الغالب الأعم، إلا أنهم ظلوا على علاقة وثيقة من خلال الاستثمار والتصاهر بأغنياء التجار ورجال المصارف في المدن. وبهذا ظلوا مدركين ان رخاء المقاطعات السبع رهن بالتجارة عبر البحار. ومع مرور الزمن شاع التصاهر بين الأسر الحاكمة وأغنياء التجار المتساوين من حيث المكانة الاجتماعية وان لم تحدث هذه العملية طفرة واحدة. إذ كان لزاما على اسرة العاملين في التجارة ان تعيش حياة الترف سنوات طويلة، ربما لجيل أو جيلين قبل ان يتمكن أحد أبنائها من مصاهرة أسرة من أسر وجهاء المدن ومن ثم تبدأ طريقها صاعدة سلم المناصب الادارية المحلية من أدناها الي أرقاها.

وكما أشرنا في الفصل السابق فان الفوارق بين مختلف المقاطعات كانت كبيرة وواضحة في مجالات بذاتها بحيث ان التعميم بشأن البنية الاجتماعية للجمهورية الهولندية قد يضللنا. ولكن نظراً لأن هولندا كانت حتى ذلك الوقت أهم المقاطعات السبع، وحيث ان هذا الكتاب معني أساساً بالجمهورية الهولندية كامبراطورية بحرية، لذلك فإننا سنستمر في اغفال أمر أغنياء الفلاحين في فريزلاند، وملاك الأراضي في جلدرلاند ومستأجري الأراضي الزراعية في أوفرجيسيل وذلك بهدف تركيز انتباهنا على الحكام والتجار والتجارة في هولندا وزيلاندا.

ان الانتقال من أوليجاركية التجار الى اوليجاركية ذوي الأملاك

الـذين يعيشـون على الـريع، والتي شغلت الجانب الأكبر مـن القرن السـابع عشر في مقاطعة هولندا انما تمثله أجيـال ثلاثة من أسرة هوجان دي ويت jo- han de witt «الـهولنـدي الكامل» كما وصفـه سير وليم تمبل، وواحـد من أعظم من شـهدتهم هـولندا في جميع العصـور. إذ كانت أسرتـه لـها ممثلها في مجلس مـدينة دور درشت منذ نهايـة القرن الخامس عشر، ثم بـرز نجمهم وبلغ السمت بعد ١٥٧٢ – عندما وقفوا الى جانب وليم الأول والكالفنية. وولد كورنيليس ذي ويث في عـام ١٥٤٥ وورث عن أبيه تجارة مـزدهرة في أعمال الأخشـاب، التي واصل العمل فيها بشخصه وان لم تستغرق كل وقته. وشغل مـرارا منصب عضـو المجلس التشريعي وعمـدة لمدينـة دور دريشت خـلال السنوات ١٥٧٥–١٦٢٠، وممثلا لمقاطعة هولنـدا في أدميرالية زيلاندا خلال السنوات ١٥٧٥ – ١٦٢٠ وممثلاً لمقاطعة هولنـدا في أدميرالية زيلاندا خلال السنوات ١٥٩٦–١٥٩٩ وكان أكبر المساهمين في غرفـة زيلاندا لشركة الـهند الشرقية الـهولنـدية في عـام ٢١٦٠. ودرس أبناؤه الثـلاثة انـدريس وفـرانز وجاكوب القانون وقاموا برحـلات عديدة خارج البلاد وهم لا يزالون في سن الشباب، ممـا أهلهم فيما بعد لشغل منـاصب رسمية وادارية محليـة – وهو أسلوب كاد يمثل قاعدة عامة يجرى تطبيقها على ابناء الحكام. وعلى الرغم من أن جاكـوب واصل عمل أبيه لبضع سنوات، إلا أنه عمل أيضـاً امين صندوق لمجلس دورد Dordt في عام ١٦١٨ وشغل مكان أبيـه في مجلس المدينة بعد موته في عام ١٦٢٢. ثـم شرع يركز اكثر فأكثر على واجبات مهـامه الرسمية وتخلص من الأعمال التجارية للأسرة فيما بين عامي ١٦٣٢ و١٦٥١. وشغل مراراً منصب عضو بـالمجلس التشريعـــي ومنصـــب العمدة. ومثل دور درشت في ولايات هولندا وفي ادارة عموم الولايات. وكان عضـــوا في كثير من اللجـــان الرسمية، ومبعـوثا الى السويد في عام ١٦٤٤، وخصما مبرزا لوليم الثاني في عام ١٦٥٠.

وعلى الرغم من أن جـاكوب دي ويث عيّره خصم سيـاسي في عام ١٦٤٧

بأنه من أسرة محدثة النعمة إلا أنه كان يشعر يقينا بسعادة الانتساب الى طبقة الحكام، وثقته بالرأي القائل: «إذا كان ابن المدينة صغيراً فسوف يظل صغيراً». وهو نموذج للاتقياء من أبناء الطبقة الحاكمة اذ كان يعارض بحزم أي تدخل من جانب الكنيسة في الخطة السياسية على الرغم من التزامه بحضور صلوات الكنيسة ومواظبته على قراءة الانجيل وكان يؤم اسرته في صلواتها كل يوم. وسار أشهر ابنائه جوهان دي ويت على نهج ابيه مخلصا تقيا ومدافعا عن سلطة وامتيازات الطبقة الحاكمة. واعتاد ان يؤكد الأشخاص غير المؤهلين والذين هم من أصل وضيع ليس لهم دور مع الحكومة والإدارة اللتين يتعين قصرهما على المؤهلين وحدهم. وحصل جوهان دي ويث وأخوه كورنيليس على تعليم متميز في مجال الكلاسيكيات في مدرسة دور درشت الشهيرة ودرس القانون في جامعة ليدن وإنه حصل على درجته العلمية من جامعة هوجونت في انجرز. ولم يهمل تربيته البدنية مما ساعده على تكوين بنية قوية تتحمل اعباء ساعات العمل المضنية ومراجعة التقارير وهو عمل استمر في أدائه سنوات. وتميز بالطلاقة في اللغة الفرنسية مع دراية باللغات الأنجليزية والالمانية والايطالية، وتميز كذلك في الرياضيات، وكتب رسالة عن الدخول السنوية مدى الحياة (١٦٧١) التي أهلته ليكون مؤسس علم التأمين على الحياة.

وفي الأعوام ١٦٤٥-١٦٤٧ قام الأخوان الشابان دي ويت بما أسماه جوهان «الجولةالعظمى» عبر القطاع الأكبر من فرنسا وجزء من انجلترا بعد زيارة قصيرة لأبيهما في ستوكهلم. وعند عودتهما من أسفارهما الى وطنهما تخصص الأخوان في اعمال المحاماة، ولكن ظل كورنيليس في دوردرشت بعد انتخابه عضوا بالمجلس التشريعي وقراره بأن يستن سنة أبيه، بينما جوهان الذي مارس مهنة المحاماة فترةوأجادها في لاهاي انسحب تدريجيا منها ليشغل منصب قاضي الصلح في دور درشت (ديسمبر ١٦٥٠) ثم وزيراً أول لولايات هولندا (يوليو ١٦٥٣). وكذلك فإن زواجه بوانديلا بيكر ذات الثراء

الـواسع في عـام ١٦٥٥ جعلـه وثيق الصلة بـالأعضـاء القيـاديين من الأسر الحاكمة المسئـولين عن مجلس المدينة في امسـتردام لسنوات طويلـة وأفاد من هذه الصلة كثيراً. وان ما أصـابه بعد هذا من نجاح كرجـل دولة أمر معروف وشائع تماماً بحيث لا يحتاج الى تكراره هنا. ولكن قد يكون من المهم ان نذكر انه على الرغم من ان وضعه هذا كان وضعـا رسمياً خالصاً، وانه استثمر كل أمواله في صكوك حكومية، إلا أنه كان من بين أصدقائه رجال أعمال مثل جين دويتش Jean Deutej رجل المصـارف والتاجـر في امستردام وكذلك رجـال الصناعة في ليدن وغيرهم، وحيث انه كان ميسورا في بداية حياته العملية فانه خلّف ثروة تقدر بنصف مليون جيلدر عندمـا وافته المنية. وجمع ثروته هذه بفضل اسلـوبه الاقتصـادي في الحياة واستثماره النـاجح لأمـواله وأمـوال زوجته*.

وأسرة دي ويت في دور درشت نمـوذج لحكام المدينـة على مدى أجيـال عديـدة، إلا أن عمليات الصعـود المفاجيء الى مقـاعد السلطـة المحلية كـانت معروفة الى حد ما قبل أن يصبح الحكـام أقلية غنية «أوليجاركية» تعيش على الريع مغلقة على ذاتها. مثال ذلك فرنسيس بونينج كوك، الشخصية المحورية في لوحة رمبرانت «حارس الليل» والـذي شغل منصب عمدة امستردام في عام ١٦٥٠، اذ كـان فـرنسيس سليل أسرة أصـابها الثراء فجأة، وهنـاك أيضـاً العلامـة نيتولا تولب وهـو مألوف لنا أيضاً من خـلال لوحة أخـرى رسمها رمبرانت وعنوانها «درس التشريح» – كان أيضاً رجلا من أصل متواضع ثم ارتقى فجأة ليكون عمدة لامستردام، بيد ان هذه الأمثلة أضحت اكثر ندرة مع مرور الزمن خلال القرن السـابع عشر، ثم اكثر واكثر في القرن الثامن عشر. زد على ذلك ان طبقة الحكـام وان كانت حقـا سليلة طبقة التجـار، إلا أن هذا النسب ليس وضعا شاملاً خاصا فيما يتعلق بالمدن الأصغر شأناً وحجما. ان

* N. Japkse, Jahan de witt (Amesterdam 1928)

مشكلة أصول الطبقة الحاكمة وتطورها التدريجي لتصبح «أوليجاركية» أوأقلية غنية من سكان المدن انما تستلزم بحثا مستفيضا ودراسة تفصيلية على نحو ما أوضح مؤخراً د.جـ. روردا في دراسة تتسم بالبصيرة النافذة عن الطبقات الحاكمة في هولندا خلال القرن السابع عشر.

وأيا كانت الأصول التي نشأت عنها اوليجاركية المدن. والمدى الذي وصلت اليه كطبقة حاكمة محددة المعالم خلال حقبة ادارة جوهان دي ويت، أو حقبة «الحرية الحقة» كما سماها أنصارها والمعجبون بها، فإننا نجد كل هذا واضحا في الدراسة الكلاسيكية التي تضمنها كتاب «ملاحظات عن المقاطعات المتحدة للأراضي المنخفضة» تأليف سير وليم تمبل، الذي عرف الجمهورية معرفة جيدة على مدى السنوات التي سبقت مباشرة صدور كتابه (١٦٧٢)*

«تلك الأسر التي تعيش على عقاراتها الموروثة في جميع المدن الكبرى، هم اناس ذوو مشارب وتربية مغايرة لمشارب وتربية التجار، وان تشابهوا معهم في تواضع الزي والعادات فضلاً عن البخل وامساك اليد في الانفاق على متطلبات العيش. قضوا شبابهم عادة في المدارس وفي جامعات ليد أو أوترشت ودرسوا الدراسات المعتادة وان عنوا بدراسة القانون المدني الخاص ببلدهم. ونظراً لثراء هذه الأسر فإن شبابهم بعد ان يكملوا دراساتهم في أوطانهم يسافرون لعدة سنوات شأن عادة ابناء الطبقة الراقية، وتتركز أسفارهم أساساً الى انجلترا وفرنسا، وقليلاً الى ايطاليا، ونادراً الى اسبانيا، وأحياناً الى أقطار الشمال. والهدف الرئيسي من تربيتهم هو تهيئتهم ليكونوا صالحين لخدمة بلادهم في حكم المدن والمقاطعات والدولة، ونجد من بين هؤلاء كبار المسئولين في الحكومة وهم من أبناء الأسر التي استأثرت لسنوات طويلة

---

* الفقرات الواردة هنا اقتبستها من الصفحات ١٦١-١٦٤ طبعة ١٦٧٦.

بحكم المدن بل ومنهم من تولى المناصب لأجيال عديدة».

كان هذا هو طراز أغلبية، وربما جميع الوزراء الأساسيين وأعضاء المجالس الكبرى، وهذا هو ما لمسته خلال اقامتي بينهم، اذ لم يكونوا من رجال الأعمال التجارية الوضيعة أو الحرفية على نحو ما كان متبعا بين الأجانب وكان موضوعاً لدعابات ساخرة يطلقونها عن حكوماتهم. وهذا ليس من شأنه ان ينفي وجود كثيرين من التجار يشغلون مناصب أساسية في قيادة مدنهم او ان يكونوا أحياناً نوابا عن ولاياتهم، ولا أن نرى ولايات عديدة يتولى مسئولية التجارة فيها موظفون تخصصوا لهذا الغرض. ولكن ادارة عموم الولايات وحكامها هم من النوع الآخر، وكانت ممتلكاتهم هي دخولهم وعائداتهم التي يتقاضونها مقابل مسئولياتهم العامة، أو ايجارات الأراضي أو فوائد أموالهم في الخزائن العامة كانتورات Cantores أو في أسهم شركة الهند الشرقية أو حصصهم ضمن أعمال تجارية يتولاها كبار التجار.

وهذه الأسر التي اعتادت حكم مدنها ومقاطعاتها لم تكن لتحقق لنفسها ثروات طائلة، إذ كانت رواتب الوظائف العامة ضعيفة وعائد الأراضي أدنى من الرواتب، ونادراً ما يتجاوز الربح اثنين بالمائة. واعتادوا ان يقنعوا انفسهم بشرف العمل لمصلحة المجموع، مع تقدير واكبار مدنهم او بلدهم لهم، ثم هدوء البال ازاء ثرواتهم التي نادراً ما تخفق بسبب التزام الاقتصاد في شئون حياتهم.

ونجد الثروات الطائلة التي تتزايد بصورة مفرطة بين صفوف التجار الذين لا عمل لهم غير التجارة ويقنعون بأن لا يساهموا في شئون الحكم الا بأقل نصيب ممكن، وتنحصر رغبتهم فقط في تأمين ممتلكاتهم، لا تؤرقهم اي هموم أخرى فيما عدا ثرواتهم وتصريف أمور تجارتهم واستثمار الفائض من وقتهم وفكرهم للتسرية عن أنفسهم. ولكن ما أن يحقق هؤلاء ما يصبون

اليه من ثروات حتى يختاروا تنشئة ابنائهم على الدرب نفسه وتزويج بناتهم من أزواج من ابنـاء العائلات الأخرى الـذين يحظون بثقـة مدنهم وتفـرغوا لحكمها. وهكذا تسلك اسرهم السبيل الى حكم البلد ونيل المجد والشرف وهي أمور لا تعتمد على لقب بل على العمل العام.

والجديـر بـالـذكـر ان سير وليـم تمبل حين صنف ابنـاء الأسر حسب مراتبهم وضع أبناء الارستقراطية القديمة من ملاك الأراضي والنبلاء أصحاب الألقاب في مرتبة ادنى كثيراً من طبقة الحكام من حيث الأهمية. وأضاف قائلاً انه على الرغم من ذلك يرون أنفسهم أكبر شأنا من النبلاء في بلدهم على عكس ما هو مألوف في بلدان أخرى، ويرون كذلك انهم يحطون من شرفهم بالزواج بأحد دون مستواهم حتى وان كان الـزواج هو السبيل الى تكوين ثروة لأسرة نبيلة. بعبـارة اخرى نقـول ان طبقة النبـلاء من ملاك الأراضي في هـولندا - حيثما وجدت - كانت أقرب الى ان تكون ارستقراطية مغلقة، مثل ارستقراطية ملاك الأراضي في فـرنسا واسبـانيا والبرتغـال وليست كطبقة الارستقـراطية المنفتحـة في انجلترا التي تسمح بـالزواج المتبـادل مع اسر دخلت مـؤخـراً في صفوف الأسر النبيلة بعد ان حقق رجـالها ثروات عن طريق التجارة او العمل السياسي او القانون. ولم يكن نبلاء هولندا عادة من كبار ملاك الأراضي الذين يمتلكون مسـاحات شاسعـة، بل ان اكبر الممتلكات العقـارية في فريـزلاند لا يمكن مقارنتها بالأراضي الشاسعة التي يملكها كثيرون من النبلاء الأوروبين ابتداء من بولندا الى البرتغال.

واستنكـر سير وليم تمبل ميل نبلاء هـولندا الى محاكـاة الارستقراطيـة الفرنسية في سلوكها ولباسها، ولكنـه اقر بأنهم فيما عدا هذا نوع من الناس ذوي أمانـة واستقامة وود ورقة حـاشية، وانهم اذا ما اضطلعوا بمسئـولية عمل بـاسم بلـدهم فانهم يبلـون بـلاء حسنـاً يستحقون مـن أجله الثنـاء والتقديـر. وكانـوا بطبيعتهم من انصار آل أورانج، وان كـان هذا لا يمنع ان

نجـد بين صفـوف الحكـام ومن عهـد وليم الثـالث (١٦٧٢-١٧٠٢) بعض النبلاء من أمثـال جاكـوب فام واسينـاير فان او بـدام. قائد عـام الاسطول البحـري الهولندي خـلال الأعـوام ١٦٥٥-١٦٥٥ الـذي كان يفضل قيـام جمهورية برجوازية بدلا من الامارة سواء عن اقتناع شـخصي او بسبب الغيرة من بيت آل أورانج. أمـا عن العلاقـات الاجتماعية لـلارستقراطيـة القديمـة الحاكمـة مع سكان المدن فإننـا نجد مـلاحظة كتبهـا زائر انجليزي في عـام ١٩٨٥ يقول فيهـا: ان اولئك الذين يحكمـون انفسهم عن حكمـة واعتدال – ويتآلفون مع من هم دونـهم يحظون بقدر كبير من التوقير والتقدير والشعبية بينما اولئك الـذين يتصفـون بالجفـاء والتعـالي يكـونون عـادة مكـروهين محتقرين.*

وكان من المألوف لدى جميع الرحالة. الأجانب في المقاطعات المتحدة خلال العقود السبعة او الثمانية الأولى من القرن الســابع عشر ان يروا ابناء الطبقة الحاكمة وطبقة التجار بل (ولدرجـة أقل) والارستقراطية من النبلاء وضباط الجيش أكثر واقعيـة «انفتاحا» من نظرائهم في البلـدان الأخرى. ويبدى سير وليم تمبل ملاحظـة بشأن ميشيل دي رويتر وجوهـان دي ويت الأول الذي يحظى بتقديـر الأمم الأجنبية باعتبـاره بحارا عظيما، والثاني بـاعتباره رجل دولة عظيماً بالقياس الى أقـرانهما في عصرهما لم يكن بالامكان التمييز بينهما من حيث اللباس اليـومي والسلوك العام وبين أي ربـان بحر عادي بـالنسبة للأول أو أي مـن سكان المدن بالنسبـة للثاني. وكـان أهل بيت كل منهما على القـدر نفسه من التـواضـع وعلى الرغم من أنهما جمعـا ثروة كبيرة الا أن أيـا منهما لم يكن يخدمـه، خارج البيـت او داخله، أكثـر من خـادم واحد يتبعـه ويـلازمه. ويضيف سير وليم الى ذلك قـولـه «ولم يكن هذا الأســـلوب في الحياة شأن هذين الرجلين فحسب بل كان هو النمط العام السائد بين جميع حكام الولاية. وانا هنا لا اتحدث عن ضباط الجيش الذين يعملون باعتبارهم

* رواية غير منشورة رواها جيمس مونسون عن رحلته عبر بلدان غرب أوروبا في ١٦٨٥/١٦٨٦.

مستخدمين لهم، ولهم زيهم المتميز، وان كانوا عادة اكثر تواضعاً من سواهم في البلدان الأخرى. ولا ريب في ان الكالفنية كان لها تأثيرها هنا في الالتزام بهذه الواقعية وسوف نرى كيف ان سكان المدن العاديين في امستردام وميديلبرج حينما انتقلوا الى جزر الهند الشرقية والغربية أغرقوا انفسهم في مظاهر الأبهة والخيلاء على نحو ما فعل اسلافهم من أهل جزيرة ايبيريا ومثلما فعل منافسوهم الانجليز.

ولاحظ كثير من المعاصرين ان الطبقة الراقية بدأت في الربع الأخير من القرن السابع عشر في اتباع اسلوب جديد في الحياة يتسم بقدر اكبر من التفاخر والترف. مثال ذلك ان انجل Engel ابن ميشيل دي رويتر وقد كان عَزَباً عاش حياة تتسم بقدر كبير من الاسراف على نحو لم يكن مألوفا بالنسبة لأبيه، إذ كان لدى انجل بيت في المدينة مؤثث تأثيثاً فاخراً ويعمل فيه خادمان وخادمتان وسائق علاوة على هذا احتفظ انجل لنفسه ببيت كبير في الريف اعتاد ان يقضي فيه أجازة نهاية الاسبوع وأجازة الصيف. وسار على الدرب نفسه كونيليس ترومب، الضابط البحري، وابن م.هـ. ترومب القائد البحري الشهير،. إذ عاش الابن حياة ترف فاقت حياة أبيه الذي كان يقنع بتناول سمك الرنجة كطعام افطار له. وتزوج كورنيليس بفتاة من بنات عائلة من حكام امستردام، وعاش سنواته الأخيرة كواحد من كبار السادة يتنقل ما بين بيته في مدينة هرينجراشت في امسترادم وبين بيته الريفي الفاخر في جرافلاند. وها هو وليام كار القنصل الانجليزي في امستردام، والذي نشر وصفه لوقائع الحياة في المقاطعات السبع لأول مرة في عام ١٦٨٨، يعرب عن صدمته ازاء الزيادة الواضحة لحياة الترف بين ابناء الطبقة الحاكمة واثرياء المدن وهي الحياة التي سادت خلال الأعوام الستة عشر منذ ان كتب سير وليم تمبل كتابه الشهير اذ يقول وليم كار ان حياة الشظف والاقتصاد تلاشت تماما او كادت في هولندا، الآن ولا تكاد تقع العين على مظاهر التواضع، اذ بدلا من البيت المريح يقيم الهولنديون الآن قصوراً فاخرة

باذخـة، ويمتلكون الحدائق البهيجـة وبيوتا تتـوفر فيهـا كل مظاهـر المتعة والترف، فضـلاً عن العربات والمركبات المختلفـة والجياد المطهمة بأفخر أنواع السروج والـزخارف والأجـراس الفضية .. وتغير بنفس القـدر مزاج النسـاء والأطفـال بحيث لا يرضيهـم غير أفخر وأغلى أنـواع الثيـاب التي تزهـو بها فرنسا والبلدان الأخرى، وأدمن الأبناء الميسر الذي أدى إلى دمار أسر كثيرة في امستردام*.

ان الأحكـام النقـديـة القاسيـة التي أطلقهـا كـار، وكـذلك آخـرون من المعاصرين ممن يمكن ان نورد أحكـامهم هنا، انما تنطبق أساسا، وربما على مقـاطعـة هـولندا فقـط، وتصدق بشكل أخـص على البرجوازيـة الثـريـة في امستردام ولاهـاي. والملاحظ ان تأثير الكالفنيـة على هـذا القطاع المتميـز من المجتمع الهولندي لم يكن واضحاً جـدا مثلما كان الحال في اماكن أخرى. وان الشباب الثري الذي قام بما عرف باسم «الجولة الكبرى» قد تأثروا دون شك بما شاهدوه في انجلترا، وفي فـرنسا قبل انجلترا. وثمة عامل آخـر ربما ساعد على غرس وتعزيـز نزوع استعراض البذخ والتفـاخر بالثروة الا وهـو عودة أولئك الـذين صنعوا ثـرواتهم في جزر الهنـد الشرقية. ان هـؤلاء الهولنديين، أقران وأسلاف الوجهاء والأثريـاء الانجليز في القرن الثامن عشر، قد اعتادوا حياة الترف والبذخ التي عـاشوها في المنطقة الاستوائيـة، وتلاشى عندهم أي ميل للتلاؤم مع حياة التطهر بعد عودتهم الى أرض الوطن. وأيا كان الأمر فإن الفن والعمارة في هولندا خـلال هذه الحقبة يعكسـان بـوضوح هذا التغير على الـرغم من أن الطبقات الهولنـديـة الحاكمة ظلـت دائماً وأبدا أقل اسرافـا من ارستقراطية انجلترا وفرنسا. ويلخص وليـم كار بصـورة جيدة الموقف آنذاك حين أبدى مـلاحظة قـال فيها: على الـرغم من ان الهولنـديين لم يدمنـوا هذا الطـراز من الاسراف والترف الذي شـاع بين الانجليـز ... إلا أن أهل الوقـار

* Temple, Obeervation [ed. 1676] pp. 128-9
* W. Carr, Accurate Description. [ed. 1691] pp. 71-4

والرزانــة من الهولنديين كانــوا شديــدي الحساسية ازاء هــذا التحول الكبير الذي يجرى الآن في هذا البلد.

وهناك واحد «من أهل الوقار والرزانة في هولندا» عبّــر عن حالة الانزعاج حتى وقتما اعرب سير وليم تمبل عن اعجابه بما تتصف به الطبقة الحاكمة في هولندا من اقتصاد وتواضع. ذلك ان كـاتبا مجهولاً ألف في عام ١٦٦٢ كتيباً اشتكى فيه من أن صغار البقالين والخيـاطين والاساكفة وأصحاب الحانات وزوجات كل منهم باتوا يـرفلون في الحرير والمخمل بحيث يتعذر على المرء ان يميز بين هؤلاء الـذين هم من منبت وضيع وبين سادتهم في المجتمع. ومضى في حـديثه مـؤكـداً ان الأمور ســارت الى مثل هــذا المأزق الخطير من ان «ابن العامة بات يظن ان من حقه ان يرتــدي ما يشاء من ثياب طالما وانه قادر على دفع الثمن». وبالمثل نجـد بعض صغار التجار والحرفيين وقد اثثـوا منازلهم بأثاث لا يتفق ابداً مع وضاعة منبتهم في الحياة. وتساءل الكاتب ساخطاً «هل يمكنك ان تتحمل رؤيــة خياط يملك قـاعة أو ردهــة زيّن جدرانها بجلــود او سجاجيد مذهبــة؟ اذ تقع عينك هنا وهناك على تاجر أقمشــة أوحرفي يزخرف بيتــه بزخـــارف يحاكى فيها بيـوت الســادة من سكان المدن؟ ودعــا، وألح في دعوته الى ضرورة القضاء على هذا الـوضع غير اللائق عن طريق سن قوانين تتعلق بتنظيم نفقات المعيشــة وتقيد استخدام الحريــر والمخمل بحيث يكون قاصراً على أبناء الشرائح العليا من الطبقة المتــوسطة وتفرض على أبناء الطبقة العاملة ارتداء «الصــوف وغيره من لباس خشن». وحدد معنى عبارة الشرائح العليا مــن الطبقة المتــوسطة بقولــه انها تضم الحكـام والمسئولين والاشراف ونظار المزارع والجباة وغيرهم من كبار الموظفين وكذلك التجار الذين يتراوح رأسمالهم ما بين أربعين وخمسين ألف جلدر، ويـدفعون ضرائب عن أموالهم هــذه. وكان مــن رأيه اعتبـار المحــامين والأطباء نظـراء للمسئـولين في دست الحكم، أما وكلاء المحامين فهم أدنى مرتبة ويتساوون مع الكتبة والعاملين في ديوان الشريف. ووضع البقالين وصغــار التجار وصغار الموظفين جميعهم في

سلـة واحدة بـاعتبـارهم الشريحة الدنيـا من الطبقـة الوسطى، وأنهم فـوق الحرفيين مباشرة. وأوضـح ان ضباط الجيش يشكلون طبقة منفصلة، غير انه بدا متحيزا ازاء تحديد المكانــة الاجتماعية الخاصة بالفنانين والممثلين. أذ رأى أن أكثرهم يتسمون بالتهور، وان اتصف بعضهم بالذكاء والالهام في ابداعهم الفني. وقدم هذا الكاتب المجهول عديداً من الاقتراحات التي لا تعنينا هنا، بيد ان دراستــه لها أهميتها بـالنسبـة لنـا من حيث انها توضح لنـا ذلك الـوعي الطبقي الحاد الذي ساد الحياة الاجتماعية خـلال العصر الذهبي للجمهورية الهولندية والذي زاد حدة وكثافة على مدى القرن التالي.

والحديث عن السلوك الوقور الـرزين - الذي يستثنى منه دائماً الولائم والافـراط في الشراب - لأبنـاء الشريحة العليـا من الطبقـة الـوسطى خـلال النصف الأول من القرن السابع عشر، وكـذلك تطلعهم الى الرخاء الاقتصادي لا يعني ان هذه الفترة لم تعـرف المحابـاة والرشـوة والفساد. إذ على العكس كانت هذه صفات أساسية في البنية الاجتماعية، وان زعمنا، صادقين، أنها لم تكن أسوأ حـالا مما كانت عليـه في أماكن أخرى في أوروبـا على الرغم من أن بعض الأجانب قالوا عكس هذا. ومن بين الأسباب التي حافظت على أن تكون هـذه المظاهـر السلوكيـة السيئة ضمن اطـار محدود هو امكـانية فضحهـا بسهـولة ويسر من خـلال أدب تأليف الكتيبات والـذي كان قسمــة شائعـة سادت في المقـاطعات السبع. ونـادراً ما كانت السلطـات المسئولـة قادرة على فرض رقـابتها وسيطرتها بصورة كـاملة على كتاب الكراسـات بسبب نظام اللامـركزيـة شبه الكامل في الحكم، وبسبب الغيرة المتبـادلة بين المقـاطعات المستقلة اذ كانت اكبر الكـراسات التي يحظر نشرها في مـدينة من المدن يعاد طبعها في مدينة أخرى.

وطبيعي ان الانتقاد الصريح المطبوع لم يكن ليحـول دون وقوع فضائح معينة مثل ذلـك ان يستغل حكام امستردام وضعهم الرسمــي لتحقيق أرباح

خيالية عن طريق بيع الأراضي خلال فترة توسيع المدينة في عام ١٦١٥، أو أن يثرى حكام مقاطعة هورن على حساب الفقراء والعامة بسبب الكساد الذي ساد في عام ١٦١٨، أو أن يعمد اعضاء ادميرالية روتردام الى خيانة الأمانة، ويستخدموا الأموال الرسمية لحساب مصالح شخصية خلال عام ١٦٢٦. ومن المظنون أن إدانة وفود زيلاندا لدى المجلس الأعظم في عام ١٦٥٠ لأعمال الرشوة والفساد داخل الأوساط الرسمية لم يكن لها سوى تأثير عابر. ومن الواضح ان الوفود كانت تشير في ادانتها الى كونيليس موش كاتم اسرار ادارة عموم الولايات الذي عرفت عنه شهوته المخجلة لجمع الرشاوي، ولم يكن ليتردد في تزويد سفير البرتغال بنسخ من جميع البرقيات السرية والقرارات السرية التي كان يحتاج اليها هذا السفير. وبعد بضع سنوات أكد سير جورج داوننج، المبعوث الانجليزي لدى لاهاي، وهو انسان عديم الضمير، اذ قال نادرا ما عمل انسان في عموم الولايات الا وحقق لنفسه ثروة من خلال عمله ولا بد وأن يبيع نفسه لمن يشتري».

وأن سوسة كوتنهو، المبعوث البرتغالي الذي أسلفنا ذكره يقدم لنا صورة سريعة توضح كيف يتعرض للغواية زوج له أولاد كثيرون اذ من خلال دعوة مهذبة لهذا الزوج ومناقشته في امر معروض عليه، «يترك صاحب الشأن جوهرة ثمينة تبلغ قيمتها حوالي ألف كروزادو (وقد تزيد أو تقل حسب مكانة الشخص) تسقط من بين يديه كأنها سقطت مصادفة في يد واحد من أطفال هذا الموظف». ولا يطالب الأب ابنه برد الجوهرة، وبهذا لا يراق ماء وجهه. ولكن هناك استثناءات مشرفة وجديرة بالاحترام وهي اكثر عدداً مما توحي به هذه الانتقادات غير الودية. ولا ريب في ان السفير الفرنسي دو استراد كان مبالغا تماما عندما قال «باستثناء السيد دي ويت لا يوجد أحد ليس على استعداد لأن يغير رأيه مقابل المال.» ولكن اذا كان «الهولندي الكامل» حظى بشهرة فريدة لأمانته حيث يتعلق الأمر بمصلحة بلده، إلا أنه يكون من الصعب عليه ان يغفل روابط القرابة والصداقة اذا ما سأله أحد المرشحين

لشغل وظيفة ما ان يستخدم نفوذه لخدمته، بيد أنه اذا ما فعل ما هو مطلوب منه فإن الصنيع الذي يقدمه لأقاربه ولأصدقائه السياسيين في هذه المناسبات لا يصل أبدا الى حد الفضيحة الكبرى.

ولكن لا يمكن أن نقول الشيء نفسه عن كثيرين من معاصريه، وان المحاباة كانت متأصلة في النظام الأوليجاركي للجمهورية الهولندية بحيث لا يمكن تفاديها او القضاء عليها. إذ أن كلا من انصار «الحرية الحقة» من الحكام ورجال الدولة من آل أورانج كانوا جميعاً على قدم المساواة من حيث التزامهم القوي بوضع أنصارهم في المناصب الأساسية أو الوظائف التي تدر ربحا على أصحابها، وعمد كل فريق الى هذا الأسلوب كلما استطاع الى ذلك سبيلاً دون اثارة فضائح مبالغ فيها - حتى وان أثار عملهم مثل هذه الفضائح - وربما أدت المحاباة على المدى الطويل، الى الاضرار بالسياسيين اكثر مما أدت الرشوة والفساد. لقد أثارت جميعها دون شك مزيدا من المعارضة، وفضلت مصالح الأوليجاركية الحاكمة عن مصالح الطبقتين الوسطى والدنيا. واتصف أسلوب المحاباة الذي مارسته الطبقة الحاكمة بالعديد من القسمات. ونجد اكثر هذه القسمات خزياً في الاتفاقات المعقودة بين أعضاء أحد مجالس المدن بأن يجرى تعيين أقاربهم وأصدقائهم في الوظائف حسب الدور. وكانت اتفاقات المعاملة بالمثل شفاهية في بادئ الأمر ثم مكتوبة بعد ذلك، وبعد ان كانت نادرة نسبياً في القرن السابع عشر أصبحت شائعة أكثر فأكثر خلال القرن الثامن عشر. وإذا كانت المحسوبية لا تعني بالضرورة اقصاء أهل المقدرة والكفاءة إلا أن هذا لا ينفي أن مؤهلات المرشح لشغل وظيفة ما كانت روابطه الأسرية وليست شخصيته. بعبارة أخرى بات ينظر الى الوظائف العامة في الجمهورية الهولندية - وفي غيرها وان اختلفت الأسباب باعتبارها أموراً خاصة بالأسر وان كانت قابلة للتفاوض بقدر أو بآخر. وكتب بعض الانجليز الذين أقاموا زمنا طويلاً في هولندا عن هذا الأمر في عام ١٧٤٠ - فقالوا: «حكومتهم ارستقراطية الطابع: ولهذا فان

الحرية التي تـزهو بها هولندا لا يمكـن فهمها بصورة عامــة أو مطلقة بل في سياق تطبيقها. ان العمداء وأعضاء المجالس هم ممثلو السيادة في المدن، وإذا أصبح مكان شاغراً بسبب وفاة فـإن العمدة يثور ويغضب إذا ما تجرأ واحد من سكـان المدينة على ان يهمس اليـه برغبتـه في أن يشغل وظيفة واحـد من أبنائه أو أقاربه*

وعلى الرغم من أن الأوليجـاركية الحاكمة تمايزت أكثر فأكثـر عن سكان المدن العاديين خلال القـرن الثامن عشر، إلا أننا اذا مـا ركزنا كثيراً على الهوة الفاصلة بين الحكام والمحكومين في حقبة باكرة. فإن من المسلم به ان كثيرين – وربما أغلبية – الحكام في «القرن الذهبي» ربما اتفقوا في الرأي مع جاكوب وجـــوهـان دي ويت في أن على الصغير ان يظـل صغيراً، وان أبنـاء الطبقـــة الحاكمة هم وحـدهم المؤهلون تمامـاً لحكم أبناء بلدهم. ولكـن على الرغم من الاعجاب الواسع النطاق ببيت آل أورانج، تظل الحقيقة الماثلة وهي ان اكثرية الناس كانوا في أغلب الأحيان قانعين بالحكام باعتبارهم زعماءهم الطبيعيين. انهم تحولوا فقط الى بيت آل أورانج في الأوقات التي أحـدق بهم خلالها خطر شديد من الغزو الفرنسي في عام ١٦٧٢ وفي عام ١٧٤٨. كما أوضح مؤرخون هولنـديون عديدون فإن جماعـات كثيرة وكبيرة العدد في الجمهوريـة كانت لديها أسبـابها المقبولة لايثار الأوليجـاركية الحاكمة على خصـومهم الأشداء وان لم يفعلوا هذا في صراحة ووضـوح شأن الكالفنيين المتطرفين أو أنصـار آل أورانج المتشددين. والملاحظ ان الكـاثوليكيين الرومـان وجماعات المعترضين والمنشقين البروتستانت بعامة، الذين يؤلفون على الأرجح حوالي ثلثي السكان (احصـاء ١٦٦٢) قـد أدركـوا ان ابنـاء الطبقـة الحاكمـة هم حصنهم المنيع الرئيسي للاحتماء به ضد الأحكام المتعصبة بشأن «عقيدة مسيحية اصلاحية أصيلة». وان هؤلاء المتعصبين المتطرفين رغبوا في أن يكـون للكنيسة الكالفنية الأرثوذكسية السيادة والتفوق على كنيسة الدولة المتسامحة نسبياً.

---

* Anony. A Description of Holland: London, 1743.

ولم تكن الطبقة الحاكمة وحدها هي الكارثة لطموحات الأسرة الملكية وميولها التي كشف عنها أحيانا بيت آل أورانج. ومن الأهمية بمكان أنه بمناسبة هجوم وليم الثاني على امستردام سنة ١٦٥٠ وقف كل أهل البلد في عزم وتصميم الى جانب الإخوة بيكر وهم الأوليجاركية الحاكمة. بل انه حتى في أيام جوهان دي ويت و«الحرية الحقة» كان الحكام يضطرون الى أن يولوا بعض الاعتبار للرأي العام. وهذا هو ما لحظه سير وليم تمبل وأشار اليه حين كتب يقول «ان السبيل الى الوظيفة والسلطة يتمثل في تلك الصفات التي تحظى بتقدير عام من الناس». وعلى الرغم من ان الحكام اصبحوا فيما بعد أقلية غير نيابية، إلا أن أغلبية مواطنيهم لم يتنازعوا بشأن حقهم في حكم البلاد طوال السنوات التي حكموا فيها جمهورية هولندا والتي تعتبر أعظم حقب التاريخ العام لبلدهم.*

ان قيام شركتي الهند الشرقية والغربية يعد واحدا من أروع وأهم الأعمال التجارية الهولندية بالنسبة للمعاصرين وللخلف من أبناء هولندا آنذاك.

هذا على الرغم من أن الأهمية الاقتصادية لهاتين الشركتين الكبريين كانت في واقع الأمر أقل من تجارةالنقل الى غرب اوروبا ومصايد الشمال البحرية. وسبق ان أشار دي ويت في عام ١٦٧١ الى أن تجارة الحبوب مع البلطيق كانت «المصدر والجذر الرئيسي لأهم الأعمال التجارية والملاحية لهذه الأراضي»، ففي بداية القرن السابع عشر كانت هولندا تمتلك حوالي ١٢٠٠ سفينة تعمل في هذه التجارة، وخلال النصف الأول من القرن نفسه تجاوزت السفن الهولندية العابرة لمنطقة ساوند Sound السفن الانجليزية وكانت النسبة ١٣ الى واحد. وذهبت بعض التقديرات الى ان ثلاثة أرباع رأس المال العامل في بورصة امستردام منذ عام ١٦٦٦ مخصص للعمل التجاري في

---

* Temple, Observations (ed. 1676) pp. 130

منطقة البلطيق. ووصف المتخصصون مصايد الشمال البحرية لصيد أسماك الرنجة والبكلاة والكود وسمك اللنج بأنها «التجارة الرئيسية ومنجم الذهب الأول» للمقاطعات المتحدة خلال الفترة من ١٥٨٠-١٦٣٩

وبعد حوالي ٤٠ عاما ذهب دي لاكور في تقديره الى أن هذه المصايد تستخدم ما يزيد على ١٠٠٠ سفينة شراعية لصيد السمك، وتتراوح حمولتها بين ٤٨ - ٦٠ طنا. وحسب عددالعاملين في صناعة صيد السمك وما يستتبعها بحوالي ٤٥٠٠٠٠ نسمة، مقارنة بحوالي ٢٠٠,٠٠٠ يعملون في الزراعة وحوالي ٦٥٠٠٠٠ يعملون في صناعات أخرى.

أما تقديرات قيمة الصيد فإنها تتباين تباينا كبيراً، إذ يذهب دي لاكور (عام ١٦٦٢) إلى انها تبلغ ٨ مليون فلورين، وربما كان مليون فلورين أو أقل قليلاً هو الأقرب الى الصواب. وخضعت صناعة صيد السمك لرقابة وسيطرة محكمتين من النقابة والحكومة وفقا للوائح تضمن ارتفاع مستوى اسماك الرنجة المخصصة للتصدير، وكذلك الأسماك المدخنة والطازجة المباعة للطعام في بلد يأكل فيه الأغنياء فقط اللحم أكثر من مرة في الأسبوع. وتعتبر انخويزين وروتردام المركزين الرئيسيين لصيد أسماك الرنجة طوال القرن السابع عشر كله تقريباً، أما امستردام فهي مركز صناعة صيد الحوت القطبي الشمالي. وجرى تنظيم هذه الصناعة الأخيرة باعتبارها احتكارا للشركة الشمالية في الفترة من ١٦١٤ إلى ١٦٤٢، ثم أصبحت بعد ذلك وعلى نحو أكثر نجاحاً نشاطا حراً عندما رفضت ادارة عموم المقاطعات تجديد عقد الشركة.

وان الاخفاق الذي منيت به الخطط الضخمة والطموحة للشركة الشمالية الاحتكارية يهيء لنا فرصة لعقد مقارنة هامة مع تطور شركتي الهند الشرقية والغربية خلال الفترة نفسها على الرغم من ان شركة الهند الغربية الأخرى

الهولنـديــــة انتهت نهايــة صعبــة، ذلك أن هــــاتين الشركتين، شأنهما شأن المؤسسات الأخرى في الجمهـورية الهولندية غلب عليهما طـابع الاوليجاركية والذي ازداد وضـوحاً وتأثيراً بمرور الوقت. كذلك فإن تنظيمهما وتطورهما في باكورة نشأتهما يوضحـان لنـا التفاعل بين طبقتي التجار والحكام وتأثير كل منهما على الأخــرى، والدور المتـزايد بـاطـراد، للرأسماليين والمستثمـرين في امسـتردام الذين هيمنوا على التجارة عبر البحار.

ان كلا مــن الغرف الاقليميــة الست في الشركة الهنـدية الشرقيـة كان لها مجلس مديـرين، يطابق في الأصـل مجلس المديرين المحلي للشركـات الرائدة الذين احتفظوا بمراكزهم مدى الحياة اذ كان المعتاد عند وفاة أحد المديرين او استقالتــه - وهو امر نادر الحدوث - يقـدم زملاؤه قائمة بثـلاثة أسماء إلى الممثلين المحليين لولايــات المقاطعــات. وهؤلاء هم عــادة عمداء وحكـام المدينة المعنية ويختارون أحد الأسماء لشغل المنصــب الشاغر. والمعروف ان مجلس مديري الــ ١٧ تم اختيــار أعضائه من بين المديرين الاقليميين الذين اختيروا بدورهم من بين كبار المساهمين الذين لا يقل نصيبهم من الأسـهم عن ٦٠٠٠ فلورين بــالنسبة لأغلبية الغــرف الاقليمية و ٣٠٠٠ فلــورين في الغرف الأقل شـأنـاً في مقاطعتي هــورن وانخويزيــن. ويطلق على هؤلاء المســاهمين الكبار Hoofd Participanten اي كبار المســاهمين. ومثّل غرفــة امسـتردام ثمانية مديــرين في مجلس ادارة الـــ ١٧، وأربعة لمقاطعــة ميدلبرج، وواحــد لكل من الغرف الأخرى. ويتحــدد المدير السابع عشر وفق نظــام دوري بالتناوب بين جميع الغرف فيما عدا امسـتردام.

ولكن الطبيعة الاوليجـاركية والأبديــة للديكتاتــوريات سرعان مـا أثارت الكثير من النقد المعادي سـواء بين أصـحاب الأسـهم العاديين الذين لم يكن لهم أي نفوذ على سياسـة المديرين أو بين كبار المساهمين الذين ظلوا خارج الدائرة الصغيرة للمديرين وأصــدقائهم. وعند تجديد صك الشركـة لأول مرة في عام

١٦٢٣ لم تبذل ادارة عمـوم الولايات جهـداً حقيقياً في سبيل التصـدي لموجة النقد وقررت ان يكـون المديرون بعد ذلك بالانتخـاب لمدة ثلاث سنوات، وان قائمة الاسماء الثـلاثة لمنصب المدير الشاغر لا بد من احـالتها الى لجنة تضم اعدادا متساوية من المديرين وواحـدا من كبار المساهمين. وفي البداية لم يؤد هذا الى اختلاف واضح من الناحية العملية. ذلك ان جميع المديرين المحالين الى التقاعـد كان بالامكـان اعادة ترشيحهـم وانتخابهم من جديـد كما وان كبار المساهمين الذين لهم حق التصويت لم يشأ اي منهم ان يعرِّض للخطر فرصة لانتخابه مستقبلاً بسبب معارضة المديرين الفعليين. ولهذا كان يعاد انتخاب المديريـن الذين انتهت مـدة عملهم، واستمر شغل الأمـاكن الشاغـرة نتيجة الوفاة باعضـاء من نفس دائرة كبار المساهمين، وان تم ذلك احياناً عن طريقة القرعة.

وان الرابطة الوثيقة التي تربـط بين المديرين والطبقة الحاكمة عبّـر عنها بوضوح وقوة واحد من مؤلفي الكـراسات في عام ١٦٢٢. وأعرب في كراسته عن شكـاوى الانجليز والفـرنسيين بشأن استحالـة الحصول على تعـويض بسبب أخطاء حقيقيـة او مزعومة ارتكبهـا العاملون في شركة الهنـد الشرقية الهولنديـة ضد تلك الأمم في الشرق. «إذ يقولـون اننا اذا ما أبلغنا شكـوانا الى الحكام والمسئولين في المدن فان هناك المديـرين .. وإذا أبلغناها الى الادميرالية فإن هناك المديـرين مرة ثانيـة. وإذا أبلغناهـا الى ادارة عموم الولايـات فإننا نجـدهم هم والمديرين وقـد جمعهم مجلس واحد في الـوقت ذاته». وان هـذه الرابطـة الحميمة بين المديـرين والطبقة الحاكمـة هي السبب الرئيسي في انهم استطـاعـوا اغفـال او اهمال اي انتقـاد لسلـوكهم من جـانب المسـاهمين السـاخطين، وهي التي سـاعـدتهم على تعزيـز وضعهم بـاعتبـارهم أقليـة اوليجاركية دكتاتورية أبديـة لا تخضع لمحاسبة اي جهة أخرى. وهكذا كان مجلس مديري السابع واثقا من نفسه أشد الثقة عام ١٦٤٤ حتى انهم أبلغوا ادارة عموم الولايات بمذكرة قالوا فيها: «ان الأماكن والحصون التي استولوا

عليها في جزر الهند الشرقية يجب ان لا ينظر اليها بـاعتبارها مغانم قومية بل ملكا خاصا للتجار، الذين لهم حـق بيعها لأي انسان يشاءون حتى ولو كان ملك اسبانيا أول خصم من خصوم المقاطعات المتحدة «ويمكن ان نضيف الى ذلك ان انتقـاد المساهمين للمـديرين في الشركـة خفَّت حدتـه كثيراً بعد عـام ١٦٣٤ عندمـا بدأ مجلس مـديري الـ سـابع عشر في توزيع حصص نقـدية سنويـة سخية. وتراوحت هـذه الحصص ما بين ١٥,٥ بـالمائة و ٥٠ بالمائة، وبلغت ذروتها في الفترة ما بين ١٧١٥-١٧٢٠ إذ جرى توزيع ست حصص متعاقبة، نسبة كل منها ٤٠ بالمائة.

وكـان المســاهمون الأوائل في رأس المال الأصلي العـامل في شركـة الهنـد الشرقية الهولندية من جميع طبقـات المجتمع. وإن كان الأغنياء والميسورون هم الأغلبيـة العظمى بطبيعة الحال، وذلك لأسبـاب أوضحها مـؤرخ معاصر تحدث عن نجاح رحلة فان نيك Van Neck: «يرجع هذا الـربح الى عدد قليل من الأغنياء الأقوياء ذوي السلطان، ممن استطاعوا الاستغناء زمنا طويلاً عن رأسمالهم بينما لا يستطيع الانسان العادي الاستغناء عن مورد رزقه اليومي لمثل هذه الفترة الطـويلة. ومثل أولئك الأغنيـاء يفيدون كثيراً بفضل استثمار أموالهم في التجارة مع الأمم المجـاورة.» والمعروف ان كبار الموظفين وأعضـاء مجالس المدن وأغنيـاء التجار وأصحـاب رؤوس الأموال ســاهموا جميعاً في رأس المال وشـاركـوا بمبالغ تتراوح مـا بين عشرة آلاف فلـورين الى خمســة وثمانين ألف فلورين. ومـن أبرز كبار المســاهمين الأوائل التجار الصيـارفة اللاجئـون من مقاطعـة انتويـرب والأراضي المنخفضة الجنـوبية وظلت لهم الهيمنة الماليـة حتى نهاية عقد كامـل. وبمرور الوقت ذاب هؤلاء المهـاجرون الأغنيـاء في الطبقـة الحاكمـة، إذ استـوعبتهم هـذه الطبقـة، واشترى كبـار المساهمين القســط الأعظم من أنصبة صغـار المستثمرين، وفي الوقـت نفسه فإن مستثمرى امستردام الذين ساهموا في البـداية بأكثر من نصف رأسمال الشركة العـامل، مدوا قـرون استشعارهـم الى الغرف الأخرى. وقبيـل نهاية

القرن السابع عشر كان ١١٨ من أهالي امستردام يحوزون حوالي ٨/٣ رأسمال غرفة زيلاند، كما امتلكت امستردام اكثر من نصف رأسمال شركة الهند الشرقية الهولندية.

علاوة على هيمنة امستردام المالية على شركة الهند الشرقية الهولندية فإنها مارست نفوذاً كبيرا ومتزايدا باطراد على سياسة الشركة وادارتها. وتعزز هذا النفوذ بفضل السيد بيتر فان دام الذي شغل منصب محامي الشركة في امستردام ابتداء من عام ١٦٥٢ وحتى وفاته عام ١٧٠٦. ونقرأ كلمة للقنصل الانجليزي المقيم في عام ١٦٨٨ يقارن فيها المحامي العجوز البالغ من العمر ٦٨ عاماً بالرجل العظيم جوهان دي ويت إذ يقول: «إنهما متشابهان في جوانب كثيرة وان لم يكونا كذلك من حيث المبدأ (السياسة). فهذا الوزير العظيم رجل كد ومثابر لا يعرف الكلل، يعمل ليلاً ونهارا لخدمة الشركة. يقرأ اكثر من مرتين الصحف التي ترد اليه من جزر الهند ويستخرج منها مذكرات لاعداد موضوعات ذات صلة هامة وضرورية ليتدارسها مجلس مديري ال (١٧)، وتدرسها. أيضا لجان أدنى مستوى في الشركة، ويعد الأوامر التي يتعين ارسالها الى كبار المسئولين عن الشركة في جزر الهند». ولم يكن وليام كار مبالغا في تقديره وهذا ما أكده فان دام في وصفه الموسوعي للشركة وانشطتها، وهو الوصف الذي أعده ليستخدمه المديرون على نحو سري وخاص جدا خلال الفترة ما بين ١٦٩٣ و١٧٠١. وكانت هذه المخطوطات محظورة على الأجانب وغير مسموح بالاطلاع عليها وظلت سراً خاصاً لعدد من الأجيال المتعاقبة من مديري الشركة الى ان تم حلها في عام ١٧٩٥.*

أما عن مدى انفصال الطبقة الحاكمة، بصورة أو بأخرى، عن طبقة التجار فهذا ما توضحه سجلات ادارة شركة الهند الشرقية الهولندية. فبينما

* W. Carr; Accurate Description (ed, 1691)

نجد مجلس مديري الـ ١٧ يبلغ ادارة عموم الولايات في عام ١٦٤٤ بأن الشركة ملكية خاصة لتجار أفراد، نجد الحكام الذين شغلوا مقاعد مجلس ادارة الـ ١٧ في عام ١٧٤٣ يصدرون قرارا يقضي بأن بالامكان في نهاية الأمر السماح للتجار بأن يكونوا مديرين، ونجد من بين ٢٤ مسئولا من الحكام الذين شغلوا مناصب العمداء في امستردام خلال الفترة من ١٧١٨ الى ١٧٤٨، اثنين فقط من التجار النشيطين. وانها لمقارنة مثيرة بالنظر الى تشكيل مجلس هذه المدينة منذ قرن مضى. ولا ريب في ان المقارنة تبدو اقل اثارة اذا ما تذكرنا ان وظيفة عضو مجلس بلدي امستردام كانت وظيفة تقتضي تفرغا كاملاً بعد عام ١٦٥٠. ومن ثم فان التاجر النشيط لا يمكنه الاضطلاع بمهامه كمسئول عن المدينة ويولي عمله التجاري اهتماما ملائما في الوقت ذاته. ولكن يتعين علينا هنا مرة أخرى ان لا نصدر أحكاما مطلقة. ان انقلاب انصار آل أورانج في عام ١٧٤٨ الذي أتى الى السلطة بمجموعة أخرى من الحكام، أدى الى توازن أفضل بالنسبة لمصالح التجار. ولهذا فإن من بين ٣٧ مسئولا من بين عمداء امستردام خلال الفترة من ١٧٥٢–١٧٩٥ نجد ١٣ شخصا هم من التجار النشيطين او الذين اعتزلوا أعمالهم منذ فترة وجيزة، والباقين لهم روابط أسرية قوية مع المؤسسات التجارية. وجدير بالذكر أيضا كل مسئول من حكام امستردام، منذ البداية والى النهاية، كان دائماً، على وجه التقريب، مديرا في شركة الهند الشرقية.

كذلك الحال بالنسبة لشركة الهند الغربية كان لها طابعها الأوليجاركي الواضح وروابطها الوثيقة بالطبقة الحاكمة، هذا على الرغم من أن واحدا من أوائل الداعين اليها مؤلف الكراسات وليم اوسيلنكس المشهور برأيه، أكد دون جدوى ان لا مجال لحاكم مسئول لكي يعمل حاكماً أو مسئولاً في الوقت ذاته.»

وضم مجلس ادارة الـ ١٩ ثمانية لامستردام وأربعة لزيلاندا، واثنين لكل

من الغرف الثلاث الأخرى، وتعين ادارة عموم الولايات المدير التاسع عشر. واعتاد مجلس المديرين الـ (١٩)، شأنه في هذا شأن مجلس الـ (١٧)، ان يجتمع لست سنوات متعاقبة في امستردام ثم بعدها لسنتين في ميدلبرج. ويختار المديرين الأصليين حكامُ المدن الخمس التي بها غرف المقاطعات. ويجرى اختيارهم من بين كبار المساهمين الذين لا يقل نصيبهم من رأس المال المستثمر عن ستة آلاف فلورين. بالنسبة لامستردام، وأربعة آلاف فلورين للمقاطعات الباقية. ويتم شغل المناصب الشاغرة بطريقة مماثلة للطريقة المتبعة في شركة الهند الشرقية عن طريق التشاور والتعاون بين حكام المدينة ومديري الغرفة المعنية. وظل المستثمر الصغير عاملاً أكثر أهمية لزمن طويل في شركة الهند الغربية، عما كان عليه في الشركة التوأم. ونرى هذا واضحاً في زيلاندا حيث قيل في عام ١٦٤٨ ان أكثر من خمس سكان ميدلبرج وفلاشنج وفير كانوا من المساهمين في شركة الهند الغربية.

وما حدث بالنسبة للشركة القديمة حدث كذلك في هذه الشركة من حيث تعمد المديرين اغفال او التهرب من قواعد المحاسبة العامة الدورية ومراجعة الحسابات والتفتيش عليها، ونشر الموازنة الختامية. والنتيجة في الحالتين تعزيز سلطة المديرين ازاء المساهمين، هذا على الرغم من ان كبار المساهمين في شركة الهند الغربية عمدوا أحيانا الى عقد اجتماعات خاصة بهم وممارسة نفوذ اكبر على مديريهم. وان اي مقارنة بين أسماء مديري الشركتين قبل عام ١٦٣٦ توضح لنا، كما هو متوقع، أن بعض كبار التجار من الأقلية الحاكمة الغنية من أمثال الأخوة بيكر في امستردام وعائلة لامبسين في فلاشنج كانوا ممثلين في مجلس ادارة الشركتين. وكان حماس تجار امستردام لشركة الهند الغربية في عام ١٦٢٢ أقل من حماسهم لشركة الهند الشرقية قبل ذلك بعشرين عاما. ومع هذا فإن كبار المساهمين من غرفة امستردام في شركة الهند الغربية والبالغ عددهم ٨٣ مساهماً، أسهموا بمبلغ يزيد على مليون فلورين. وهو أكثر من ثلث اجمالي اسهام هذه المدينة. ومثلما حدث مع شركة

الهند الشرقية عمد المساهمون من امستردام بعد ذلك الى توسيع نطاق نفوذهم عن طريق شراء أسهم من الغرف الاقليمية الأخرى. وقبيل عام ١٦٧٠ أصبح أكثر من نصف اجمالي رأس مال شركة الهند الغربية ملكاً لامستردام، وأصبحت هذه المدينة هي التي تقدم الأموال للغرف الأخرى.

وكان استعمار مناطق ملائمة من بين الأمور المستهدفة التي نص عليها ميثاق شركة الهند الغربية في عام ١٦٢١، غير ان هذه الشركة استخدمت منذ البداية كسلاح هجومي لاستئصال جذور سلطة شبه جزيرة أيبيريا في العالم الجديد. وسرعان ما تورطت شركة الهند الغربية في جهود غزو كل البرازيل او بعضها. ولكن النفقات البحرية والعسكرية الناجمة عن هذا تجاوزت الأرباح التي حققتها الشركة من تصدير السكر وغيره من صادراتها من أراضي امريكا الجنوبية التي لم تكن قد احكمت سيطرتها عليها كاملة بعد. وان استيلاء بيت هين Piet Heyn على اسطول الفضة المكسيكي في عام ١٦٢٨ هيأ الفرصة أمام مجلس مديري الـ ١٩ للاعلان عن حصة استثنائية من الأرباح تصل نسبتها الى ٧٥ بالمائة في العام المالي ١٦٢٩-١٦٣٠. ولكن الشركة وزعت حصة أخرى أو حصتين قبل حلها في عام ١٦٧٤.

والملاحظ ان تجارة غرب أفريقيا، خاصة التجارة في ذهب غينيا، حققت حتى عام ١٦٥٠ تقريبا أرباحا جيدة. بيد ان هذه الأرباح جميعها تبددت بسبب الورطة المالية الناجمة عن البرازيل. وبعد اعادة تنظيم الشركة في عام ١٦٧٤ حصل المستثمرون على ٣٠ بالمائة فقط من ودائعهم. ولكن الدائنين حصلوا على حقوقهم كاملة، وكانت الشركة الجديدة لا تزال قادرة على اقتراض أموال بفائدة ٤ بالمائة في عام ١٦٩٤. وحتى هذا التاريخ كانت تعمل أساسا في تجارة العبيد وتصدير الزنوج من غرب أفريقيا الى جزر الهند الغربية، حيث كانت جزيرة كوراتشاو Curacao قاعدة ممتازة للتجارة المحرمة مع أمريكا الاسبانية.

وسبق أن ذكرنا ان تنظيم شركة الهند الغـربية أرجىء الى ما بعد صدور حكم باعدام اولـدن بارنفلت وانتصار الحزب الكالفني المنـاضل، أو معارض المعارضة الذي كان للمهاجـرين فيه من جنوب الأراضي المنخفضة نفوذ كبير. لهذا السبب ولأسباب أخرى اتخذت شركة الهند الغـربية من هذا الحزب قلعة لها في هولنـدا لبضعة أعوام وفي زيـلاندا لفترة أطـول. ولكن البروتستانتيين الأقل حماسـا المسمون الأرمنيين والأحـرار - كـان لهم دائماً من يمثلهم بين المديرين والمساهمين وخـلال العقدين الثالث والرابع مـن القرن السابع عشر أصبحت الهيمنة لهذه العنـاصر الأخيرة في هولندا. هذا على الـرغم من الادعاء بأن بيكر عمدة امستردام قد قال في حق الشركة في عام ١٦٤٩، وهو الذي باع أسهمه في شركة الهند الغربيـة قبل ذلك بأعوام وقتما كانت أسعار السوق في الذروة: «لندع أهل مقاطعتي برابانت وواللون يرون الآن أي اقطاعيات سوف يحصلون عليها بفضل هذه الشركة. «غير ان الضغوط والقيود الداخلية التي أسهمت بدور كبير في تحطيم شركة الهند الغربية الأولى لم يكن سببها أساسا نقصاً في التعاون بين الكالفنيين والأحـرار داخل مجالس الادارة بقدر ما كان السبب الغيرة بين هولنـدا - وامستردام بوجه خاص - وبين زيـلاندا، ونجد هذا واضحاً في آداب الكـراسات في ذلك الحين، الذي شاع واتسـم بالغزارة في الكتابـة عن شركة الهنـد الغربية واستهجـان سلوكهـا، بينما توقفت حملات النقد ضد مجلس مديري الـ ١٧ بعد عام ١٦٢٥ ولمدة تزيد على ١٥٠ عاماً.

ومن الانتقادات التي ترددت كثيراً على لسان مواطني هولندا الذين آثروا البقـاء في بلـدهم ضـد العـاملين في كل من الشركتين ان هـؤلاء العـاملين في الشركتين الشرقية والغـربية هم من العنـاصر الدنيـا في المجتمع عامـة. وهذا الزعم لم يأت فقط على لسان كتاب الكراسات من أصحاب الأقلام البذيئة بل تردد دائماً في مراسلات المديرين مع كبـار ممثليهم في باتافيا ورسيف. ونقرأ للباحث الاسلامي الكبير سنوك هرجورنجي Snouk Hurgronje في القرن التاسع عشر والـذي يكتب عن بينة ومعرفة واضحـة بهذه المصادر ويحدثنا

عن قـرنين من عمر شركـة الهند الشرقيـة الهولنديـة في الشرق بهذه الكلمات اللاذعة ويقول: «المشهد الأول من مأساة الهند – والأراضي المنخفضة عنوانه «شركـة»، ويبدأ تحديـداً مع القـرن السـابع عشر، والممثلـون الأساسيـون يستحقون اعجابنا لما يتحلون به من طـاقة لا تقهر. ولكن الهدف الذي عملوا من أجله، والـرسائل التي لجأوا اليها وصولا الى هذا الهدف، مـن النوع الذي نجد صعوبة في كبت نفورنا منه، حتى مع الالتزام بقاعدة الحكم على أفعالهم وأعمالهم على أساس معيار عصرهم. وبدأت «التجـربة» على النحو التالي: أن أصبح سكـان آسيا على اتصـال بحثالـة الأمة الهولنـدية، الـذين عاملـوهم بـاحتقـار لا يطاق، وانحصرت جهـودهم في اثـراء فـريق من حملـة الاسهم الموجودين في الوطن الأم. وعمد أربـاب الشركة الى الابقاء على مستخدميهم في هذه الشركـة المعتمدة في حالة عـوز وان لم يكونوا اقل شهـوة منهم الى الربح وجمع المال. ومن ثم كشفوا عن صورة الفساد وتتضاءل أمامها أسوأ مظاهر الفساد التي يتهمون بها شعوب الشرق في هذا الصدد.».

وأود أن أوضح هذا الحكم الـدامغ والمطلق هو حكم غير منصف في بعض جوانبـه، وان من ذهبوا الى الشرق لم يكونوا مـن حثالة الأمة الهولنـدية فقط. ولكننا لا نستطيع ان ننكر ان رأي سنوك الاستنكاري يتضمن قدراً كبيراً من الحقيقة، ان شركـة الهند الشرقيـة، شأن شركة التـاج البرتغالي قبلهـا وشأن الشركات الانجليزيـة والفرنسية المنافسـة لها، كانوا جميعاً يـدفعون رواتب ضئيلة لجميع العاملين فيها عدا قلـة، بحيث كان يتعذر عليهم الحياة اعتمادا على ما يتقاضونه من أجور ومكـافآت، ومن ثم اضطروا الى اللجوء الى وسائل غير شريفة بقدر أو بآخر ليحصلـوا على معاشهم. زد على هذا ان مشاق رحلة تمتد من ستـة الى سبعة أشهر، وأخطـار الحياة في بلدان المنطقة الاستـوائية، حيث لا يعرف أحد سـوى القليل، وربما لا شيء أبدا، عن وسائل الوقـاية من أمراض فتـاكة مثل الملاريا والكوليرا والجذام والـديزنتاريات، كل هـذا حال دون الأغلبية العظمى من سكـان الوطن الأم ومحاولـة الحصول على عمل في

جزر الهند الشرقية والغربية طالما تـوفرت لهم فرص العمل أيا كان هذا العمل في بلدهم. وإن إحجام الهولندي من أبنـاء الشرائح العليا والمتوسطة في الطبقة الوسطى عن العمل في خدمة شركة تجارية احتكارية يساعدنا كذلك على بيان السبب في أن المديـرين كـان من العسير عليهم اختيار مســاعـديهم، ومن ثم يضطـرون الى اختيارهم من بين أفضل العنــاصر المتاحـة لهم. وان ما كتبـه دافيد هاناي عن مستخدمي شركة الهند الشرقية الانجليزية في القرن السابع عشر يمكن ان يصدق بالمثل على معاصريهم ومنافسيهم من مستخدمي شركة الهند الشرقية الهولندية. اذ قال: «لا شيء اكثر شيوعا أو غرابة من ذلك التباين بين التأكيدات المفرطـة للشركة من انها تثق ثقة كاملة في فضــائل السيد الذي تم تعيينه تـوا في هذا المنصب أو ذاك، ثم مــا تطلقه من توبيـخ غاضب بشأن خيانته المخزية قبل مضي عام واحد*.

وشغل المناصب العليا في شركتي الهند الشرقية والغربية الهولنديتين عبر البحار رجال من الشريحتين الـوسطى والدنيا من طبقة سكـان المدن مع قلة من أبناء الخاصة. ولوحظ بطريقـة لافتة للنظر غياب ممثلي النبلاء من ملاك الأراضي. ولكن نذكر من بين الاستثناءات القليلة هنـدريك ادريان فانريد وهو لورد من مقاطعة مجدرشت والذي شغل منصب حاكم مليار خلال الفترة من ١٦٦٩ الى ١٦٧٧. وغالبا مــا منح المديرون وظائف لأصدقـائهم وأقاربهم – من الفقراء ولـديهم رغبة في تكـوين ثروة هنـاك في جزر الهنـد ويمكن القول بوجه عام، ولـلأسباب سالفة الذكر ان أبنـاء الطبقة الميسورة من الهولنديين كانـوا يؤثرون العمل في أماكن قـريبة من الوطن ولا يقبلون العمل في خـدمة أحدى الشركتين إلا كملاذ أخير.

ويفسر لنا هذا السبب في اعتماد الشركتين على تـوظيف أجانب. ولكن هذا يعني أيضــا أنـه كان من السهـل أيضاً على ذوي القـدرة والعـزم والتصميم

---

* D. Hannay, the Greet Chartered Companies, London, 1926; pp. 190-2

صعود سلم الترقي بسهولـة. ذلك ان مجال العمل والترقي الى المناصب العليا كـان مفتـوحا لأصحـاب المواهب في الشركتين على الـرغم من اتســاع نطـاق المحسوبيـة والمحاباة. ويؤكـد هذا العديد من الأمثلـة لرجال دخلوا في خـدمة إحدى الشركتين والتحقوا بمستويات وظيفية متدنية بل ووضيعة وارتقوا الى أعلى المناصب. مثال ذلك انطونيو فـان ديمان وقد كان مفلساً وعمل في وظيفة جندي ثم أصبح حـاكما عامـا لباتانيـا في الفترة من ١٦٣٦-١٦٤٥، وأيضا فرانسوا كـارون الذي كان طباخـاً في إحدى السفن ثم أصبح مديـراً عاما في الفترة من ١٦٤٧-١٦٥٠. وهذان مثالان لـرجال صعدوا الى القمة لا لشيء إلا لجدارتهم وجهودهم. ونذكر أيضا اثنين من أبـرز الحكام العاملين لباتافيا في القـرن الثـامن عشر، وهم جـاكـوب مـوسيل (١٧٥٠-١٧٦١) ورينير دي كلارك (١٧٧٧-١٧٨٠) إذ بدأ كـلاهما حياته العملية بحارا عاديـا في خدمة شركة الهند الشرقية الهولندية.

وهناك من ناحية أخرى سيرة الحياة المخـزية لابن حاكم زيلاند واسمه بيتر نوتس Pieter Nuyts الذي اعترف بأنـه « لم يأت إلى آسيا يلتمس التبن غذاء له، وجمع ١٨٠٠٠ فلورين عن طريق الشركة بعد فصله بطريقة مخجلة في باتافيا لسوء سلوكه في كل من اليابان وفورموزا (١٦٢٧-١٦٣٠). يوضح لنا هذا المثـال ما الذي يمكن ان يفعله أصحاب الـروابط الأسرية ذات النفوذ. ولم يكن ثمة فارق جوهري بين نوع البشر العاملين في خدمة أي من الشركتين الشرقية او الغربية، هذا على الـرغم من أن واحدا من بين الكثيرين الذين عملوا في الشركتين زعم في عام ١٦٥٥ان كبـار موظفي شركـة الهند الغـربية كـانوا فريقا من «الحمقى السكارى» والذين ما كان بامكانهم ان يترقوا الى المناصب العليا في الشركة الشرقية التوأم.

وإذا كـان المســار العام لمستخـدمي الشركتين تـرك لنـا شيئـا يمكن ان نرويه، فإننـا نذكر انه كان هنـاك دائماً بعض الاستثناءات. اذ على الرغم من

الأغلبية الساحقة من الهولنديين، شأن اكثرية أسلافهم البرتغاليين وكذلك منافسيهم الانجليز والفرنسيين، قصدوا الشرق مستهدفين «جني ثمار شجرة الباجودا»، فإن هناك أيضا البعض ممن لم يعنهم أساسا جمع المال. فأنا لا أجد سببا للشك في اخلاص جاكوب فان نيك اذ اعترف بأن «الرغبة الوحيدة التي شغلته طوال حياته هي مشاهدة البلدان الأجنبية» وان هذا كان حافزه الوحيد الذي دفعه الى الشرق. ويمكن ان نقول الشيء ذاته عن الطبيب الجراح نيقولا دي جراف، الذي عمل جراحاً على ظهر السفينة. إذ على الرغم من زواجه السعيد وحياته الميسورة في وطنه لم يستطع مقاومة نداء البحر والمنطقة الاستوائية وهذا نوع نادر من البشر. ولكن هناك آخرون قصدوا الشرق التماسا للثراء وجمع المال فقط، ثم اسرتهم حياة المنطقة الاستوائية أو أهلها وسجلوا انطباعاتهم ليقرأها الخلف. وطبيعي ان الملاحظات السابقة تصدق أساسا على أبناء البرجوازية الذين أوضحوا حوافزهم في كتاباتهم. وبات لزاما علينا الآن أن ندرس أبناء المجتمع الهولندي الأكثر عدداً والأقل تعلما الذين اضطروا الى كسب خبز يومهم بعرق جبينهم.

الباب الثالث

العمال المقيمون ورحالة البحار

على الرغم من عدم توافر احصائيات كافية، وغير ذلك من معلومات، عن العمالة والبطالة، إلا أن العديد من التقارير المعاصرة «القرن الذهبي» للجمهورية الهولندية توضح لنا ان التوسع الاقتصادي والرخاء القومي اقترنا بشيوع حالة من الفقر الشديد بين صفوف جماعات كثيرة من العمال على نحو ما حدث بعد ذلك في انجلترا إبان الثورة الصناعية. ويرجع هذا دون شك الى ثورة الأسعار وما أدت إليه من زيادة في تكاليف الطعام والاسكان، وهي الزيادة التي بلغت ذروتها في الأراضي المنخفضة الشمالية حوالي منتصف القرن السابع عشر، بينما تراجعت الأجور كالعادة وظلت متخلفة عن الأسعار المطردة الارتفاع، وثمة أسباب أخرى مساعدة، حدثت هنا مثلما تحدث في أماكن أخرى. من ذلك مثلا الزيادة الحادة في عدد سكان بعض المدن (خاصة امستردام) وحالات الاضطراب الدورية التي أصابت التجارة بسبب التورط في حروب خارجية. بل إن فترة حرب الثمانين عاماً (١٥٦٨-١٦٤٨) حتى لو أخذناها ككل كانت فترة رخاء عظيم ومطرد للتجارة الهولندية فيما وراء البحار. وأشار المؤرخ ليوواردن Leeu Warden منذ عام ١٥٦٦ الى ان جموع «العامة من الجوعى المساكين المعوزين» كانوا على النقيض تماماً وبصورة حادة بالنظر الى الحكام والتجار الأثرياء. وأعلنت امستردام في عام ١٥٧٩ استغلال الأطفال في العمل، عندما قيل ان بعض أرباب الأعمال اعتادوا «تشغيل اثنين أو أربعة أو ستة أو أكثر من الأطفال بحجة الاحسان اليهم وتعليمهم حرفة او تجارة بينما يبقونهم في عملهم لسنوات طويلة ويعاملونهم معاملة العبيد لا صبية يتعلمون حرفة». وعندما بلغت صناعة النسيج

ذروتها في ليدن خلال الفترة من ١٦٣٨-١٦٤٠ تم احضار ما لا يقل عن ٤٠٠٠ من العمال الأطفال من لييج Liege الى المدينة. وعندما نزل تجار الألبسة من مقاطعة واللون في ليدن اتهمهم الناس بأنهم جلبوا أطفالا متسولين من بلدان بعيدة مثل نورويتش Norwich وداوي Dowai وكليفز Cleves. كذلك فإن بيوت البر واصلاحيات الأحداث زودت هي الأخرى المصانع بالنساء والأطفال. ونجد هنا أيضا صورة موازية لما حدث في انجلترا إبان الثورة الصناعية. حقا تم اتخاذ بعض الاجراءات لوقف هذا الاستخدام السيء، مثال ذلك تحديد ساعات العمل في مجال النسيج بما لا يزيد على (١٤) ساعة عمل يوميا، وذلك في عام ١٦٤٦. ولكن بعد ثلاثة عشر عاما نجد ان أحد رواد الصناعة في ليدن يقول ان عمالا كثيرين كانوا يعيشون في أكواخ فقيرة مكتظة بساكنيها وان بعضهم اضطر الى احراق أسِرَّتهم وأثاثهم للتدفئة في الشتاء.

ونعرف ان من بين ٤١٥٦١ أسرة في امستردام في عام ١٧٤٧ كان حوالي ١٩٠٠٠ أسرة تعيش في مساكن جماعية قذرة وغرف نوم وقباء صغيرة. وحتى نهاية القرن السابع عشر كانت أغلبية البيوت المقامة في أحياء الريف والكثير منها في المدن مبنية بالخشب والطين. وطبيعي ان ظروف معيشة الفقراء في الجمهورية الهولندية لم تكن أسوأ من مثيلاتها في انجلترا خلال القرن الثامن عشر. وهذا هو ما يذكرنا به حـ.هـ. بلمب J.H. Plumb اذ يقول: «بيوت الفقراء عبارة عن أكواخ من حجرة واحدة أو حجرتين مبنيتين من ألواح خشبية وأسقف مطلية بالقار وقد صفت ظهرا الى ظهر، أو كانت بيوتا هجرها أصحابها الأثرياء لأن مالكيها تركوها التماساً لمساكن أخرى أكثر ملاءمة من الناحية الصحية - وهي مساكن قذرة متداعية وآيلة للسقوط، موبوءة بالأمراض. ولم يكن يسكن القباء البشر وحدهم بل شاركتهم السكنى حيوانات مثل الخنازير والماشية والخيل.»* وقيل ان

* H.J. Plumb, England in the Eighteeuth Century; 1714-1815 (ed; 1961) pp.12.

البيوت في هولندا وزيلانــدا خلال النصف الأول من القرن السابع عشر كانت أفضل مرتين أو ثــلاث مرات من مثيلتها في فــرنسا. بيد ان هذه المقــارنة التي تتسم بالمجـاملة لا يمكن ان تصــدق على مساكن الفقــراء المكتظة بســاكنيها الــذين أضناهم الفقــر. ومع هــذا تظل حقيقــة واضـحة بكل المعــايير وهي ان ساكن المدينــة الهولندي العــادي وزوجته كــانا أكثــر اعتزازا بمسكنهما من نظيرهما في أي بلد أوروبي آخر. ربما كــانت البيوت مظلمة شديدة الــرطوبة، ولكن كان يجرى تنظيفهــا وكشط الأقذار الموجــودة بها وتلميعها إذا مــا كان لدى سكانها أي قدر من التظاهر باحترام الذات.

وأثارت الملاجىء وبيت البر والاصلاحيات الهولندية الاعجاب الشديد من جــانب الكثيرين من الزائرين الأجــانب. بل يبــدو أن المرضى العقليين كانــوا يحظون بــرعايــة أفضل في الجمهوريــة الهولنديــة عنهم في أي مكــان آخر في أوروبــا. وتمتعت امستردام بــوجــه خاص بسمعــة جيــدة تستحقهــا بشأن المؤسسات الخيرية بها التي وصفها جيمس مونسون في عام ١٦٨٥ وتحمس لها، ونقل عنه كثيرون من معاصريه رأيــه هذا، وقال عنها، لا شيء يكشف عن الطابع الخيري للهــولنديين اكثــر من رعايتهم الفائقــة من أجل إغاثــة الفقراء وتخفيف المعــانــاة عنهم وتعليمهم فأنت لا تــرى شحــاذين في أي مكــان من الطرقات.» وأبدى اعجــابا كبيرا بدور رعاية وعلاج الأطفــال، خاصة اليتامى والتي تضم دائما ما يزيد على ٥٠٠ من الفقراء المعدمين حيث يحظون برعاية جيــدة، ويتعلمــون القراءة والكتــابــة وبعض الحرف التي تمنحهم الــدار في النهاية مبلغا من المال يبدأون بــه حياتهم». وزار أيضا مصحات الفقراء التي تتميز بــالاتساع والنظــافة. ووجد بها عــددا كبيرا من الفقراء يتمتعــون فيها بالــرعاية ، ويعيشــون في مكان نظيف أنيق بحيث لا يبدون أي روح عــدائية تجاه بعضهم البعض أو تجاه من يزورونهم او يعيشون معهم .. ومصحات الرجــال نظيفة ومريحة، بيد انني اظــن ان مصحات النساء المسنات تفــوقها جميعــا، ولعلهــا ليســت بأي حــال من الأحــوال أدنى مستــوى من أفضل

المصحات في ايطاليـا على الرغم من انها مبنية بالآجر بينما مصحـات ميلانو مبنية بالحجـر. وإنني واثق من ان هذه النظافة تـراها وتعجب بها في غرفهم ومطابخهم ولا تجد هذا في أي بلد آخر. وهـذا المبنى الأخير كان يضم ما يزيد على ٤٠٠ من النســاء الفقيرات عندما زاره جيمـس مونسون لتفقـده، وختم جيمس وصفـه لمؤسسات البر في امستردام بقـولـه «.... علاوة على النفقـات والأعباء التي تتحملها هذه المدينة أو الـولاية للحفاظ على هذا العدد الكبير من المستشفيات، يـوجد أيضا (كما تفيد التقـارير) اكثر من ١٨ طنـا من الذهب يجرى توزيعهـا كل عـام على الأسر الفقيرة، مما يؤكـد الطابـع الخيري لدى أثرياء المدينة وأنهم شأن سكانها يتحلون باستعداد طيب للبر وحب الخير.

والأموال الـلازمة لصيانة مـؤسسات البر هذه تأتي من مصادر عـديدة ومتنـوعة، عـامة وخـاصـة، وربما كانت الغلبـة للمصادر الخاصـة. ويأتي بعضـها من أوقـاف الكنيسة الكاثـوليكية الرومـانية (الأديرة والـزوايا) التي استولت عليها المدن أو الاقطاعيات، أو التي تم تخصيصـها لكي تتولى كنائس الحركة الاصـلاحية مهمـة توزيعها. ويجرى تمويـل الجانب الأكبر منها عن طريق الضرائب البلـدية والمحلية ووصـايا البعض قبل الـوفاة بمنح «أفضل ملابسـهم» للفقـراء وعادة ما يـدفع أهل المتوفى مقابل هـذه الملابس نقدا. وفي بعض الأماكن كـانت دور الأيتام لها مطلق الحق في اعداد الأكفـان وفي أماكن أخرى يحصل الفقراء على نسبة من ثمن بيع الممتلكات غير المنقولة. واعتادت شركة الهند الشرقية ان تـدفع نسبة للفقراء خصما من مبيعاتها والتي تصل الى مبلغ كبير سنويا. ويكمل هـذه الاسـهامات العامة والبلديـة تبرعات خيرية من أهل الجود والكرم ووصايا الارث. ويؤكد مواطن انجليزي مقيم في لاهاي عام ١٧٤٠ أن «أكثر من ١٠٠٠٠ فلـورين، أو ١٠٠٠٠ استرليني يتم جمعها كل سنـة لمصلحة الفقراء، سـواء من الكنـائس أو بالمرور على المساكـن، هذا فضلا عـن المبالغ الكبيرة التي تتجمع حصيلـة وصايـا الإرث أوالمخصصات الخارجة عن الخزانة العامة. وقبل ذلـك بقرن من الزمان تبرع لوي دي جير ،

رجل الأعمال الشهير، بمبلغ ٢٠٠ فلـورين سنويـا لصندوق الفقـراء عن كل واحد من أطفـاله الأحياء – وكان له ستـة عشر. وكذلك الأدميرال م.م. رويتر اعتاد ان يقـدم نذرا الى صنـدوق الفقراء كلما عـاد الى ارض الوطن سـالما من رحلاته البحرية، وزاد من قيمة نذره بعد ان كبر في السن وازداد ثراء. وأشرف على اللجان المسئـولة عن المؤسسات الخيرية رجـال ونساء من اثريـاء سكان المدن ولوحظ أحيـانا ان المؤسسات التي تـديرهـا النساء أفضل من نظيرتها التي يديرها الرجال. وأيا كان الأمر فإن الاستعداد للخدمة في مثل هذه اللجان لم يكن مقطوع الصلة بما تسبقه من احترام ومكانة لأعمالها العظيمة وهو ما يؤكد تكرار رسم لوحات جماعية لمثل هذه اللجان.

بينما توفـرت هذه المؤسسـات في هولنـدا وزيلانـدا لا نستطيع ان نقول الشيء نفسـه عن المقـاطعـات الشماليـة الشرقيـة من جميـع النـواحي. ان الاصلاحيات موجودة في كل مكان ولكن مـدنا هامة مثل دلجيل أوها رلنجن أو جرننجن لا تستطيع ان تفخر بوجـود مستشفى عام فيها قبل عام ١٨٠٠ في الوقت الذي كـانت أصغر مدينة في المقـاطعتين البحريتين تمتلك مستشفى واحداً. علاوة على هـذا وعلى الرغم من الثناء الذي عبر عنـه جيمس مونسـون وغيره من الرحالة الأجانب فإن الحقيقة الثابتة هـي ان البطالة كانت في الغالب مشكلة خطيرة عـانت منهـا الجمهورية الهولنـدية في قـرنها الذهبـي. وكان الشحـاذون والمتشردون مشكلـة خطيرة أيضا في المدينة وفي الـريف. وعاشت البروليتاريا الصناعية حياة البؤس والكفاف. وفي عام ١٦٨٢ أصدرت هولندا قرارا يقضي بأن كل ادارة محليـة مسئولـة عن حماية فقـرائها، كما يتعين رد المتشردين الـوافدين من أي بلـد الى مـواطن نشأتهم التي أتوا منهـا. وأصبح لزاما على جميع الـوافدين الى اي مكان للعمل أو للإقامة ان يقـدموا للسلطات المحلية شهادات مالية أوغيرهـا لإثبات حسن نيتهم وصدقهم. ولكن يبدو ان هذه الاجـراءات لم تطبق كما يجب وظلت مهملـة على نطاق واسع خـاصة في امستردام. وأكـد وليم كـار في عـام ١٦٨٨ ان الشحـاذيـن الـذين تـراهم في

امستردام هم من مواطني مقاطعة والون وأجانب آخرين. بيد أن هذا قول فيه قدر من المبالغة. إن المشردين الأجانب والجنود المرتزقة المسرَّحين كانوا يقينا من بين جحافل المتسولين الذين أصدرت بشأنهم مجالس المدينة والمقاطعات تشريعات لمقاومتهم دون جدوى خلال القرنين السابع عشر والثامن عشر. ولكن قطاعا كبيرا من الطبقة العاملة الهولندية كان يعيش في فاقة شديدة ومعرّضاً للبطالة بين الحين والآخر بسبب اعتماده على عمل موسمي قليل الأجر فضلا عن استحالة ادخار أي مبلغ من المال.

وحسب وجهة نظر العامل الهولندي فقد تدهور العمل نظرا لأن الرخاء الواضح الذي تمتعت به المقاطعات المتحدة كان الأمر الذي تطلع اليه العاطلون وأشباه العاطلين في الأقطار المجاورة وانجذبوا اليه. وهكذا كانت الجمهورية الهولندية القبلة ليس فقط لأبناء مقاطعتي فلاندر ووالون بل وأيضا أبناء اسكانديناڤيا وألمانيا إذ زحفوا أسرابا إليها ظنا منهم ان شوارع امستردام يغطيها الذهب. وكتب أحد مؤلفي الكراسات في عام ١٦٢٣ فقال: «بلدنا يعج بالناس، والسكان يتكالبون بحثا عن عمل. وحينما تتاح فرصة للحصول على درهم تمتد عشرات الأيدي مرة واحدة للاستئثار به.*

ومن المسلم به أنه كانت هناك أحيانا حركة في الاتجاه المعاكس. ولم تكن الحركة قاصرة على هجرة رأس المال الهولندي واليد العاملة الماهرة الهولندية الى فرنسا وانجلترا والسويد والدانمرك والمانيا،بل شملت هذه الحركة أيضا اليد العاملة غير الماهرة، مع ملاحظة ان الدليل على هذه النقطة الأخيرة لا يزال غير متكامل. وعلى أية حال فإنه على الرغم من ضآلة الرواتب وتدنيها للغاية فضلاً عن طول ساعات العمل بدرجة مفرطة، إلا أن البطالة في الأراضي المنخفضة الشمالية لم تكن بالقسوة الشديدة التي تكفي لحفز العمال الصناعيين والزراعيين على الهجرة الواسعة الى ممتلكات شركتي الهند

* Fin de la guerre, p. 23 (Kunttel. ns. 3428)

الشرقية والغربية الهولنـديتين فيما وراء البحار. ويبدو ان الظروف تحسنت الى حد ما بعد عـام ١٦٦٤ تقريبا مقارنة بالأوضـاع التي سادت خلال حرب الثمانين عاما، وأثنـاء الصراع المأساوي المدمر مع انجلترا في الفترة من ١٦٥٢ إلى ١٦٥٤. وزادت الصـدقـات الخاصة كما تحسنت سبل ادارة الصـدقـات العامة. ولم تعد تحدث، تلك الوفيـات الفادحة بأعداد كبيرة بين الفقراء والتي كانت تحدث بشكل دوري في السـابق. كذلك فإن تـذبذب أسعـار الحبوب لم يعد لـه تلك الآثار السيئة حيث أصبحت البطـاطس غذاء اضافيـا مع الخبز. وطرأ بعض التحسن على سكنى الطبقة العاملة بحيث بدأت تتلاشى المساكن الخشبيـة المغطاة بأسقف من القش لتحل محلهـا مساكن مبنيـة بالآجـر أو الحجـر. ولكن ظلت القاعـدة العامـة هي الأحياء الفقيرة للمسـاكن المزدحمة بفقـراء المدن في الجمهوريـة الهولنديـة على مدى قـرنين من الزمـان. ويمكن القول ان الأوضـاع هنا تدهـورت ولم تتحسن. إذ يبدو ان عـدد أولئك الذين كانـوا يعيشون على إعـانات الفقراء خـلال النصف الثاني من القـرن الثامن عشر زادوا كثيرا عما كانوا عليه قبل ذلك بمائة عام.

وعانت الزراعة في هولندا كثيراً خلال الحقبة الأولى من حرب الثمانين عاما بسبب أحداث متبـاينة نذكر منها الهجـرة الواسعة المتعمدة من الـريف أثناء حصار ليدن ونجدتها عسكريا. وذهبت التقديرات التي تنطوي دون شك على قدر من المبالغة، إلى أن ثلثي مقاطعة هـولندا كانت لا تزال غارقة تحت الماء في عام ١٥٩٦. ولكن الـزراعة في هولندا سرعان مـا انتعشت في العقد الأخير من القـرن السادس عشر، عـلاوة على الأمـان الـذي اضافتـه انتصـارات الأمير مـوريس وارتفاع أسعـار المنتجـات الزراعيـة أثنـاء هـذه المرحلة من ثـورة الأسعار. كذلك فإن الـزيادة الكبيرة في تجارة الأراضي المنخفضة الشمالية الى أعالي البحار خلال النصف الأول من القرن السابع عشر اقترنت بزيادة كبيرة في الزراعة. نظراً لتوفر رؤوس أمـوال ضخمة للاستثمار في الأراضي الزراعية. وها هو بيتر فان هورن عضو المجلس الحاكم في باتافيا عام ١٦٧٤ يتحدث

أثناء مناقشة عما إذا كان الأولى بهولندا ان تحوِّل امبراطوريتها التجارية والبحرية الى امبراطورية استعمارية حقا، بمعنى امبراطورية ترتكز على استيطان الشعب الأبيض لبلدان في المنطقة الاستوائية فإذا به يؤكد ان حب الأرض الزراعية شيء غريزي عميق الجذور لدى البشر جميعا. وأكد كذلك اننا حتى اذا ما تأملنا أصحاب العقول التجارية في هولندا وطريقة تفكيرهم، سنجد ان اكثر التجار نجاحاً يأملون في شراء قطعة أرض صغيرة تكون ملكا لهم ليمارسوا من خلال عمل الزراعة أو البستنة كهواية. والشيء المؤكد خلال هذه الفترة ان مساحات أكبر من الأراضي الزراعية كانت ميسرة للزراعة عن طريق مشروعات استصلاح الأراضي، ولعل أشهرها مشروع بيمستر للصرف في عام ١٦١٠. واكدت أول سلطة مسئولة في تاريخ العناية العلمية بالزراعة في الأراضي المنخفضة أنه: «خلال القرنين السابع عشر والثامن عشر تفوق فلاحو هولندا في مجال تربية الماشية وانتاج الألبان وزراعة المحاصيل الزراعية التجارية وفي البستنة وابتكار أدوات بسيطة زهيدة الثمن». وكانت هذه بطبيعة الحال عملية بطيئة ولم تكتمل وتتعاظم قوتها الدافعة الا بعد ان انعقد سلم وستغاليا عام ١٦٤٨ وان لم يكن هذا التحول على مستوى واحد في جميع أنحاء البلاد. علاوة على هذا فإننا نخطيء إذا تصورنا ان جميع الفلاحين كانوا يعيشون في أرض الوفرة والنعيم بسبب ازدهار الانتاج الزراعي في بعض أقاليم هولندا أو بطرق أثارت حسد الأجانب الذين جاءوا لزيارة المقاطعات المتحدة. ان كثافة الانتاج الزراعي في هولندا لم يأت بسبب أن المقاطعات السبع أصبحت اكثر ثراء بقدر ما كان نتيجة الحاجة الى كثافة سكانية في الريف توفر أسباب المعيشة في عصر تسوده قيود تحدد طاقة استيعاب الصناعات في المدن بالاضافة الى هذا يجب التمييز بين فلاحي هولندا وزيلاندا وبين فلاحي المقاطعات الشرقية. مثال ذلك أنه في مقاطعتي جيلدر لاند وأوفريجيسيل حيث لملاك الأراضي هيمنة مطلقة وغير مقيدة على شئون العدالة والادارة، وكانت ظروف حياة الفلاحين أقل من ظروف نظرائهم في المقاطعتين البحريتين، ناهيك عن ان التربة الزراعية أفقر حالا.

وفي مقاطعة فريزلاند أيضا حيث التربة غنية خصبة، مارس نبلاء المقاطعة وأغنياؤها من الفلاحين هيمنة وسطوة شديدتين على مستأجري الأراضي. إن الحرية التي حظيت بها فريزلاند قديما والتي اعتاد ان يزهو بها أبناؤها في القرن السابع عشر كانت في واقع الأمر قاصرة على ملاك الأراضي الزراعية الذين احتكروا بدورهم السلطات السياسية والادارية والاقتصادية.

ولكن فلاحي هولندا وعمال المدن كانوا أفضل حالا نسبيا من نظرائهم في المانيا وفلاندرز وأسبانيا وفرنسا، على سبيل المثال، وذلك في مجالين أثنين اولهما، انهم اقل عرضة لنهب الجيوش الغازية. فإن الغزو الامبريالي الاسباني لفيلو Veluwe عام ١٦٢٩، والغزو الفرنسي لعديد من المقاطعات في عامي ١٦٧٢-١٦٧٣ كانا احتلالا عابرا لفترة وجيزة. ثانيا، ان البلاد مساحتها صغيرة وتتمتع بمواصلات جيدة (خاصة المواصلات المائية الداخلية) بحيث انه إذا ما أصاب الجفاف اي بقعة في المقاطعات المتحدة امكن اغاثته بسهولة ويسر وقتما كانت امستردام تسمى بحق «مستودع قمح أوروبا». ولم يكن هذا هو حال فرنسا، على سبيل المثال، إذ كان نظام المواصلات بها بدائيا وباهظ التكلفة وهو ما يعني ان حدوث مجاعة في اقليم ما لا يمكن نجدته بتقديم ما يكفيه من حبوب اقليم آخر بعيد عنه، ومن ناحية أخرى لا بد وان نسلم بان استخدام شبكة القنوات المائية الواسعة لم يكن يواجه اي اعاقة غير ضرورية بسبب المنافسة بين البلديات المختلفة التي تمتلكها وتتولى مسئولية صيانتها والحفاظ عليها وتشغيلها، ودفعت عوامل الغيرة بهذه البلديات الى الحفاظ على امتيازاتها التي أعطتها الاشراف على المرور والنقل في القنوات المائية داخل نطاق مسئوليتها وسلطتها والمدن الرئيسية التي تخصها مما يضمن لها فرض مكوس ورسوم محلية لمصلحتها. والمعروف ان هذه الرسوم وقيود المرور أثارت حفيظة دورد رشت وهارلم وجودا. ولكن على الرغم من هذه العوائق الادارية وعلى الرغم من كثرة الجسور والطرق التي كانت توجب نقل الشحنات الى سفن أخرى. ظلت

القوات المائية كوسيلة مواصلات أفضل من الطرقات البرية وأسرع حركة.

وإن النهج الاقتصادي الذي يلتزم به الفلاح الهولندي في حياته استحوذ على اهتمام جميع الزائرين الأجانب على الرغم من أن مراقبين كثيرين اتفقوا في الرأي مع سير وليم تمبل حين قال إن«الفلاحين السذج الأجلاف كما يسمونهم جادون أكثر منهم كادحون. ويقتصر غذاؤهم الرئيسي على الخضراوات واللبن والخبز والزبد أوالخبز والجبن. وظن تمبل ان هذا هو سبب التباين بين قوتهم وحجم أجسامهم.» ونادراً ما كان الميسورون المعتدلون في حياتهم يأكلون اللحم أكثر من مرة واحدة في الأسبوع، أما أغلبية العمال فإن المحظوظين منهم من يطعم اللحم مرة في الشهر. واعتادت بيوت الصدقات والخير في القرن السابع عشر أن تقدم أنصبة تتألف من الفاصوليا والبازلاء والبرغل والجاودار وهي العناصر التي يظن انها تمثل الغذاء الرئيسي لفقراء المدن. وعلى الرغم من ان سكان المدن والتجار الأكثر يسارا وثراء كانوا بطبيعة الحال يأكلون لحوما اكثر من مواطنيهم الأدنى مرتبة في المجتمع، إلا أن غذاءهم الرئيسي خلال الربع الأول من القرن السابع عشر، والذي وصفه انجليزي معاصر، كان يتألف من «زبد اللبن المغلي والتفاح وسمك القديد واللفت والجزر مع الزبد والخس والسلطة والرنجة الحمراء المغموسة في قليل من شراب البيرة». وكان الانجليز مغرمين بتسمية الهولنديين «صناديق الزبد» بينما كان يسميهم الفرنسيون «أكلة الجبن». غير ان سير وليم تمبل يؤكد ان الفلاحين الهولنديين الاقتصاديين في حياتهم كانوا يبيعون أجود أنواع الزبد والجبن عندهم، إذ يخصصونها للتصدير، ويشترون «الأرخص من ايرلندا أو شمال انجلترا لاستعمالهم الخاص»*

وإذا كان الفلاحون اعتادوا بأن يرضوا بالطعام الذي وصفه سير وليم تمبل بأنه «ما يفي بالحاجة ويسد الرمق»، إلا أنهم في جميع الأحوال كانوا

* Temple, observations (ed. 1676) p. 158-9, 182-232.

يحصلون على طعام أوفر وأكثر مما كان يحصل عليه عمال المدن أبناء الطبقة الأدنى أو من يسمــون «الدهماء». وامتــلأت المدن الكبيرة بأعــداد غفيرة من هؤلاء، ونظرت الطبقة الراقية اليهم نظرة نفــور شديد على نحو ما يوضح لنا أدب ومراسلات تلك الحقبــة. وإذا كانت فئة الحكام وهم الأقليــة من الأغنياء يؤمنون إيمانا قاطعا بأن سكان المدن من أبناء الطبقة الوسطى هم مواطنون صغار الشأن ولا بد لهم وأن يبقوا صغارا على حــالهم؛ فإنهم بالأحرى كانوا أشد احتقارا في نظــرتهم إلى «الدهماء البله سيئي الطباع والاشرار الــذين يملأ قلبهم الحقد والكراهية تجاه حكام جمهوريتهم الارستقراطيين»، على حد قول مؤلف كتاب «مصلحة هولندا» في عام ١٦٦٢. ولم يخف هذا الاحتقار بمرور الوقت، اذ بعــد قرن من الزمان كــان لا يزال الحكام ينظرون الى بــروليتاريا المدن باعتبارهم «أهل فظاظة أجلافا، أغبياء كالبهائم غارقين في ملذات فاجرة مخزية.* وتفيد الاتـهامات وغيرها الموجهــة في حق الفئة من الناس ان الحكام كانوا يخشونهم أو أنهم يخشون ما قد يفعلــه الغوغاء إذا ما أفلت الزمام من أيــديهم. إذ المؤكــد ان الغوغــاء سيكشفــون عن أسنــان حادة إذا مــا حــانت الفرصة، ولكن أسوأ مثال للغضب الشعبي غير الموجه يتمثل في إعدام الأخوين دي ويت في لاهاي دون محاكمة قانــونية (في ٢٠ أغسطس ١٦٧٢) إنما كان أولا ولا أساسا من عمل الحرس الــوطني المؤلف من سكان المدن، وبتحريض عمدي من أنصار بيت آل أورانج.

وكــانت الطبقـــة المنــوه عنهــا تتألف مــن العمال اليــوميين والمتشردين والعــاطلين المحليين وقت تعطلهم. ويــدعم هؤلاء عمال آخــرون يعتمــدون في معيشتهم على العمالــة الموسميــة أو العــرضية بين حين وآخــر ومعــرضــون للفصل من عملهم في أي وقت، وغالبا ما كان البحارة ضمن هذه الفئة لأسباب سنوضحها فيما بعــد. أما العمال من أصحاب المهن المنتظمــة أمثال أصحاب المهن الحرة والعمال الفنيين والحرفيين وصغار البقالين والكتبــة والتجار فقد

* Interest of Holland (ed. 1702) pp. 394

كانوا جميعا يندرجون تحت وصف «الرجل ذو الشأن الوضيع» أو «الانسان العام». ويمكن أن يندرج بين هؤلاء أيضا صغار الموظفين والفلاحين والنوتية. أو لنقل بعبارة أخرى إن «الإنسان العام» يضم الشريحة الدنيا من والنوتية. أو لنقل بعبارة أخرى إن «الإنسان العام» يضم الشريحة الدنيا من الطبقة الوسطى والقطاعات المحترمة من الطبقة العاملة. وقد يتسع نطاق المصطلح في اتجاه صاعد ليشمل البقالين والتجار الأكثر غنى ورؤساء الكتبة والموظفين العاملين في ادارات المقاطعات والبلدية – خاصة كل من يأتي موقعه بين الفئة آنفة الذكر في قاع السلم الاجتماعي وبين الأوليجاركية الحاكمة وأثرياء التجار في القمة.

وكان هناك ثلاثة أنواع من نقابات الحرف خلال القرن السابع عشر في الأراضي المنخفضة المتحدة؛ نقابات الحرفيين لعمال ذوي مهارات محددة، ونقابات التجار، ونقابات العمال العاديين التي تضم عمالا من أمثال الحمالين الذين يعملون في حمل القمح والبيرة، والبرجية أو الحمالين الذين يعملون في السفن، وسائقي المرائب وعمال تعبئة سمك الرنجة. وتشبثت نقابات الطوائف في أغلب المدن بحقها في تنظيم ساعات العمل والأجور وعدد الصبية الأمر الذي تعرضت بسببه النقابات لانتقادات مستمرة على لسان بيتر دي لا كورت رجل الصناعة في ليدن في القرن السابع عشر. وعبر عن انتقاداته هذه في كتابه «مصلحة هولندا». وشاركه في هذا الانتقاد عديد من المؤرخين في القرن العشرين، ومع هذا، وكما أوضح الاستاذ جيل Geyl فإنه إذا كان ضيق أفق المسئولين عن هذه النقابات ونزعتهم إلى الرتابة حالا دون ظهور رأسماليين كبار مستقلين في المجالات التي كانت مسرحا لقوة هذه النقابات إلا أنها أيضا عطلت نمو الدهماء المعدمين المحرومين من كل الحقوق في عدد من المقاطعات. ولا يشمل هذا عدداً من الصناعات الكبرى مثل صناعات بناء السفن والبيرة والصابون وتكرير السكر التي كان جميعها، أو أغلبها، خارج دائرة نفوذ النقابات. مثال ذلك صناعة النسيج في ليدن ظلت زمنا خاضعة لسيطرة

النقابات لمتابعة تصنيف وفـرز ومراجعة الأقمشة، ولكن دون ان تكون لهذه النقابات سيطرة على عمالها الفقراء ذوي الرواتب الضئيلـة. ومع هذا غالبا ما كان الحرفيون أعضـاء النقابة يعملون من الفجـر حتى الغسق، وكان المعتاد ان تمتد ساعات عمل العامل الى ما بين اثنتي عشرة ساعة وأربع عشرة ساعة. هـذا على نقيض سـاعـات العمل التي يمضيهـا أو يعمل بها أربـاب العمل في مكاتبهم إذ كان بعضـهم لا يعمل اكثر من ساعة أو أربع ساعات يومياً.

ولكن مـا يثير الدهشــة أكثر، ان السـخط الاجتماعي لم يجد تعبيراً لـه في صـور حـالات من الهيـاجِ الشـديـد إلا من خـلال العمال الثـابتين، وكـانت الاضرابات نادرة نسبيا حتى بين عمال النسيج الكادحين في ليدن. وجاء وقت كان في هذه المدينة ٢٠٠٠٠ نسمة – ليســوا جميعاً عاطلين – وانما يعيشـون على الصدقـات بسبب تضـورهـم جوعا. ولا ريـب في ان سوء التغذيـة المزمن الذي عـانى منه هؤلاء العمال هـو السبب في ارتفاع نسبـة المرضى بداء السل بينهم، وحدث ان تقدم عمال البيرة في امسـتردام بعريضة يطالبون فيها برفع أجـورهم في عام ١٥٧٨، زاعمين أن أجـورهم ضئيلة لا تفي ولا تكفي لـدفع غائلة الجوع عنهم وعن أسرهم في وقت ارتفعت فيه تكاليف الغذاء والاسكان. وحصلـوا على جـزء من مطـالبهم، وجددوا مطـالبتهم في عـام ١٥٩٥ وعـام ١٦١٧. وعبر عمال النسيج في امسـتردام كـذلك عن سخطهم واستيـائهم من أوضاعهم المعيشية ولكن ليس على المستوى الـذي يمكن للمرء ان يتوقعه على ضوء الـوقائع التي تؤكد ان الأمـراض المعدية التي كانت تحصـدهم بصـورة دوريـة في مطلع القـرن السـابع عشر لم تكن لتصيب سـادة المدن والحكـام وقساوسة الكنيسة والمدرسين وموظفي المدن نظراً لأنهم يتمتعون بغذاء جيد ومسـاكن أفضل. والمعروف ان أغلبيـة العمال اليـدويين كانـوا يعانـون من شظف العيش. ويرجع سبب قلة الاضطرابات الى غياب أو ضعف التنظيمات العمالية (على نحـو ما أوضـح فيوليت بـاربور) أكثر ممـا ترجـع الى النظام الأبوي المستنير الذي يلتزم به الحكام الدكتاتوريون من أبناء الشريحة العليا

من الطبقـة الوسطى. ولكـن من الواضـح ان الفـوارق الطبقيـة في جمهوريـة هولنـدا، مثلما هو الحال في بلـدان أخرى، كانت مقبـولة بـاعتبارهـا الوضـع السـائد في تنظيم الـوجود عـلاوة على هـذا فقد كـانت طبقـة عمال المدن غير مسلحـة، بينما هناك ميليشيـا المدن أو الحرس الوطني الـذي يمكن الاعتماد عليه في طاعة أوامر الحكام لدى نشوب أي صراع ضد الطبقات آنفة الذكر.

ومن المتوقع أن يقع عبء الرسوم والضرائب في جمهـورية هولندا، مثلما هو الحال في أكثر البلدان الأُخرى، على عـاتق الفقراء أكثر من الأغنياء، وان لم يغفل اطار الضرائب «القـدرة على تحمل عبئها». إذ فرضت السلطات رسـوما وضرائب متنـوعـة على أغلبيـة أو معظـم السلع الاستهـلاكيـة وعلى كثير من أنشطة الحياة العادية. وطبيعي ان يقع العبء الأكبر لهذه الضرائب على عاتق الفـلاح والملاح والحرفي اكثـر من سـاكن المدينة الثـري أو التـاجـر أو ذوي الاملاك. ولكن كثيراً من مظاهر الحياة الميسرة التي كان بإمكانها ان تفلت من الضرائب في أقطـار أخرى، كـانت تخضع لضريبة تصـاعديـة في المقاطعـات المتحدة حسب مكانة الرجل وثرائه أو حسب مظاهر الحياة. وقدم لنا القنصل الانجليزي في امستردام عـام ١٦٨٨ قائمة طـويلة بالضرائب المفـروضة على أرباب الأسر والتي تضمنت بنودا مثل ضريبة الـرؤوس السنوية على كل ذكر أو انثى من العاملين وتجاوزت أعمارهم ثمانيـة أعوام وضريبـة على «النبيذ» حسب المكـانة والجودة، وضريبة «حـراسة» حسـب مظهر البيت وفخـامته، وضريبة إضاءة الطرقات «حسب سعـة وضخامة البيت». وفرضت السلطات كذلك ضرائب على مختلف أنواع المركبات حسب نوعها وكمياتها.

وفـرضت ضرائب على العـديـد من ضروريـات الحيـاة، من بينهـا الملح والصابون والزبد والحبوب والحطب (المستخـدم أساسا للوقود)، والخشب واللحم والخبز. وكانت هناك ضرائب أخـرى كثيرة على أنشطة التجارة، مثال ذلك أنـه لا يستطيع انسان ان يـزن أو يكيل بضاعتـه بصورة اجماليـة، بل

يتولى هذه المهمـة عنه موظفو الـدولة المسئولون. وفـرضت الولايات ضرائب خاصة بها تسمى Ver Pounding على جميع الأراضي والبيوت الـواقعة في نطاق سيطرتها. وهناك ضريبـة على الورق المختوم وضريبة تسجيل الأراضي أو البيـوت، وضريبة على الأبقـار والخيل والعجـول ومختلف أنـواع الفاكهـة والثمار. وكان على كل عابـر يعبر سور المدينة ذهابا أو إيابـا منها بعد حلول المساء ان يـدفع ضريبة عبـور البوابـة. وفرضت رسـوم عبور الكبـاري عند تقاطع القنـوات تدفع مقـابل مرور البشر والحيـوانات والمركبـات. وفرضت ضريبة على اللبن كما هو، ثم ضريبة ثانية عند استخراج الزبد منه، وليس هذا فحسب بل وضريبة على مخيض اللبن وشرش اللبن، بحيث يخيل للمرء أن أي شعب حريص على حريته لا بد له وأن يتمرد ويرفض الدفع. «ويؤكد لنا وليم كـار ان هـذا كـان امـرا نـادر الحدوث للغـايـة واذا مـا وقع، فإن الفـاعلين يتعرضون لأشد أنواع العقاب. وأضـاف قائلاً «لو اضطرت انجلترا الى فرض مثل هذه الضرائب لتعاقبت الثورات الواحدة تلو الأخرى. وهنا، وبعد كل هذه الضرائب التي يدفعها الناس، لا يستطيع انسان ان يخبز خبزه، ولا ان يطحن قمحه او يصنع بيرته، بل ولا يجرؤ إنسان على الاحتفاظ بطـاحونة يدوية في بيته حتى وان لم يستخدمها إلا لطحن القهوة او الخردل.

وبعد أن عرض القنصل عدداً من الأمثلـة في ضوء خبرته والتي اعترف له بها بعض من تحايلوا عن دفع الضرائب مـن مختلف فئات المجتمع، علق على هذا قائلاً: الضرائب هنا لها قدسية كبيرة وواجبة السداد. ولو لم تكن محددة بدقة متنـاهية هنا لاستحال على بلد صغير كهـذا ان يستمر في البقاء لهذا من المألوف ان تسمع السكـان هنا يقولـون انهم يتحملون هذه المعـاناة من أجل ارض الآباء. ومن ثم فإن أرقَّهم حالاً راضٍ عن دفع مـا هو مفروض عليه لأن "كل مـا ندفعـه لأرض الآباء هـو لنـا على حد قـولهم.» وإذا كان صحيحـا ان الهولنديين اعتـادوا دفع ضرائبهم مع قدر مـن المعارضة أقل مـن نظرائهم في البلـدان الآخرى طـالما وانهم لا يشكـون في إهـدار المال على مظاهـر اسراف

شخصية من جانب الملك أو البلاط، فإن الصورة التي قدمها وليم كار عن دافع الضرائب الهولندي الذي يسدد ضرائبه عن رضا وسعادة وإنما هي صورة مبالغ فيها بقصد تنوير وتهذيب أبناء بلده الذين يتذمرون من الضرائب المفروضة عليهم، ذلك ان الضرائب المفروضة على الاسطول الهولندي والتي قال انه تم الاقتراع عليها مسبقا وسارع الناس بدفعها، إنما كان قرارها يأتي غالبا بعد تردد ثم يسوّف الناس في سدادها. وسنرى فيما بعد ان ادميرالية امستردام هي الوحيدة التي لهاسجلات جيدة من بين أدميرالات المقاطعات الخمس. ولقد عارض بشدة بيتر دي لاكور، وغيره من رجال الصناعة دفع ضرائب عن «جميع السلع الخام المستوردة التي سيصنعها سكان البلد».

وشاعت محاولات تهرب أصحاب السفن الأثرياء من دفع الضرائب التكميلية. أما أبناء الطبقات الفقيرة الذين قال عنهم كار أنهم يدفعون دون تذمر، فلا بد وأنهم اتفقوا في الرأي مع تعريف الانجليز للرسم الضريبي بأنه ضريبة «شائنة يفرضها أوغاد»*

وبقدر ما كانت قاسية ظروف معيشة عمال الصناعة والزراعة كانت حياة العاملين في البحار أشد قسوة. لقد كانت البطالة الموسمية بين صفوف عمال البحار امرا حتميا الى حد ما بحكم طبيعة العمل ذاته، وطيلة موسم الشتاء الذي تتعرض له الأراضي المنخفضة الشمالية. وكثيرا ما يزداد الوضع سوءا بسبب الريح المعاكسة او بسبب الجليد الذي قد يغلق الموانىء لأسابيع عدة أو بسبب الحروب أو شائعات عن نشوب الحروب مما يؤدي إلى إغلاق موانىء شبه جزيرة ايبريا فرضها على السفن الهولندية قبل عام ١٦٤٨، أو

* W. Carr; An Accurate Description (ed, 1691) pp. 44-50. Temple, Observations (ed. 1676)pp.
250-4.

بسبب توقف الملاحــة عبر الساوند بــالنسبة لتجارة البلطيق الحيـوية. وعلى الرغم من الــزيادة الكبيرة في صنــاعة السفن في هولنـدا والمشاريع البحــرية الهولندية فيما بين ١٥٨٥ و١٦٥٠ كان هنــاك فيما يبدو. فائض من البحارة خــلال القسط الأكبر من هــذه الفترة وربما أيضا خــلال الأعـوام الستين أو السبعين التاليــة. إذ كان بامكــان اي ربان سفينــة هولندي ان يحشــد العدد الكافي من البحارة على الرغم من ضآلة الــرواتب وتفاهة الجراية. أو هكذا كان على الأقل حال السفن العــاملة بالتجارة في الميــاه الأوروبية. إذ غالبا مــا كان الأمر على غير هذا النحو بالنسبــة لسفن شركتي الهند الشرقية والغربية التي تبحر في البحار البعيــدة وترسو في موانــيء استوائية عرضــة لأمراض خطرة تكاد تتضاءل فيها فرص عودة البحارة أحياء الى بلادهم.

وواجهت الإمارات البحــرية للمقاطعات كـذلك صعوبة في حشد الــرجال اللازمين لسفنهــا الحربية، خــاصة إمــارة روتردام البحــرية، وهــي الإمارة العظمى وان كانت مفلسة، ولذلك لم تدفع الــرواتب بطريقة منتظمة. وعندما توفر المال لم تكن ثمة حاجة إلا نادراً، لحشــد القوى البشرية اللازمة للخدمة البحريــة خلال النصف الثــاني من القرن السابــع عشر، وذلك بعد أن أصبح بمقدور هــولندا ان تــرسل الى البحر أســاطيل مزودة بــأي عدد من الــرجال يتراوح عــددهم ما بين ١٦٠٠٠ الى ٢٤٠٠٠، وأكثــرهم من المتطــوعين. وعلى الرغم من أن الحكــومة الهولندية لم تلجأ الى التجنيــد الاجباري للبحارة، على نحو مــا فعلت انجلترا، إلا أن السلطات الهولنــدية وجــدت من الضروري لها أحيــانا ان تفــرض حظــراً مؤقتــا على سفن التجــار المتجهة الى الخارج ايــام الحرب، حتى تجبر البحــارة على ادراج اسمائهم ضمن العاملين في الأسطــول كفــرصة وحيــدة أمــامهم للحصــول على خبــزهم اليومي. وكثيرا مــا يــزعم المؤرخون الهولنديون ان معدلات أجور البحار في الأيام العادية تظل عن عمد أدنى من أجور البحــارة العاملين في خدمــة التجار، خوفــاً من أن اي زيادة في الأولى قد تــؤدي الى زيادة الثانيــة. ولا ريب في ان اي زيادة في أجــور البحارة

العاملين مع التجار من شأنها ان تعوق أصحاب السفن عن مواجهة المنافسة الخارجية، نظراً لأن الأجور الضعيفة التي يدفعها أصحاب السفن الهولنديون لبحارتهم تمثل الحجر الأساس لقدرتم على تقديم أجور شحن منخفضة. واستطيع ان أؤكد، في حدود معلوماتي، ان هذا الفارق اذا ما كان قد خصص لهذا الغرض اصلا، فإنه لم يعد كذلك بعد منتصف القرن السابع عشر. والمعروف ان المعدل الأساسي لأجر العامل البحري الكفء خلال الفترة من ١٦٦٥ الى ١٧٨٠ ظل كما هو دون تغيير «حوالي خمسة عشر جلداراً شهريا. ولكن الملاحظ خلال هذه الفترة ذاتها ان البحار الكفء الذي يعمل في خدمة شركة الهند الشرقية الهولندية كان يتقاضى راتبا أقل، إذ كان المعدل العادي ما بين عشرة وأحد عشر جلداراً شهريا.

وحينما زعم (في عام ١٦٢٩) بعض كبار أصحاب السفن في امستردام وكانوا على صواب تماما، أنه خلال الهدنة التي دامت اثني عشر عاما حازت هولندا نصيب الأسد من تجارة النقل في أوروبا بفضل انخفاض تكاليف الشحن وارتفاع مستوى الخدمة الفنية، لم يشاءوا أن يضيفوا شيئاً إنما تحقق أساسا بفضل ما وفره أصحاب السفن من أعداد البحارة، وما اقتصدوه أو انتقصوه من غذائهم. ولكن معاصرين آخرين تحدثوا بصراحة أكثر. فهناك فان ميتران يبين في تأريخه لأحداث عام ١٥٩٩ ان مهنة صيد أسماك الرنجة في بحر الشمال كانت خطرة وغير مأمونة حتى ان الانجليز وغيرهم، نأوا عن الابحار الى هناك بسبب انخفاض الأجور وسوء الغذاء الأمر الذي ارتضاه الصيادون الهولنديون لأنفسهم. وبعد هذا ببضع سنوات يذكر مؤرخ ان ربابنة السفن والبحارة الهولنديين يتصفون بالمهارة الفائقة فيما يختص بصناعة الملاحة البحرية وكذلك في الصيد وهم اقتصاديون يتوخون التوفير او التقتير في غذائهم حتى انهم يوفرون لأصحاب السفن عندنا ما لا يقل عن ثلث النفقات بالنسبة للرجال والغذاء مما تحتاج اليه بلدان أخرى بكميات أكبر وجودة أفضل. وثمة معلق آخر أكثر صراحة في بيانه لحساب

نجاح أصحـاب السفن في زيلانـدا وهولنـدا في منافستهم مع مـزاحميهم من أصحـاب السفن في اسكنديـنافيا وألمانيـا. وقال عن هـذا في عام ١٦٤٥ أمـا الأولون فيديـرون سفنهم على أساس اقتصادي اكثر من سـواهم، ويعطون ملاحيهم جـراية أقل .. وساد اعتقـاده بأنه عنـدما تحتاج سفينـة متجهة الى الشرق الى اكثـر من عشرة رجال، نجـد السفينة الهولنـدية من الحجم نفسـه يعمل عليهـا ستة رجـال فقط. وها هي صحيفـة Hollandtse Mercuries تشير في عددهـا الصادر في اكتـوبر ١٦٦٧ - الى تـزايد المنـافسة الحادة بين الصياديـن الهولنديين والانجليز في بحـر الشمال، ثم تقـول: «ان الهولنديين الشجعان لا يسعهم تحمل ان الانجليز الذي يـؤثرون القيام بدور السيد وفي يديـه قفازان بدلا من عمل أي شيء) سوف يحرمـونهم من استخدام العنصر المشترك الذي كان حكراً لهم على مدى مائة عام».

ويسلِّم البرتغـاليـون والأسبـان المعـاصرون لهذه الفترة بأن السفن الشراعية الهولنديـة الضخمة المستخدمة في التجارة الى الهنـد كانت تدار على نحـو اقتصـادي وبكفاءة اكثـر من سفنهم. واعترف الانجليـز أحيـانـا بهذا التفوق ايضـا. ومن ناحيـة أخرى فان بحـارا انجليزيـا خبيراً عمل على ظهر السفينة بيرشت فان ليدن المتجهة الى الوطن في عام ١٦٧٤ يقول ان سوء وقلة الغـذاء هما السببان في ارتفـاع نسبـة الوفيـات على ظهـر السفن الهولنديـة بالمقـارنة بالسفن الانجليزيـة المنافسة. والجديـر بالذكر ان استحـداث نوع جديد من السفن المعـروف باسم «الفلوت» والذي كان عامـلاً هاماً في ازدياد تجارة النقل الهولندية كان له ايضا مساوئه وذلك عندما أدخل هذا النوع من السفن للخدمة، ووفر عدد العاملين، ثم طرد الكثيرين من البحّارة الهولنديين من الخدمـة ممـا اضطـر بعضـهم إلى ادراج أسمائهم للعمل على ظهـر سفن القراصنة وانتقـد كثيرون بشدة أسلوب التقنين الذي اتبعـه أصحاب السفن الهولنـديون العـاملون في مجال تجارة الأخشـاب للنرويج. إذ كـانت السفن العاملة هنا سفنا قديمة بطيئة غير جديـرة بمهامها البحرية، لولا ما زعموا ان

طبيعة حمولتها من الأخشاب قد ساعدتها على الطفو.

وفي العام ذاته الذي تفاخر فيه رجال امستردام بأنهم حصلوا على نصيب الأسد من تجارة النقل في أوروبا وصف المختصون العاملون في الملاحة البحرية في ماسلويس Maassluis بأنهم «بؤساء محطمون .. وهم صيادون يحصلون على رزقهم من خلال معاناة الفقر المدقع والتعرض للأخطار الفادحة.» وطبيعي ان حياة رجل البحر هي دائما وأبدا حياة شاقة طوال أيام الإبحار. وليس عسيرا ان نجد ملاحظات أخرى مماثلة تؤكد هذا الرأي عن المشاق التي يعانيها بحارة آخرون مثل البحارة الفرنسيين أو البريطانيين أو البرتغاليين. وعلى أية حال ثمة شواهد كثيرة تؤكد ان البحارة والصيادين الهولنديين كانوا يعيشون على الكفاف خاصة حين يتزوج الرجال وتتكون لهم اسر يتعين عليهم إعالتها. واستغل هذا الوضع أرباب العمل سواء أكانوا مديري الشركات الهندية ام اعضاء الإمارات البحرية في المقاطعات أم التجار أصحاب السفن. ووجد أصحاب السفن وربابنتها إغراء شديدا في أن يجهزوا سفنهم ببحارة يتقاضون أجورا ضئيلة وغذاء هزيلا. ودعم هذا الإغراء توفر أعداد كبيرة من البحارة الهولنديين بل وكثرة الأجانب الذين وفدوا بحثا عن عمل داخل المقاطعات المتحدة الذين استهوتهم رائحة طعم الربح الكبير»، وهؤلاء هم بحارة من اسكنديناقيا وألمانيا.

وتفيد تقارير يرجع تاريخها الى عام ١٥٨٨ الى انه كان لدى هولندا اكثر من ٢٠٠٠ سفينة تجارية ضخمة تصلح للعمل كسفن حربية، كما زعم نائب امير البحرية الهولندية ان بامكانه ان يحشد ٣٠٠٠٠ بحار خلال أسبوعين. وفي عام ١٦٠٨ زعم مديرو شركة الهند الشرقية الهولندية ان لديهم ٤٠ سفينة مجهزة بخمسة آلاف رجل في آسيا، و٢٠ سفينة على متنها ٤٠٠ رجل عند ساحل غينيا، و١٠٠ سفينة مجهزة بألف وثمانمائة رجل في «جزر الهند الغربية» بينما عدد السفن والرجال العاملين في المياه الأوروبية يزيد كثيرا

على عدد السفن والرجال العاملين في التجارة مع المستعمرات. وفي عام ١٦٤٤ قال واحد من كتاب الكراسات ويبدو انه كاتب حسن الاطلاع. ان لدى الهولنديين آنذاك أكثر من ألف سفينة صالحة للاستعمال كسفن حربية علاوة على ١٠٠٠ سفينة شراعية تجارية، تعمل في أعالي البحار، هذا خلافا لـ ٦٠٠٠ سفينة لصيد الرنجة مستخدمة في المياه الداخلية. وأضاف ان هذه السفن مجهزة بأكثر من ثمانين ألف رجل من أفضل وأمهر البحارة في العالم، وهو قول ينطوي على قدر من المبالغة التي تشف اعتزازا وطنيا. وقال ان شركة الهند الشرقية وحدها تملك ١٥٠ سفينة يعمل عليها ١٥٠٠٠ رجل (واضح انهم ليسوا جميعا من البحارة) وتأكد في الربع الأخير من القرن السابع عشر ان شركة الهند الشرقية تحتفظ بأكثر من ٢٠٠ سفينة كبيرة وثلاثين ألف رجل أجير نصفهم تقريباً من البحارة.

ويمكن القول إجمالا ان مجتمعات البحارة الهولنديين كانوا أقل استسلاما لحياة الشظف من العمال الزراعيين وعمال الخدم، إذ كان التمرد شبه شائع بينهم، وكلما شعر البحارة ان أرباب العمل تحايلوا لسلبهم أجورهم لجأوا الى الشغب وإثارة الاضطرابات بطريقة أثارت قلق الطبقة الحاكمة. مثال ذلك انه في عام ١٦٢٩ استاء بعض بحارة شركة الهند الشرقية ولم يرضوا بنصيبهم من الغنائم بعد ان أسر بيت هين Piet Heyn أسطول الفضة، وحاولوا اقتحام المبنى الذي أودعت فيه الغنيمة التي كان سيبددها رجال الحرس الوطني. ووقعت أحداث شغب أكثر خطراً في امستردام بسبب تمرد بحارة الاسطول في سبتمبر ١٦٥٢ - ولم يتمكن المسئولون من قمع هذا التمرد الا بعد ان اطلق الجنود النار على البحارة واعدموا اثنين من زعماء التمرد شنقا. وفي ١٥ يونيو ١٦٦٥ حاول حشد غاضب من زوجات البحارة وأبنائهم ومن يعولونهم في دين بريل اعدام جوهان افرتسين القائد البحري في مقاطعة زيلاند بعد ان اتهموه كذبا بالجبن في معركة لويستوفت Lowestoft التي وقعت مؤخراً، ولكن الجنود انقذوا القائد التعس في اللحظة الأخيرة. غير

ان السلطات المسئولة لم تجرؤ على اعتقال أو معاقبة اي من الذين أثاروا أحداث الشغب. وتؤكد التقارير الرسمية للقرن السابع عشر وكذلك الأدب الشعبي لهذه الحقبة على الطبيعة الهمجية وغير المنضبطة التي اتصف بها الجمهور من الغوغاء وما واجهه الضباط وأرباب الأعمال من صعوبة في سبيل السيطرة عليهم. ولقد كان الضباط من نفس النوع في الغالب على نحو ما أوضح الضابط البحري م.هـ. ترومب عندما رفض دعوة للغذاء مع الأدميرال سيرجون بنينجتون اذ قال: «لقد قال ان لديه كثيرين من الفلاحين الأجلاف بين ضباطه، الذين لا يفهمون معنى المدنية ولا آداب السلوك».*

وسواء أكانوا «فلاحين أجلافا» أم أبناء «سكان مدن» فإن ضباط السفن اعتادوا الاعتماد على النظام الصارم وتطبيق عقوبات شديدة في سبيل الزام رجالهم بطاعة الأوامر، وعاملوهم كما يقول المثل «كبشر على البر وحمير على ظهر السفن». وفي هذا الصدد كتب رحالة خبير في عام ١٧٥١ «بالنسبة للبحارة على متن السفن الشراعية التجارية الضخمة التي تعمل على الطريق البحري الى الهند كان صب اللعنات وتوجيه السباب والشتائم المقذعة والإغراق في الملذات الحسية والقتل أمورا تافهة لا تعني شيئاً. ولهذا كانت تجد شيئاً ما يختمر بين صفوفهم وإذا لم يبادرهم الضباط بتوقيع عقوبات صارمة رادعة سوف تتعرض حياتهم هم للخطر وسط هؤلاء الغوغاء الجمّاح. «وكتب أحد العاملين بشركة الهند الشرقية ممن يتصفون بالتزمت وذلك في عام ١٦٧٧» إن جنود وبحارة شركة الهند الشرقية الهولندية يتصرفون مثل الخنازير. إنهم يسرقون وينهبون، ويسكرون ويعربدون دون خجل أو إحساس بالعار.» ويضيف قائلاً ولهذا السبب لا بد من حكمهم بالحديد والنار شأن الوحوش البرية وإلا افترسوا كل من صادفهم في الطريق.» ويحدثنا نيقولا دي جراف الرحالة الخبير ويكشف لنا عن أسباب تصرفاتهم الهمجية فيقول: «إن جان ماعت، أقل وأدنى شخص على ظهر

* Journal of Peter While por 26 Sept. 16 Oct. 1639.

السفينة لا بد وان يكون على أهبة الاستعداد مع أول ايماءة أو أمر يصدر إليه ممن هو أرقى منه، وأن يفعل كل ما يؤمر به دون تأفف أو امتعاض. وإذا ما أبدى أي مظهر من مظاهر التردد فلا بد من تهديده وضربه ضربا مبرحا. ويتعين على البحارة ان يصعدوا ويتسلقوا حبال الصاري وعوارض الأشرعة ليلا ونهارا، وفي العواصف والأعاصير. ويجب عليهم القيام بأعمال تحميل السفن وتفريغها وان يقفوا مثل الأصنام والعبيد الأذلاء عند جانب السفينة او كلما غادر الربان أو أحد من الضباط ظهر السفينة او عاد اليها.

وكانت عقوبة الاعدام إحدى العقوبات التي تطبق على جريمة القتل والتمرد والشذوذ الجنسي (وتنفذ العقوبة عادة بالقاء جثة المجرم مقيدة بجسم الضحية أو شريكه في البحر)، ومن العقوبات كذلك تقييد المذنب في عارضة الشراع وتغطيسه في الماء أو صلبه على عارضة الشراع ودق المسامير في يديه. ومنها أيضا الجلد من عشر الى خمسمائة جلدة. يضاف الى هذا عقوبة الغرامات التي تتباين درجاتها وقد يكتفى بالغرامة أو تقترن الغرامة بالعقوبات البدنية. واشتهرت شركة الهند الشرقية الهولندية بهذا النوع من العقوبات. ومن بين الجرائم الشائعة سب كبار الضباط او اهانتم او السكر او الشجار مع استخدام السكاكين. وشهدت سفن شركتي الهند الشرقية والغربية العديد من احداث التمرد وعدم الخضوع للأوامر، أكثر مما هو معروف بالنسبة لسفن الاسطول العادي او السفن التجارية الأخرى. ويرجع هذا لأسباب منها طول الرحلات البحرية التي تقوم بها سفن الشركتين والى ارتفاع عدد البحارة الأجانب العاملين على ظهر هذه السفن على الرغم من تباين الآراء بالنسبة لهذه النقطة الأخيرة.

وحدث ان أصدر مديرو الـ ١٧ قرارا بأن لا يعمل بحار عندهم أي نرويجي ناهيك عن الفرنسيين والانجليز والاسكوتلنديين. بيد ان هذه القاعدة ولدت ميتة منذ البداية. ذلك ان الخسائر الفادحة في أرواح الأوروبيين في المناطق الاستوائية، وإحجام كثيرين من أبناء الأراضي المنخفضة عن

الخدمة هناك أو عن خدمة شركة تجارية احتكارية كان يعني (كما شاهدنا) ان على شركتي الهند الشرقية والغربية ان تستخدما أي رجال يتيسر لهما تشغيلهم. ولم يـر كثيرون اي ضرر في هذا، وهم بذلك يتفقون في الرأي مع نيقولا ويتسن Nichola Witsen الذي ذكر في عام ١٦٧١، ان خليط الجنسيات المختلفة على ظهر إحدى السفن من شأنه ان يقلل فرص وقوع تمرد ناجح. ولكن آخرين رأوا رأي جاك سبكس الحاكم العام الذي استنكر في عام ١٦٢٩ ارتفاع نسبة الأجانب مذكرا مديري الـ ١٧ بالمشكلات الكثيرة التي واجهتنا في آسيا بسبب كثرة العاملين بين صفوفنا من الانجليز والفرنسيين، وهي المشكلات التي نأمل ان نحول دون وقوعها مستقبلاً بأن توفروا لنا مواطنين من أبناء الأراضي المنخفضة أصحاب القلوب الطيبة الجديرة بالثقة». ومما يؤسف انه حين تتوفر القلوب الطيبة من أبناء الأراضي المنخفضة فإن أصحابها لم يكونوا دائما خيرين وجديرين بالثقة على نحو ما كشفت عنه أحداث التمرد العديدة التي وقعت والتي شارك فيها هؤلاء بدور نشط في أغلب الأحيان.

واختلفت الآراء بطبيعة الحال بشأن نوع الأجانب المرغوب فيهم أكثر – أو على الأقل غير المرغوب فيهم – للعمل، مثال ذلك ان اصدرت الشركتان أوامرهما مرارا وتكرارا تحظر تشغيل الكاثوليك الرومان مهما كانت كفاءتهم. ولكن هذه الأوامر كان مصيرها كالعادة الإغفال أو التحايل عليها عند الحاجة الى جنود أو بحارة. بل إنه كان ينظر بازدراء الى اللوثريين أنفسهم. ولكن على الرغم من تفضيل الكالفنيين أهل الاستقامة الذين يخشون الله، حسب وجهة النظر الرسمية. إلا أنه لم يكن هناك ما يكفي منهم. وسادت نظرة شك الى الانجليز، ولكن بدرجة أقل الى الاسكتلنديين، بسبب التنافس طويل الأجل بين انجلترا وهولندا. ومع هذا تم تشغيل كثيرين منهم في أوقات الحاجة. وألقى رينست سبوك، الحاكم العام، كلمة طيبة وهو على ظهر بارجة القيادة في عام ١٦١٩ زعم فيها أن «من يحافظون على نظافة أنفسهم» هم أهل الطاعة

والرغبة الصادقة. ولكن، ولأسباب واضحة، كان جبناء اسكنديناقيا وألمانيا عناصر واضحة جدا بين طاقم العاملين على ظهر السفن الهولندية، سواء الأسطول البحري ام السفن الشراعية الضخمة العاملة على خطوط الهند أم سفن التجارة العادية.

وفي نهاية القرن السابع عشر، اشتكى بيتر فان دام المحامي والمؤرخ في شركة الهند الشرقية من ان الشركة بينما كانت تستطيع في أعوامها الباكرة ان تجند بسهولة ما تحتاج اليه من بحارة بأجور تتراوح ما بين ٨ و٩ فلورين شهريا بات من العسير عليها الآن أن تجد ما يكفيها من بحارة على الرغم من انها تعرض أجراً شهريا يتراوح ما بين ١٠ و١١ فلورين فضلاً عن مكافأة شهر سنويا. ولأسباب ناقشناها فيما بعد، نلاحظ ان مشكلة تجهيز السفن العاملة على خطوط الهند للشركة الشرقية بأغلبية من البحارة الهولنديين ازدادت حدة وصعوبة خلال القرن الثامن عشر. وعندما زار الرحالة السويدي ك.ب. ثانبرج مدينة ناجازاكي في عام ١٧٧٥ لاحظ أن جميع العاملين على سفن الشركة، وحسب لوائح الحكومة اليابانية، لا بد وأن يكونوا هولندي المنشأ، إلا أن كثيرين من بينهم هم من السويد والدانمرك وألمانيا والبرتغال وأسبانيا فضلاً عن ٣٤ عبدا.

وإذا كان الأجانب كثيرين نسبيا بين البحارة، فإن نسبتهم أكبر بين الجنود على نحو ما يبين لنا فيما بعد. والتنافس التقليدي بين الفريقين في جميع الأقطار والظروف كان اكثر ما يكون وضوحا على ظهر السفن الهولندية الضخمة التي تعمل على خطوط الملاحة ما بين هولندا والهند. لقد أطلقوا على بعضهم ألقابا رمزية بقصد السخرية، ولولا النظام الصارم المفروض على الجانبين لحدثت معارك وتضارب بالأيدي اكثر مما وقع بالفعل. ويشهد على صدق هذا ما كتبه أحد حكام المستعمرات الى مجلس ادارة الـ ١٧ من على ظهر سفينة القيادة الراسية في خليج تابل Table في عام ١٦٣٠، إذ قال «إنني أرى أن العواصف القديمة لا تزال راسخة تفعل فعلها،

وأن البحارة يعادون الجنود ويرونهم أعداء لدودين لهم.»

وعلى الرغم من أن الضباط العاملين على ظهر السفن العاملة على الخطوط الملاحية الهندية الهولندية ليسوا مخولين بتوقيع عقوبات، فيما عدا العقوبات البسيطة، شريطة موافقة أغلبيـة أعضاء مجلس السفينة – والذي يضم ربان السفينة ومسـاعديـه وكبير التجار – إلا أن هـذه القاعـدة لم تكن مطبقة على النحو المطلوب. وكثيرا ما تعرض ربابنـة هذه السفن، وبخاصة سفن الشركة الشرقية، للنقد الحاد لميلهم الى القيام بدور الحاكـم الطاغية للسفينة، هذا على الـرغم من الأمـر الصـادر عن مجلس ادارة الـــ ١٧ في الثـامن من أغسطس ١٧٠٥ والذي يقضي بتغـريم المذنب راتب ستة أشهـر عند ارتكابـه الجريمة الأولى ثم فصله من الخدمة في المرة الثـانية. وباستثناء قسـوة ربابنة السفن، الحقيقية أو المزعومـة، فإنهم اكتسبوا كراهية اكثـر بسبب تقتيرهم في جراية البحارة، وبين الفائض منها عند وصولهم الى باتـافيا، وكانت الفرصة ضئيلة نسبيا امام البحارة للتعبير عن استيائهـم بقوة طالما ان السفينة لا تزال شرق رأس الرجـاء الصالح، إذ يخشـون ان تفرض السلطـات عليهم الخدمة لفترة أطول في البحـار الآسيويـة، أو إرسال بعضهم الى منـاطق غير صحية. ولكن عندما تقترب السفينة المتجهة الى الوطن من وجهتها، يحدث أحيانا ان يتجمهر البحـارة على ظهـر السفينـة ويسيطـرون عليهـا وينفسـون عن رغبتهم في الانتقام، ويصبون جام غضبهم على كل من كـان موضع كراهيتهم. ويحكي شاهد عيان لمشهد من هـذه المشاهد وقع في عام ١٧٠١ ويصف كيف امسك البحارة الثـائرون بطباخ السفينـة وجروه من مخبـأه وضربوه ضربـاً مبرحا بأدوات مطبخـه حتى شوهـوه وظل مقيـدا وقتا طـويلا وحـاول ربان هـذه السفينة تجنب ثـورة البحارة أول الأمر، ولكن ما أن رست السفينـة في الميناء «تحدثوا في مواجهته وامام المجبرين عمن كـان يربح على حسابهم وقالوا انه متشرد، لص سارق للجـراية، يستأسد على الضعفـاف، وهددوه بأنـه سيدفع الثمن عند العـودة. ونفذوا تهديدهم في ميناء ميدلبرج اذ أوسعـوه ضربا حتى

تحول الى كتلة هلامية.»

ويمكن ان نستلخص مما سبق ان البحارة العاملين في شركة الهند الشرقية هم جماعات لهم نشأتهم الاجتماعية الخاصة. ويقول لنا نيقولا دي جراف ان ربابنة السفن العادية كانوا يتوخون الحذر عند تشغيل من سبق لهم العمل في خدمة هذه الشركة. ولكن البحارة الذين عملوا على ظهر سفن الأسطول البحري، أو في بحر البلطيق أو مع الخطوط التجارية عبر الأطلسي أو المتوسط لم يكونوا أقل غلظة إذا ما صدقت بشأنهم تقارير السفن المعاصرة لهذه الحقبة. وها هو جان سنوب القسيس الكالفني الذي عمل قسيسا مع اسطول دي رويتر في البحر المتوسط خلال العامين ١٦٦١ - ١٦٦٢ يرسم لنا صورة لرفاقه، وهي صورة يمكن ان تكون نموذجاً للسفن الأخرى. لقد أفزعته قسوة وغلظة البحارة وجهلهم وقلة إيمانهم، وقبح لسانهم، وشجارهم وتقاتلهم. وقال ان الكنيسة العائمة بدت وكأنها بيت خنازير وليست عروسا للمسيح. واشتكى مر الشكوى بسبب كثرة عدد الكاثوليكيين والمحتجين واللوثريين والملحدين والساخرين الموجودين بين صفوف البحارة، خاصة سفينة القيادة لأسطول دي رويتر

إنهم يستمعون لكلمة الرب دون إنصات أو اهتمام، ويحضرون للصلاة ولكن بدون قلب نقي، ويدنسون يوم الأحد دون موجب أو ضرورة. وإذا سألتهم عن أركان العقيدة المسيحية لزموا الصمت جهلاً كأنهم أصنام. ووجد من العسير عليه تماما أن يغرس في نفوس هؤلاء البحارة أي بذرة طيبة عن «الدين المسيحي الأصيل في صورته الحقيقية بعد الإصلاح». ذلك لأن اهتمامهم الأول والوحيد ينصب على إله الخمر وربة الجمال.

إذا كان هذا هو الوضع الروحي للبحارة على ظهر السفينة يقودها ميشيل دي رويتر، الرجل التقي حقا والقاريء والمرتل الكالفني للمزامير، فإن لنا ان نتخيل ما حدث على ظهر السفن الأخرى التي قادها قباطنة لايدا نون رويتر

تقـوى وفضيلة. لقـد كـان كل من دي رويتر وسلفـه ترومب شغـوفين بأن يوظفا قسـاوسة كالفنيين للعمل رجال دين يعظـون على ظهر السفن ويكون لهم تأثيرهم الحضاري على البحارة ومن ثم يكونـون عونا على حفظ النظام. ولكن المعلـومات المستقـاة من صحيفـة جان سنـوب تفيـد بأن القساوسـة الكالفنيين الأكفاء لم يتطوع منهم العـدد الكافي لأداء هذه المهمة. ولهذا استمر فرض النظام بالقوة عن طريق عقوبات الجلد وغيره من عقوبات قاسية، حتى وإن تـولى قيادة السفن قـادة محبوبـون من بحـارتها مثل هذين القـائدين العظيمين اللذين اعتاد بحارتهما ان يطلقا على كل منهما لقب «أبانا المعظم».

واشتكى الأب جـان سنوب أيضـا من قلة الجرايـة وصعوبـة الاحتفاظ بـالغذاء طـازجا في منـاخ البحر المتـوسط الحار صيفا. ولا ريب ان الـوضع بالنسبة لهذا الأمر كان على ظهـر سفن الملاحة الى الهند التي تظل مبحرة لمدة تتراوح مـا بين ستة وثمانيـة أشـهر. ونعـرف أنه قبل الاكتشـافات العلميـة والهنـدسيـة للقـرن التـاسع عشر كـان من المتعـذر على عقل المرء ان يتخيل وسـائل كافيـة لحفظ الطعـام والشراب شـهورا طـويلـة داخل مخازن سفن خشبيـة تمخر عبـاب البحـر تحت سماء المنطقـة الاستوائيـة. واتهم جيرار رينست حـاكم عام السفينـة المتجهة الى الهند المتعهـدين وحملهم مسئـولية تقديم مواد تموينية من نوع ردىء على أمل ان يعزو المسئولون فسادها فيما بعدالى حرارة جو المنطقة الاستوائية. ولكنه اعترف ايضا بأنها لا بد وان تفسد لأسباب أخـرى كثيرة، وقال «ان الماء والنبيـذ نخرجهما يـوميا مـن المخازن ساخنين لـدرجة تقرب من درجة الغليـان .. وهذا هو سبب فسـاد اكثر المؤن ووجـه العجب في حقيقة الأمـر ليس فسـاد وتعفن الطعـام والماء سواء كـان السبب متعهدي توريد الأغذية وعدم أمانتهم أم لا، ولكن ان بعض المؤن ظلت في حالة جيدة طوال رحلة استمرت أكثر من ستة أشـهر.

وتتباين مقادير الجراية باختلاف الفترات الزمنية على نحو ما يبين لنا من جدول توزيع الجراية الذي قدمه كل من نيكولا دي جراف و أ.ف. منتزيل، اذ

اوضحا ان البحارة يتناولون اللحم مرتين أو ثلاث مرات في الاسبوع بينما الفلاح او العامل الهولندي يكون سعيد الحظ إذا ما تناول اللحم مرة واحدة. ولكن الشواهد المعاصرة تتباين تباينا واضحا بشأن تقديرها لجراية البحارة وهل كانوا يحصلون على ما يكفيهم كما ونوعا. ويبدو واضحا في جميع الأحوال انه كذا كان ربان السفينة والمسئول عن الحسابات بها والخدم أمناء، وكان الطاهي كفئاً فإن البحارة، لن يكون لديهم ما يشكون منه سوى القليل في بعض الأحيان، ولكن، وكما كان يحدث غالبا، إذا ما حاول ربان السفينة او المسئول عن الحسابات بها ان يختلس جراية البحارة، أو إذا ما فسدت الأطعمة بسبب حرارة المناخ في المنطقة الاستوائية أو لأسباب أخرى فالويل كل الويل للبحارة بسبب المعاناة التي تنتظرهم.

ولا ريب في أن الضباط كان وضعهم أفضل في جميع الأحوال. فإن هؤلاء الذين يشغلون مرتبة عرفاء البحارة وما دونها يحصلون على ضعف الجراية طعاما وشرابا، بينما نجد بعض القيود المفروضة على مائدة ربان السفينة في المقصورة الكبيرة بالنسبة لطعام وشراب الجالسين امامها. ولعل من قرأوا مذكرات وليم هيكي Hickey يتذكرون كيف كان ذلك الرجل النهم في وضع أفضل كثيرا وهو على متن السفينة الهولندية الضخمة في رحلتها من رأس الرجاء الصالح الى تكسيل في عام ١٧٨٠. وقبل هذا بقرن من الزمان قام روبرت نوكس R nox بعد هربه من مملكة كاندي، برحلة الى باتافيا بصحبة الحاكم الهولندي لساحل سيلان. ويحكي نوكس عن رحلته فيقول: «كان يجاملني كثيرا جدا، إذ يوضع على مائدتنا مع كل وجبة عشرة أو اثنا عشر طبقا من اللحوم مع عديد من أنواع النبيذ» وان هذا التباين الفاضح بين مستوى معيشة الضباط وبين غيرهم، لم يكن بطبيعة الحال امرا خاصا بالهولنديين، وإنما كانت هذه سمة عامة في الرحلات البحرية لسفن البلدان المختلفة، بما في ذلك سفن الاسطول الملكي وشركة جون، وقد يتذكر من قرأوا يوميات بارسون تونج Teonge (١٦٧٥-١٦٧٩) الاسراف في الطعام

والشراب داخل مقصورة قبطان السفينة في وقت كان البحارة يموتون بسبب الجوع وسوء التغذية.

ولقد وضحت بطريقة غامضة الى حد ما منذ الرحلات البرتغالية الأولى أهمية الأغذية الطازجة في مكافحة التهاب اللثة. وغالبا ما كانت السفن الهولندية الضخمة تحمل معها ثمار البرتقال والليمون والتفاح على الرغم من انه لم تكن معروفة بعد الأهمية الفائقة لليمون كعلاج مضاد لمرض الاسقربوط، وانه يتفوق في هذا على جميع الحمضيات الأخرى. وقبل تأسيس مستوطنة رأس الرجاء الصالح كمحطة تموين للسفن الهولندية التي تعمل على خطوط الملاحة الى الهند بذل القادة الأوائل للأساطيل العابرة جهودا تلقائية لزراعة أشجار الفاكهة والخضراوات في أماكن مختلفة مثل سانت هيلينا وموريشيوس بحيث يمكن لمن يأتي من بعدهم أن يجني ثمارها ويغرس بدوره بذورا جديدة. وتتميز هاتان الجزيرتان بمناخهما الصحي الفريد، على عكس أماكن أخرى مثل جزر كيب فيرد وسيراليون ومدغشقر التي كانت تلجأ اليها أحيانا السفن الهولندية للحصول على فاكهة وأطعمة طازجة. وهنا يشفى الناس من أمراض الاسقربوط بفضل تغيير الغذاء، ولكن قد يصاب كثيرون بالملاريا أو بغيرها من أمراض الحميات الاستوائية.

وثمة مصدر آخر للأمراض وهو نقص الرعاية الصحية على ظهر السفن أو بمعنى آخر صعوبة فرض معايير صحية كافية وواجبة الاتباع على البحارة. وهناك من قارن، عن حق، بين السفن الهولندية الضخمة التي كانت تعمل على خطوط الملاحة من والى الهند خلال القرن الذهبي وبين بيوت الهولنديين العاديين خلال الفترة نفسها وهو أمر مألوف لنا توضحه رسوم كبار الفنانين آنذاك. تبدو البيوت جميلة جذابة متعددة الألوان من الخارج، ولكنها باردة سيئة التهوية رطبة من الداخل، وكان الجنود والبحارة يعيشون في أماكن ضيقة محصورة ومكدسة فوق ظهر المركب حيث يتأرجحون في الشباك المعلقة ويحتفظون بداخلها بملابسهم وأطعمتهم ويتناولون طعامهم

معا. والمصدر الوحيد للضوء والتهوية فتحات قليلة ضيقة أو فتحات فوهات المدافع والتي يتعين اغلاقها عندما تشتد الرطوبة او تَهب العواصف. وهكذا تكون الحياة غير محتملة بسبب شدة الحرارة والرطوبة عندما تكون السفينة في المنطقة الاستوائية. ويزداد الوضع تدهورا مع هذا المناخ الخانق بسبب حرارة المطبخ والدخان المتصاعد منه. ونظراً لأن هذه السفن تحمل شحنات تنوء بها وتزيد عن طاقتها، إذ كان يتعين عليها في جميع الأحوال ان تحمل مؤنا تكفيها على الأقل لمدة تسعة أشهر، لذلك فإنها تضيق براكبيها الذين نادراً ما يجدون مكانا لعزل المرضى عن الأصحاء أو لعلاجهم وتمريضهم وفقا للقواعد الصحية.

ولعل أسوأ الأمور جميعا إحجام البعض عن قضاء حاجتهم في الأماكن المخصصة لذلك. ولقد كان هذا الأسلوب غير الصحي محظوراً تماما. ويحدثنا البحار الفرنسي بيرار دي لافال، عن رحلته على ظهر سفينة برتغالية من نوع القرقور، وهي سفينة شراعية ضخمة في عام ١٦١٠ ويقول: «هذه سفن شديدة القذارة أكثر الناس لا يكلفون أنفسهم مشقة الصعود الى ظهر السفينة لقضاء الحاجة. وهذا أحد أسباب كثرة الوفيات، ويفعل الفرنسيون والايطاليون والأسبان الشيء نفسه. غير ان الانجليز والهولنديين حريصون على التزام قواعد النظافة.» وكان هناك أيضا الذباب والقمل وغيرها من الحشرات والهوام التي تعيش متطفلة على ملابس البحارة القذرة التي تظل على أجسادهم دون تغيير لعدة أسابيع. ثم هناك الجرذان والصراصير وغيرها من الحشرات المؤذية التي تمرح وسط الأغذية الفاسدة في مخازن السفن. وفي مثل هذه الظروف تظل النظافة، حتى على ظهر السفن الهولندية دون المستوى المنشود. ويحكى قبطان سفينة هولندية من زيلاندا الى الهند عن حالة سفينة من السفن المرافقة وقتما رست عند رأس الرجاء الصالح في عام ١٧٧١ فيقول: «كان ظهر السفينة غارقا في القذر المكدس فوقه، حتى ان بعض ضباطي أكدوا لي أنهم لم يروا في حياتهم مثل هذا القدر من القذر، ولا

حتى فوق أي سفينة فرنسية»*

وكـان نقص الملابس أحـد أسباب ارتفـاع نسبـة الاصـابة بـالمرض بين البحـارة. ويبدو ان مـديـري الـ ١٧، على سبيل المثال، اتفقـوا في الـرأي مع متعهدي الأنفـار على ان من يعملون على ظهر السفن في الشتـاء الهولندي لن يكونوا بحاجة الى ملابس دافئة نظراً لأنهم سرعان ما يكونون في عرض البحر داخل المنطقـة الاستوائية. ومـع هذا أغمض المديـرون عيونهم أمـام حقائق بسيطة ومؤكدة وليس غريبا ان نجد الشـاعر فوندل يكتفي بإشارة عابرة الى إهدار البشر كحالة مزمنة، بسبب ما يعانونه من مشاق وبرد قارس، وذلك في قصيدته التي نظمها تحت عنوان «في مديـح الملاحة البحرية». التي أهداها الى دكتور لورنس رايل. ونجـد الشكوى نفسها يقدمها الى حـاكم عام من حكام جزر الهند الشرقية كثيرون من كبار ضبـاط الشركة نتيجة لخبراتهم الذاتية. وشـارك رايل بنفسـه في الحياة الشـاقـة التي يعـانيها الملاح في رحـلات عبر الاطلسي والبحر المتـوسط، وكذلك في المحيط الهندي وبحـر الصين الجنوبي. وسطر سيمون فان دير ستيل حاكم رأس الرجاء الصالح (١٦٧٩-١٦٩١) رسـائل مطولـة الى مـديري الـ ١٧ يوضح فيهـا الحاجـة الماسة الى طعـام وملابس، وان هـذا النقص هو سبب الارتفـاع الكبير في نسبة الوفيـات. وقال «انهم يتهاوون بسبب نقص التغـذية ممـا يعجل بوفـاتهم». بل لقد ارتفعت نسبـة الوفيـات حتى في البحـار الأوروبيـة. مثال ذلـك ان بحارة الاسطـول الهولنـدي في مينـاء كوبنهـاجن الـذي يغطيـه الثلج شتـاء عانـوا في شتـاء ١٦٥٩-١٦٦٠ معانـاة قاسيـة من وخز البرد القـارس، وسقط منهم صرعى حمى التيفوس وغيرهـا من الأمراض في ظـروف تذكرنـا بأهوال شتـاء القرم أثناء حرب ١٨٥٤-١٨٥٥. وأيا كان الأمر، فإن من المسلم به أن معايير الغذاء والكسـاء خـلال القرن الثـامن عشر تـدهـورت كثيراً خاصـة في الأسطـول

* J. S. Stavorinus, Voyage to the East indies 1768 (4 vols. London, 1798)

الهولندي. وقيل ان هذا الوضع هو أحد الأسباب الرئيسية التي حالت دون توفر العدد الكافي من البحارة في عام ١٧٨٠.

وإذا تأملنا مخاطر حياة البحّارة في أعماق البحار فلن ندهش لارتفاع نسبة الوفيات الى درجة الكارثة في أغلب الأحيان، خاصة على ظهر سفن شركة الهند الشرقية. ويمكن أن نذكر فيما يلي أكثر الأمراض شيوعا وأشدها فتكا التي أصابت العاملين على ظهر السفن: الاسقربوط، وهو مصطلح استخدم للدلالة على مجموعة من الأمراض الناجمة عن نقص الغذاء. وحمى السفينة ويقصد بها التيفوس ويحدث عادة بسبب العدوى من ملابس حاملة للميكروب وهي الملابس الملوثة للمجندين الذين يوردهم متعهدو الأنفار. والديزنتاريا، «أو السيلان الدموي» كما اعتاد ان يسميه البحارة الهولنديون والانجليز. وأمراض البرد وذات الجنب والالتهاب الرئوي وغيره من أمراض تصيب الرئة وأودت بحياة الكثيرين. ويعتبر مرض احتباس البول احد الأمراض الأخرى المروعة، ويحدث غالبا بسبب تضخم البروستاتا، ويصيب بوجه خاص البحارة كبار السن فيما بين الخمسين والستين من العمر. ولم يكن معدل الحوادث بسيطا، كما وأن الأساليب البدائية في اجراء العمليات الجراحية آنذاك جعل من كل عملية جراحية مخاطرة كبرى ناهيك عن احتمالات الاصابة بالغرغرينا.

وليس لنا ان ندهش إذا عرفنا ان البحارة بعد عودتهم الى أرض الوطن إثر غياب امتد خمس سنوات في جزر الهند يقبلون على تبديد ما اكتسبوه وادخروه في المواخير والحانات مما جعلهم يستحقون تسميتهم «لوردات لستة أسابيع». ولقد كانت امستردام قبلة الأغلبية العظمى منهم على اختلاف أصولهم ومواطنهم. وتعتبر الأموال التي اعتادوا انفاقها على هذا النحو مصدر دخل يرحب به الكثيرون من التجار وأصحاب الحانات على مدى قرنين من الزمان، وعرف القنصل الانجليزي في امستردام في عام ١٦٨٨ ان السلطات سمحت بالمواخير التي أخذت اسم قاعات الموسيقى لاخفاء طبيعتها وذلك لأن

البحارة العائدين كـانوا »يتحرقون شـوقا للنساء، حتى انه لـو لم تتوفر لهم هذه البيـوت لاشباع رغباتهم فإنهم سـوف يفرضـون أنفسهم على زوجات وبنات المواطنين.» وبعد مـائة عام أفاد شاهد عيان آخـر أن «اللوردات لستة أسابيع» انقلب حالهم من الوفرة الى الإفـلاس. ولكنه أضاف وفي نفسه رضا وارتيـاح: «ولكن أين سوف سيستقـر المال الذي بـددوه؟ في امستردام. ومن الذي سيحصل على الأرباح؟ سكان هذه المدينة نفسها.»».

ولقد عرفنا انه إذا كـان الأجانب كثيرين بين صفوف البحارة العاملين في أعالي البحار، فإنـه توجد نسبة أكبر منهم بين الجنـود سواء في الجيوش التي تدفع رواتبها إدارة عمـوم الولايات، أو بين الجنود المرتزقـة الذين يعملون في خدمة الشركتين الهنـدية الشرقية والغربية، بل إنـه حتى أثناء حرب الثمانين عاما فإن أغلبيـة الجنود الذين حاربوا تحت قيادة أمـراء آل أورانج لم يكونوا هولنديين بل من الألمان وأبناء مقاطعة والون وغيرهم من الأجانب. ونعرف أن فرقا كاملة من الاسكوتلنديين والانجليـز خدموا في جيوش المقاطعات المتحدة لسنوات طـويلة. هـذا على الرغم من عدم نـدرة الجنود الهولنـديين كما يزعم بعض الكتاب. وتذكرنا كراسة مكتوبة في عام ١٦٢٣ ان الجوع والبطالة حتى في الأراضي المنخفضة الحرة، كانا حافزين قويين للانضمام الى الجيش «إن ام الجنود تلـد مرتين في العـام مرة في الصيف لأولئـك الذين لا يتحملـون عناء العمل ورائحـة العـرق، ومرة ثـانيـة عند حلـول الشتـاء وقتما يقل الحطب وخشب الوقود وغير ذلك من مؤن لازمة لبرد الشتاء»* ولا ريب في أن نسبة الهولنديين بين الضبـاط كانت أكبر منها بين الجنـود، ولكن كان هنـاك أيضا كثيرون من الضبـاط الألمان والفـرنسيين والسـويسريين والانجليـز والاسكوتلانديين بين الضباط ابتداء من ملازم بحري الى فيلد مارشال. وكان كثيرون من الضباط سـواء من الهولنديين او الأجانب، من أبناء النبـلاء. هذا على نقيض الوضع بالنسبـة للخدمة في البحار حيث كـان أغلبية الضباط من

* Anoni fin de la guerre (Amsterdam, 1623)

أبناء الطبقة الوسطى أو أبناء العمال قبل النصف الثاني من القرن الثاني عشر.

وعلى الرغم من الانهيار المأساوي للاسطول الهولندي وكذلك – وبدرجة أقل – للبحرية خلال القرن الثامن عشر كان حشد البحارة أيسر دائما من حشد الجنود من بين أبناء الطبقة العاملة في مقاطعات هولندا وزيلندا وفريزلاند. وأفاد شاهد عيان في عام ١٧٨٠ أن فرقة عسكرية أقامت كحامية عسكرية في مدن عديدة في شمال هولندا لمدة عامين عجزت أن تجمع آنذاك أكثر من خمسة عشر رجلا (تسعة منهم أجانب) على الرغم من الجهود المطردة التي بذلها الضباط في هذا الشأن. وكان من المسلم به أن حشد الجنود في المقاطعات الزراعية ليس أمراً بالغ الصعوبة ولكن يمكن القول بوجه عام أن حشد ألف بحار كان أيسر من حشد مائة جندي في أيام الجمهورية الهولندية.

وارتفعت نسبة الأجانب أيضا بين جميع صفوف ورتب القوات المرتزقة العاملة لحساب الشركتين الهندية الشرقية والهندية الغربية الهولنديتين. ففي يناير ١٦٢٢ ضمن حامية باتافيا ١٤٣ جنديا واسكوتلنديا وايرلنديا ودانماركيا وغيرهم، فضلا عن سبعة عشر من الفلمنك والواللون، وتسعة آخرين جنسياتهم غير معروفة على وجه اليقين. وإذا استعرضنا سجل أسماء جنود وضباط حاميات ملقا في الأعوام من ١٦١٨-١٦٢٠ نجد تباينا وتنوعا مماثلا، حيث نجد أسماء الجنود من بريمن وهامبورج وسكوتلندا وشتلاندرز. وهناك حوالي ٦٠ شخصا صدرت ضدهم أحكام بالاعدام من محاكم عسكرية انعقدت على ظهر السفن في بحر الصين الجنوبي خلال الفترة من يوليو ١٦٢٢ وأغسطس ١٦٢٣. ونجد من بين هؤلاء ثمانية عشر شخصا على الأقل من الأجانب من سويسرا واسكوتلاندا وفرنسا واليابان، وضمت حامية رأس الرجاء الصالح في عام ١٦٦٠ جنودا من انجلترا وسكوتلاندا وايرلندا. ولكن هنا، كما في أماكن أخرى، يشكل الألمان الأغلبية

بين صفوف الجنود المرتــزقة الذين يخدمون شركة الهنــد الشرقية. ويبدو ان نسبة الألمان الذين خدموا لحساب شركة الهنــد الغربية لم تكن عالية جدا قبل عام ١٦٤٢. وعندمــا أصدر مجلس مديري الـ ١٧ أوامره الى كــونت جوهان موريتس حاكم عام البرازيل التــابعة للأراضي المنخفضة، بأن يفصل، في هذا العــام نفسه جميع الجنــود الذين هم من أصــول غير هولنــدية أو ألمانيــة أو اسكانــدينافية، فإنــه أجاب بأن أغلبية رجــاله من الانجليز والاسكــوتلنديين والفرنسيين. وفي الوقت نفسه كانــت حامية بارايبا Paraiba تضم أكثر من ١٥٠ جنديا انجليــزيا تحت إمرة القائد الانجليزي جــون جودلاد. واضطرت شركة الهند الغــربية الى تعيين قسيس كالفني انجليزي ليقدم عظــاته الى هذه القوات بلغاتهم في منطقة رسيف.

ولا ريب في أن ثمة قــدرا من المبالغة فيما كتبه رجل ألماني زعم ان حــامية باتافيا في عام ١٧١٠ ضمت جنودا من المانيا وسويسرا وبولندا، ولم يكن بها اكثر من عشرة هــولنديين. ولكن بعد ثمانين عــاما عبأت شركة الهنــد الشرقية للخدمــة في الشرق وحدتين كــاملتين من المرتزقــة الأوروبيين. وكما هو الحال بــالنسبــة للجيش في أرض الــوطن، كـــانت نسبــة الهولنــديين أعلى بين رتب الضباط منهــا بين الجنود. ولكن المراكــز القياديــة شغلها في الغالــب أجانب. ونكتفي هنا بعــدد قليل من الأمثلة النمــوذجية: تــرأس باتــافيا قــائد فرنسي بروتستــانتي يدعى اسحق دي ســان مارتــان خلال الفترة ١٦٨٦-١٦٩٦. وترأس منطقة رأس الرجاء الصـــالح رجل من برلين يدعى حــ.ت. رينيوس في الفترة ١٧٢٨-١٧٤٠. وعلى الجانب الآخر من العــالم ترأس انجليــزي يدعى جيمس هندرســون الحامية الهولندية في لــواندا خلال الفترة ١٦٤١-١٦٤٢ ويمكن ان نشير على نحــو عابــر الى ان المكــانــة الاجتماعية لضبــاط الجيش ليست رفيعــة جدا في جمهــورية هــولندا على نحــو ما هــو سائد في الاقطــار الأوروبية الأخرى. ولكن هذه المكانة انخفضـــت الى حد ما خلال القرن الثامن عشر وان لم تتدهــور في المقاطعات المتحــدة بنفس القدر الذي حــدث في جزر

الهند الشرقيـة. وجدير بـالذكر ان ضبـاط جيش الولايات واسطـولها الذين جاءوا الى بـاتفيا ضمن حملـة فان بـرام في عام ١٧٨٣ ضـاقوا كثيرا إذ رأوا الموظفين المدنيين العـاملين في شركـة الهنـد الشرقيـة يعـاملـون نظـراءهم العسكريين بـاحتقار شـديد. ويلاحظ خـلال هذه الفترة أن أحـدا من سكان المدن المحترمين المقيمين في سيـلان لم يكن ليقـدم على دعـوة أي من ضبـاط الحامية الى حفل في بيته، باستثناء أربعة أو خمسة من كبار الضباط.

ويؤكد ادوارد بـارلو، وقد كان سجينـا لدى الهولنديين في باتـافيا خلال العامين ١٦٧٢-١٦٧٣ أن «الهولنديين في جزر الهند الشرقية أقوى من جميع الأمم المسيحية الأخرى، إذ لدى شركة الهند الشرقية دائما ما بين ١٥٠ و٢٠٠ سفينة شراعية موزعة هنا وهناك و٣٠٠٠ رجل أو مستخدم، ولكن سرعان ما يقعون فـريسة للمرض ويلقون حتفهم. إذ من بين ٣٠٠ رجل أتـوا على ظهر السفن من هـولندا مات ٨٠ أو ١٠٠ رجـل قبيل وصولهم الى الهنـد الشرقية. والحقيقة ان الخســائر كانت فادحة دائما بين البيض بسبب الـوفاة والمرض والفرار من الجنـدية. وان الشكوى من الصعـوبات التي تواجه عمليـة حشد الجنود والبحارة ومن سـوء حالهم يرجع تاريخهـا الى العقد الأول من وجود شركة الهند الشرقية واستمرت هذه الشكـاوى لمدة مائتي عام، وتصاعدت في النصف الثاني من القـرن الثامن عشر. وظهرت الى الـوجود في امستردام وفي الموانىء الهولنديـة الأخرى طبقـة جديدة لمهنـة جديـدة هم متعهدو تـوريد الانفار للعمل جنودا وبحـارة في خدمة الشركة. ويبدو أنهم كـانوا يجمعونهم من بين العاطلين المعـدمين خاصـة الألمان الذين كـانوا يـزحفون الى الأراضي المنخفضة الشمالية بحثا عن عمل والتماسا للثراء.

وكان متعهدو تـوريد الأنفار يحتفظون بـالرجال في أماكـن مغلقة تشبه محاجر المجـرمين أو المعازل التي يحتجز فيهـا تجار العبيد في غرب أفـريقيا السـود الذين أطلقـوا عليهم اسم «العاج الأسـود» وذلك الى حين إعلان بـدء توريد الأنفار للعمل في خدمة جيـش أو اسطول الشركة. ويحكي شاهد عيان

في عام ١٧٧٨ أنه رأى ٣٠٠ رجل محتجزين في غرفة نوم تحت الأرض «حيث يتعين عليهم البقاء فيها ليل نهار، وحيث يقضون حاجتهم ويأكلون، ولا يوجد مكان للنوم بل يتكوم بعضهم على البعض». وأضاف قائلاً: «وشاهدت أمثلة أخرى إذ رأيت عدداً - كبيراً جداً من الرجال المسجونين في غرف نوم. مضى على بعضهم هناك أكثر من خمسة أشهر وهم يتنفسون هواء فاسداً تماما. وبلغت نسبة الوفيات في هذه الأماكن نسبة مروعة حتى أن أصحابها لم تواتهم الجرأة لذكر العدد الصحيح من الوفيات. واعتادوا أن يلقوا كل جسدين في كفن واحد. ولم يكن الغذاء أفضل حالا. وطبيعي ان رجالا تم حجزهم زمنا طويلا في مثل هذه الأماكن يقعون فريسة سهلة للأمراض المعدية فور صعودهم الى ظهر إحدى السفن».

وسرعان ما شاعت في طول ألمانيا وعرضها السمعة السيئة التي لاحقت النخاسين أو «باعة النفوس» الهولنديين وأساليبهم اللاأخلاقية. ولكن ما يثير الدهشة أنهم وعلى الرغم من هذا استطاعوا الاستمرار في توريد الضحايا دون توقف. ويؤكد لنا شاهد العيان الذي أسلفنا ذكره أنه في عام ١٧٧٨ كان هناك عشرون وثلاثون وأربعون وأكثر من ذلك من متعهدي توريد الأنفار مقيمين في مدن المقاطعات حيث لم يكونوا معروفين قبل ذلك وكان في امستردام، وهي دائما محط الاهتمام والانتباه، اكثر من مائتين. ومهمة هؤلاء النخاسين أو «باعة النفوس» تزويد شركة الهند الشرقية الهولندية بحاجتها من العاملين العسكريين والبحريين. وقاموا بالمهمة ذاتها أحيانا لحساب شركة الهند الغربية الهولندية. وإذا تعذر عليهم الحاق ضحاياهم من السذج بإحدى الشركتين، فإنهم يحاولون التخلص منهم بتوريدهم الى الجيش أو الأسطول أو البحرية التجارية. وفي عام ١٦٣٤ كان قيد الشخص للعمل لدى شركة الهند الشرقية يعني العمل لمدة ثلاثة أعوام بالنسبة لأغلبية البحارة وخمس سنوات للعاملين الآخرين. بعد ذلك أصبح التعاقد على العمل لمدة خمسة أعوام إجباريا بالنسبة لجميع البحارة مع أجر يتراوح ما بين ستة وعشرة

جلدر. أما الصبية فيتعاقدون على العمل لمدة عشر سنوات.

يتضح لنا مما سبق ومن أدب الرحلات ومـا أغزرة خلال القرنين السابع عشر والثامن عشر أن حياة الملاح الهولندي بغيضـة كريهة قاسية قصيرة – خاصة أولئك الـذين عملوا نوتية في شركتي الهند الشرقيـة والغربية. وطبيعي ان الأمر لم يكن على هذا المنوال دائما فإذا كـانت سفن كثيرة عانت من قسوة الرحلات الطويلة بين تكسيل وباتفيـا، فإن سفنا أخرى قامت بهذه الرحلات دون أن تخسر انسانا واحدا مع تمتع جميع العاملين بالصحة والعافية. وإذا كان الطعام سيئـا في أغلب الأحيان، مع القسوة الصـارمـة للحفاظ على النظام فإن الغنـاء كـان له دوره الكبير في تخفيف دوافع الـوحشيـة، وثمـة رحالـة كثيرون كتبـوا تعليقاتهم على الأوامـر التي تصدر في صـورة غناء أو تـرتيل وأضحت قسمـة للحياة اليـومية على ظهـر السفن الضخمة المبحـرة من والى الهنـد. وسـاعـدت أهـازيج البحر على تخفيف عنـاء العمل على نحـو ما قـال منتزيل عندما تذكر رحلته الى رأس الرجاء الصـالح. وكان وليم هيكي كالعادة شديد الحماس للغناء الثنائي والقصائد الغنائية «الحزينة الحلوة التي تطابق ذوقي» والتي استمتع بها على ظهـر سفينتين من السفن الى الهنـد. «لقد كنـا نقضي القسط الأكبر من السهـرة ضمن مجمـوعـة تغني في تنـاغم صحيح.» وطبيعي ان هـاتين السفينتين الهولنـديتين كانتـا سعيدتين، ولا بـد وان كانت هناك سفن أخرى كثيرة مثلهما.

الباب الرابع

البحار المفتوحة والبحار المغلقة

عندما أصدر بيتر دي لا كور كتابه الشهير «مصلحة هولندا» في عام ١٦٦٢ عنون واحدا من أقصر فصول الكتاب وأكثرها اقناعا بالعنوان التالي: «قبل كل شيء، الحرب، والحرب البحرية أساسا، أشد ضررا بهولندا، والسلام أكثر نفعاً» وكتبت مجلة Hollandtst Mercurius الشهرية في افتتاحيتها لعدد فبراير من العام نفسه أن «المقاطعات المتحدة إذ تزخر بحكام أكفاء، وسكان روعتهم الحروب والقرصنة واستخدام القوة» ، فرحوا فرحا شديدا حين سمعوا ان ملك فرنسا مستعد لتوقيع معاهدة جديدة معهم. وطبيعي ان تتوق ادارة عموم الولايات الى السلم نظريا لأنهم حكام أمة تجارية تمخر سفنها التجارية الضخمة عباب البحار السبعة من اركانجل الى كيب تاون، ومن امستردام الى ناجازاكي، بيد انهم وجدوا انفسهم اغلب سنوات القرن السابع عشر متورطين في هذه المنطقة او تلك من المعمورة. ولعلهم حين وقعوا معاهدة مونستر في عام ١٦٤٨ ظنوا ان بإمكانهم التطلع الى فترة مديدة يعم فيها السلام في علاقات المقاطعات المتحدة للأراضي المنخفضة الحرة بالعالم قاطبة. ولكن سرعان ما تكشف لهم ان هذا وهم وخداع. وثمة رسالة بعث بها كاتب من ميشلين Mechelen الى جوهان دي ويت في ديسمبر ١٦٥٢ بعد فترة غير طويلة من اندلاع الحرب المأسوية المدمرة ضد الكومنولث البريطاني. ويقول صاحب الرسالة في رسالته: إن دولتنا مكروهة هنا كراهية شديدة.» وبعد ثلاث سنوات تقريبا ابلغ ريجوف فان جونز مديري الـ ١٧، فور عودته من باتافيا الى امستردام: «لا أحد يتمنى لنا الخير في كل جزر الهند، إننا مكروهون كراهية الموت من جميع الأمم.. لهذا فإن من رأيي ان

الحرب ستكون امرا محتوما أن آجلا أم عاجلا.

لقد كانت الجمهورية الهولندية في واقع الأمر تعيش في عزلة ديبلوماسية طوال العقد التالي لتوقيع معاهدة مونستر. كانت الدانمرك حليفها الوحيد ولكن أمما كثيرة، علاوة على البرتغال الكاثوليكية وانجلترا البروتستانتية وماكسار الاسلامية في اندونسيا ينظرون الى الرخاء التجاري الدنيامي لهولندا والتي توسعها عبر البحار اما نظرة حسد او نظرة خوف. ربما استطاعت الأوليجاركية التجارية الحاكمة في هولندا وزيلاندا ان يعلنوا انهم محبون للسلام، ولقد كان لاكور يبشر يقينا بالتحول الذي وقع فعلا عندما دعى الى الحفاظ على علاقات سلام مع الأمم القوية مثل انجلترا وفرنسا مهما كان الثمن وها هو كبير رؤساء مدن هولندا يقول وفي حديثه نذير شؤم عند اندلاع أول حرب انجليزية هولندية: «الانجليز يستهدفون بهجومهم جبلا من ذهب ونحن بصدد مهاجمة جبل من معدن الحديد.» ولكن لو أن «أكلة الجبن»، كما اعتاد الأجانب ان يطلقوا على الهولنديين من باب السخرية ، أحجموا عن حمل السلاح دفاعا عن النفس عندما هاجمتهم انجلترا في عام ١٦٥٢ وعام ١٦٦٤، وعندما هاجمتهم فرنسا وانجلترا مجتمعتين في عام ١٦٧٢ فإنهم ما كانوا ليترددوا عن المبادأة بشن الهجوم في أوقات وأماكن أخرى حسب ما يرونه ملائما لهم. علاوة على هذا فإننا حتى إذا افترضنا ان ادارة عموم الولايات او حكام الولايات أو مديري شركتي الهند الشرقية والهند الغربية كانوا ينزعون الى السلم لأسباب تتعلق بالدولة أو بالتجارة فسوف يترتب على هذا ان يلتزم مستخدموهم في الهند بالأوامر السلمية لسادتهم. ولكن اولئك الذين تلقوا الضربات منه على الطرف الآخر أقروا، على ما يبدو بصواب الرأي الذي ذهب اليه مؤرخ برتغالي في القرن السابع عشر حين قال: «يبدو ان إله الحرب بعد أن حام حول العالم رأى في النهاية ان يثبت قيادة أركان حربه في هولندا».

وثمة مثال يوضح كيف ان بناء امبراطورية عسكرية عقَّد مسألة الخيار

بين السلم والحرب بالنسبة للأقلية التجـارية الغنية «الأوليجاركية» الحاكمة للمقاطعـات المتحدة. ونجد هذا المثـال في تقلبات علاقتهم مع البرتغـال خلال العقود الثلاثة بعد ان قطعت هذه الـدولة روابطها بالتاج الكاستلي Castilian Crown ، وذلك انه عنـد اعلان دوق براجـانوا ملكا على البرتغـال باسم الملك جون الـرابع في ديسمبر ١٦٤٠ كانـت لا تزال اسبـانيا هي العـدو التقليدي لهولندا وكان حكام المقاطعات وعمـوم الدولة على استعداد للتعاون مع حليف جديد قادر على تحويل الاتجاه عن الجبهـة في الفلاندرز. ورحب أيضا بعض تجار امستردام باحتمالات زيادة التجار مع البرتغـال نفسها خاصة من أجل تمليح الـرنجة. ولم يكن مـديرو الشركتين الهنـديتين الشرقية والغربيـة من أنصار هـذا الرأي اذ اعتقدوا ان من المفيـد اكثر اطراد فتوحـاتهم على حساب ممتلكات البرتغـال في المستعمرات حتى ولو أوجبـت الظروف عقد هـدنة مع الملك جون الرابع في أوروبا. وثمة مذكـرة عرضها مجلس مديري الـ ١٧ على ادارة عموم الـولايات في مايو ١٦٤١ زعمـوا فيها «ان الشركة الموقـرة تعاظم شأنها كثيراً بفضل الحرب ضـد البرتغاليين، وأنهم لهذا السبب ضمنـوا الآن احتكار معظم التجارة البحرية في آسيا. وانهم يتوقعون عائدا سنويا متوسطه ما بين سبعة وعشرة ملايين. وإذا ما سمح لهم بالاستمرار على هذا النهج فإن هذا العـائد السنوي سوف يزيـد بالضرورة، وأكدوا بعد هـذا انهم إذا أوقفوا حربهم الآن مع البرتغاليين، فإن هؤلاء سرعـان ما ترجح كفتهم ويميل الميزان لمصلحتهم ويصبحون منافسين خطرين لنا في مجال التجارة الآسيوية، وإذا ما حدث هذا فإن النتيجة هـي انهيار تجارة الشركة والذي سيفضي بدوره الى نقص شديد في شحناتها البحـرية ونقص المؤن في الأراضي المنخفضة، وهكذا نجد المقاطعات المتحدة نفسها محرومة من «الكثير من السفن الحربية القوية وسوف يفقد آلاف البحارة والعمال التي تدفعها الشركة. واستطرد مديروا الـ ١٧ مؤكـدين انه اذا ما أصرت ادارة عموم الـولايات على عقد هدنـة مع التاج البرتغالي في أوروبا فإنه يتعين استثناء جـزر الهند الشرقية صراحة او ضمنا على نحو ما حدث في هدنة الاثني عشر عاما للأعوام ١٦٠٩-١٦٢١.

ولأسباب مماثلة أبدى انطونيو فـان ديمن ومستشاروه في باتافيا ترددا كبيراً إزاء عقد هدنة مع البرتغاليين في آسيا. إذ رفضوا الاقتراحات الأولية التي عرضها نـائب ملك جوا. وحاولوا على مدى ثلاث سنـوات، وبحجج ومعاذير مختلفة، تجنب الانتهاء من تـوقيع اتفاق هدنة لمدة عشرة أعـوام والذي جرى التفـاوض بشأنـه في لاهاي في يـونيـو ١٦٤١، وإذ أردنا ان نعـرف مـوقف الرسميين في شركة الهند الشرقية الهولنـدية من ادعاءات البرتغاليين في آسيا، سواء أكان هؤلاء على حق ام لا، فإننا نجد هذا الموقف واضحا في رسالة كتبها مقيم انجليزي في كـولومبـو. والرسـالة تتعلق بنـزاع الحدود بين الدولتين في سيلان عقب اعلان الهدنـة في نوفمبر ١٦٤٤ والذي جاء متأخـراً عن موعده. يقول الكاتب في رسالته:

«أرسل نائب الملك سفيراً الى جال Galle مطالبا بتسليمه نيجومبو وفقا للشروط التي تم الاتفـاق عليهـا بين ملك البرتغـال وعمـوم ولايـات الأقطـار المنخفضة. ولكن ما يتسوكر الحاكم العـام في جول وممثل الشركة الهولندية أبلغ السفير بـوضوح انـه قـد بلغه حقـا امـر من الولايـات وأمير آل أورانج بتسليم نيجومبو الى البرتغاليين. ولكنهم ليسوا مستخدمين لحساب الأمير ولا لادارة عموم الولايات، علاوة على هـذا فإنهم حتى اذا ما تلقوا امرا بهذا المعنى من شركتهم فلن يسلموهـا إلا بالقوة ولهذا عاد السفير ادراجـه دون ان ينفذ شيئاً مما ذهب من أجله.

أما مديرو شركة الهند الغربيـة الذين رحبوا أول الأمر بأنباء القطيعة بين البرتغال واسبانيا في عام ١٦٤٠ فإنهم سرعان ما اتفقوا مع مديري الـ ١٧ في معـارضتهم لعقـد اتفـاق هـدنـة لـوزو-داتش Luo-Dutch في المنطقـة الاستوائية. وفي حـالة عدم التوقيع على اتفاق سلام راسخ يمكن مـديري الـ ١٩ من تعزيز وتطوير مستعمرتهم غير المستقرة في برنامبكو Pernambuco فسـوف يكـون من الأفضل لهم، حسـب رأيهم، مـواصلـة عـدوانهم ضـد المستعمرات البرتغالية المتهاوية في البرازيل وغرب أفريقيا. وعندما قررت ادارة

عموم الولايات تحت ضغط الحاكم والسفير الفرنسي، قبول الاقتراح البرتغالي بعقد هدنة لمدة عشر سنوات خارج الحدود وفي أوروبا أيضا كان مديرو الـ ١٩ قد أصدروا أوامرهم بالنقل إلى حاكمهم العام في برنامبوكو بالاستيلاء على أكبر مساحة ممكنة من الممتلكات البرتغالية قبل سريان الهدنة المقترحة. وأصروا على خطتهم هذه على الرغم من معارضة ادارة عموم الولايات، وبذلك تهيأت الفرصة للكونت جون موريس لتنظيم حملته للاستيلاء على انجولا، وساو تومي ومارانهاو في وقت كان البرتغاليون انفسهم قد أمنوا من احتمالات أي عدوان من جانب الهولنديين.

ورغبة من مديري الـ ١٩ في تخفيف حدة غضب البرتغاليين بسبب استفزازهم معنويا ان لم يكن قانونيا - نتيجة غزواتهم الأخيرة، فقد استدعى مديرو الـ ١٩ جون موريس وخفضوا بنسبة كبيرة من قوة حامياتهم في البرازيل بعد أن اعلنوا في وقت متأخر، الهدنة هناك في يوليو ١٦٤٢. وشجع هذا البرتغاليين في برنامبوكو للثورة ضد سادتهم الكفرة في يونيو ١٦٤٥. ولقى هذا التمرد تأييدا من البلد الأم سرا أول الأمر ثم علناً فيما بعد. وعندما وصلت أنباء هذا التمرد الى المقاطعات المتحدة، كان طبيعيا ان يعيد مديرو الـ ١٩ الى تحريض ادارة عموم الولايات وشركة الهند الشرقية وحثهما على تجديد النزاعات والحروب ضد البرتغال في أوروبا وآسيا، وأعادوا تجديد طلبهم هذا بقوة اكبر عقب خسارتهم في أنجولا وبنجويلا في عام ١٦٤٨. وترددت ادارة عموم الولايات وانقسمت في الرأي ازاء هذه القضية. ويرجع هذا أساسا الى ضغوط من حلفائهم الفرنسيين ومعارضة تجارة امستردام لارتباطاتهم مع البرتغال في تجارة الملح التي تدر عليهم ربحا وفيرا. وتنازع مجلس ادارة الـ ١٧ رأيان أيضا في بعض الأحيان. ولكن سرعان ما تغلب حماسهم إلى الاقتصاد على نوازع الحرب وعمدوا الى استمرار سريان الهدنة كما كان متفقا عليه لتنتهي في موعدها المقرر في عام ١٦٥٢. وهنا جددوا الحرب مع قدر من التردد، وأبلغوا ادارة عموم الولايات انهم لجأوا الى هذا لا لشيء إلا لاصرار

وضغوط الـدولة ونـزولا على ارادتها وليس استجابة لـرغبة خـاصة بهم أو لمصلحة تعنيهم. وان هـذا التحول الكـامل والمفاجيء عن مـوقفهم قبل اثني عشر عاما عندما احتجوا بشدة ضـد توسيع نطاق الهدنة لتشمل آسيا أيضا، إنما يفسره ان تجارة البرتغال في آسيا، على عكس مخاوفهم في عام ١٦٤١، لم تنتعش كثيرا خـلال سنوات الهدنـة ، ومن ثم لم يتأثـر تفوقهم التجـاري في المحيط الهندي ولم تصبه أي أضرار كما كانوا يتوقعون.

وبدا واضحاً قبل نهاية عـام ١٦٤٦ أن شركة الهند الشرقية التي أشرفت على الإفلاس بدت عاجـزة عن مواجهة تمر برنامبكـو مما يتعين معه ان تقدم ادارة عموم الولايات مساعدات ضخمة من حيث المال والرجال والسفن. وبعد مفـاوضـات مضنيـة، وافقت هـولندا وامستردام على مسـاعـدة شركة الهنـد الشرقيـة وذلك خلال العـامين ١٦٤٧-١٦٤٨ مقـابل السـلام بين زيلانـدا واسبـانيا. ولكـن الأزمة بين المقـاطعـات تجددت في عـام ١٦٤٩ بعد أن بـدا واضحـا ان الشركة ستكون بحاجة إلى المزيد من المساعدات. وهنا قررت ادارة عموم الولايات ارسال اسطول لمحاصرة تاجوس لارغام الملك جون الرابع على الاذعـان لمطـالبهم بشأن رد مـا خسرتـه شركـة الهنـد الشرقيـة في البرازيل وانجولا. ورفضت زيلانـدا التصديق على اتفاقية التعـويض التي تم توقيعها مع الـدانمرك في اكتـوبر ١٦٤٩ وهـي الاتفاقيـة التي تهم امستردام بوجـه خاص بسبب التجارة عبر السـاوند. وأصرت زيلاندا على عـدم التوقيع ما لم توافق هـولندا على تنفيذ قرار ادارة عمـوم الولايات. وغضبت هـولندا لموقف امستردام. ومن ثم رفضت تـوفير السفن والمال اللازمين للحملـة البرتغاليـة المتوقعة ما لم تصدق زيلاندا أولاً على الاتفـاقية وهنا رفضت هولندا ان تدفع نصيبها مـا لم تدفع جميع المقاطعـات أنصبتها وكـذلك المتأخرات التي تمثل ديونا عليها مقابل الدعم المالي الذي تلقته شركة الهند الشرقية منذ عام ١٦٣٠. وهذا ما لم يكن بمقدورهم. ونظـراً لاندلاع الحرب مع انجلترا في مايو ١٦٥٢ فقد بات من غير العملي اتخاذ أي اجراء عنيف جديد ضد لشبونة أو البرازيل.

وبعد ثلاث سنوات من ضياع برنـامبوكو في عام ١٦٥٤ استطاعت أخيرا ادارة عموم الـولايات اقنـاع هولنـدا بالموافقـة على ارسال اسطـول لمحاصرة تـاجـوس ومطـاردة البرتغـاليين. بيد ان تـدخل الـدبلـومـاسيين الانجليـز والفرنسيين لمصلحـة البرتغال سرعـان ما هيأ لهولنـدا مبررا مقبولا لتجـديد معارضتها للحرب والاصرار على استئناف المفاوضات مع مبعوث البرتغال في لاهاي في عام ١٦٥٨. وبغض النظر عن احكام اتحاد أوترشت التي تنص على أن جميع مثل هذه الأمور يتعين الاتفاق بشأنها جماعيا، عمد مندوبو هولندا، بـرئاسة جـوهان دي ويت الى النـرويج داخل ادارة عمـوم الولايـات لكسب تأييدها لعقد معاهدة سلام على الرغم من معارضة زيلاندا الشديدة وتصدى كل من جلدرلاند وجرونيجن في العامين ١٦٦١-١٦٦٢.

وإذا تأملنا مـوقف هولندا، وكـذلك موقف امستردام بـوجه أخص تجاه مشكلة لـوزو - البرازيل خلال الأعـوام ١٦٤١-١٦٦١، لاتضح لنـا بجلاء كبير ملاحظة سير جورج داوننج والتي تضمننها رسالته الى حكومته في عام ١٦٦٤: «لديكم ميزات لا نهاية لها ازاء حكومة هذا البلد التي هي كيان منهار ومنقسم. وعلى الرغم من أن بقية المقاطعات تصوت لمصلحة هولندا. ولا تملك زيـلانـدا ما يمكن ان تفعلـه إلا النـزر اليسير بسبب فقـرهـا الشديـد، أمـا المقاطعات الأخـرى فإنها لا تستطيع ولا تريد.» وقبل هذا بأربعـة عشر عاما أعرب مبعوث البرتغال في لاهاي عن هـذه الحقيقة نفسها بصورة أقوى وذلك عندما أبلـغ حكومته: «إذا كانت هولنـدا تريد السلام فإن هـذا يكفي وزيادة لضمانه، وإن موافقة امستردام وحدها سـوف تكفي، ذلك لأنه بقدر ما كانت جمهـوريـة هولنـدا تعـاني، كـانت امستردام هي التي تـدفع الثمن ومن ثم يحرص الحكام على مسايرتها.

ومن الواضح ان الطبقات الحاكمة في هـولندا وامستردام حين أعربت عن عزوفها عن الحرب انما كانت تحركها الاعتبارات الاقتصـادية قبل مبادىء السلام الخالصة على نحو ما يبين لنـا من التزامهم بمبدأ القوة حينما رأوا أن التجارة الأسـاسية في بحر البلطيق تهددهـا هذه السلطـة او تلك من سلطات

دول الشمال. إذ على النقيض تماما من احجام امستردام عن ارسال اسطول لحصار تاجوس في السنوات ١٦٤٥-١٦٦١، كانت هي المحرك والمحرض الأول في الدعوة إلى إرسال عدة اساطيل هولندية الى منطقة الساوند خلال الفترة ذاتها. واستهدفت هذه القوة البحرية ارغام الدانمرك والسويد بالتبادل على عدم التعرض للملاحة في الساوند او التفكير في اغلاق المنطقة او ارغام السفن الهولندية على دفع اكثر مما يريد اصحابها. وحيث ان هذه حقبة الامبريالية السويدية لذا كانت السويد هي الخصم الحقيقي او المحتمل بعد عام ١٦٥٠. والملاحظ انه عندما هدد شارل العاشر، خلال حديث له مع المبعوث الهولندي بأنه سيغلق البلطيق في وجه السفن الهولندية رد عليه كومزاد فان بوننجن بأنه رأى مفاتيح الساوند الخشبية ملقاة في ميناء امستردام. وفي عام ١٦٤٥ قام أصحاب السفن المغامرون في امستردام بتزويد كل من الدانمرك والسويد بسفن حربية لاستخدامها في الحرب الدائرة آنذاك بين الناجين ولكن حين زادت قوة السويد، وضعفت الدانمرك، بدأ استخدام القوة البحرية الهولندية لمساندة الدانمرك فيما بين ١٦٥٨-١٦٦٠ ثم مرة أخرى خلال الفترة من ١٦٧٥-١٦٧٨.

ونظراً لأن هولندا كانت تملك اعظم ناقلات بحرية في العالم على مدى قرن أو يزيد، لذا بادرت بمطالباتها بمبدأ حرية البحار. وفي ١٥ مارس ١٦٠٨ مررت ولايات هولندا قرارا سريا يقضي بانها لن تتخلى عن مطلب حرية البحار في أي مكان وفي جميع أنحاء العالم لا بشكل كامل ولا بشكل جزئي لا مباشرة وعلى نحو غير مباشر.» وحثت هولندا ادارة عموم الولايات على تبني الموقف نفسه، مما اضطر الادارة في عام ١٦٤٥ إلى أن تعلن «ان وجود الدولة ورفاهيتها وسمعتها رهن بالملاحة والتجارة البحرية». وليس أيسر من أن نعدد الكثير من الأمثلة الدالة على الوعي العام والخاص بأن سكان جمهورية هولندا يشعرون بضرورة المكابدة والكفاح ضد أي قيد على الملاحة الحرة، وضرورة الاحتفاظ بحق الملاحة في جميع البحار، والصيد عند جميع

السواحل، والتجارة مع جميع الأمم وحماية حقوق القوى المحايدة في زمن الحرب، وتعريف السلع المحظورة في أضيق حدود ممكنة.

وغني عن البيان أن هذه المتطلبات لم تكن تتطابق دائماً وأبدا مع متطلبات الأمم الأخرى، ومن ثم نشبت على سبيل المثال نزاعات مع الدانمارك بشأن سداد الرسوم المفروضة على الملاحة في الساوند، ومع انجلترا بشأن المصايد العظمى ومزاعم انجلترا بشأن السيادة على البحار المحدودة Narrow Seas. ولكن النزاعات كانت تشتد بشأن حقوق الملاحة المحايدة وتعريف معنى السلع المحظورة. وقد دافع الهولنديون عن مبدأ «سفن حرة وبضائع حرة» ويقضي بإعفاء شحنات السفن المحايدة وعدم تعرض الدول المتحاربة لها سواء بالاستيلاء عليها أو احتجازها، إلا إذا كانت هذه الشحنات تشتمل على أسلحة محظورة أو ذخائر للحرب. ومن الواضح ان عبارة «سلع محظورة» عبارة غامضة، ولذلك نلاحظ ان ادارة عموم الولايات حرصت على كل المعاهدات التي وقعتها مع أمم بحرية أخرى ابتداء من ١٦٤٦ على تعريف هذه العبارة في أضيق الحدود مع استبعاد المؤن الغذائية والمعادن ومخزونات السفن وغير ذلك من سلع. وحاولوا أيضا جاهدين تقييد حق التفتيش وفحص وثائق السفن وحظر تفتيش شحنات السفن إذا ما تأكدت سلامة هذه الوثائق. ولجأ الهولنديون كثيراً الى نظام سفن الحماية. المرافقة للسفن التجارية، خاصة في البحر المتوسط وفي بحر البلطيق وذلك لحماية سفنهم التجارية خشية تعرض السفن الحربية الأجنبية لها في البحار الأوروبية. وأرسلوا كذلك سفنا حربية لمقابلة أساطيل شركةالهند الشرقية والغربية المتجهة الى الوطن أثناء عبورها القنال الانجليزي أو عند شيتلاند.

وقد لا يكون ضروريا ان نكرر القول بأن الدعوة الى حرية التجارة الدولية بعامة وحرية البحار بخاصة، لم تكن الا تعبيراً عن مصلحة ذاتية فقط عندما دعت اليها أولاً وأساسا الأوليجاركية التجارية في هولندا وزيلاندا.

لقد كانوا مقتنعين، ربما على حق الى حد ما خلال القرن السابع عشر، بأنهم سيكونون قادرين على الاحتفاظ بنصيب الأسد في مجال النقل البحري الأوروبي طالما سادت المجال النزاهة والنصفة. وشاركهم الرأي كثيرون من منافسيهم خاصة الانجليز الذين كانوا مقتنعين أغلب الوقت بأن الهولنديين سيسعون دائماً للمزايدة أو المناقصة عليهم في أي أسواق تضم الفريقين على قدم المساواة. ونذكر هنا ما قاله كلارندون في رسالته الى داوننج اثناء المفاوضات التي جرت في لاهاي عام ١٦٦١. «أولى بسيدنا الملك الا يتحمل ان يحظى الهولنديون بمزايا متكافئة معه في مجال التجارة.»

ومن ناحية أخرى لم يتمهل الهولنديون في التخلي عن مبادئهم بشأن حرية التجارة إذا ما لاءمهم هذا. أو إذا ما ظنوا أن بالامكان الحفاظ على احتكار مربح لهم. وهذا ما أشار اليه داوننج صادقاً عشية الحرب الانجلو-هولندية الثانية حين قال: «إنها بحار مفتوحة في البحار البريطانية ولكنها بحار مغلقة على ساحل افريقيا وفي جزر الهند الشرقية». وربما بامكانه ان يضيف الى ذلك القول بان الهولنديين ينادون بالبحار المغلقة كلما اقتربوا من أرض الوطن. لقد أبقوا مصب شلدت مغلقا أمام الملاحة الأجنبية منذ معاهدة مونستر في عام ١٦٤٨، خشية ان تستعيد مقاطعة انتويرب مجدها البحري القديم على حساب امستردام. وخلال المفاوضات الفاشلة، من أجل عقد حلف انجلو-هولندي في عام ١٦٥٠، اقترح الهولنديون: «أن جميع البضائع التي تخص عدوا وتوجد على ظهر سفينة صديق ينبغي اعتبارها حرة، وجميع البضائع التي تخص صديقا ولكنها محمولة على ظهر سفينة عدو ينبغي اعتبارها غنيمة ... والبضائع الوحيدة المستثناة هي بضائع البرتغال المحمولة من أوروبا إلى آسيا وأفريقيا وأمريكا او بالعكس، ذلك لأن تلك التجارة مخصصة لنقلها بسفن انجليزية. وهذا نموذج لمن يريد امتلاك الكعكة ثم يأكلها وحده. ولكن الهولنديين تخلوا عن مبادئهم بشأن حرية التجارة، وكشفوا عن أنفسهم كاحتكاريين ومضاربين أشداء. في البحار التي

تخضع لسيطرة شركة الهند الشرقية ذات الشهرة الواسعة.

وكلمة سيطرة هنا هي المنطوق الاجرائي، إذ على الرغم من أن نطاق نشاط شركة الهند الشرقية الهولندية امتد من رأس الرجاء الصالح الى اليابان، الا ان الهولنديين استطاعوا في مناطق معينة فقط أن يمارسوا احتكارا حقيقيا فعالا لفترة طويلة. ونجد عرضا طيبا لموقفهم في الشرق في «التعليمات العامة» التي جمعها مجلس ادارة الـ ١٧ ليسترشد بها الحاكم العام لباتافيا ومجلسها في عام ١٦٥٠ وقد حلت هذه الأوامر محل الأوامر السابقة عليها في الأعوام ١٦٠٩ و١٦١٧ و١٦٣٢ وظلت سارية المفعول حتى نهاية حكم الشركة على الرغم من أن أغلبيتها لم تعد لها أي قيمة عملية قبيل عام ١٧٩٥. إلا أنها تعطينا فكرة عن الحوافز التي انعشت المديرين، وعن التمايز في نظرتهم بين المناطق التي يمكن للشركة أن تهدد فيها باستخدام القوة وبين المناطق التي يتعين عليها فيها أن ترتدي قفازا من حرير. واعترف مجلس ادارة الـ ١٧ صراحة بأن تجارة الشركة في آسيا يمكن تقسيمها الى ثلاث فئات. أولاً، التجارة في مناطق تتمتع فيها الشركة بسيطرة اقليمية مطلقة وفقا لحق الغزو أو التنازل. وفي عام ١٦٥٠ كانت هذه المناطق قاصرة على عدد قليل من الجزر في ملقا، وعدد متناثر من المستوطنات التجارية الحصينة مثل تلك التي اقيمت في باتافيا (جاوه) وفي الملايو وفي الهند وزيلاندا (فورموزا). ثانيا، مناطق تتمتع فيها شركة الهند الشرقية الهولندية وحدها بحقوق المتاجرة بناء على عقود احتكار تمت بعد التفاوض (تحت الضغط والاكراه والتهديد عادة) مع حكام المنطقة المحليين مثل سلطان ترنات Ternate وزعماء أمبوينا Amboina. ثالثا، المتاجرة مع حكام الشرق، «على أساس اتفاقيات حرة ثم التفاوض بشأنها، وكذلك على أساس الانجاز الحر المباشر مع تجار جميع الأمم الأخرى».

والجدير بالذكر أنه على الرغم من أن الصنفين الأخيرين اتسع نطاقهما

كثيراً بعد عام ١٦٥٠ نتيجة استيلاء الشركة على ميناء ماكاسار في أندونيسيا وساحل سيلان وملبار، وكذلك نتيجة المكاسب الاقليمية إثر حروب جاوة في القرن الثامن عشر إلا أن الصنف الثالث، حيث افتقدت الشركة فرص تأمين احتكار تجاري، كان دائما هو الأهم. بل يمكن القول إنه حتى عندما بلغت الشركة ذروة مجدها وسطوتها، كانت السلع الوحيدة التي يمكن لها ان تحتكرها بصورة فعالة هي القرنفل وجوزة الطيب «والميس» وهو تابل مستخرج من قشرة جوزة الطيب الذي تنتجه ملقا، ثم القرفة من سيلان. أما فيما عدا هذا من سلع – الفلفل الأسود والحرير والأقمشة والسكر والبن والشاي – فقد اضطرت الشركة الى مواجهة مناقشة شرسة سواء بالنسبة لشراء هذه السلع في آسيا أو بالنسبة لاعادة عرضها للبيع في الأسواق الأوروبية والآسيوية، وأكثر من هذا في اليابان، حيث كان الهولنديون هم التجار الأوروبيون الوحيدون المسموح لهم بالمتاجرة مع اليابان منذ ١٦٣٩ إلى ١٨٥٤، اضطروا الى الدخول في منافسة مع تجارة صينية واسعة الانتاجية، وعجزوا عن التحكم في سوق ناجازاجي والافادة به لمصلحتهم. نعم لقد استطاعوا احتكار الاتجار في بعض أنواع التوابل لفترة من الزمن، ولكنهم اضطروا الى الدخول في منافسة مع الأمم الأخرى من أجل شراء الأقمشة الهندية والنسيج الهندي الذي يدفعونه مقابل التوابل. بعبارة أخرى نلحظ ان تجارة الشركة في منطقة من المناطق لم تكن تحددها سلعة واحدة بل منتجات كثيرة، بعضها بعيد عن سيطرتها الاحتكارية.

وشدد مجلس ادارة الـ ١٧ على ضرورة الحفاظ على وجودهم الاحتكاري في مولوقا Moluccas مع استخدام القوة المسلحة إذا اقتضت الضرورة. ولكنهم كانوا يستنكرون استخدام القوة في مجالات أخرى خاصة في «الأماكن المحايدة التابعة للبلدان الحرة حيث تسود القوانين ولا نكون بحاجة الى استيرادها.» واعتادوا ان يذكروا مستخدميهم في الشركة الشرقية بأنهم في مثل هذه الأماكن لم يكن لهم الحق في الاستيلاء على التجارة سالفة الذكر وفقا

لأفكارنا وان نجبر مثل هذه الأمم بقوة السلاح؛ تماما مثلما ان الشركة لا يسعها ان تسمح للأمم الأخرى ان تضع القانون الذي يحدد كيفية الاتجار في اماكن تخضع لولايتها.» وأكدت التعليمات الصادرة في عام ١٦٥٠، مرة أخرى، على الحاجة الى معاملة سكان امبوينا معاملة تتسم بالنزاهة والاعتبار في الوقت الذي ننتزع منهم خضوعا كاملا والتزاما صارما بتعهداتهم بشأن توريد القرنفل. ومواطنو فورموزا الذين كانوا دائما شعبا حرا لا بد وأن يظلوا على ولاء للشركة عن طريق معاملتهم معاملة حسنة دون ارهاق للفقراء بضرائب باهظة. وان النوايا الطيبة للحكام الآسيويين الاقوياء مثل شوجان اليابان وشاه فارس يتعين ترسيخها بفضل السلوك القائم على المصالحة والتوفيق من جانب مستخدمي الشركة في تلك البلدان. ويصدق هذا بخاصة في اليابان حيث كانت الأوامر الصادرة اليهم تطالبهم بالنظر الى رغبات تلك الأمة الجريئة المترفعة بغية ارضائها من جميع النواحي.» ولهذا السبب يجب أن يذهب الى هناك فقط «الأشخاص المتواضعون المهذبون الودودون» وتبدت طبيعة هذه التعليمات في الأمر الذي يقضي «بضرورة الاهتمام، بشكل خاص، من أجل تنشيط التجارة بطرق سلمية في كل أنحاء آسيا. لأنها الوعاء الذي يحفظ المواد اللازمة لمطبخ أرض الآباء».

ونجد هذا التأكيد على التجارة السلمية وعلى الأرباح الفعلية أو المحتملة هو الفكرة الثابتة في مراسلات مجلس ادارة الـ ١٧ خاصة اذا ما ثبت عن يقين ان الحروب التي يشنها مستخدموهم في الشرق باهظة التكلفة، ففي عام ١٦٤٤ استنكر مديرو غرفة دلفت Delft Chamber الاصابات الفادحة والنفقات الباهظة التي تسببت فيها الحملات العسكرية في ملقا وسيلان، وقالوا «خير للتاجر ان يضاعف مواهبه ويرسل شحنات غنية من آسيا الى الأراضي المنخفضة بدلاً من انفاذ غزوات اقليمية باهظة التكلفة التي هي ملائمة لأصحاب التيجان وجبابرة الملوك أكثر من التجار الذين يعنيهم نهم الربح.» ولكن الناس في الموقع غالبا ما يكون لهم رأي آخر. فها هو انطونيو

فان دييمن ومجلسه يعلنون نظريا انهم يتفقون في الرأي مع غرفة دلفت ولكنهم يضيفون قوله: «هناك فارق كبير بين العام والخاص، وبين نوع من التجارة ونوع آخر. لقد علمتنا الخبرة اليومية ان تجارة الشركة في آسيا لا يمكن لها ان تبقى دون غزوات اقليمية» وحين التزم فان دييمن بهذا الخط الداعي الى الحرب فإنه كان يردد اقتناعات جان بيترز كووين مؤسس باتافيا، الذي أكد لمجلس ادارة الـ ١٧ في عام ١٦١٤ هذا المعنى حين قال لهم: «سوف تعرفون فخامتكم عن طريق الخبرة ان التجارة في آسيا لا بد وان تجرى وتبقى في حماية وفضل أسلحة فخامتكم انتم دون غيركم، ولا بد من دفع نفقات السلاح من أرباح التجارة، ولهذا لا يمكننا ان نتاجر دون حرب، ولا أن نحارب دون تجارة». وبالمثل نجد ريجكلوف فان جونز في تقريره عن عام ١٦٥٥ (ص ٨٤) يؤكد أن «الشعارات المسيحية» التي ضمنها المديرون في تعليماتهم لعام ١٦٥٠ أسيء فهمها أو تفسيرها من جانب السلطات الآسيوية المعادية واعتبروها علامة ضعف. وقال ان هذه السلطات كانت غيورة في الأساس من الهيمنة البحرية المعقودة للشركة ولم يتمنوا إلا خرابها.

وعندما وقعت خلافات في الرأي بشأن السياسة بين مجلس ادارة الـ ١٧ في الوطن وبين الحاكم العام ومجلسه في باتافيا، كانت لدى الطرف الثاني بطبيعة الحال ميزة عندما كانت هناك شخصيات قوية مثل كوين، وفان ديمين وريجكوف فان جوينز وسبيلمان وشغلوا المناصب الرئاسية في «ملكة بحار الشرق» واستغرق الأمر حوالي ثمانية عشر شهراً، أو سنتين للحصول على اجابة من امستردام أو ميدلبرج فيما يتعلق بمسار العمل الذي بدأته باتافيا. وكان من اليسير نسبيا على الحاكم العام والمجلس في ظل هذه الظروف إرغام مجلس الـ ١٧ ولَيّ ذراعه. ووجد القسيس فرانسوا فالنتين انه خسر في عام ١٧٠٦ إذ عرض على المدير العام في باتافيا امرا كتابيا من مجلس ادارة الـ ١٧ حين أبدى بشأن هذا الموظف ملاحظة سافرة قائلاً له: «المديرون في أرض الوطن يقررون أموراً يرونها هي الأفضل لهم وهم هناك، ولكننا هنا

نعمل ما نراه نحن الأفضل والأصوب لنا هنا. «بعبارة أخرى فكأنه يقول وهو الهولندي مـا يقوله المثل الاسبـاني «أطيع ولا أنفذ» وهو المثل الـذي اعتاد ان يردده نواب الملك في المكسيسك وبيرو وهم يلقون على الرف أوامر مدريد التي لا تلائمهم، وكانت لدى سلطات باتافيا ميزة أخرى حيث انه بعد عام ١٦٥٠ تقريبا لم يخدم في آسيا سوى عـدد قليل جدا من المديرين أو أنهم في الحقيقة لم يبدوا أي اهتمام كبير بـالحالة السياسية هنـاك. وبهذا كان اعتمادهم على مشـورة ومعلومـات منـدوبيهم عبر البحار اكثـر مما كـان ملـوك اسبانيـا والبرتغال، على سبيل المثال، إذ كانت مجالسهم في الهند يشغلها أساسا حكام ومديرون بحكم مناصبهم قبل الاستعمار، ويساعدنا هذا على تفسير السبب في أن المديرين على الرغم من انتقادهم أحيانا لسياسات القوة التي بدأها رجال من أصحـاب النظرات التـوسعية، ينتهـون عادة إلى قبـول الأمر الـواقع، أو يـرسلـون السفن والـرجال والمال استجـابـة لما طلب منهم. واطـردت هـذه السياسـة بطبيعة الحال عندما أفضت الى نتـائج ملموسة على نحو مـا حدث عقب غزو كـوين لجاكرتـا (١٦١٩) أو احتلال سبيلمان لبـانتام (١٦٨٤). ومن ناحية أخـرى كان المديرون أحيانا يلغون سلطـة رؤسائهم وتكون لهم الهيمنة كـاملة. إذ عنـدما أيد الحـاكم العـام والمجلس في باتـافيا السماح لملك كاندي بالاتجار في حرية من مـوانىء الساحل الشرقي لسيلان خلال الأعوام من ١٦٩٦-١٧٠٣ قلب مجلس ادارة الـ ١٧ هذه السياسة إلى عكسها تماماً، مثلما انتقدهـا الحـاكم الهولندي في كولومبـو، وأمروا باغـلاق جميع موانىء الملك أمام التجار الأجانب في عام ١٧٠٣.

ويجب أن نشدد ثانية على أن مجلس ادارة الـ ١٧ لم يكن دائما وأبدا وفي كل مجال معارضا لاستخدام رؤسائه القوة في الشرق، وانما عارضها فقط في الأماكن التي يظن المديرون انها ستكلفهم ثمنا بـاهظا، أو سيجدون صعوبة كبيرة لكفالة واستمـرار نظام احتكاري مربح لهم بهذه الطريقة. ولقـد كانوا منذ عام ١٦١٤ عاقدين العزم تماما على اتخاذ أعنف الخطوات في سبيل كفالة

مثل هذا الاحتكـار في جزر التـوابل ضد جميع الوافـدين، سواء كـانوا تجارا برتغاليين أم اسبانيين أم انجليـز أم صينيين أم اندونيسيين. واتفقوا في الرأى مع كوين وهو أن من الميئـوس منه في هذه المنطقة محاولـة ايجاد موضع قدم وتحسين مركـزهم فيها استنادا الى «التـزام الفضيلة وفعل الخير فقط» وانما من الضروري «ملاحقـة المواطنين بمهماز حاد وقـاس». ومن المسلم به أنهم أحسوا بـداية بالخوف الشديـد بسبب الأنباء التي وردت عن إبادتـه لسكان جـزر بانـدا في عـام ١٦٢١، ولكن سرعان مـا كشفـوا عن رضاهم عن هـذه السيـاسة وقنعـوا بتـوجيه لـوم خفيف لـه. وتجاهل المديرون الـ ١٧ – أو أغلبيتهم إذ لم يكونوا على رأي واحد دائما – نصيحة بعض رفاق كوين الذين لم تعجبهم قسـوتـه ورأوا أن الأساليب الأقـل عنفا أقـدر على تحقيق نتـائج أفضل. وزعماء هذا الاتجاه في التفكير كل من لـورنز رايل وستيفن فـان دير هـاجن. وأكد الاثنـان ان الشركـة ليس لها حق ارغـام مواطني ملقـا على بيع التوابل للهولنديين وحدهم دون سواهم ما لم يمدهم الهولنديون بدورهم بما يكفيهم من واردات غذائية وأقمشة بأسعار معقولة. وقال رايل في هذا الصدد (٢٠ أغسطس ١٦١٨) «نحن أنفسنـا نحضر كميـات غير كـافيـة من السلع التجاريـة الى ملقا، ونمنع غيرنـا من أن يأتوا بما يكفي منهـا. وان السكان لا يمكنهم جمع أي كميـة من القـرنفل بسبب التكلفـة العـاليـة لاستيراد المواد الغذائية وهـو ما يجبرهم على زراعة محاصيل غذائيـة بدلا من القرنفل. وان دقيق الساغو Sago الذي كـان يورده لهم سابقا أهل جـاوة بخمس سعره الحالي باتوا يستوردونه بأنفسهم عبر مسافـات طويلة. وبات لزاما عليهم ان يشتروا منا وبأسعار مرتفعة الأقمشة الهندية (على رداءتها) وهي لا تساوي هذا الثمن ولكن لكي يـذهبوا لقطف القرنفل (وهو عمل شـاق وخطر). علاوة على هذا فإننا نتشبث بأرباحنا ومصادر كسبنا حتى لا نسمح لأي أحد غيرنا بأن يتكسب ولو ربع درهم.

ولكن كـوين وأغلبيـة أعضـاء مجلس ادارة الـ ١٧ رأوا أن الهولنـديين

مخولون لاحتكار مشتريات القرنفل وجوزة الطيب بالأسعار التي يحددونها بأنفسهم. ولأنفسهم مقابل «الحماية» التي هيؤها لأبناء الجزر ضد البرتغاليين والأسبان. واسقط هذا الرأي واقع ان احتكار الهولنديين للتوابل تحول سريعا الى عبء على كاهل ابناء الجزر أكثر مما كان على نظرائهم الأسبان والبرتغاليين. وسبب ذلك من ناحية ان الهولنديين دفعوا أسعاراً متدنية، ومن ناحية ثانية لأن احتكارهم كان مفروضا على نحو اكثر عنفا وقوة. واكد رايل وفان دي هاجين أن العقاب ما كان ينبغي أن يطبق على رؤساء وشيوخ أندونيسيا الذين وقعوا، تحت التهديد والاكراه، عقودا مجحفة بهم ولم يكن باستطاعتهم الوفاء بها حتى لو أرادوا. وأكدوا ان من الأفضل للهولنديين على المدى الطويل ان يقنعوا بمبيعات كثيرة وأرباح قليلة بدلاً من الإلحاح في السعي من أجل احتكار قاس وقهري يفضي الى مبيعات قليلة وأرباح كثيرة. زيادة على هذا انه بينما كان رايل وفان دي هاجن على النقيض في التطرف من ناحية اخرى من حيث الاستعداد لاستخدام القوة ضد منافسيهم الانجليز في ملقا، الا انهما ترددا في التخلي عن هذا النهج خشية ردود أفعال غير مواتية بالنسبة للعلاقات الانجليزية الهولندية في أوروبا وهي إمكانية لم يكن يعبأ بها كوين. وأخيراً رأى رايل وفان دي هاجن انه قد يكون من الظلم والغفلة استبعاد التجار الآسيويين سواء من الصين ام الملايو أم جاوة بالقوة عن ملقا. وهو ظلم لأن العقود القائمة لا تنص على مثل هذا الاستبعاد، وبعيد عن الحكمة لأن مثل هذه السياسة قد تدفع أبناء الجزر الى الارتماء في أحضان المنافسين الأوروبيين وتزيد تجارة الملايو وجاوة بدلاً من تدميرها.

وعلى الرغم من أن حجج رايل وفان دي هاجن لقيت بعض التأثير بين المديرين إلا أن أغلبية مجلس ادارة الـ ١٧ وافقوا على السياسة العدوانية التي دعا اليها كوين وهنريك برووير. وكتب كوين الى المديرين يقول: «لا شيء في العالم يعطي للمرء حقا أفضل من السلطة والقوة حين يكونان سندا للحق».

وعندما تلقّى الإذن من الشركة باستخـدام القوة «لمنع أبناء جاوة وغيرهم من الآسيويين من التجارة في ملقا، أعرب كوين عن ارتياحه (١٠ نوفمبر ١٦١٧) وأضاف قائلاً: ان دروس الطبيعة وتجارب جميع الشعوب من عصر الى عصر كانت دائما كـافية لي.» وإذا كـان المديرون على استعداد لاستخـدام القوة في ملقا وترددوا عن استخدامها في أماكن أخرى فإن أحد أسباب ذلك ان الحكام المحليين لم يكونوا يملكون سفنا حربيـة أيا كانت قوتها، وان المقاطعات التي تنمو فيها التوابل تمتد على السواحل ومن ثم تقع على مرمى مدافع الاسطول الهولنـدي. كـذلك كـان سكـان جـزر التـوابل يعتمـدون على استيراد الأرز والأقمشة القطنية وغير ذلك من ضروريات الحيـاة من جاوة والملايو والهند، ولهذا لم يكونوا في وضع يسمح لهم بالانتقام من الهولندليين لأخطاء حقيقية أو متوهمة، على نحو ما كان الحال، على سبيل المثـال بالنسبة للممالك القوية في داخل قارة آسيا. علاوة على هذا ظلت تجارة التوابل زمنا طويلا ينظر اليها باعتبارها الهدف الأساسي لنشاط الشركة في جـزر الهند الشرقية، وباعتبارها المصدر الفعلي أو المحتمل لأرباحها الكبيرة. ومن هنا عمد مجلس ادارة الـ١٧ إلى الـوقـوف بحماس لمسـاندة التصرف العـدواني في ملقـا في الـوقت الـذي يستنكرون فيه أو يحظرون استخدام الحرب العدوانية في أماكن أخرى.

ومع هذا، وكما تنبأ رايل وفان دي هـاجن، فإن الصراع من أجل السيطرة الكاملة على محاصيل توابل ملقا امتد لسنـوات طويلة وأثبت أنه فادح التكلفة من حيث الخسائر في المال والأنفس. ولم ينته الصراع إلا في عام ١٦٨٤ بعد أن سقطت ملقا وماكـاسار وبانتام في أيدي الشركـة، وانعدمت التجارة والسفن الاندونيسية في جزر التوابل، وما تـرتب على هذا من نتائج قاسية على ظروف حياة سكـان هذه المنـاطق واقتصادهـم. وفي عشرينيات القرن السـابع عشر حدث أمران؛ استئصـال شأن السكان الأصليين في جزيرة بـاندا أو ترحيلهم للعمل عبيدا أو جنودا. وعندما وقعت مذبحة في عام ١٦٥١ راح ضحيتها ١٦٠ هـولنـديـا، من بينهم كثير من النسـاء والأطفـال، في سيرام الغـربيـة، شن

الهولنديون نتيجة لهذا، سلسلة من الحملات التأديبية بلغت ذروتها في اجبار حوالي ١٢٠٠٠ نسمة على النزوح بالقوة من قراهم واستوطنوا في امبوينا ومانيبا. وتم فرض احتكار التوابل بالقوة في ملقا عن طريق ما عرف باسم Hongi-Tochten ، وهي حملات بحرية دورية مسلحة تشنها السفن الحربية أو ما سمى Cora-Coras التي تدمر جميع مزارع القرنفل غير المرخصة. ومن الأمور القابلة للجدل بيان الى أي حد أفاد احتكار التوابل الشركة تجاريا بعد أن تحقق لها ما أرادت. فإذا كانت قد حققت أرباحا كبيرة مقابل بيع بعض التوابل في الأماكن، وفي أوقات بذاتها، إلا أن هناك مناسبات أخرى قلت فيها أرباح الشركة وربما انعدمت تماما – ناهيك عن أن تكلفة استخدام القوة لفرض الاحتكار وما اقتضاه هذا من بناء أساطيل وقلاع حصينة وحاميات عسكرية ابتلعت جميع الأرباح على المدى الطويل بيد أن هذا أمر لا سبيل الى التأكد منه نظرا لتعقد أسلوب الشركة في مسك دفاتر حساباتها الأمر الذي منع مجلس الـ ١٧ من أن يحسب بدقة النفقات الحقيقية أثناء وجود الشركة. وهذا على أية حال فرض مقبول.

والملاحظ ان العلاقات بين سلطات شركة الهند الغربية فيما وراء البحار وبين المسئولين عن الشركة في الأراضي المنخفضة كانت مختلفة عن تلك العلاقات السائدة في الشركة التوأم خاصة بعد استدعاء كونت جون موريس واندلاع ثورة برنامبكو في العامين ١٦٤٤ / ١٦٤٥. ولقد كان جون موريس يطبق القانون ولو على نفسه، إلا أن خلفاءه في البرازيل وغيرها كانوا أكثر خضوعا لسلطان مجلس ادارة الـ ١٩ على عكس الحال بالنسبة له، وذلك بسبب نشأته كأمير ونفوذ بلاط حاكم الدولة. وبعد عام ١٦٤٥، وبسبب الديون المالية لشركة الهند الغربية واعتمادها الكامل على معونات الدولة. أصبح مجلس ادارة الـ ١٩ وعلى مدى اكثر من عشر سنوات أشبه بالمكوك جيئة وذهابا بين مقاطعتي هولندا وزيلندا المتنافستين. وحتى بعد إعادة تنظيم الشركة في عام ١٦٧٠ أصبحت نشاطاتها سواء على الساحل الافريقي

الغربي أو الكاريبي خاضعة لسيطرة المسئولين في هولندا أكثر مما هو الحال بالنسبة لنشاطات شركة الهند الشرقية. ويرجع ذلك جزئياً إلى أن المسافات الفاصلة ليست بعيدة جداً، كما يرجع من ناحية أخرى إلى أن شركة الهند الغربية وهي الأفقر حالا عجزت عن اتخاذ النهج الأقوى والأكثر استقلالا الذي اتخذته غالبا شقيقتها الغنية.

ومن ناحية أخرى فإذا كانت الأقلية الغنية الحاكمة من التجار الأوليجاركية التجارية في الأراضي المنخفضة، وخاصة امستردام، ساندوا عن كره منهم، شركة الهند الغربية في أزمتها الممتدة على مدى الأعوام ١٦٤٤-١٦٦١ بسبب اهتمامهم أكثر بتجارة الملح في البلطيق، فإنهم قدموا لمجلس الـ ١٩ مساعدة أكثر ايجابية في مناسبات أخرى عندما رأوا ان الأمر يتعلق بالمصلحة القومية وكذا بثورة الشركة. وان المفاوضات المتعثرة من أجل عقد هدنة مع أسبانيا في الأعوام ١٦٢٩-١٦٣٣ توقفت أساسا بسبب رفض ادارة عموم الولايات التنازل عن (أو تبادل) فتوحات شركة الهند الغربية في برنامبكو على الرغم من أن هولندا لم تكن تسيطر آنذاك إلا على جزء صغير من تلك المنطقة. وفي عام ١٦٦٤ وبإيعاز من امستردام، أذنت ادارة عموم الولايات بإرسال نائب قائد البحرية دي رويتر مع أسطوله في المتوسط الى غينيا لاسترداد قلاع شركة الهند الغربية التي استولى عليها سير روبرت هولمز في وقت السلم. ولم يتخذوا اجراء كهذا منذ أكثر من قرن في جزر الهند الشرقية وقتما ارسلت إدارة عموم الولايات مجموعة من السفن الحربية لمساعدة شركة الهند الشرقية في خليج الملايو.

ولم تتردد عموم الولايات بدورها عن مساندة شركة الهند الغربية في خلافها الدائم مع ملك البرتغال بشأن الوصول إلى مناطق معينة على ساحل غينيا خلال القرن الثامن عشر. فبعد اكتشاف الذهب في ميناس جيريس (١٦٩٥) جدد البرتغاليون في البرازيل تجارتهم السابقة مع غينيا الدنيا Lower Guinea على أساس مبادلة التبغ والكروم والذهب من البرازيل

بالعبيـد من أندرا وداهـومي. وادعى الهولنديـون في الميناء Elmina ان هذه التجـــارة انتهـــاك لحقـــوق الاحتكـار المخـولة لشركـة الهند الغـربية. وعمدوا، كلما أمكنهم ذلك، إلى إرغام سفن العبيد التـابعة للبرازيل على التوجه الى الميناء ودفع رســوم لشركة الهنـد الغربية. واشتكت حكـومة البرتغـال مر الشكوى من هــذا السلوك على فترات متباعـدة طوال القـرن الثامن عشر ولم يجدوا ردًّا شـافيـا على احتجاجاتهم الديبلـوماسية المتكررة في لاهـاي، سوى تخفيـف حـدة الموقـــف أحيانا عنـدما يرسلون سفنا حـربية ترافق سفن تجار العبيد.

والمعروف ان الهولنديين دخلوا في نزاعات مع الانجليز والبرتغاليين بشأن مزاعم شركتي الهنـد الشرقية والغربيـة عن حقوقهما الاحتكارية البحـرية في مناطق مختلفـة من العالم. واستشعـر الهولنديـون قدراً من الحرج لـوجود جروتيوس، بطلهم الأول الداعية إلى حرية البحار والذي دأب على معارضتهم. ففي عام ١٦١٢ أرسلـوا جروتيـوس ذاته الى انجلترا ليـوضح الأسباب التي تدعو الهولنديين الى إبقاء الانجليز وجميع منافسيهم الآخرين بعيدا عن جزر التوابل وكانت حجته الأساسية في هذا ان الهولنديين وإن ذهبوا في البداية الى ملقا كتجار سلميين، إلا أنهم اضطروا، دفـاعا عن النفس، إلى طرد البرتغاليين والاسبانيين، وتعزيـز مراكزهم ضد الاسبـانيين بواسطة حاميـات عسكرية وأساطيل حربيـة كلفتهم غاليا. وحيث انهم خاضــوا صراعهم وحدهم فإنهم أصحاب الحق في جميع الأربـاح الناجمة عن تجارة التـوابل، بغض النظر عن عقود الاحتكار التي وقعوها مع الحكام المحليين. وغني عن البيان ان الانجليز لم يقبلوا هذه الحجج، تماما مثلما كان موقف البرتغاليين بعد قرن من الزمان حين رفضوا القول بمشروعية استيلاء شركة الهنـد الغربية على سفنهم قبالة ســاحل غينيــا، والــواضــح في التحليل النهـائي ان الهولنـديين اعتمـدوا على مصالحهم العملية أكثر مما اعتمدوا على حججهم القانونية المبهمة واتبعوا في سلوكهم سنّة من قال:

القاعدة القديمة الصالحة، والخطة البسيطة
ان يخدعوا صاحب السلطة وتبقى لهم القدرة

وهذا هو المبدأ الذي التزم به، بنجاح، جان بيترز كوين، وأنطونيو فان ديمن وكورنيليس سبيلمان.

يبدو واضحا مما سلف أن الصورة التي رسمها بيتر دي لاكور، وبعض الكتاب المحدثين، عن الأوليجاركية الهولندية التجارية، وصورتهم جميعا تجارا مسالمين لا يمتشقون الحسام الا بعد تردد طويل إنما هي صورة بحاجة إلى تعديل كبير. ولقد رأينا أنهم، ومنذ عام ١٦٤٨ وما بعدها، اعتادوا تجنب الحرب مع سلطة كبرى كلما تأتى لهم ذلك، ولكن القصة تختلف تماما إذا ما تعاملوا مع دول أضعف أو ظنوا انها اضعف منهم مثل البرتغال أو الدانمرك أو ماكاسار أو تيرينت. ومن ثم لم يترددوا في فرض الالتزام الصارم بالمعاهدات والعقود على الطرف الآخر المعني حتى وإن جاءت هذه الاتفاقات نتيجة إكراه وتهديد على نحو ما كان الحال غالبا. ولست بحاجة إلى أن أضيف أن هذا الموقف لم يكن خاصا بالهولنديين وحدهم، بل هو نهج مشترك، بدرجات متفاوتة، بين منافسيهم. إذ التزم البرتغاليون السلوك نفسه مع الحكام الآسيويين الصغار الذين كانت سواحلهم هدفا سهلاً للقوة البحرية الأقوى وان معاهدة ١٦٥٤ التي أرست أسس التفوق التجاري الانجليزي على البرتغال كانت نوعا من الفرض والإملاء.

وسارت على هذا النهج العقود والمعاهدات التي أبرمتها شركة الهند الشرقية مع صغار الأمراء الأندونيسيين خلال فترة امتدت قرنين من الزمان تقريبا. ويتضح من صياغة كلمات هذه العقود ان الهولنديين هم الذين صاغوها ولم يكن على الحاكم الاندونيسي إلا أن يوقع حيث أشاروا إليه، وأعطوا الهولنديين حقوق احتكار واسعة (أو الأفضلية) في شئون التجارة داخل الاقليم المعني ويقترن هذا عادة باستبعاد التجار الأجانب الآخرين

الأوروبيين أو الآسيويين على السواء. وسمحوا بإقامة قلاع وحصون وحاميات عسكرية هولندية حيثما كان ضروريا، واعترفوا في غالب الأحيان بحق ممثل شركة الهند الشرقية في التدخل حكما أو وسيطا في النزاعات المحلية. واحتفظ الهولنديون لأنفسهم دائماً، على وجه التقريب، بحق الولاية على رعاياهم الذين اتهموا بارتكاب أعمال عدوانية، وكان لهم عادة حق محاكمة المواطنين المتورطين في نزاعات معهم.

وطبيعي ان مثل هذه الشروط لم يكن من المستطاع التفاوض بشأنها مع الحكام الأقوياء داخل القارة في أماكن حيث «يكون الأمر مسألة تسامح الشركة مع الهنود مثلما هو تسامح الهنود مع الشركة». وهو رأي بدا واضحا في عام ١٦٢٤. ولكن حتى في هذه الأماكن سعت الشركة – مثلما سعى البرتغاليون والانجليز – الى كفالة ما أصبح معروفا بعد ذلك بالحقوق خارج نطاق تشريع الاقليم لمثليها حيث كان هذا نهجا عاما اتبعه الحكام الآسيويون مع التجار من جميع الجنسيات. ولكن ثمة استثناء واضح للعلاقات التعاقدية المألوفة بين السلطات الأوروبية والآسيوية، وهو ما نجده في معاهدة التجارة والصداقة الهولندية الفارسية الموقعة في لاهاي في فبراير ١٦٣١. إذ نصت هذه الوثيقة على ان التجار الفرس الموجودين في هولندا لن يعاملوا فقط على قدم المساواة الكاملة مع المواطنين الهولنديين بل سيتمتعون بالامتيازات التجارية والتشريعية التي يتمتع بها الانجليز في دلفت والاسكوتلنديون في فير. وهذا السخاء الذي نصت عليه المعاهدة إنما منحته ادارة عموم الولايات، على الأرجح، لأنهم عرفوا أن الفرس لا يملكون اسطولا لنقل تجارتهم، وحيث ان الطريق البري الى غرب أوروبا تسده دولتان معاديتان هما تركيا وروسيا، فإن من المستبعد ان يذهب التجار الفرس للاقامة في هولندا. وعلى أية حال فإن شركة الهند الشرقية لم تعبأ بهذه المعاهدة التي ظلت حبراً على ورق.

واقتصر التوسع الاقليمي لشركة الهند الشرقية على سيلان، وجنوب

أفريقيا وجـاوة، وقنع الهولنديون في مناطق أخـرى، مثل سومطرة وسليبس Celebes على سبيل المثال بضمان الهيمنـة التجاريـة عن طريق المعـاهدات والعقود مع سـلاطين الساحل، وقـد أصبح أغلبهم توابع. ولم يمتـد سلطان الهولنديين بعيـدا داخل البر. وتدخل الهولنـديون بدايـة في سيلان (١٦٣٨) لمساعـدة راجا سنهـا الثاني ضـد البرتغاليين وللاستيـلاء على كل، أو بعض مقـاطعـات زراعـة القـرفـة في الجزيـرة. وانتهى الصراع مع الـوقت بطـرد البرتغاليين في عام ١٦٥٨ وأصبحت شركة الهند الشرقية السلطة المهيمنة على المقـاطعات السـاحلية وحـرمت ملك كـاندي مـن منفذ لـه على البحر. وكـان استعمار الهولنديين لجنوب أفـريقيا أمراً له خاصيته المميـزة في تاريخ شركة الهند الشرقية وهـو ما ناقشناه في البـاب التاسع، أما عن غزو جـاوة فقد بدأ بتـدخل ما يتسـوكر الحاكم العـام في سلسلـة من النزاعـات في امبراطوريـة مانـارام لمصلحة الحاكم الشرعي المعـزول شوشو نـان في عام ١٦٧٧. وبلغ الأمر ذروته بفرض السيطرة الهولندية على الجزيرة لمدة قرن من الزمان. ولم يخطط مجلس ادارة الـــ ١٧ عن وعي لهذا الغزو، إذ لم تكن لـدى المجلس أي رغبة في تحويل امبراطـوريتهم التجارية والبحـرية الى امبراطوريـة ممتدة في اليـابسـة ولكنهم شأن «أكلـة الجبن» في ليـدن هـول في أيـام كليف ووارين هاستنج ملتزمون عن طريق مستخدميهم في بـاتافيا بسلسلة من التدخلات في النزاعات المتبادلة بين حكام جـاوة، الأمر الذي أدى الى التحولات المذكورة، وكما قال لونـزر ابل في معرض الحديث عن شيء آخر في عـام ١٦١٤ : «بدأنا بجذب طـرف السلسلة فتوالت حلقاتها الـواحدة بعد الأخـرى.». وعلى الرغم من أنـه في القـرن الثامن عشر لم (تعـد أي من الشركـة الهولنـدية في جـاوة والشركة البريطانية في الهند اتحادين تجاريين) في الأساس بل أصبحتا قوتين استعماريتين اقليميتين، إلا أنه كـانت هناك فوارق واضحـة في طبيعة تحول كل منهما. إذ بينما نجد القـوة البحريـة البريطانية صـاحبت نمو قـوة شركة جون في الهنـد وفرضت عليها مظلة من الحمايـة نجد القوة البحـرية لكل من شركة الهند الشرقية والقوة البحرية لهولندا قد ضعفت كثيرا اثناء الصراع من

أجل جاوة. نعم ظلت سفن النقل التـابعة للشركة الشرقيـة والمتجهة إلى أرض الـوطن محملـة بشحناتها الكبيرة والغنيـة مثلما كـانت دائما، وإن أصبحت حمولتها مـن الشاي والبن والخزف أكثر منهـا من التوابل والنسيـج. بيد أن الهيمنة الهولندية على مياه الملايو وأندونيسيا تدهورت كثيرا في مناطق عديدة بسبب ازدياد التهريب والقرصنة زيادة رهيبة وكان الدافع الأساسي وراء هذا هـو السيطـرة التامـة لـلاحتكـار التجاري التي اتخذتها الشركـة الشرقيـة الهولنديـة سياسـة لها لتفرض بقـاءها في البحـار التي زعمت انها صـاحبة السيطرة عليها.

نقول ان هـذا هو الـدافع الأساسي وليـس الوحيد ذلـك ان تدهـور القوة البحريـة للشركة في الشرق كان نـاحية من النواحي انعكـاسا لتدهـور القوة البحريـة للمقاطعات المتحدة في أوروبـا إن الاسطول الذي كـان تحت قيادة ميشيل دي رويتر تحدى بنجاح اساطيل انجلترا وفـرنسا مجتمعين، مما كان تعبيراً عما كانت عليه في السابق بعد قرن من الزمان. وعلى الرغم من الخسائر التي منيت بها هولندا في الحروب الأوروبية خـلال النصف الثاني من القرن السـابع عشر، إلا أن تجارتها فيما وراء البحار في عـام ١٦٩٩ بلغت الدرجـة الثانية التي حققتهـا منذ خمسين عاما وقت نفاذ معـاهدة مونستر. ولكن مع الصراع الأخير ضد لـويس الرابع عشر، وهو الصراع الذي بـدأ في عام ١٧٠٢ وانتهى بعقـد معاهدة أوتـرشت (١٧١٣) أخفقت الجمهـورية الهولنـدية في تحقيق أهدافها. لقـد ضحت بقوة اسطولها بغية تمكينها من الـوفاء بتكاليف مجهود حـربي كبير على نحو لا يتنـاسب معها في الفلانـدرز وشبه جـزيرة أيبيريا. ولقـد اتبع سـاسـة انجلترا وهولنـدا سياسـة خاطئـة في سبيل اقناع البرتغال للانضمام الى الحلف الكبير بغية الاستفادة من لشبونة واستخدامها كقاعـدة للاسطول. وأدت هـذه السياسة الخاطئـة، بوجه خـاص، إلى تورط الحلفاء في عمليات توسـع، غير ضرورية لنطاق الحرب. وكان العبء ثقيلاً على النحو الذي جعل انجلترا تستجيب للمقترحات الفـرنسية من أجل السلم بعد

عام ١٧١٠، مما أدى الى تـراجع الجمهورية الانجليـزية ان تقترض بفائدة ٦ بالمائة في الوقت الذي اضطرت فيه هـولندا الى دفع ٩ بالمائة كسعر فائدة أعلى من أي سعر آخر منذ أيام أولدن بـارن فلت. وارتفع الدين الوطني لجمهورية هولندا، من ٣٠ مليون جلدر في عـام ١٦٨٨ الى ١٤٨ مليون قبل نهاية حرب الخلافة الاسبانية.

ولم تسهم المقاطعات الزراعيـة الأربع بأي مبلغ من المال من أجل صيانة الاسطول خلال الأعوام ١٧٠٦-١٧٠٧ و١٧١١-١٧١٢ وكـانت اسهاماتها المالية ضئيلـة جدا خلال الأعـوام الأخرى، ولهذا غـرقت المقاطعات البحـرية الخمس الأخـرى في الـديـون الى مـا قبل ١٧١٣. واضطـرت الأوليجـاركيـة الحاكمة بسبب هذه الديون الى الاقتصاد في نفقات الدفاع حتى بعد أن انتهت الحرب وبعد أن بـدأت التجارة الهولنـدية فيما وراء البحـار في الانتعاش من جديد. وأوضحت مشدودة اكثـر من ذي قبل الى سياسة السلم بأي ثمن، مع تجنب أي انفاق قد يـورِّطهم في فرض ضرائب جديدة على ما تقتضيـه صيانة اسطـول بحري كبير. وظلت المقـاطعات البحـرية غـارقة في ديـونها حتى ان القيادة البحـرية في روتردام لم تبن سـوى سبع سفن حربيـة على مدى ٢٨ عامـا (١٧١٣-١٧٤١)، ولم تمتلك ادميرالية نـورث - كوارتر سـوى ثلاث سفن في عام ١٧٢١، اثنتان منهما عمر الأولى ٢٠ عاما والأخرى ثلاثون عاما. هذا فيما عدا ادميرالية امستردام إذ أنها هي الـوحيدة التي سعت لتدبير المال اللازم لبنـاء ٣٣ سفينة فيما بين عامي ١٧٢٣ و١٧٤١ من بينها ٢٠ بـارجة تحمل ما بين ٥٢ و٧٤ مدفعا.

وإن السبب الـرئيسي لهذه الحالة غير المرضيـة كـان أحد العـوامل التي افسـدت وجود الجمهـورية الهولنـديـة في مجموعـة. إذ امتنعت المقاطعـات الزراعية عن سداد حصتها كاملة، فيما عدا فترات متقطعة ومحدودة، من أجل صيانة الاسطـول ومرافقة الشحنات التجارية لحمايتهـا. إذ رأى ممثلوها ان هذا امر يخص في جوهره هولندا وزيلاندا واعتقد مسئولو المقاطعات الزراعية

ان هاتين المقاطعتين، وخاصة هولندا، مسئولتان عن تمويل وبناء وصيانة الاسطول خصما من أرباح تجارتيهما البحرية. وإذا حدث وامكن اقناع ممثلي المقاطعات الزراعية في ادارة عموم الولايات بالموافقة على تخصيص مبلغ من المال للاسطول، وهو امر نادر الحدوث فإنهم لا يبذلون جهدا حقيقيا لانجاز وعودهم بعد عودة كل منهم الى مقاطعته. وإزداد هذا الوضع السيء تعقيداً خلال النصف الثاني من القرن الثامن عشر، وبخاصة في السنوات من ١٧٧٠ الى ١٧٨٠ عندما رفضوا جميعا بما في ذلك زيلاندا نفسها الاقتراع على أي مبالغ مالية لصيانة الاسطول. ولم يشأ أمير أورانج والمقاطعات الزراعية الموافقة على مقترحات هولندا بالتصويت على تخصيص ميزانية للاسطول إلا إذا تم انفاق مبلغ أكبر من المال على الجيش. ورفضت هولندا امستزام بخاصة – هذا الرأي، حتى عندما كان الفائض المقترح إنفاقه على الجيش مبلغا ضئيلاً نسبيا. والنتيجة السياسية لهذا المأزق انه لم يحدث شيء فعال من أجل تحسين وضع أي من الجيش أو الاسطول في الوقت الذي اطردت فيه الخصومات بين هولندا وبين بقية المقاطعات حول أيهما أجدر بالانفاق والدعم، الجيش والدفاعات الأرضية أم الاسطول.

وتجلى تدهور القوة البحرية الهولندية في الجانب التقني والاقتصادي وكذا في المجال البحري الخالص. إذ بينما كانت السفن الهولندية خلال النصف الأول من القرن السابع عشر مجهزة بشريا على نحو اقتصادي أفضل من منافسيها تلاشت هذه الميزة بعد مائة عام، ويحكي لنا الرحالة السويسري ك.ب. ثانبرج من واقع خبرته الشخصية ملاحظته التالية: لدى الهولنديين أيضا فرصة لكي يعمل على ظهر سفنهم عدد من الرجال أكبر من عدد العاملين على ظهر سفن منافسيهم من البلدان الأخرى، حيث ان حبال الأشرعة والصواري في سفنهم مصنوعة وفقا للطراز القديم ببكرات خشبية كبيرة وحبال سميكة فضلا عن أنها ثقيلة وفجة من جميع النواحي.»

إن هولندا التي احتلت ذات يوم طليعة تقنيات الملاحة في أعالي البحار وفي

انتاج الخرائط توارت وسقطت بعيداً وراء منافسيها من الانجليز والفرنسيين في كل هذه المجالات حتى قبل أن يخترع جون هاريزون الترونومتر وقال في هذا الصدد القائد البحري ستافورينوس «لنا أن نندب حظنا حقا إذ نرى جهازا قويا مثل شركة الهند الشرقية، التي يعتمد رخاؤها أساسا على الرحلات الآمنة الناجحة لسفنها، لم يشأ أن يجشم نفسه عناء العمل من أجل تحسين الملاحة بصورة عامة، وتصحيح خرائطهم بصورة خاصة. أنني لم استطع أن أحكي أمثلة كثيرة لاخطائهم سواء بالنسبة لجزر الهند أو ساحل افريقيا بينما نرى أمما أخرى سعت إلى تحقيق هذا الهدف بدأب لا يعرف الكلل. ويصدق هذا الرأي بوجه خاص على الانجليز الذين تفضل خرائطهم خرائطنا بما لا حدود له.».

أرجع ستافورينوس مسئولية تدهور البراعة الملاحية الهولندية أساسا إلى الروتين البيروقراطي لمديري شركة الهند الشرقية، التي أصرت على أن تتبع جميع سفنها مسارا محددا وثابتا تضمنته تعاليمهم الكتابية. وأشار إلى أن السفن التجارية الضخمة المملوكة للبلدان الأخرى «غير ملزمة باتباع تعاليم أو أوامر بحرية محددة فيما يختص بملاحتها، وتقوم برحلات أقصر كثيراً سواء من أو إلى جزر الهند الشرقية على عكس سفن الشركة. ومن ثم أيضا عانى قادة السفن الهولندية من القيود التي عاقت تحركاتهم فعجزوا عن إحراز تقدم مثلما فعل نظراؤهم فيما يتعلق بتحسين الملاحة: وفي رأيي ان الانجليز والفرنسيين وغيرهم تجاوزوا كثيراً في مجال التحسينات والاكتشافات الجديدة .. الخ على الرغم مما يمكن أن يقال من أن شركة الهند الشرقية تعتبر معهداً لتخريج بحارة متميزين، ومدرسة لأعظم التحسينات البحرية في ضوء عدد السفن والرجال العاملين فيها، والمسافات التي تقطعها رحلاتها، فضلاً عن تنوع هذه الرحلات.» وإن حديث ستافورينوس عن طريق الملاحة البالية والمضيعة للوقت والتي كانت لا تزال القاعدة المتبعة من جانب سفن التجارة الهولندية في أيامه وعصره، هذا الحديث أكدته بوضوح

تعليقات وليام هيكي بعد رحلته التي عاد بها من رأس الرجاء الصالح إلى أرض الوطن*.

كان الهولنديون يوما روّاد بناء السفن في العالم ولديهم أمهر المتخصصين في صناعة وتجارة وترميم السفن حتى ان كزار بيتر الأكبر ظل يزهو بدراسة فنهم حتى عام ١٦٩٧. ولكن بعد هذا التاريخ بثلاثين عاما اضطر الهولنديون الى ان يلجأوا لصنّاع السفن الانجليز ليعلموهم الفن المتقدم. ففي حرب ١٦٧٢–١٦٧٤ كانت السفن الهولندية الحربية تطلق من مدافعها طلقات بمعدل ثلاث طلقات مقابل طلقة واحدة من سفن خصومها الانجليز والفرنسيين وإذا بالوضع ينقلب الى النقيض تماما في عام ١٧٤٦ حسب شهادة ضباط الاسطول الهولندي انفسهم.» كذلك فإن سفن صيد الحيتان في القطب الشمالي التي كانت تضم ٢٦٠ سفينة هولندية و١٤ ألف بحار في نهاية القرن السابع عشر أصبحت تستخدم فقط حوالي ٥٠ سفينة بعد مائة عام. ويرجع التدهور جزئيا الى التزاحم على الصيد كما يرجع الى منافسة الأمم الأخرى. وشهدت السنوات التي تلت معاهدات أوترشت تدهوراً مطرداً في أعداد البحارة الهولنديين المتاحين للخدمة في الاسطول وفي رحلات المحيطات وأصبح هذا التدهور أكثر وضوحاً بعد عام ١٧٤٠. وعندما قررت ادارة عموم الولايات إصلاح وتجديد اسطول يضم ٢٠ سفينة شراعية اضطر متعهدو توريد البحارة الى التوجه الى هامبورج وبريمين وكوبنهاجن وغيرها من الموانىء الأجنبية لتوفير العدد اللازم. ولكنهم اضطروا الى توفير العاملين اللازمين من بين السجناء الذين اعتادوا الإجرام من سجن امستردام. وتأثرت شركة الهند الشرقية أيضاً بهذا التدهور على نحو ما يبين من شكوى الحاكم العام البارون فان امهوف في السنة نفسها والتي قال فيها: «أخشى أن أفصح عن الحالة التي آلت اليها امورنا لأن ذلك أمر مخجل.. كل شيء ناقص، السفن

* C.P. Thunberg; Travels in Europe, Africa, and Asia; 1770-1779 (4 Valo) London, 1795 Val. I; pp. 113.

الصـــالحة، والرجــال وضبــاط البحريــة وهكــذا نجــد أن واحداً من العمــداء الأســاسيين لسلطة الأراضي المنخفضة يهتز ويوشك أن ينهار.»

ليس هدفي أن استنتج من الشكاوى سالفــة الذكر التي جاءت على لسان المعاصرين لتلك الفترة أن التجارة الهولندية عبر البحار تدهورت لتغدو شيئاً غير ذي بال، أو أن مجتمعات الصيد والبحر تــلاشت مع نهاية القرن الثامن عشر. بل على العكس، فإن حجم التجــارة البحريــة الهولنديــة ظل كبيراً حتى عام ١٧٨٠ كما وأن مصايــد بحر الشمال وصناعة صيــد الحيتان في القطب ظلت كما كانت مهــد تفريخ للبحــارة الجدد. ولكن إذا نظرنا إلى الأمــور نظرة نسبيــة نلحظ ان الاسطول الهولنــدي وصناعــة السفن والتجــارة البحريــة الهولندية اصابتهــا جميعاً بالفعل حالة من التدهور بمقارنتهــا بالتقدم الذي أحرزه منافسو هولندا من الانجليــز والفرنسيين وبلدان بحر البلطيق. علاوة على هذا فإن تــزايد النقص في البحــارة الهولنديين لم يكن أمراً نسبيــا على ما يبدو، بل حقيقة مطلقة، وربما كان ستافورينوس مبالغا الى حد ما عندما أدان في أسى هذا التدهور بعبارته التالية. ولكن المؤكد انه لم يكن مفرطا في مبالغته «منذ سنوات طويلة، كان من اليسير الحصول على الأعداد الكافية من البحارة المهرة، دون ان نضطــر الى الاستعانــة برجــال قليلي الخبرة ليشغلوا الأمــاكن الشاغــرة على ظهر السفينــة. ولكن منذ عــام ١٧٤٠ كثرت سفن الأســاطيل الحربية، وزادت كثيرا التجارة والملاحة، خاصــة في بلدان أخرى عديدة، حيث كانت هذه الأعمال في الماضي لا يقبل عليها إلا القليلون. وترتب على هذا ان زاد الطلب زيــادة كبيرة ومطردة على البحــارة الأكفــاء سواء للسفن الحربيــة أم للسفن التجــارية. وأدت هــذه الزيــادة الى نقص كبير في أعداد المعــروض من البحارة. وهكذا نجد كل سفينة في بلــدنا لا تحصل على العدد المناسب لها من البحارة إلا بشق الأنفس وبتكلفة باهظة بعد أن كان بلدنا في السابق مشهوداً له بالوفرة الكبيرة في بحّارته.*

* J.S. Stavorinus, Vayages to the East-Indies. Val. III, pp, 406-7.

وعلى الرغم من توافق آراء معاصري هذه الحقبة بشأن إدانتهم لتدهور القوة البحرية الهولندية، وتدهور معايير فن الملاحة وتقنياته في النصف الثاني من القرن الثامن عشر إلا إنهم لم يجمعوا، في رأيهم بشأن تفسيرهم لأسباب ذلك. كما قال أمير أورانج في ملاحظته عن ندرة البحارة عند نشوب الحرب مع انجلترا في ديسمبر ١٧٨٠، إذ يقول: «في القرن الماضي كان الأجر الذي يتقاضاه الرجل العادي أقل مما هو الآن بوجه عام، وكان عدد السكان أكبر والفقر اكثر انتشارا مما عليه حالنا اليوم. ولهذا كان يسيرا تدبير العاملين في خدمة البحرية. وهذه المزاعم جميعها يمكن مناقشتها والشك فيها بدرجة أو بأخرى. ولكن، وكما أوضح دي بوش كمبار، من الأهمية بمكان بيان أن المجلة الأسبوعية De Post van den Neder-Rijn المناهضة لآل أورانج والتي انتقدت بشدة وعنف الأمير فيما يختص بموضوعات أخرى لم تقدم سوى دفع ضئيل لحججه التي ساقها في عرضه لهذه الحالة تحديداً. وهذا أمر يثير الدهشة نظراً لأن جميع الشكاوى التي عرض لها كُتَّاب العقد الثامن (١٧٧٠-١٧٨٠) تحدثت عن البطالة والفقر في المقاطعات المتحدة وأنهما باتا أخطر وأوسع انتشارا مما كان عليه الحال في أي وقت مضى منذ توقيع معاهدة مونستر.

إن تزايد نفور – أو عجز – أبناء الطبقة العاملة الهولندية عن التماس أسباب معيشتهم ورزقهم في البحر خلال القرن السابع عشر، أيا كانت الأسباب، اقترن بتحول في عقلية ونظرة الأوليجاركية الحاكمة. إذ بعد أن كانوا معنيين مباشرة بالتجارة عبر البحار بصورة أو بأخرى طوال الشطر الأكبر من القرن السابع عشر، نجد بعضهم أصبح من ذوي الأملاك المعتمدين على عائد هذه الأملاك والبعض الآخر لم يقنعوا بهذا فحسب وانما أصبحوا من ذوي الأملاك ولديهم ميل الى استثمار الجزء الأكبر من رأسمالهم في استثمارات مالية أجنبية. وأكدت تقارير مجلس العموم البريطاني في عام ١٧٣٧ ان الهولنديين يسيطرون على ما يقرب من ٢٢,٧ بالمائة من الدين

العام لانجلترا، وثبت أيضاً، بتأكيد يكاد يرقى الى مستوى التأكيد الأول، ان المستثمرين الهولنديين سيطروا في عام ١٧٥٨ على ثلث أسهم بنك انجلترا وشركة الهند الشرقية الانجليزية والبحر الجنوبي. وساد اعتقاد آنذاك، وان لم يكن دقيقا تماما، أن الهولنديين يسيطرون على ثلث مجموع الدين الانجليزي. وفي عام ١٧٦٢ أفاد مصرفي حسن الاطلاع من روتردام في حديثه الى زميل له ان الهولنديين يسيطرون على ربع الدين الانجليزي الذي يبلغ مجموعه وقتذاك ١٢١ مليون استرليني. وبعد عشرين عاما قدر فان دي سبيجلي، أحد رؤساء البلدية، الاستثمار الهولندي الأجنبي بمبلغ ٣٣٥ مليون جلدر منها ٢٨٠ مليون جلدر (أي حوالي ٣٠ مليونا بالعملة الأنجليزية) في انجلترا و٥٥ مليونا في بلدان أخرى.

واختلفت الآراء بشأن دقة هذه التقديرات، وغيرها. وتشير أبحاث حديثة بما يفيد أن عددا قليلاً نسبياً من الرأسماليين الهولنديين هو الذي ركز استثماراته في الخارج، بل إن هذا الفريق استثمر أكثر من نصف ثروته في الداخل. ولكن سواء أكان استثمار رأس المال الهولندي في داخل البلاد أم خارجها فإنه كان يعطي قرضا لرجال المصارف وتجار العملة، أو يستثمر في الأراضي أو المراهنات في مستعمرات جزر الهند الغربية بدلاً من استثمارها في تطوير الصناعات الوطنية في الداخل أو في دعم صناعة السفن الهولندية. وكانت امستردام هي سوق مال العالم الغربي، بيد ان الكثيرين من الأوليجاركية الحاكمة كانوا من أصحاب الأملاك الأثرياء وكبار رجال المال الذين اتخذوا لأنفسهم كيانا متميزاً عن الطبقة التجارية التي انبثقوا منها. ولا ريب في ان نظرتهم الاقتصادية الجديدة أثرت على سياستهم الخارجية. ومن ثم فإن النقص الخطير في البحارة الأكفاء، علاوة على ضعف الاسطول، جعل الحياد بالنسبة اليهم ضروريا أكثر مما كان الحال بالنسبة لأسلافهم أصحاب المشروعات في عهد جوهان دي ويت وبيتر دي لاكور.

لهذا قد ندهش، عند الوهلة الأولى، ان اضطر الهولنديون الى توريط

انفسهم في حرب مع انجلترا في ديسمبر ١٧٨٠ وهم ليسوا على استعداد لها عسكريا واقتصادياً، إذ اعتادوا ان يقيموا سياستهم الخارجية على أساس من التحالف مع انجلترا والخوف من عدوان فرنسا، خاصة في الأراضي المنخفضة الجنوبية حيث أقاموا حاجزهم الشهير - وغير المجدي في الوقت ذاته - من القلاع البلجيكية وحاميات المدن العسكرية بموجب شروط المعاهدة التي تم توقيها في انتويرب عام ١٧١٥. وعلى الرغم من خطورة وضع قواتهم المسلحة وشكاواهم العديدة ضد انجلترا بسبب تدخل الاسطول الملكي واعتراضه لسفنهم المحايدة، فإن إدارة عموم الولايات أقدمت باخلاص على مساعدة الحليف في عامي ١٧٤٤-١٧٤٥ وجرّوا على أنفسهم نتيجة لذلك خطر الغزو الفرنسي لهم. والجدير بالذكر ان اعتراض الانجليز للسفن الهولندية المحايدة، وأسر بعض هذه السفن خلال حرب السنوات السبع، أثار سخط واستياء جميع الطبقات في الأراضي المنخفضة الشمالية باعتباره نكرانا لجميل هولندا وولائها لحليفها الانجليزي على مدى عشرين عاما سابقا. ويلاحظ ان المشكلات التي تورطت فيها انجلترا إثر اندلاع الثورة الأمريكية في عام ١٧٧٦ وبخاصة تأسيس الحياد المسلح Armed Neutrality في عام ١٧٨٠، هيأ للهولنديين فرصة لزيادة تجارتهم البحرية على حساب الانجليز، وبدت هذه الفرصة في نظر قطاع من المجتمع التجاري اغراء لا يمكن مقاومته.

وعمد فريق من تجار امستردام وطبقة الحكام الى حث ولايات هولندا على التصويت تأييدا لسياسة فرض حماية عسكرية دون حدود للسفن الهولندية في البحار في عام ١٧٧٩. وتولد هذا الاتجاه نتيجة أسباب عديدة أحدها اعتقاد خاطىء بأن انجلترا لن تورط نفسها في حرب مع قوة أوروبية أخرى علاوة على فرنسا وأسبانيا، وثانيها الاعتماد المبالغ فيه على مساندة محتملة من روسيا ومن قوى أخرى محايدة؛ وثالثها، وهو السبب الأساسي، الغضب الشديد وهو أمر طبيعي، من اعتراض الانجليز للسفن الهولندية والاستيلاء على بعضها. ولكن بعض حكام المدن وبعض آل أورانج الذين اعتادوا النظر

الى الحليف الانجليـزي باعتبـاره الملاذ الأخير ضد أي غـزو فرنسي وانصـار البابوية استنكروا هذا التحول الذي أدانه أيضا قلة من أصحاب النظر البعيد الـذين أدركـوا ان انجلترا ســوف تفضِّل الحرب على أن تتنـازل عن حقهـا، المختلف عليه، في تفتيش السفن الهولندية بحثا عن سلع بحرية حربية مهربة. وكانت الحرب الناجمة عن ذلك كـارثة مدمرة للهـولنديين، وأفضت، بصورة غير مبـاشرة إلى خـراب شركة الهنـد الشرقيـة الهولنـدية فضـلاً عن انهيـار الأوليجـاركية الحاكمـة. بيـد أن هذا لا يغيِّــر من واقع الأمـر شيئاً وهـو أن الفريـق الذي نادى بـالحرب لم يكن فقط فريق تجار امستردام وسيـاستهم الداعية الى فرض حماية عسكرية مطلقة لسفنهم، بل وأيضاً فريق «المواطنين» الزائفين أو الطبقة الوسطى الممالئة لفـرنسا واعتادت ان تنتقد الارستقراطية الحاكمة مثلما انتقدت العامة أو البروليتاريا الموالية لأسرة آل أورانج.

الباب الخامس

الكسب والورع

أ – في أرض الوطن

عندما رفضت عموم الولايات بأدب، ولكن بحزم، اقتراح أوليفر كورومويل لعقد حلف هجومي انجليزي – هولندي ضد اسبانيا والبرتغال بهدف تقسيم الامبراطوريتين الاستعماريتين في شبه جزيرة ايبيريا بين الدولتين البروتستانتيتين، أشار الدكتاتور الانجليزي بمرارة إلى أن الهولنديين آثروا الربح المادي على تقوى الله. وهذا هو عين التأنيب الذي قيل غالبا بصراحة في حق سكان المقاطعات المتحدة إبان قرنهم الذهبي ولم يخجل منه أكثرهم. وعلى غرار هؤلاء المتربحين الساعين إلى الكسب في نهم ودون خجل كان تاجر من امستردام والذي قال في مواجهة حاكم المدينة في عام ١٦٣٨ إنه لن يستمر فقط في تجارته مع مقاطعة انتويرب، العدو اللدود لامستردام، بل انه لو استطاع ان يحقق ربحا تجاريا من خلال المرور عبر الجحيم فإنه لن يتردد عن المخاطرة بإحراق أشرعة سفنه سعيا لهذا الربح.» وتغنى فونديل بأغنية لأبناء امستردام وجيل عصره قال فيها «حباً بالكسب نستكشف موانىء العالم الواسعة». ولعل من المناسب أن نعرض في إيجاز في هذا الفصل صورة للطريقة التي واءم بها الهولنديون بين التعاليم الأخلاقية لعقيدة دينية تعزف عن الحياة الدنيا باعتبارها متاع الغرور وبين ممارسات المؤمنين بها سعيا الى امتلاك امبراطورية تجارية تشمل العالم كله. وأرى أن أناقش في إيجاز أيضاً إلى حد ما كيف طرأت تحولات بسبب البحر على الكالفنية حين انتقلت من جنيف إلى المنطقة الاستوائية عبر دودرشت.

على الرغم مما يقال ويتردد كثيراً من أن الكالفنية هي دين الرأسمالية وعقيدتها، إلا أن ثمة تبريراً بسيطاً ومهما لهذه النظرة. لقد كانت الأغلبية

العظمى من رجال الدين الهولنديين الكالفنيين في القرن السابع عشر من أبناء الطبقة الوسطى والطبقة العاملة، ولديهم في مجموعهم، انحياز عميق مناهض للاقتصاد أو الاستثمار المربح، وغلب عليهم طابع اللامبالاة حين كانوا عمليا غير معادين لسياسة الحكام التي تسعى الى التفوق التجاري وتحقيق رغبة التجار في تأمين أسواق جديدة مربحة مهما كان الثمن. ونازع هذا الاتجاه قسيس وعالم دين بارز من زيلاندا هو جود فريد أوديمانز God Fried Udemans وذلك في كتابه «المرشد الروحي لسفينة التاجر» الذي أهداه إلى مديري شركتي الهند الشرقية والغربية وصدرت منه ثلاث طبعات فيما بين عامي ١٦٣٨ و١٦٥٥. ومن المهم الاشارة الى أن أوديمانز وجد من الضروري في كتابه هذا أن يسوق الحجج المستفيضة ليؤكد على مدى صفحات عديدة، مستنداً إلى الكثير من آيات الكتاب المقدس، أن مهنة التاجر ليست عملا غير مشروع ولا هي بالعمل الوضيع بل تتسق تماما مع الممارسة العملية للمسيحية شريطة التزام الأمانة. ودون الحصول على ربح حرام أو فيه مغالاة. ويؤكد أوديمانز كذلك ان التجارة عبر البحار تهيىء سبيلاً متميزة لنشر نور الانجيل الحق، ومن ثم يتعين العمل بإخلاص من أجل تعزيزها من قبل جميع المؤمنين أهل التقوى والورع. ويرهق نفسه من أجل تبرير انشاء شركتي الهند الشرقية والغربية وتوسعهما في جزر الهند الشرقية والغربية. ويرتكز في تبريره أحيانا على حجج حق الدفاع عن النفس ضد الملكية الدنيوية الكاثوليكية في ايبيريا، ويرتكز أحيانا أخرى على القول بأنها منفذ لفائض رأس المال والعمالة الهولندية. ويثبت أن غزوات الشركتين عمل شرعي تماما ولا بد من الحفاظ عليها مهما كان الثمن، وان العون الالهي يتحقق بفضل زيادة التأييد للبعثات الكالفنية الى بلدان عبدة الأوثان. ولكن أوديمانز استثناء بين رجال الدين. ذلك ان قليلين من رجال الدين في هولندا هم الذين كشفوا بوضوح عن اهتمام بتوسع بلدهم عبر البحار، وكرسوا جهودهم ومواهبهم في فقه الدين والمجادلة من أجل الهجوم على كنيسة روما، أو ضد دعاة العماد الجديد أو موقف الأوليجاركية الحاكمة المناهض لآل أورانج أو

قضايا الأبرشيات المحدودة الأفق.

إن كتابا كثيرين في الماضي والحاضر، رأوا في الكالفينية القوة الدافعة الرئيسية للتوسع التجاري الهولندي النشيط، وللازدهار الثقافي في هولندا باعتبارهما قسمين بارزين على مسرح أحداث القرن السابع عشر. أما عن القول بأن الكالفينية أدت دوراً عظيما، فهذا ما لا خلاف عليه. أما عن مساهمتها فهو أمر بولغ فيه كثيرا. إن العديدين من أعظم شخصيات الفن والأدب في هولندا خلال القرن الذهبي، بما فيهم جروتيوس ورمبرانت وفونديل – اكتفاء بأبرز الأسماء – لم يكونوا أعضاء الكنيسة الكالفنية السائدة. وإن بعض البروتستانت من راسخي الايمان الذين لا يتطرق شك الى عقيدتهم، من أمثال جوهان فان أولدن بارنفلت وجوهان دي ويت كانوا كثيراً ما ينتقدون الوعاظ الأورثوذوكس ويتلقون منهم بالمثل انتقادهم. وإذا حولنا انظارنا الى كبار القادة البحريين في القرن السابع عشر نجد ان ثلاثة منهم، وهم بييت هين ومارتن ترومب، وميشيل دي رويتر كانوا كالفنيين جادين يخشون ربهم يعكفون على قراءة الانجيل كتابا مفضلاً لديهم، ولكن السؤال كم من زملائهم ورؤسائهم يمكن أن نقول عنهم نفس هذا الكلام؟ ولسنا بحاجة إلى اتهام دو ميني أو ديمانز بأكثر من المبالغة المعتدلة عندما أكد أن كثيرين من البحارة الهولنديين لم يكونوا يعرفون عن الانجيل اكثر مما كانوا يعرفونه عن القرآن. أما عن شركة الهند الشرقية فإن اثنين من أعظم الحكام العامين في باتافيا، وهما كوين وفان ديمين، كانا من أنصار الكنيسة الاصلاحية الجديدة المخلصين بيد أنهما لم يكفا عن الشكوى من أن الأغلبية الساحقة لأبناء بلدهم الموجودين في آسيا يمكن وصفهم بأي شيء إلا أنهم مؤمنون صادقو الايمان. إذن لم تكن الكالفنية هي القوة الدافعة وراء التوسع الهولندي عبر البحار وهناك قوة قوامها «حب الربح» سادت بين التجار مقترنة بخطر البطالة بل والموت جوعا الذي هدد الكثيرين من طائفة مجتمع البحارة في أرض الوطن.

«الذهب الهكم الذي تعبدون» هذا ما قاله زنوج غرب أفريقيا للتجار الهولنديين في غينيا في أوائل القرن السابع عشر. وكانوا بقولهم هذا أسبق من شارل العاشر ملك السويد الذي أخرج من جيبه دولاراً وقال لمبعوث هولندي أبدى بعض الملاحظات بشأن حرية العقيدة الدينية «هذا هو دينكم». والجدير بالذكر أنه على مدى قرنين من الزمان هما عمر شركة الهند الشرقية. نجد أن أقل من ١٠٠٠ واعظ غادروا المقاطعات المتحدة للخدمة في الشرق، وعاد أكثرهم إلى الوطن بعد سنوات قليلة. وهذا الرقم الضخم على نقيض عدد أقل كثيراً من رجال الدين ساندتهم شركة الهند الشرقية الانجليزية في الهند. ولكن هذا يشير إلى أن روح التبشير ليست شديدة الوضوح في الكالفنية. على العكس من هذا تماما، وبصورة لافتة للنظر، الآلاف العديدة من المبشرين الذين أرسلهم ملوك اسبانيا والبرتغال إلى ما وراء البحار. ولهذا لم تكن في الأراضي المنخفضة الشمالية وظائف كثيرة دينية بروتستانتية. إذ لم يكن هناك أكثر من ٢٠٠٠ واعظ تقريبا في جميع المقاطعات السبع في أي وقت من الأوقات على مدى قرنين من الزمان أو أكثر.

ويجب أن نميز أيضاً بين أهمية الكالفنية قبل وبعد مجمع دوردرشت الكنسي في عامي ١٦١٨-١٦١٩، الذي يعد معلما فاصلاً في التاريخ الديني للمقاطعات المتحدة، ان الكالفنية التقليدية «الأرثوذكسية» بتأكيدها على التدبير الالهي المسبق بمعناه الدقيق والخاص، وقصر الخلاص على النخبة التي اصطفاها الله، كانت حتما عقيدة الأقلية من الصفوة. ولكن على الرغم من أن الكالفنيين النشيطين بين الفرق المعروف باسم «شحاذو البحار» قاموا بدور هام في ثورة الأراضي المنخفضة، إلا أنهم لم يكونوا هم أول فريق، ولا الفريق الوحيد الذي كان مقدراً أن ينفصل تماما عن كنيسة روما. إذ من المؤكد ان اتباع لوثر والمعمدانيين وغيرهم ممن لم ينتموا إلى ملة أو نحلة عقائدية محددة بل كانوا فقط غير راضين عن العقيدة في صورتها القديمة لسبب أو آخر، كانوا كثيرين في مجموعهم قبل عام ١٥٨٠. وان مارنيكس فان

سانت أليجونـد، الكاتب الكالفني ومؤلف الكتاب البـذيء «خلية نحل كنيسة رومـا المقدسـة» في عام ١٥٦٩، لم يكـن مخطئاً تمامـاً حين لخص المشاعـر البروتستانتية الأولى في الكلمات التالية:

«صفوة القول، إن كل قداسة كنيسة روما الكاثوليكية تهاوت في الرماد». ففي هـذاالمكـان مـا كنت تسمع شيئاً سـواء في داخل المدن أم خـارجهـا غير الانجيل أو القديس بولس. لم يكن الناس ليعبدوا غير الله وحده، وليس لهم أن يتخذوا وسيطاً آخر بينهم وبين يسوع المسيح، ولا أن يأتمنوا أو يثقوا في شيء غير حسناتـه وأفضالـه: لا يفرحـون ويتهللون إلا في صلبـه وموتـه وآلامه. التقدير والاكبار فقط للقربان المقدس والعماد والعشاء الرباني، ويفعلون هذا الشيء ذاته في بسـاطة كبيرة دون احتفـالات مهيبة، وفي بـراءة من وسـوسة الشيطان. كفوا عن الذهاب لالتماس الغفران من أبيهم الوهمي، بل يلتمسونه من الله في السموات أو أمـام محفل الكنيسة جمعاء. كفوا عن سـؤال الغفران، وكفـوا عن دعاء النفـوس الخبيثة الـراقـدة في المطهر، وإنما كل امـرىء يقيم صلاتـه استنادا إلى الكتـاب المقدس. لن يعترفـوا بزعيم اسمـى للكنيسة غير يسـوع المسيح ابن الله. أسـاقفتهم يـدينـون اسم قضـاة محاكم التفتيش ويستنكـرون أن يعظ هـؤلاء بـالانجيـل، وأن عليهم أن يترجلـوا عن خيـول كبريائهم المطهمـة ويسيروا على الأرض وينظروا بتقدير إلى كل أنـواع اللحوم الطيبة المشروعة. ويبدأوا الحمـد لله والصلاة له بلغة وطنهم. لا يأبهون كثيراً لأكل اللحم في أيام الصيام بل ولا حتى في يوم الجمعة الحزينة. «جماع القول أنهم سلكوا طريقهم نحو صياغة جـديدة لعقيدتهم ونظامهم الكنسي وهو ما لا نرى لـه مثيلاً في كنيسة رومـا المقدسة ولا عنـد آبائنا الأولين. لقـد عقدوا عزمهم على أن يستعيدوا كل ما كان عليه القديسون والرسل الأوائل».

لا نجد هنا ذكرا للتـدبير الآلهي المسبق، وانما التركيز على الكتاب المقدس باعتباره السلطة الوحيدة فضلاً عن نفي أي وساطة لرجال الدين بين الانسان والله. وان البروتستانتيين على اختـلاف مشاربهم متفقـون على هذا من حيث

المبدأ وان اختلفوا، وقد اختلفوا بالفعل، وتباينت آراؤهم كثيراً في قراءتهم وتفسيرهم.

ولم يكن الكالفنيون النشيطون سوى أقلية ضئيلة وقتما كان فريق «شحاذي البحار» يجوبون معظم أنحاء هولندا وزيلاندا في عام ١٥٧٢، واستطاعوا تعزيز سلطانهم بعد استيلائهم على المدن بالقوة أو بالترهيب، وذلك لأنهم كانوا الفريق الوحيد المسلح بين المتمردين والسكان عامة. ورأينا انهم عمدوا إلى بذل كل ما بوسعهم إلى طرد القساوسة والمتدينين أتباع كنيسة روما الكاثوليكية، على الرغم من نزوع وليم أورانج شخصيا وآخرين إلى اتباع سياسة تسامح ديني. ولكن ما مضى بعض الوقت إلى حين أن تمكن الكالفنيون من إبدال مراتب السلطة الدينية الكاثوليكية الرومانية بنظام خاص بهم لرجال الدين. وعلى نقيض ما حدث في انجلترا وفي اسكنديناوة وفي بعض أنحاء ألمانيا فإن رجال الدين الهولنديين اتباع الكنيسة الكاثوليكية الرومانية في سبعينيات القرن السادس عشر لم يغيروا مذهبهم إلى البروتستانتية بعد مقاومة رمزية وبأعداد كبيرة. ويذهب البعض في تقريره لاجمالي عدد من تحولوا إلى البروتستانتية بحوالي من ٥ إلى ١٠ بالمائة وأن الأغلبية العظمى إما لاذوا بالفرار أو طردوا أو لاقوا مصرعهم. وهكذا فإن الكنيسة الكالفنية في الأراضي المنخفضة صاحبة «العقيدة المسيحية الاصلاحية». كان لزاما عليها أن تبدأ من جديد وتشق طريقها عنوة، إذا جاز هذا التعبير، ولم يكن بمقدورها أن تبني كنيستها فوق أساس سابق من قساوسة مرتدّين عن الكنيسة الكاثوليكية الرومانية. وطبيعي أنه كان هناك عدد غير قليل من القساوسة البروتستانتيين الذين تلقوا تدريبهم الفقهي في جنيف وبازل وزيوريخ وغيرها ولكن لم يتحقق هذا في وقت مبكر يكفي لكي يحلوا محل «أبناء الشيطان» الذين طردوهم وتخلصوا من سلطاتهم. وتأسست جامعة ليدن (٢ يونيو ١٥٧٢) أساسا بهدف توفير العدد اللازم من الوعاظ الذين تلقوا قدراً طيباً من التعليم ولكن مضت سنوات قبل أن

تحقق الجامعة الهدف المرجو منها. والملاحظ ان عدداً قليلاً جداً من أبناء أسر الشريحة العليا من الطبقة الوسطى هم الذين استهوتهم وظيفة الوعظ والقيام بدور قسيس. هذا إن كان هناك أصلاً من قبل منهم هذا العمل، الذي يتقاضى عليه راتباً ضئيلاً جداً. وكان سكان المدن من أبناء البرجوازية يكرهون ولا يثقون في الوعاظ من أبناء البروليتاريا الذين يلقون عظات ارتجالية من نصوص مختارة اختياراً سيئاً فضلاً عن ميلهم إلى المطالبة بالعدالة الاجتماعية للطبقات الدنيا. وان تدفق الكثيرين من الكالفنيين الذين تلقوا تعليما جيداً في الأراضي المنخفضة الشمالية، في عام ١٥٨٥ وما بعدها، وكذا انتصار الكالفنية النشطة في مجمع دوردرشت الكنسي، كل هذا ساعد على تحسن المكانة الاجتماعية للوعاظ، ومنذ ذلك الحين بدأت السلطات السياسية تبدي نحوهم قدراً كبيراً من الاحترام، ومن ثم احتلوا مكانا عاليا في ترتيب الأسبقية في مجال الوظائف الرسمية والخاصة. ولكن من المهم أن نلاحظ أنه على الرغم من أن طبقة حكام المدن حرصوا على أن يشغلوا المراتب العليا في قوات المدن العسكرية إلا أنهم أبوا تماما أن يتلقى أبناؤهم تعليما يؤهلهم لشغل منصب رجل دين ولم يشجعوهم أبدا على العمل وعاظا.

وما أن تخلص الكالفنيون من البابويين وطردوهم حتى شرعوا في تأسيس تنظيمهم الكنيسي الخاص بهم، فكل أبرشية لها مجلسها الكنيسي الخاص بها الذي يضم قساوسة ورجالا من العامة البروتستانتيين ويتولى الواعظ رئاسة المجلس. وتتجمع الكنائس في مجموعات تمثل هيئة رئاسية أو محفلاً قيادياً. وتؤلف المحافل القيادية لكل من المقاطعات السبع مجمعاً كنسياً – وكان هناك مجمع لكل من شمال وجنوب هولندا. وتجتمع هذه المحافل من حين إلى آخر وتميزت بدورها النشط في الضغط على زملائهم سكان المدن وحملهم على الانضمام إلى الكنيسة الرسمية. ومن المفهوم تماما أن أهم ما كان يشغل بالهم هو تحويل الجيل الجديد من الشباب. وجاهدوا ابتداء من عام ١٥٧٤ من أجل تحويل أبناء العاملين في الريف والمدن إلى

البروتستانتية عن طريق السيطرة على المدارس الابتدائية في هذه المناطق وتم تحويل معظم الأديرة الكاثوليكية الرومانية السابقة والعديد من البنايات الضخمة الأخرى إلى مدارس لتلقين التعاليم الدينية الأولية. وتولى التعليم في هذه المدارس مدرسون اختبرهم الوعاظ والمجالس الكنسية المحلية للتأكد من حسن عقيدتهم والتزامهم. وسعى الوعاظ جاهدين لحث الأوليجاركية الحاكمة على حظر ممارسة شعائر العقيدة الكاثوليكية الرومانية، وعدم تشجيع جميع أشكال الانشقاق البروتستانتي سواء أكانوا من أتباع مذهب أرمينيوس أم المعمدانيين أم اللوثريين. واستغرق هذا وقتا بطبيعة الحال. ففي عام ١٥٨٧ أكدت المحكمة العليا في هولندا لابرل ليشتر ان أغلبية السكان «ما زالوا ميالين بقلوبهم إلى العقيدة الكاثوليكية الرومانية». والجدير بالذكر هنا أن ديريك فولكرتس كورنهرت الكاثوليكي الليبرالي وصف في صراحة نزقة، في إحدى كراساته التي يدعو فيها الى التسامح الديني، الاصلاحيين بأنهم «أصغر عصبة حتى الآن» وبعد بضع سنوات زعم أولدن بارنفلت أن أفضل العناصر وأكثرها ثراء من بين سكان المدن البرجوازيين لا يزالون مخلصين للعقيدة القديمة. بيد أن هذه الآراء، وأمثالها يجب ألا نأخذها مأخذ الجد. غير أنها لم تكن مهمة يسيرة على الوعاظ المتحمسين والمجامع الكنسية أن يفرضوا على مواطنيهم عشاق المتعة ومدمني الشراب (وربما العمل الشاق) قواعد عقيدة جان كالفن وتيودور بيز بما تحمله من فروض قاسية ومحظورات متزمتة.

ولكن الوعاظ وأنصارهم بين أبناء الطبقة الحاكمة - الذين كانوا أقلية ولكن ذوي نفوذ أحيانا حتى في امستردام حيث كان الله في المرتبة التالية لشيطان جمع المال - ظلوا ضاغطين في سبيل الهدف المرسوم. وحقق لهم عنادهم تدريجيا النتائج المرجوة. وأعانهم على هذا كونهم أشد الدعاة المتحمسين للحرب ضد أسبانيا التي نظروا اليها باعتبارها حربا صليبية ضد أعداء المسيح. ولم يسمع الحكام من ذوي الفكر المتفتح إلا أن يشددوا

النكير عليهم. واعتبر الكالفنيون المتحمسون توقيع هدنة الأثني عشر عاما في ١٦٠٩ أحد أمرين إما أنه ضعف مزر أو خيانة عظمى. وازداد استياؤهم بسبب مساندة أولدن بارنفلت وكثيرين من الحكام لتعليم أرمنيوس وقد كان بارنفلت استاذ فقه الالهيات بجامعة ليدن صاحب آراء عن التدبير الإلّهي المسبق أكثر اعتدالا من الكالفنيين المتشددين. وأدت الخلافات السياسية إلى زيادة حد الانقسام بين المعترضين ومناهضي المعترضين، أو أتباع ارمنيوس وأتباع خصمه الرئيسي جومارس كما كانوا يسمون. وأصبح أتباع أرمنيوس هم أولدن بارنفلت والأوليجاركية الحاكمة الذين أيدوا سياسة المقاطعات في أشد صورها تزمتا. وأفاد هذا ضمنا تفوق مقاطعة هولندا ورسخ سلطة وجهاء الحضر لتكون سلطة غير قابلة للتحدي، بما في ذلك تفوق سلطتهم على الكنيسة ذاتها. ونادى مناهضو المعترضين بالحرية المطلقة للكنيسة الكالفنية وعدم تدخل أو رقابة السلطة المدنية. وطالبوا كذلك بإطاحة تامة بجميع الكاثوليكيين الرومان والمنشقين البروتستانت وطردهم من مواقع السلطة في الكنيسة وفي الدولة.

وحرب الكتيبات التي أشد أوارها بين المعترضين ومناهضي المعترضين تبدت في تلك المرارة المتزايدة التي اقترنت بغرس روح الخلاف في دماء الجانبين وطبيعي ان كان مناهضو المعترضين هم الأشد قسوة باعتبارهم الطرف الأشد تطرفا. وكانوا كذلك الأكثر عدداً على الرغم من أن المعترضين نجحوا في الاحتفاظ لأنفسهم بوضع الهيمنة داخل الكنيسة حتى عام ١٦١٨ بفضل مساندة أولدن بارنفلت والحكام الذين اتفقوا معه في الرأي. ومن المسلم به ان كراهية رجال اللاهوت Odium Theolgicum أثارت غضبا أشد شراسة من أي شيء آخر. ولكن المدهش، مع هذا، أن نجد مواطنة محترمة من مناهضي المعترضين في روتردام تعلن أنها على استعداد لأن تعجل بالزواج من خنزير ولا تتزوج من قسيس من المعترضين. ونجد رجلاً من وجهاء امستردام يرفض دعوة قدمت إليه لحضور قداس لأحد رجال الدين

المعترضين موضحاً أنه يفضل الجلوس في بيت للدعارة في حضرة سبع عاهرات على حضور هذا القداس. وحسم هذا الخلاف المذهبي عندما تدخل الأمير موريس إلى جانب مناهض المعترضين، ليس عن اقتناع راسخ بالنقاط الجوهرية فيما يختص بالتدبير الالهي المسبق، بل لاعتبارات سياسية خالصة، إذ أراد أولا وقبل كل شيء أن يعزز مركزه كحاكم كما يعزز سلطة ادارة عموم الولايات (نظراً لأنه يركن إلى أغلبية أعضائها) على حساب أولدن بارنفلت والاليجاركية الحاكمة لمقاطعة هولندا. وتمكن من تحقيق ذلك نظراً لأن حكام امستردام من مناهضي المعترضين، والذين كانوا يعارضون بشدة أولدن بارنفلت بعد أن وقع هدنة الاثني عشر عاما وحال دون تشكيل شركة الهند الغربية، تصادف أن كانوا في السلطة خلال هذه الفترة من السنة. واستطاع موريس ان يركن الى تأييد المقاطعات الزراعية وممثليهم في ادارة عموم الولايات والمعروف عنهم أنهم يشعرون دائماً بالغيرة من طغيان نفوذ هولندا.

وتوافق سقوط اولدن بارنفلت مع انعقاد المجمع الكنسي الكالفني في دورد رشت والذي أكد صواب مذهب مناهض المعترضين وانه المذهب الصحيح وأدان مذهب أتباع ارمينيوس واتهمهم بالفسوق أو الهرطقة. ومن ثم تم استبعاد (على الورق) من قيادات الكنيسة والدولة جميع المعترضين ومعهم الكاثوليك الرومان واللوثريين والمعمدانيين وكل من لا يناصر قواعد مذهب «الدين المسيحي الاصلاحي الحق» على النحو الذي حدده مجمع دور درشت الكنسي. بيد أن هذه القاعدة لم تطبق دائماً من المقاطعات السبع كلها في صورة قسم شرعي رسمي، شأن قانون الاختبار الانجليزي لعام ١٦٧٣ English Test ACT. وأصبح بامكان الكثيرين من الحكام المتعاطفين مع المعترضين الحفاظ على مناصبهم لمجرد تأكيدهم انهم يناصرون القواعد المذهبية التي أقرها مجمع دور درشت. وسرعان ما أعيد تشكيل كنيسة المعترضين المحظورة، بعد أن فصل قساوستها أو سجنوا أو طردوا وتوقف

اضطهاد المعترضين لبضع سنوات. ونظم المعترضون أنفسهم على نفس الأسس المتبعة في الكنيسة الاصلاحية الرسمية، ومن ثم اعلنوا تسليمهم بالكتاب المقدس للولايات في عام ١٦٣٧ على أنه المصدر الوحيد للمذهب البروتستانتي واختلفوا عن الكالفنيين المتزمتين من حيث أن لهم حرية الحكم لأنفسهم في تقدير قيمة المحررات العقائدية والاعترافات والكتب التعليمية للعقيدة بدلاً من الارتهان بكتب ميدلبرج التعليمية وقواعد «العقيدة المسيحية الاصلاحية الحقة» على النحو المحدد في دور درشت في عام ١٦١٩. وسمحت السلطات أول الأمر للمعترضين بكنيستهم العامة في امستردام في عام ١٦٣٠. ولكنهم ظلوا كما هم مجموعة من الصفوة المنغلقين على أنفسهم وإن كان لهم نفوذ نسبي، ولم يزد عددهم خلال القرن السابع عشر على ١٢٠٠٠ عضو.

وكان أحد القرارات التي أتخذها مجمع دور درشت الكنسي هو ضرورة اصدار ترجمة معتمدة للكتاب المقدس تضعها لجنة من ثمانية عشر من فقهاء الالهيات وعلماء اللغة والمؤرخين حيث أن النسخة الهولندية (المعتمدة على نسخة لوثر الالمانية) غير وافية. وتم انجاز هذا العمل خلال الفترة من ١٦٢٧ - ١٦٣٧ وسمى «الكتاب المقدس للولايات» نظراً لأن إدارة عموم الولايات هي التي تولت تمويل المشروع وصدر بناء على أمر منها. واحتل الكتاب المقدس بصورته الجديدة في حياة الهولنديين وآدابهم مكانة مماثلة تماما لمكانة النسخة المعتمدة في انجلترا خلال القرنين ١٧، ١٨. والتماثل قريب جداً بين النسختين نظرا لأنهما أكدا على أن الأدب الجيد يمكن أن تتولاه لجنة. وانتشر الكتاب المقدس الجديد على نطاق واسع في جميع المقاطعات السبع، وأقبل الناس على قراءته بحماس شديد مما عزز دون شك الميل القائم بالاعتماد على اسم الرب العلي القدير وعلى عونه في جميع الأوقات في المراسلات الرسمية والشخصية على السواء. وإن هذه الشعبية التي حظيت بها الصياغة اللغوية الجديدة للكتاب المقدس لم تكن قاصرة على الكالفنيين وحدهم، ولكن يبدو أنهم دفعوا بها بعيداً ووسعوا من نطاق استخدامها اكثر مما حدث في أي بلد

آخر في أوروبا فيما عدا اتباع كرومويل في انجلترا وتضمنت معظم الرسائل المحررة سواء رسائل أعمال أم عادية الكثير من العبارات الدالة على التقوى والورع.

وإذا لم يكن ثمة خلاف في الرأي بشأن انتصار الكالفنيين في عامي ١٦١٨ - ١٦١٩ إلا أنه لم يكن انتصارا كاملاً. ذلك أن بعض النتائج التي تحققت سرعان ما تضاءلت أو تلاشت بفعل المقاومة السلبية والتوجه غير المتعاون لدى كثير من الحكام. إذ تم تشديد التنظيمات التشريعية القائمة ضد الكاثوليكيين الرومان وتطهرت الكنائس الكالفنية من جميع الصور أو الزخارف الداخلية التي كانت لا تزال موجودة، ولكن الحكام منعوا الوعاظ من إزالة آلات الأرغن. وأصبح للقساوسة الكالفنيين كلمة مسموعة أكثر من ذي قبل ولكن لم يكن مسموحا لهم بعد بالدخول أعضاء في مجال المدن أو في المجالس الحاكمة للمقاطعات، كما وأن السلطة النهائية للكنيسة لم تزل مستقرة الى حد كبير بين أيدي الأوليجاركية الحاكمة التي لها الهيمنة على الأموال ومستلزمات الانفاق. وكما سبق أن ذكرنا فإن أغلبية الوعاظ طوال الحقبة التي عاشتها الجمهورية الهولندية هم من أبناء الشريحتين المتوسطة والدنيا من الطبقة الوسطى - وينظر الحكام إلى أبناء هاتين الشريحتين نظرة ازدراء - ولم يشكل الوعاظ طائفة مستقلة أو طبقة من بين الطبقات الثلاث المستقلة على نحو ما فعل غرماؤهم من الكاثوليكيين الرومان في بلدان أخرى مثل فرنسا وأسبانيا والبرتغال. وعلى الرغم من أن الحكام كان لهم ممثلوهم داخل المجامع الكنسية، على نحو ما سوف نرى فيما بعد، إلا أنهم نادراً ما حملوا أنفسهم مشقة الخدمة في المجالس الكنسية التي خرج فيها كبار الكالفنيين من بين صفوف سكان المدن العاديين على نحو ما كان الكثيرون من الوعاظ.

ولعل خير من يمثل الطابع العام لموقف البرجوازيين الهولنديين البروتستانتيين من الكنيسة والدولة هو القائد البحرى ميشيل دي رويتر

الذي بدأ حياته يعمل صبيا على ظهر إحدى السفن في فلاشنج وانتهى كواحد من أثـرياء البرجـوازيين في امستردام. ويحدثنا كاتـب سير معاصر لـه، وهو أيضا واعظ من المعترضين، فيقول عنه إنه كان يجل القساوسة الكالفنيين ولم يكن ليتســامح مع أي انتقـاد غير نـزيه لهم، إلا أنـه مع هـذا يصر على عـدم جدارتهم في التدخل في أي شيء خارج المجـال الخاص بهم. وكان مؤمناً إيمانا راسخا بأن تكـون للدولة اليـد العليا على الكنيســة على نحو ما كـان الحكام المعاصرون إذ كـان لهم، كما لاحظ وليام كـار، ممثلوهم في جميـع اجتماعات المجامع الكنسية للمقاطعات «ليسمعـوا ويكونوا على يقين من أن أعضاءها لا ينـاقشون أمـوراً تتعلق بالحكم أو الحكـام. وإذا حدث المحظـور فإن ممثل الولايات يصبح قائلاً (Myn Heeren Predicanten) (أي كفوا عن الحديث في هذا أيها السادة الوعاظ)* ولم يكن الحكام ليتسامحوا مع أي نقد من فوق منبر الوعظ. وقال كار في ملاحظته كذلك إذا ما ألزم الوعاظ أنفسهم بالسلوك الحسن القويم فإنهم يحظون «باحترام العامة كأنهم آلهة على الأرض»، وربما كان هذا هو السائد فعلا كقاعدة عامة، ولكن ثمة استثناءات كثيرة خاصة بين أوســاط طوائف المشتغلين بـالصيد والملاحـة البحـرية وهي طـوائف تتسم بالخشـونة. ولم يكن القسيس جـود فريـد أو ديمانز هو القسيـس الكالفني الوحيد الذي كشف عن استيائه في معرض المقارنة بين عدم التوقير من جانب العامـة الهولنديين ازاء مـرشديهم الروحيين وبين مـا يبديـه الكاثـوليكيون الرومان من البرتغاليين والأسبان من توقير واذعان لقساوستهم.

يتبين مما سبـق أن الكنيسة الكـالفنية «للعقيـدة المسيحية الاصـلاحية الحقة» لم تتحرر تماما من سيطرة واشراف السلطـة المدنية على نحو ما كان يأمل وعاظ التيار المنـاهض للمعترضـين في العامين ١٦١٨-١٦١٩. كذلك لم يتعرض الكاثـوليك الرومان والمعترضون المنشقون للاضطهـاد كثيراً بالقدر

* W. Carr; An Accurate Description of the United Nether Lauds [ed. 1691]

الذي تصوره مجمع دور درشت الكنسي حتى قبل ردة الفعل التي حدثت إثر وفاة الأمير موريس وبعد أن حل محله فريدريك هنري (١٦٢٥) والاطاحة في الوقت نفسه بالحكام من التيـار المناهض للمعترضـــين في امستردام. ورأينا كيف سمح علنا بكنيسة المعترضين في امستردام في عام ١٦٣٠. وفي العـــام التالي لذلك أجاز مجلــــس المدينة تشييـد كنيسة لوثرية ضخمة، وهي ثاني كنيسة تُبنى منــــذ أربعيـــن عاماً. ولكن ظل الاضطهاد مـوجوداً، وتحمل عبئه حتما الكاثوليك الرومان.

إذ على مدى اكثر من مائة وخمسين عاما بعد الانتصار النسبي للكالفنية النشطة في مجمع دورد رشت الكنسي، لم يستطـع الكاثوليك الـرومان اقـامة شعائرهم الدينية بصورة مشروعة سـواء علنا أم في أماكن خاصة للعبادة بل ولم يستطيعوا اقامة طقوس التعميد أو الزواج بطريقة قانونية على يد قسيس كـاثوليكي رومـاني من أي نـوع أو بيع وشراء الكتب الدينيـة الكـاثوليكيـة، والأدب الـديني والمطبوعـات أو التماثيل الكـاثـوليكية الـرومـانية أو تـرتيل الترنيمات الكاثوليكية الرومانية أو اقامة احتفالات أو ولائم أو القيام بعطلات الأعياد والمنـاسبات الكـاثوليكيـة الرومـانية. لم يكن بإمكـان أي كاثـوليكي رومـاني أن يشغل منصباً رسميـاً سـواء من الجامعة أم المجلس البلـدي أو الاسطول أو الجيش. والمرأة الكاثوليكية الرومانية غير المتزوجة غير مسموح لها بأن تكتب وصية. وأي إرث عن وصية لمؤسسة كـاثوليكية رومانية يعتبر ملغياً وكأن لم يكن تلقـائياً بحكم القـانون. وقضى القانـون في مناطق كثيرة بأن الأبناء من زيجات مشتركة ينشأون على المذهـب البروتستانتي. وفرضت عقبات قانونية كثيرة تحول دون ممارســة شعائر العقيدة الكاثوليكية بحيث باتت حرية العقيدة والفكر المسموح بها، على محدوديتها الشديدة، للكاثوليك الرومان أمراً لا قيمة له تلقائيـاً إذا ما تم تطبيق القوانين العقابية ونفذت كما يجب. وعلاوة على هذه المعـوقات المدنية التي عانى منها الكاثـوليك الرومان، ظل كثيرون من معاصريهم البروتستانت ينظـرون اليهم زمنا طويلاً وكأنهم

خونة حقيقيون أو مشكوك فيهم - منذ عام ١٥٦٨ إلى ١٦٤٨ يعملون لمصلحة أسبانيا، ومن ١٦٤٨ إلى ١٧٤٨ وكأنهم يعملون لمصلحة فرنسا.

والشيء الوحيد الذي جعل الحياة محتملة بالنسبة لمواطني الجمهورية الهولندية من الكاثوليك الرومان هو ان قوانين العقاب ضد ممارسة شعائرهم الدينية لم تكن تطبق بحذافيرها في جميع الأوقات والأماكن، كما أصبح من اليسير أكثر فأكثر تجنبها أو اغفالها مع مضي الأيام والسنين خلال القرن الثامن عشر. ومن حسن حظ الكاثوليك الرومان والمنشقين ان ادارة عموم الولايات رفضت تماما خطط الوعاظ الرامية الى انفاذ التفوق الكالفني بصورة كاملة وتامة. إذ انها لم تصر ابداً على أن يناصر جميع سكان الجمهورية، العقيدة المسيحية الاصلاحية الحقة، كما لم تشأ أن تجعل حضور الشعائر في الكنيسة الكالفنية اجبارية. واعتبر الزواج المدني ملزما شأنه شأن جميع صور طقوس الزواج الدينية البروتستانتية، وان من حق أي انسا ان يختار بين أي من الشكلين (أو كليهما). والكنيسة الاصلاحية الهولندية حسب المعنى الذي حدده مجمع دور درشت الكنسي، وعلى النحو الذي وضعه لتأسيسها، كانت الشكل الوحيد للعبادة المسيحية الذي حظى باعتراف كامل من الدولة الى ان حدثت ثورة ١٧٩٥ وقطعت أواصر العلاقة بين الكنيسة والدولة. بيد أنها لم تكن كنيسة رسمية للدولة بنفس القدر الذي كانت عليه، كمثال، الكنيسة الانجيلية في انجلترا.

وعلى الرغم من أن الكاثوليك الرومان كانوا ممنوعين قانوناً من شغل أي منصب رسمي أو حكومي، وعلى الرغم من أن أغلبية المهن كانت ظاهريا مغلقة دونهم، إلا أنه كان دائماً وأبداً بعض الكاثوليك الرومان (أو المتخفين) دون الافصاح عن هويتهم) موجودين في هذه الوظائف فيما عدا، على الأرجح السنوات التالية مباشرة لتاريخ انعقاد مجمع دور درشت الكنسي. ولم تخل الساحة من عمداء وحكام الكاثوليك الرومان. وقبيل النصف الثاني من القرن الثامن عشر ظهرت مدن كثيرة تضم أسراً كاثوليكية رومانية لها أبناء عملوا

محامين وموثّقين عامين وأطباء لأجيال عديدة. ومنذ حوالي عام ١٦٣٠ وما بعدها عرفت أكثر المدن كنائس وأماكن لعقد الاجتماعات للكاثوليك الرومان وقد تنكرت وراء مسميات أخرى ويعرفها كل واحد منهم بما في ذلك القساوسة الكالفنيون المحليون. وبالمثل فإن القساوسة الكاثوليك الرومانين الذين التزموا جانب الحذر والحيطة، وتجنبوا التباهي بأنفسهم وبملابسهم، كان بامكانهم أداء الشعائر الدينية لطوائفهم على الرغم من أوامر الحظر المكتوبة التي تحظر نشاطهم.

هذ الاغفال المنظم لقوانين العقوبات ضد الكاثوليك الرومان إنما يرجع من ناحية إلى شيوع الآراء النفعية والمؤمنة بأن للدولة السلطة العليا على شئون الكنيسة بين صفوف الأغلبية من الحكام مما جعلهم على استعداد لتأييد التسامح الديني، كما يرجع من ناحية أخرى إلى «حب كسب المال» وهو النزوع الذي احتفى به فوندل في كتبه عن أهل امستردام والذي لم يكف القساوسة الكالفنيون عن إدانته. أما عن صغار الموظفين المتهمين باتخاذ اجراءات تنفيذ قوانين العقوبات - أمثال من يعملون مندوبين عن مأموري التنفيذ والعمداء والحجاب وغيرهم - فقد اعتادوا قبول الرشاوى في سبيل إغماض عيونهم وصم آذانهم فكأنهم لا يرون ولا يسمعون ممارسات الكاثوليك الرومان لشعائرهم. واصطلح على تسمية هذه المدفوعات باسم «مصروفات الخدمة الخاصة». وسرعان ما أصبحت، بعد أن ظلت سارية زمناً طويلاً، شرطا مسبقا غير رسمي ولكن معترف به من جانب السلطات المحلية المعنية، دون أي أسرار بشأنه، وتكررت الشكاوى المقدمة من المجامع الكنسية الإصلاحية ضد «شيوع الممارسات الكاثوليكية» وتواطؤ المسئولين المنوط بهم تنفيذ القوانين واعتادت ادارة عموم الولايات وادارات المقاطعات الاستجابة الى هذه الشكاوى بإصدار مراسيم تحذير أو إعلانات مقيد فيها تأكيد العمل بقوانين العقوبات. بيد أن التهرب منها ظل سائداً بسبب الرشوة. ونظراً لانتظام دفع مصروفات الخدمة الخاصة» فقد انتهى الأمر بالغائها في

عام ١٧٨٧، والذي اقترن بضعف التشدد الكالفنـــي. وجاء هذا نتيجة طبيعية لانتشار الأفكار التي غرستها حركة التنوير، وازاء الغاء هذه المصروفات بات لزاما دفع رواتب للموظفين الذين عاشوا عليها.

وإن الأثر المتراكم عن التمييز القانوني والاجتماعي والمالي ضد الكاثوليك الرومان في هولندا أفضى بـالضرورة الى تناقص أعدادهم تدريجيا على المدى الطـويل. إذ بينما كان للبروتستـانت على اختلاف مشـاربهم أغلبية ضئيلـة (حسب الظن السـائد، على فـرض ان كـانـت لهم فعـلاً مثل هـذه الأغلبيـة) بالقيـاس إلى الكاثوليك الرومـان في عام ١٦٥٠ فإن هؤلاء على مـا يبدو بلغت نسبتهم حوالي ٤٥ بالمائة من إجمالي عدد السكـان بعد خمسين عاما، وحوالي ٤٠ بالمائة في عام ١٧٩٥. ومن ثم فإن ما تزعمه المجامع الكنسية الاصلاحية بأنـه كـان هناك حـوالي ٢٠٠٠٠ بيجـوين (امـرأة علمانية من الكـاثـوليك الرومان) في المقاطعات في عام ١٦٥٠ إنما هو زعم يتعين علينا ألا نأخذه مأخذ الجد تماما. هذا على الرغم من أنه لو كان هناك عشر هذا العدد فإنه يكون امراً لافتا للنظر إذا ما عرفنا انـه كان هناك أقل من ٢٠٠٠ قسيس كالفني. والأمر الأكثر صعوبة هو تقدير تـوزيع الكاثوليك الرومان داخل البنية الطبقية، على الرغم من وضوح أن الأغلبية العظمى من طبقة الحكام في المدن وأثرياء التجار والمثقفين تحولـوا الى البروتستانتيـة قبل نهايـة القرن السـابع عشر. كـذلك الأغلبية العظمى من البروليتاريا كـانوا من البروتستانت. بينما ظل الكثيرون من التجـار أبناء الشريحة الـدنيا للطبقة المتـوسطة والحرفيين على مـذهبهم الكاثوليكي الرومانـي. كذلك فإن سكان المناطق الكاثوليكية الرومانية التابعة لادارة عمـوم الـولايـات ظلوا على ولائهم تمامـا مثلما حـدث مع الكـاثـوليك الرومان الايـرلنديين الخاضعين للحكم الانجليزي. وكانت هنـاك جيوب من القرى الكاثوليكيـة الرومانية المتناثرة هنا وهنـاك في جميع أنحاء المقاطعات، بما في ذلك معاقل البروتستـانت مثل الكامار وليـدن. ولا ريب في أن وليم كار إنما كان يعكس اعتقادا شـائعاً وان لم يُقـم دليلاً على صحته، حين أكد في عام

١٦٨٨ أن ثلث سكـان امستردام ينتمون إلى الكنيسـة الكـالفنيـة الرسميـة. والثلث الثاني من الكـاثوليك الـرومان، (من أتباع لـوثر وارمنيـوس وبراون ومعمدانيين وكـوكرز) ويهود. وان نسب هـذه النحل والمذاهب المتنـافسة في امستردام لا تعكس بـالضرورة قوة كل منهـا في بقية أنحاء البـلاد، ولكن على الرغم من مظـاهر التباين الواضحـة، محليا وإقليمياً إلا أننا لا نجانـب الدقة كثيراً إذا قلنا انه من بين مليوني مواطن هم جملة السكان، لم يناصر الكنيسة الهولندية الرسمية الاصلاحية اكثر من ثلث السكان عمليا.

وعلى الـرغم من أن قرارات مجمع دور درشت الكنسي لم تنفـذ كاملـة أو تزايـد التهرب منها أو ابطالها على مـر الأيام إلا أن الانتصار الكـالفني الذي تحقق في عام ١٦١٨-١٦١٩ حقق بالفعل نتائج مـؤكدة البقاء. وان التحالف بين آل أورانج والوعاظ الـذي ساق أولدن بارنفلت إلى المقصلة استمـر قرابة قرنين من الزمان على الـرغم من الشكوك التي ساورت كلا من الجانبين تجاه الآخر. مثال ذلك ان فريـدريك هنري كان ارميني الهوى وان لم يكن كذلك في ممـارساتـه، كـذلك فإن ميل ابنـه الواضح، وهـو خليفتـه ايضا، الى الخمـر والنسـاء واللهو ربما أوقعـه في مشكلات خطيرة نتيجـة التعـاليم الكالفنيـة المحرمة لأسباب اللهو والمتعة لم ينقذه منها سوى موته المبكر في عام ١٦٥٠. كذلك فإن رعـاية وليم الثالث للمسرح تعارضت هي الأخـرى مع الأخلاقيات الكالفنية الصارمة. ولن ندهش إذا وجـدنا أن بعض الوعاظ وزوجاتهم الذين حضروا حفلاً أقـامه الكـونت جون مـوريس كونت نـاسوا عقب عـودته من البرازيل «لم يداخلهم السرور على الإطلاق» عند مشاهدة برنامج ترفيهي أداه بعض الهنود الحمر الأمـريكيين وهم عراة تماما. ولعل ما هـو أخطر من تلك الانحرافـات الدنيوية التي شـابت سلوك أمراء آل نـاسو هو مسانـدة حكام المدن في أكثر من مناسبة قبل عام ١٦٤٨ لملوك فرنسا الكاثوليك ضد رعاياهم المتمـردين عليهم من البروتستـانـت الفـرنسيين. بيـد أننـا إجمالا لن نقع في تبسيط مخل إذا قلنـا إن أغلبية الـوعاظ بعـد عام ١٦١٨ نظـروا إلى أمراء آل

أورانج المتعاقبين بـاعتبارهم أبطالهم الطبيعيين ضـد حكام مقاطعة هـولندا عامة وامستردام خاصة الذين قيل عنهم إنهم أصحاب فكر حر أو مناهضون لمذهب المعترضين. وكان القسـاوسة الكالفنيـون نزاعين إلى تأجيج الحماس تأييدا لآل أورانج بين صفوف الشرائح الدنيا من الطبقة الوسطى وبين العامة وهم الطبقات التي تمتد اليها جذورهم. وكان هذا التحالف بين بيت آل أورانج وبين الكنيسة الكـالفنية المتشددة أمـراً له أهميتـه خاصة في أوقـات الأزمات القومية، مثل الغزوتين الفرنسيتين في عام ١٦٧٢ و١٦٤٨ عندما أمكن حشد فقراء سكـان المدن والبروليتاريـا للتظاهر في الشـوارع من أجل الضغط على الأوليجاركية الحاكمة في دور البلديات.

نتيجـة أخـرى راسخـة من النتـائج التـي تمخضت عنهـا أزمـة ١٦١٨–١٦١٩ هي أن الناس عامة، والحكام خـاصة، أصبحوا أكثر اهتماما عن ذي قبل بالحفاظ على مظهر التمسك التقليدي بالعقيدة. وعلى الرغم من أن هذا الاتجاه كان ظاهريا أكثر منـه حقيقة واقعة، إلا أنه جعل السلطات المدنية أحيانـا اكثر قابلية لضغط الـوعاظ. ونلاحظ أن الاتجاه الى ابعاد الكـاثوليك الرومان والمنشقين البروتستانت عن وظائف الحكم، وان لم ينفذ بحذافيره في كل مكان وفي كل الأوقـات، طبق على نحو حفز كثيرين من أبناء الطبقـة العليا إلى العودة إلى الكالفنيـة خلال الفترة التالية التي امتدت قـرنا ونصف القرن. وتعـزز كذلك الجانب البيـوريتـاني من الكـالفنية بفضل نتـائج مجمع دور درشت الكنسي حيث أدان الوعاظ ميل سكـان الأراضي المنخفضة إلى «الحرية واللذة». وعلى اثـر هذا خضع أعضاء الكنيسـة الكالفنية لـرقابة صـارمة من جـانب المجـالس الكنسيـة التي يتبعـونها، والتي اعتـادت التـدخل في أخص أمورهم. واستمـر أسلوب استنكار الاحتفال بـالاعياد الكاثوليكيـة مثل عيد الميلاد ورأس السنة الميلادية، كما أعلن أن المسرح والرقص من الكبائر. ولكن الكالفنيين لم ينجحوا أبداً في حظر هذه الانحرافات جملة واحدة، وعجزوا عن إحداث أي تأثير بشأنها في المراكز ذات الطابع العالمي مثلاً لا هاي وامستردام.

ولكن في الريف والمدن الصغـرى وفي المقاطعات الأخـرى غير مقاطعة هـولندا نجح الوعاظ تدريجيا في فـرض الفكر والسلوك البيوروريتاني على كثيرين من الفلاحين وأبناء الطبقة الوسطى في المدن.

واستطاع فوتيوس الواعظ المتحمس المعمر أن يحظر المسرح لي ليوواردن حيث سانده في هذا حاكم المقـاطعة الكالفيني المخلص. ولكن المسرح صمد في امستردام أمام جميع مظاهـر الاستنكار من جانب الوعـاظ على مدى سنوات طويلـة. كذلك ازدهـرت في امستردام قاعـات الموسيقى وقاعـات الرقص على الرغم من استياء الوعاظ. بل إن الفنادق التي اعتادت أن تقدم ضروب التسلية لعملائهـا من كبار القـوم، سمحت لضيوفهـا باقـامة حفلات في غـرفهم مع معاقـرة الخمر ومشاركة النســاء وتقديم الأغاني. ولم تحتفظ هـذه الفنادق بفـرقة من الموسيقيين لجذب الـزبائن، على نحـو ما اعتـادت ان تفعل بعض الحانات العـادية، وانما فضلت بدلاً من ذلك بأن تُغـوي كل من تتوسم فيهم الاستعداد ليكـونوا زبائن لها بتقـديم خيارات واسعة ومتعـددة من الخمور الفرنسية والاسبانية والالمانية بل واليـونانية. وكانت بعض قاعات الموسيقى والرقص بشكل أو بآخر مواخير وبيـوت دعارة متنكرة، ولكن هذا لا يمنع من وجود غيرها تقدم لعملائها الموسيقى دون أن تتحول إلى بيوت سيئة السمعة. والجدير بالذكـر أن حياة الليل ومختلف ضروب الانحرافات في امستردام لم يكن لها مثيل في المقاطعات السبع حيث النغمة العامـة فيها أكثر هدوءاً. وكان هذا هو الحال في زيـلاندا وخاصة التي تـرسخت فيها أقدام الكـالفنية خلال سبعينات القرن السادس عشر، وحيث كـان الحكام أيضاً من المؤمنين الأكثر صدقاً وحماسا من نظرائهم في المقـاطعات الأخرى. وأكثر استعدادا للتعاون مع الوعاظ. كـذلك فإن النزعة الكاثوليكيـة الرومانية الهولنديـة تأثرت تأثراً قوياً نتيجة خضوعها قسراً للنزعة البيـوريتانية الكلافنية ونزعة التقشف على نحو ما يبين لنا عند مقارنة مظاهـرها الخارجية بمظاهر النزاعات الأخرى في الشرق والجنوب. وحـدث شيء مماثل لهذا للكاثـوليكية الرومـانية في انجلترا

بسبب موقفها في مواجهة النزعة البروتستانتية المهيمنة.

وحاولت الكنيسة الهولندية الاصلاحية جاهدة من أجل توجيه مسار الحياة الفكرية من خلال الجامعات الخمس التي أنشئت في المقاطعات على التوالي فيما بين عامي ١٥٧٥ و١٦٣٦. وتعزز هذا الاتجاه كذلك نتيجة أحداث عامي ١٦١٨ - ١٦١٩، بعد تطهير الجامعات القائمة آنذاك من جميع المدرسين الذين لم يمتثلوا لمقررات مجمع دورد درشت الكنسي. ولكن انتصار التيار المناهض للمعترضين لم يكن انتصارا كاملاً هنا أيضاً. ومن ثم وجب على جميع الوعاظ واساتذة الجامعات ومدرسي المدارس أن يقسموا قسم الولاء المذهبي - أو هكذا كان من المفروض أن يحدث، ولكن غالبا ما كان يتم التوقيع مع تحفظ من جانب الموقع اعتمادا على تأويله الشخصي. ويحدث أحيانا أن يرفضه مدرس من المدرسين ولكنه يظل في مهنته. والملاحظ أن أساتذة الجامعات من أمثال القسيس كاسبار بارليوس الشاعر والباحث الكلاسيكي الشهير، الذي طرد من ليدن في عام ١٦١٩، عادوا لشغل كراسيهم بأكاديمية امستردام أو غيرها حيث كانت السلطات أكثر ميلاً إلى استرضائهم. وكانت الجامعات الكالفنية راسخة الجذور فيما يختص بالعقيدة الوضعية والفلسفة الأرسطية شأن الجامعات الكاثوليكية الرومانية في البلدان الأخرى. ولكن رعاة الأبرشيات في هولندا أعوزتهم السلطة- وغالبا الارادة - لخنق الحوار تماما على نحو ما يبين لنا من الحظر غير الفعال الذي أعلنوه ضد نشر فلسفة ديكارت في جامعة لدين. بل إنه سمح بانضمام أحد المعترضين إلى الجامعة في عام ١٦٤٩ في أوترشت ذاتها التي أصبحت معقلاً للأصولية الكالفنية مع تولي فوتيوس منصب الاستاذ ورئيس قسم اللاهوت على مدى اربعين عاما (١٦٣٦-١٦٧٦). وتم تعيينه في هذا المنصب شريطة ألا يعتبر هذا التعيين سابقة لغيره. وأخيراً فإن حفاظ الأوليجاركية الحاكمة للمقاطعات على سيادة مقاطعاتها ضمن عادة إمكانية أن يجد استاذ كفء مكانا له إذا ما رفضته إحدى المقاطعات، في مقاطعة أخرى تكون السلطات فيها أقل تزمتا.

وإذا كـان الموقف الكـالفيني التقليـدي من أتبـاع لوثـر وأتبـاع بـراون والمعمـدانيين وغيرهـم من المنشقين البروتستانت أقـل عداوة من مـوقفهم من الكاثـوليك الرومـان، إلا أنه ظل زمنـا طويـلاً ينطوي على قـدر من الضغينة والتسامح غير المضطرب. والمعروف أن حـركة دعاة تجديد العماد كشفت في أول عهدها عن تجاوزات جامحة في ألمانيا والأراضي المنخفضة وهي تجاوزات أدانها كل من لـوثـر وزو ينجلي وغيرهما من الاصـلاحيين البروتستـانت واستخدموا في ادانتهم لها عبارات شديـدة القسوة تماثل عنف الانتقام الذي صبه القسـاوسة والأمـراء المعمدانيـون في الأراضي المنخفضة طـائفة داعيـة للسلم ومفرطة في تطهـرها وأشهر جماعاتهم طائفة تعرف بـاسم اتباع منو، وقد سمـوا أنفسهم بهذا الاسم تبعا لمؤسسها منو سيمـونسز Menno Sy-monsz الـذي رفض الخدمـة المدنيـة وعـارض حمل السـلاح مهما كـانت الظروف والأسبـاب. وتوقف اضطهاد هـذه الطائفة في عـام ١٥٨١. ويرجع السبب أساسا إلى الحماية التي فـرضها عليهم وليام ذي سايلنت ولكنهم لم يتمتعوا بكامـل حقوق المواطنة إلا في عام ١٦٧٢. وربما كـان المعمدانيون في بـدايتهم أكبر فـريق بروتستـانتي، غير أن كثيرين منهم حـولـوا ولاءهم الى الوعاظ المنـاضلين في ستينيات وسبعينيات القرن السـادس عشر وتخلوا عن وهمهم الداعي الى السلم وعدم المقاومة في الصراع ضد أسبانيا وروما. وخلال القرنين السـابع عشر والثامـن عشر شكل المعمدانيـون واتباع منـو طائفتين ناجحتين ومنغلقتين، حتى أن زيهم المفرط في مظاهـره التطهرية أثار تعليقات ساخرة من الكالفنيين ودعاة حرية الفكر على السواء. وفقدت هاتان الطائفتان أرضهما بتناقص أعدادهما تدريجيـا خلال القرن الثامن عشر، ولكن الملاحظ أن أحداً لم يقيِّم بعـد مدى أهميـة دورهما في الحياة الاجتماعية والثقـافية في الأراضي المنخفضة الشمالية.

وشكل اليهود فريقا آخر متميزاً استفاد من التسامح النسبي الذي أبدته الطبقة الحاكمـة للجمهورية الهولنـدية تجاه جميع العقائد فيما عـدا العقيدة

الكاثوليكيـة الرومانية. ويقـدر عدد طائفة امسـتردام مـن اليهود البرتغاليين والأسباب الذين هربوا من شبـه جزيرة أيبريا لتجنب محاكم التفتيش حوالي ٨٠٠ نسمـة في عام ١٦٢٦ و ١٢٠٠ في عـام ١٦٥٥ وسمحت لهم السلطـات ببناء أول معبد لهم في عام ١٥٩٧ ثم آخـر أكثر جمالاً في عام ١٦٣٩. وهؤلاء هم من اليهود المعروفين باسم السيفارديم الذين تعززت شوكتهم عندما وفد اليهم المهاجرون اليهود الاشكنازيم من ألمانيا وبولندا واستقروا في المقاطعات الشرقية وكذلك في امستردام. والجدير بـالذكر ان الاشكنازيم في أغلبهم دون مستـوى أسلافهم ثقـافيا واقتصـاديا وكـانوا عـرضة لازدراء غير اليهـود واليهـود السيفارديم على السـواء. ولكن الظـروف لم ترغمهم على الحيـاة في جيتـو أي حي خـاص بهم. وفي عـام ١٦٥٧ اعترفت ادارة عمـوم الـولايـات صراحة بجميع اليهود المقيمين كرعايا هولنديين وإن لم يتمتعوا بكامل حقوق المواطنة حتى عام ١٧٩٦.

وحظي اليهود السيفارديم بقـدر من الاعتبار بين معاصريهم من المثقفين الكالفنيين، فإن رجـالا من أمثال جروتيـوس وبارليوس وفوسيـوس اعتادوا استشـارة علماء الحاخامـات مثل منسـه ابن اسرائيل بشأن نقـاط خاصـة بشروح وتعليقات على نصوص العهد القديم أو اللغة العبرية. ولكن على الرغم من أن الوعـاظ الكالفنيين ألفـوا دائما الاستشهاد بأحـداث وقصص التاريخ اليهـودي كما رواهـا الكتاب المقـدس في حججهم، وتمجيـد مـوسى وأنبيـاء العبرانيين كقـدوة ومثـل أعلى إلا أن وصمـة العـار الاجتماعيـة التي لحقت بالشعب اليهودي في المسيحية ظلت غـالبة في الأراضي المنخفضة الشمالية وفي غيرهـا من بلدان أوروبـا. ولقـد كشف وليم أوسيلنكس الكاتب المتشـدد في مناهضته لتيار المعترضين عن نـزعة معادية للسامية في كتـاباته. وثمة واعظ كالفني أسره الأسبان في باهيا عام ١٦٢٥، أكـد لقادة جوقة الترتيل أن اليهود وان كانوا يلقون في امستردام معاملـة تتسم بالتسامح بحكم القانون، إلا أن شعب امستردام ينظر إليهم شزرا وينفر منهم وأن الولاء الذي أبداه اليهود في

برازيل الأراضي المنخفضة أثناء التمـرد البرتغالي (١٦٤٥-١٦٥٤) ساعد ولا شك على تحسين وضع المعابد اليهودية الثلاثة في امستردام حيث قام حاكم المدينة وزوجته بزيارة رسمية لآخر محفل يهودي أقيم في عام ١٦٤٢.

ونشط التجـار اليهود المقيمـون في امستردام منـذ فترة باكـرة في تجارة السكر والعبيـد، ولكن عصرهم الـذهبي جاء في القـرن الثامن عشر، بعـد أن أصبحـوا مستثمرين كبـارا في كل من الشركتين الهنـدية الشرقيـة والهنديـة الغربية، وفي مزارع سورينام. وحقق المقاولون اليهود المتخصصون في العمل والمتعهدون لجيـوش الحكام ثـروات كبيرة أيضاً، مثلما أثـرى يهود آخرون يقومون بأعمال التمويل وحققوا ثرواتهم عن طريق المضاربة في سوق أسهم امستردام واستخـدموا في هـذا الأسـاليب التي وصفهـا جوزيف بنسـو دي لافيجا في كتابه Confusion de la Confusiones (١٦٨٨). وفي القـرن الثامن عشر اقتدى المولون اليهـود في هولندا بمواطنيهم المسيحيين إذ ركزوا قدرا كبيراً من استثماراتهم في المصارف الانجليزية. والملاحظ انه حتى خلال الحرب الانجليـزيـة في الأعوام ١٧٨٠-١٧٨٤ ضم المشترون الهولنـديـون للسنوات البريطـانية جماعـة «برناس أو الـزعماء الروحيين لجماعـة الأخوة لليتامى من أبناء الأمـة اليهودية البرتغالية المعروفة بـاسم أبي تيتونيان Abi Tetonian في امستردام، مثلما كان من بينهم المجلس الكنسي لكنيسة واللون في امستردام.* وطبيعي أن اليهـود في المقـاطعات السبـع لم يكونـوا جميعـا ممولين كبـارا ولا برجوازيين مـوسرين أيضاً، وانما على العكس كـانت أغلبية الجماعات اليهودية فقيرة ومتخلفة ويمثلون الوجه النقيض لليهود من طائفة السيفـارديم الأثـريـاء والمثقفين في امستردام. والملاحظ أن البنيـة المتـزمتـة والمنغلقة على نفسها لهذه الجماعات اليهوديـة حالت دون تطورهم ليصبحوا طبقة عمالية قوية أو طائفة حرفية، كما كان زعماؤهم الروحيون ينفرون من

* C. Wilson, Anglo - Dutch Commerce and Finance in the 18th Century (Camlriclge, 1941);
pp. 192.

أي تغيير أو أفكار جديدة قد تؤثر على سلطتهم. وقبل نهاية القرن الثامن عشر كان أكثر من نصف اليهود السيفارديم أعضاء المحفل الرئيسي في امستردام، وعددهم ٢٨٠٠ يهودي، يتلقون اعانات اجتماعية للفقراء، كما وأن حوالي ١٧٥٠٠ يهودي من الاشكنازيم المقدر عددهم ٢٠٣٠٤ يهود والمقيمين في البلد نفسه كانوا مصنفين اجتماعيا ضمن الشحاذين.

ونذكر هنا هذه العبارات التي كثيرا ما يستشهد بها الناس وهي من كلمات أندرو مارفل في ديوانه «شخصية هولندا»:

في امستردام التركي والمسيحي والوثني واليهودي
مدينة الملل ومصنع الانقسامات المذهبية
انها بنك الفكر حيث لا تجد رأياً غريباً
إلا وله رصيد وسوق للتعامل

وتعكس لنا هذه الأبيات بدقة نجاح الطبقة العاملة في الحيلولة دون الكالفنيين المتحمسين والتضحية بالكسب المادي لحساب التقوى والورع على الرغم من الانتصار الجزئي الذي حققه التيار المناهض للمعترضين في مجمع دور درشت الكنسي. فلقد كانت دعوة الى التسامح الديني. نسبيا هي في جوهرها دعوة نفعية تستهدف مصلحة ذاتية بيد أنها كانت أيضا دعوة أصيلة وهيأت ظروفا كشفت عن تباين مفيد مع الأوضاع في بلدان أوروبا الأخرى، وعبر بيتر دي لاكور، وإن لم يكن هو نفسه من طبقة الحكام، عن مشاعر كثيرين من الحكام عندما قال في كتابه «مصلحة هولندا»: الحرية أو التسامح في خدمة الرب وفي كل ما يتعلق بعبادته وسيلة قوية للإبقاء على كثيرين من سكان هولندا ولإغراء الأجانب من أجل الاقامة فيها». والحقيقة أن الأوليجاركية الحاكمة عجزت عن أن تصل إلى المدى نفسه الذي دعا اليه دي لاكور ولم تستطع ان تمنح الكاثوليك الرومان والمنشقين البروتستانت حرية عبادة كاملة. إذ كان التعصب الكالفني ونفوذهم لا يزالان قويين للغاية وظلوا

على تعصبهم هذا لأكثر من قرن آخر. ولكن الحكام ذهبوا إلى أقصى مدى يستطيعونه في ضوء الظروف السائدة. وإذا كانوا قد استلهموا موقفهم من المصالح التجارية وليس عن اقتناع ديني إلا أنهم جديرون بالثناء إذ جعلوا المقاطعات المتحدة للأراضي المنخفضة الحرة أقل بلدان أوروبا تعصبا على مدى مائتي عام.

ومن الانصاف أن نضيف إلى هذا أن الاقتناع الديني بين جميع طبقات المجتمع الهولندي اتجه أحيانا إلى جانب التسامح، ففي عام ١٦٦٢، وتحت ضغط من الوعاظ أصدرت ولايات فرزيلاند مرسوما يحظر على «بعض الطوائف البغيضة مثل أتباع سوسينوس Socinus والكويكرز دخول هذه المقاطعة وممارسة شعائرهم الدينية فيها. ونص القانون على معاقبة المخالفين بالقيام بأعمال السخرة لخمس سنوات ثم الطرد من المقاطعة. كذلك حظر القانون طبع ونشر مطبوعاتهم وفرض عقوبات قاسية على المخالفين. وأثار هذا القانون عاصفة من النقد مما اضطر ولايات المقاطعة الى الإسراع بسحبه. وأشار الناقدون في نقدهم إلى أنه علاوة على ما ينطوي عليه هذا الإجراء المماثل لمحاكم التفتيش من تعصب أصيل، فإن من السخرية ان تحظر الطوائف البروتستانتية، أيا كان وجه الغرابة في معتقداتهم في بلد يمنح الحرية الدينية لليهود والأتراك بل وحرية العبادة الجماعية في المعابد اليهودية.

وفي معرض حديث دي لاكور عن ضرورة الحرية الدينية غير المقيدة استشهد بعبارات وردت في كتاب صدر وقت اعلانه لدعوته هذه مشيراً إلى موافقته على مضمونها. والكتاب المقصود عنوانه De Jure Ecclesiusticum لمؤلفه ل. م. كونستانس. فقد أكد كونستانس أن «السلطة القاهرة مخولة فقط للحكام المدنيين. وان جميع السلطات والحقوق التي يدعيها رجال الدين لأنفسهم، إن كانت لهم مثل هذه السلطات والحقوق أصلاً، لا بد وأن تنتزع منهم. والقول بتبعية الكنيسة للدولة، على نحو ما تشير هذه الملاحظات، وهو

الـرأي الذي زاد وضـوحا في النصف الثـاني من القـرن السابع عشر، تأكـد بـوضوح أكثـر نتيجة مـوقف الكنيسـة الكـالفنية فيما يتعلق بشركتي الهنـد الشرقية والغربية وهذا هو موضوعنا الذي يتعين أن نلتفت إليه الآن.

ب- في الخارج

يبـدو أن كلا من لـوثـر وكالفن وزوينجلي وغيرهم من زعماء الاصـلاح البروتستـانتيين، لم يـولـوا اهتماما كبيراً، وربما لم يفكـروا قط في امكـانيـة انتشار البروتستانتية خارج أوروبا، وإنما شغلتهم، كما هو الواقع، النزاعات الدينيـة القاسية على أرضـهم. ولم يكن مـن المبرر عقلاً أن نتوقع من مـديري الشركتين الهندية الشرقية والهندية الغـربية ان يشغلوا بالهم ويبدوا اهتماما كبيراً بمشكلة التبشير بالانجيل التي أغفلها الآباء المؤسسون للبروتستانتية. ولكن سرعان ما اضطر المديرون إلى مـواجهتها بطريقتين. أولاً كان عليهم أن يقـدموا شيئـاً يشبع حاجـات مستخدميهم، حتى ولـو على سبيل المساعـدة للحفاظ على الانضباط والاخلاق في رحلاتهم البحرية الطويلة أو أثناء اقامتهم في البلدان الاستوائية، ثانياً، كـان عليهم أن يضعوا في حسبانهم وجود النزعة الكاثوليكية الرومانية النشطة في المناطق التي استقر فيها قبلهم البرتغاليون، وزاد الأمر بالنسبـة لشركة الهند الشرقية إذ بات لـزاما أن تضع في الحسبان المذاهب الدينية والاجتماعية ذات الجذور العميقـة مثل الاسلام والهندوسية والبوذية.

وعلى الـرغم من أن صكـوك انشـاء الشركتين لم تتضمن أي نص بشأن الابقاء على رجـال الدين الكالفنيين في مجالاتهم الخاصة أو أي التـزام بالعمل على نشر نور «العقيـدة المسيحية الاصلاحيـة الحقة» بين الكاثـوليك الجهلة وعبدة الأوثان الذين عميت بصائرهم، إلا أن كلتا الشركتين سرعان ما اعترفتا بأنهما تتحمـلان عبء هذا الالتـزام. ونجد كتـاباتهما الرسميـة تشتمل على العديد من الاشارات الى هـذه الأمور. ولم يكن أداء الشركتين دون انجاز هذه

القواعد كما يزعم البعض كثيراً. ذلك أنه على مدى قرنين هما عمر شركة الهند الشرقية الهولندية أرسل المديرون إلى الشرق وأبقوا على نفقتهم الخاصة ما مجموعه حوالي ١٠٠٠ واعظ كالفني وعدة آلاف من الوعاظ الذين لا يعملون رجال دين والمدرسين. ووفر مجلس ادارة الـ ١٧ الأموال اللازمة لبناء وصيانة الكنائس والمدارس، كما أسس العديد من الحلقات الدراسية لتدريب الطلاب المرشحين للعمل كهنة، وان لم تعمر هذ المؤسسات طويلاً. وتحمل المجلس أيضاً تكاليف طبع وتوزيع الكتاب المقدس وآداب الوعظ الديني على نطاق واسع، سواء باللغة الهولندية أو باللهجات الهولندية أم باللهجات العامية الدارجة. وإذا كانت جهود مجلس ادارة الشركة الهولندية في مجال الوعظ الديني لم تكن مؤثرة وفعالة قياسا بجهود كنيسة روما، إلا أنها يقينا كانت أكبر كثيراً من جهود مديري شركة الهند الشرقية الانجليزية خلال الفترة ذاتها.

وإذا كان مجلس ادارة الـ ١٧ تأثر حقاً، وبصورة كافية، بالخلفية الكالفنية وبضغوط رجال الدين داخل الوطن، من أجل عمل شيء تأييداً «للعقيدة المسيحية الاصلاحية الحقة». في الشرق، فإن أعضاء المجلس قرروا بحسم كذلك أن يفرضوا تبعية الكنيسة فيما وراء البحار لسلطانهم هناك. إذا أصروا على أن يكون الأمر بين الحكام هناك، فيحددون لرجال الدين والوعاظ مكان مباشرتهم لمهامهم ومدة العمل بدلاً من أن يتركوا الأمر لمجالس الكنائس تديره حسب مشيئتها. ومارس الحاكم العام ومجلسه في باتافيا حقهما في المراقبة والاطلاع على جميع المراسلات التي يبعث بها الوعاظ ومجالس الكنائس في الشرق إلى سلطات الكنيسة في الأراضي المنخفضة. كذلك أصر مجلس ادارة الـ ١٧ على أن يحضر الموظفون العلمانيون العاملون بالشركة جميع اجتماعات مجالس الكنائس، وألا تكون قرارات هذه المجالس سارية المفعول إلا بعد موافقة موظفي الشركة وتعاونهم مع المجالس في تنفيذها. وكان الوعاظ يتقاضون أجورهم من الشركة لا الكنيسة، ومن ثم نظر إليهم

المديـرون باعتبـارهم مـوظفين لديهم ومـأجورين لهم، وأن وضعـه في سلم المراتب الوظيفية للشركة عنـد قاع السلم الاجتماعي. أخيراً فإنه على الرغم من اعتراف مجلس الـ ١٧ بضرورة أن يتـولى مهام التبشير قسـاوسة مـؤهلون وأكفاء، إلا أنهم أغلقوا المدرسة المخصصة للتدريب على التبشير التي سبق أن أقامـوها في ليـدن عام ١٦٢٢ بعـد ان استمرت في العمل عشر سنـوات فقط. وبعد ذلك رفضوا المطـالب التي تقدم بها وألح من أجلها مـرارا أبناء الطبقات واعضـاء المجـامع الكنسية في الأراضي المنخفضـة من أجل إعـادة فتح هـذه المدارس أو اقامة غيرها. واستنـد المسؤولون عن الشركة في رفضـهم إلى حجج تتعلق بالوضـع الاقتصـادي، زاعمين ان بالامكان تدبير القسـاوسة اللازمين دون حاجة الى هذه المؤسسة، ولعل السبب المرجح لهذا هو ما أوضحته الخبرة العملية لهم من أن خريجي مدرسة تدريب الـوعاظ كانوا أقل طواعية وامتثالا لموظفي الشركة من الوعاظ الذين اختارهم مـديرو الغرف الاقليمية وتوسموا فيهم سهولة الانقياد.

وإزاء هذه التبعيـة الصارمة التي تخضع فيهـا الكنيسة للدولـة – تبعية الـرب لشيطـان المال – ليس لنـا أن نـدهش حين كشفت خبرة شركـة الهنـد الشرقيـة الهولنديـة عن معانـاة كبيرة في سبيل الحصـول على العدد الـلازم والملائم من الوعاظ للخدمة في الشرق. وتعـذر على الشركة أيضا الإبقاء عليهم هناك مددا طـويلة في ظل ظروف مثيرة للإحبـاط بل ومذلة أحيـانا. ويصدق نفس الشيء ، مع اجراء التغييرات الضرورية، بالنسبة لـرجال الدين والوعاظ الذين عملوا فيما وراء البحار في خدمة شركة الهند الغربية، وللأسباب نفسها. وبغض النظر عن أي شيء آخـر فقد انقضى وقت طويل الى حين توفـر العدد الكافي من القساوسة الكالفنيين في المقاطعات السبع لاشباع الحاجات الروحية لأبناء مجتمعاتهم وتثبيت أقدامهم حتى لا يضعفوا أمام الكاثوليك الرومان أو المنشقين البروتستانت. وثمـة عامل آخـر جعل من العسير تعبئة القسـاوسة والوعـاظ الملائمين للخدمة في جزر الهنـد وهو نوع المعاملـة التي يتلقونها إذ

كـانـوا يعـاملون بـاحترام أقل كثيراً ممـا اعتـادوا في أرض الـوطن، إذ كـان مستخدمو الشركتين الهنديـة الشرقية والهندية الغربية يتصفـون بالصفاقة والغلظة – ونجد أنهم كانوا يوصفون بعبارات مثل «حثالة المجتمع الهولندي» و«الأجلاف الذين أتـوا مع حضيض المجتمع الألماني» .... الخ – ولا غرابة ان تشتعل الخلافـات مـرارا بينهم وبين نظرائهـم من رجال الـدين العـاملين في الشركة. واعتـاد مجلس إدارة الــ ١٧ أن يصدر بين الحين والآخـر أوامر إلى رؤسائه لمعاملة رجال الدين والوعاظ بما يليق بهم من احترام حسب ما تقضي به التعليمات. بيد أن المراسلات الرسمية وحكايات الرحالة زاخرة بمزاعم عن عجرفة رجـال الدين وقصورهم من نـاحية وعن الكبرياء الدنيـوي ومشاعر العداء لرجال الدين على الجانب الآخر. تلك كانت، على أقل تقدير، هي الظروف السائدة خلال القرن السـابع عشر. وخلال القرن الثامن عشر تحسنت كثيراً المكانة الاجتماعية للوعاظ في شركتي الهند الشرقية والهند الغربية.

ومن المشكلات الأساسيـة التي واجهت الوعاظ في عملهم في الشرق ليس أنهم «استدعوا» للعمل في خدمة أبـرشية أو جماعة لمدة سنوات طويلة – كما هو الحال في الأراضي المنخفضة – بل كانوا عرضة للنقل بعد فترة قصيرة من مكان إلى آخر حسب نزوة الحاكم العام ومجلسه في باتافيا. وبغض النظر عن المتاعـب الشخصية التي تسببهـا هذه التنقـلات المتكررة، خـاصة بـالنسبة للقساوسـة المتزوجين، فإن هـذا يعني انه لم يتـوفر لأي منهم الـوقت الكافي لتعلم اللغة المحلية إذا كانت مهمته هي التبشير. وبالمقابل إذا ما بقوا، لنفرض أربع أو خمس سنـوات، في مكان واحـد وتعلموا لغة هـذه المنطقة، فـإنهم قد يجدون أنفسهم معينين للعمل في إقليم آخر حيث لا تنفعهم لغتهم ومعارفهم التي اكتسبـوهـا بشق الأنفس. وهـذه هـي واحـدة من أهم المشكـلات التي اعتادت مجالس الكنـائس في المستعمرات ان تشكـو منها مـر الشكوى والتي تحقق منها بعض كبار المسئولين في الشركة. لذلك نجد نيقولا فيربورج حاكم فـورمـوزا الهولنديـة من ١٦٥٠ الى ١٦٥٣ الـذي انتقـد بحدة الارسـاليـات

الكالفنية المحلية. يقترح أن يتعهد جميع من يـأتون للعمل في الجزيرة بالبقاء مدة عشر سنوات حتى وإن كلف هذا الاسلـوب الشركة أجورا أعلى. ولم يأخذ أحـد بنصيحتـه، ومن ثم فإن التغيرات المتكـررة التي طرأت على مـدة ولايـة العاملين أدت دون شك إلى إعاقة استمرارية المهام التبشيرية.

وعلى الرغـم من تكرار الشكـوى من سوء مستـوى الوعـاظ، إلا أن النقد الأشد قسوة انصب على صغـار مساعدي الوعاظ الذين كـانوا يسمون عادة «المعـزون للنفوس التعبـة» و«زوار المرضى». ويجرى تجميع هـؤلاء من بين أبناء الطبقـة العاملة وحدهـا على وجه التقريب ونجـد من بينهم جنود جيش سابقين وخياطين واسـاكفة ونساجين وخبازين .. الخ. والقليلـون جدا منهم من توفـرت لديهم المبادىء الأوليـة من التدريب على تعليم الفقـه الديني، ولم يكن مسموحـا لهم بتقديم العظات ارتجالا أو الصلاة عفـو الخاطر بل عليهم قراءة النص مكتـوبا. ويصف أحد الرحـالة مهامهم على ظهـر السفن في عام ١٧٠٣ بقوله: «تلاوة صـلاة الصبح وصلاة المساء من كتيب صغير، وترتيل بعض آيات المزامير. ويتعين عليهم في أيام الآحاد قراءة إصحاح أو عظة كاملة وترتيل مزمور أو ترنيمة في البداية وفي النهاية. وإذا كان هناك مريض حضره الموت فإن معزى الروح التعبة يقوم بتشجيعـه ويرتل أمامه بعض الصلوات ويساعده على استجماع إرادته، ويشد أزره. وهؤلاء المقرئون كانوا يعملون في خـارج البـلاد معلمي ابتدائي وزوارا لمرضـى المستشفيات أو مهـام أخـرى مماثلة يؤدونها تحت اشراف الوعاظ.

وبدأت الشكـاوى من قصور وعدم صـلاحية هؤلاء المقرئين منـذ العقد الثـاني من تاريخ انشـاء شركة الهنـد الشرقيـة الهولنديـة، واستمرت طـالما استمرت الشركـة. والملاحظ أن البحارة كانـوا مستائين أشـد الاستياء منهم خاصة بسبب أصولهم الاجتماعية إذ أنهم من أبناء الطبقة العاملة، فضلاً عن أنهم شغلوا مرتبة تعادل مرتبـة ضباط السفينة دون القيام بأي عمل يدوي أو مـلاحي. وبـدلا من تسميتهـم «زوار المرضى» أطلقـوا عليهم اسم «زوار

الشراب» بسبب اتهامهم بالانغماس في أعمال تجارية خاصة وحياة متحللة. وثمة حادثة تكشف عن نوع المعاملة الساخرة التي كانوا يتعرضون لها. ذلك أن الحاكم المحلي لبلدة تامسوي في فورموزا عام ١٦٥٠ طلب أحد «زوار المرضى» الحضور لزيارة مريض وعندما سأل عنه وعن مكانه، قدموا له برميلاً من العرق وطلبوا منه الصلاة لشفائه. وطبيعي ان هذا لم يكن قاصرا على الهولنديين وحدهم. والملاحظ ان الوعاظ لم يكونوا ليقدموا أي مساندة أو دعم لهؤلاء المقرئين وان كانوا اكفاء، إذ كانوا يزدرونهم وينظرون اليهم بعين الحسد لأنهم يشغلون مكانتهم. وقليلون منهم من أصبحوا قساوسة. ولا غرابة في هذا نظراً لأن القليلين جدا منهم هم الذين يعرفون مبادىء اللاتينية التي تعتبر شرطا من شروط العمل قسيسا. وإذا كانت كل الشواهد تشير إلى انخفاض مستوى هؤلاء المقرئين، إلا أن هذا لم يمنع ظهور استثناءات قليلة ولم يحل دون قيام بعضهم بالعمل كمدرسين أكفاء في فورموزا وسيلان.

أما إلى أي مدى كانت تبعية الكنيسة الاصلاحية الهولندية في آسيا الى السلطة المدنية فهذا ما تأكد بصورة مثيرة في عام ١٦٥٣. ففي أكتوبر من العام نفسه أصدر الحاكم العام والمجلس أمراً بإقامة صلاة شكر وصوم يوم بمناسبة ذكرى انتصارات هولندا على «المتمردين» في ملوقا، والصلاة من أجل انتصارات جديدة للجيش الهولندي. وخاطر مجلس كنيسة باتافيا بانتقاد هذا القرار على أساس أن الحرب في أمبوينا لم تكن حربا عادلة، وانما دفع اليها السلوك الاستبدادي السيء من جانب الهولنديين أنفسهم – كما كان بالفعل وأفضى هذا الاعتراض الى أن وجَّه الحاكم العام الى المجلس توبيخا قاسيا، واتهم اعضاء مجلس الكنيسة بعدم الوطنية وأنهم أعطوا انطباعا سيئا عن تجارة الشركة التي تجرى بدافع أخلاقي قويم. وكان رد فعل المديرين في امستردام أشد عنفا وأصدروا أوامرهم بأن أي واعظ يتجرأ على تقديم مثل هذا الانتقاد في المستقبل يفصل فوراً من الخدمة ويرسل الى الأراضي المنخفضة على ظهر أول سفينة مسافرة. وقبل ان تصل هذه البرقية الى باتافيا

أتى مجلس الكنيسة المحلية خاضعا ذليلاً لينفذ تعليمات الحاكم العام. وتخلص الوعاظ الذين تفوهوا بالنقد من ترحيلهم بأن قدموا اعتذاراً مهينا وتراجعوا عما قالوه. وفي حدود علمي فإن الشركة لم تتلق أي نقد آخر بعد ذلك من الكنيسة الاصلاحية الهولندية بشأن الحروب سواء أكانت حربا عادلة أو غير عادلة.

وقعت هذه الحادثة وقتما كان جوهان ما يتسوكر حاكما عاما لفترة طويلة (١٦٥٣–١٦٧٨) وهو الذي تعلم في جامعة لوفان الكاثوليكية الرومانية وكانت الشكوك تحيط بالتزامه البروتستانتي. والملاحظ انه حتى الكالفنيون المتزمتون من أمثال جان بيترزون كوين، وانطوني فان ديمين وريجكوف فان جوينز الأكبر لم يترددوا في اتخاذ موقف متشدد إذا ما ساورهم شك في أن الوعاظ يتدخلون في أمور خارجة عن نطاق تخصصهم الديني. علاوة على هذا فقد لوحظ انه كلما وقع نزاع بين السلطة المدنية والسلطة الدينية كان الحاكم العام ومجلسه في باتافيا والمديرون في أرض الوطن يأخذون دائما جانب الطرف العلماني. وقد يحدث أحيانا أن يطلب مجلس ادارة الـ ١٧ مشورة المجامع الكنسية فيما يتعلق بنقاط محدودة تخص العقيدة أو نظام الكنيسة. بيد أنهم اوضحوا بما لا مزيد عليه ان القرار النهائي قرارهم هم. وإذا تعارضت مصالح الشركة مع مصالح الكنيسة فإن الغلبة دائماً للأولى. وفي هذا كتب المديرون الى ما يستوكر ومجلسه في ١٢ إبريل ١٦٥٦ «طبيعة الحكم لا تحتمل سلطتين متساويتي القدر من حيث المراقبة، تماما مثلما لا يوجد جسد له رأسان، ولهذا يتعين أن تكون للسلطة المدنية الهيمنة الكاملة المطلقة على السلطة الدينية».

ومن هنا يتعين علينا النظر إلى النشاط التبشيري الكالفني في جزر الهند الشرقية والغربية في ضوء هذه التبعية الصارمة التي تخضع فيها الكنيسة للدولة. لقد كانت الكالفنية التقليدية في أرض الآباء من القوة بحيث تضمن اصدار تعاليم محددة من شركة الهند الشرقية الى الحاكم العام ومجلسه في

عـام ١٦٥٠ وتنص على ضرورة التـزام حكـومتـه في جـزر الهنـد الشرقيـة بالعقيدة المسيحية الاصلاحية الحقة حسب المعنى الذي حدده المجمع الكنسي في دوردرشت في عـامي ١٦١٨-١٦١٩ وعلى ألا يسمح للعامـة بممارسة أي عقيدة أخرى، وان لا تسامح على الاطلاق مع الكاثوليكية. ولكن عمليا لم يكن موظفو الشركة في آسيا عادة شـديدي التزمت كما توحي هذه التعليمات، وان تباين موقفهم باختلاف الأوقات والأمـاكن والظروف. وعلى أية حال نادرا ما كان المديـرون يصرون على التزمت الحرفي في تطبيق السياسة الـرسمية. ولم يكن بـالامكان فـرضـها قسرا إلا في الأمـاكن التي تتمتع فيها الشركـة بولايـة مطلقـة وحيث يمكنهـا ان تغفل - كما هـو الحال في بـاتـافيـا الحصينـة - حساسيات ملوك وشعوب البلـدان المجاورة. ولقد لزمت الشركة الحذر دائما وفي كل مكـان مثـال ذلك انـه في عـام ١٦٢٧ صـدرت الأوامـر الى البعثـات التبشـيرية في فـورموزا بالعمل على نشر المسيحيـة ولكن دون تطفل أو اقحام تجنبا لاثارة غضب حكام الصين واليابان الأقوياء والمجاورين لفورموزا.

ولقد كان الموقف الكالفني التقليدي من المنشقين البروتستانت في بلدان ما وراء البحار اكثر إمعـانا في عدم التسامح عنـه في أوروبا. إذ لم يسمح لاتباع لوثر بتشكيل محفلهم الأول المعترف به وإقـامة كنيستهم الأولى في باتافيا في عام ١٧٤٣-١٧٤٩. وامتد هـذا لأكثر من قرن حين نالـوا هذه الامتيازات في امستردام، ولكنهم تلقوا في الـوقت ذاته تقريبـاً اعترافا متأخراً عن مـوعده في كوراتشاو Curacao في جزر الهند الغربيـة. وجاءهم عصر التسامح متأخراً أكثر من ذلك في جنوب أفريقيا على الرغم من ارتفاع نسبة اتباع لوثر الذين هم من أصل الماني بين الجنود المستوطنين في منطقـة الكاب. ولم يسمح لهم بأن يكـون لهم قسيس خاص بهم في مـدينـة الكاب إلا في عـام ١٧٨٠. ولكن لم يحدث أي تـدخل في شئون العبـادة الخاصة للمنشقين البروتستـانت. وعني القساوسة الكالفنيون منذ البـداية إلى النهاية في الشرق بالحرب على جبهتين، ضـد عقيدتين نشيطتين نشـاط عقيدتهم ألا وهما الكـاثـوليكية الـرومانيـة

والاسلام.

ومنيت الدعوة الكالفنية في الشرق بعوائق ثلاثة. أولاً: رسوخ الكاثوليكية الرومانية في مناطق كثيرة. ثانياً: استهوت الكنيسة الكاثوليكية بألوانها الزاهية المصاحبة للعبادة وبهاء احتفالاتها ذات الجمال الأخاذ أغلبية الأسيويين على عكس الكلمات الجافة التي يرددها الكالفنيون وكنائسهم الخالية من أي مسحة جمال. ثالثاً: البعثات التبشيرية الكاثوليكية الرومانية أكثر عدداً ونشاطا من البعثات البروتستانتية المنافسة لها. ولنبدأ بالحديث عن النقطة الأخيرة. ففي عام ١٦٤٧ لم يكن هناك سوى ثمانية وعشرين قسيسا كالفنيا على طوال المنطقة الممتدة من سيلان وكورومانديل الى مولقا وفورموزا. وفي باتافيا التي قدر عدد سكانها في عام ١٦٧٠ بحوالي ٢٠٠٠٠ نسمة وفي عام ١٧٦٨ بحوالي ١٦٠٠٠ نسمة لم يكن بها سوى ستة وعاظ في عام ١٦٦٩، وثمانية وعاظ في عام ١٦٨٠، وسبعة وعشرين واعظاً في عام ١٧٢٥ واثني عشر واعظا في عام ١٧٤٩. وبحلول نهاية القرن الثامن عشر لم يبق منهم سوى واحد أو اثنين فقط. وهذه أعداد غير ذات بال إذا ما قورنت بأعداد القساوسة البرتغاليين والأسبان والفرنسيين والايطاليين الذين عملوا في مجال التبشير لحساب الكنيسة الكاثوليكية الرومانية في آسيا. مثال ذلك أن الجماعات الكاثوليكية الرومانية التي كانت تعيش في سيلان خلال القرن الثامن عشر كان لديهم عادة قساوسة – على الرغم من وجودهم غير القانوني في الأراضي الهولندية – أكثر بكثير من الوعاظ العاملين في المحافل البروتستانتية علاوة على هذا، وكما أشرنا سابقا، غالبا ما كان الوعاظ البروتستانت رجالا متزوجين تنقلوا كثيرا من موقع وظيفي الى آخر، بينما الواعظ الكاثوليكي أعزب ومستقر في عمله لا ينتقل منه الا بعد سنوات طويلة – وغالبا ما يبقي فيه مدى الحياة.

أما عن جاذبية الدعوة الكاثوليكية الرومانية فهذا ما يبين لنا بوضوح من سؤال وجهه أنطونيو كارديم، الجيزويتي البرتغالي، وقتما كان سجينا في ملقا

في عام ١٦٥٢. إذ سأل واعظا هولنديا هناك لماذا يتسامح الهولنديون إزاء المساجد الاسلامية ومعابد الوثنيين دون الكنائس الكاثوليكية الرومانية. وأجاب الواعظ الهولندي بصراحة قائلاً. إذا سمحت السلطات بكنيسة كاثوليكية رومانية فإن شعبه سيتركه ليذهب اليها. وهذه هي الحقيقة في أبسط صورها.إذ على مدى عمر شركة الهند الشرقية الهولندية عجز الواعظ الكالفني عن أن يكون ندا للواعظ الكاثوليكي الروماني. ان المجتمعات الأوروبية الآسيوية في باتافيا وملقا وكوروماندل وسيلان وملبار كانت، كلما اتيحت لهما الفرصة تترك الواعظ البروتستانتي يعظ داخل مقصورة فارغة بينما يقبلون على سماع قداس أو تعميد أطفالهم أو اقامة مراسم زواجهم على يد قسيس كاثوليكي روماني متنكر. وحسب وجهة النظر البروتستانتية فإن دورة العقيدتين دورة دينية تعادل قانون جريشام، حيث «الوثنية البابوية» تكسب أرضا دائما على حساب «العقيدة المسيحية الاصلاحية الحقة».

كذلك تأكد وبنفس القدر تفوق العاملين في مجال التبشير الكاثوليكي وأسلوبهم على مناهضيهم. ونذكر هنا كلا من كوين وفان ديمين وهما اثنان من بين كثيرين من الكالفنيين العلمانيين ذوي المناصب الرفيعة واشتكوا من نجاح البابويين، كما كانوا يسمون القساوسة الكاثوليكيين الرومانيين. وفي هذا الصدد كتب فان ديمين الى مجلس ادارة الـ ١٧ في عام ١٦٣١ فقال: «الاسبانيون في هذا المجال أقوى منا بكثير، ويبدي قساوستهم حماسا ومهارة أفضل من وعاظنا.» وقيل نفس الرأي عن الوضع التبشيري في فورموزا في الوقت الذي بدا فيه ان الوضع مواتٍ تماما أمام الهولنديين الساعين إلى غرس بذور الانجيل هناك وتكررت القصة ذاتها في سيلان. إذ بعد توقيع الهدنة مع البرتغاليين في عام ١٦٤٤، لاحظ مجلس كنيسة باتافيا ان البابويين أقدر على «تشكيل جنينهم الشائه المبتسر» في ظل أسوار القلاع التي يسيطر عليها الهولنديون. وتوارت شكاوى مماثلة ولا نهاية لها من سولو وملقا ومن كل منطقة تلاقت فيها العقيدتان. وأكثر من هذا أنه بعد طرد

جميع القساوسة البرتغاليين من سيلان عام ١٦٥٨ بقيت الكاثوليكية الرومانية وانتعشت من جديد بفضل جهود القساوسة التبشيريين في جوان الذين عملوا سرا بين التاميل والسنهاليين.

وكان لهذا الوضع أصداؤه الواسعة في أوروبا حيث حاول القسيس البروتستانتي الفرنسي بيير جوريو ان يفند وهو في منفاه الاعتقاد الشائع بأن البروتستانتيين، على عكس الكاثوليك الرومان، أبدوا حماسا ضئيلاً ولم يكونوا متحمسين على الاطلاق لنشر المسيحية فيما وراء البحار. وكم هو غريب حقاً أنه لم يذكر القصة الموفقة نسبيا (وان كانت قصيرة الأجل) والتي تحكي نجاح التبشير الهولندي في فورموزا. ولكنه حكى عمليات التحول الجماعية التي تولاها كل من جون كوتون وجون اليوت بين صفوف الهنود الحمر في نيوانجلاند. ولم يكن هذا مثالا مقنعا تماما، حيث انه لم يكن يدرك، على ما يبدو، ان الحروب الهندية التي اشتعلت عام ١٦٧٥ دمرت كل آثار هذا النجاح العابر. وكان جوريو في وضع أكثر أمنا حين سلم بأن أحد أسباب ضآلة عدد البعثات التبشيرية البروتستانتية في الشرق هو عدم توفر العدد الكافي من القساوسة الكالفنيين في المقاطعات المتحدة والذين هم أهل ليكونوا أندادا للكاثوليك الرومان وللمنشقين البروتستانت داخل البلاد.

ومثلما اعتادت المجامع الكنسية في الأراضي المنخفضة الاحتجاج، لكن دون جدوى في غالب الأحيان، على السلطات المدنية لعدم التزامها بتطبيق قوانين العقوبات الصادرة ضد ممارسة الشعائر الكاثوليكية الرومانية، كذلك فعل الوعاظ في باتافيا. إذ دأب هؤلاء، ودون جدوى أيضا، على الاحتجاج بسبب «الحرية والتكريم والمحاباة التي يحظى بها، على حد زعمهم، القساوسة الكاثوليك الرومان» هناك. ولم تلق هذه الاحتجاجات تأييدا ملحوظا من جانب مجلس ادارة الـ ١٧. فقد أكد هؤلاء، على الرغم من تسليمهم بضرورة تعزيز الجهود المناهضة للتنظيمات الكاثوليكية الرومانية، أن من المستحيل منع القساوسة الكاثوليك الرومان من التوجه الى الشرق وهم

متنكرون. ولم يكن الحكام العامون في باتافيا اكثر عونا، خاصة وأن الشكوك تحيط بمدى التزام بعضهم من أمثال مايتسوكر وفان دير ليجن. ومن المسلم به أن أحداثا وقعت، مثل تمرد المستوطنين البرتغاليين في برنامبكو الخاضعة لسلطان الهولنديين في عام ١٦٤٥، وأفضت الى تشديد القيود المفروضة ضد الكاثوليك الرومان فور وصول أخبار هذه الأحداث إلى باتافيا. بيد أن ردود الأفعال هذه استمرت فترة قصيرة وسرعان ما عادت الأوضاع إلى حالة التراخي السابقة. وفي عام ١٧٥٤ سمحت سلطات باتافيا لأسقف كاثوليكي روماني متنكر نسبيا، وان كانت السلطات تعرف هويته جيداً، بأن يقوم بطقوس التعميد ومراسم القداس دون تباه ظاهر على الرغم من الاحتجاجات الشديدة التي قدمها مجلس الكنيسة الكالفني. ومع نهاية سلطان الشركة أضحت اللوائح المناهضة للكاثوليك الرومان حبراً على ورق، على الرغم من أول كنيسة كاثوليكية رومانية أقيمت في باتافيا كانت في عام ١٨٠٩ وليس قبل ذلك.

لقد كان شعار فريق «شحاذو البحار» البروتستانتي في عام ١٥٧٤ «الأتراك خير من البابا». ولكن الكالفنيين الرواد في جزر الهند الشرقية لم يكن أمامهم فارق كبير للاختيار بين هاتين الصورتين المناهضتين للمسيحية. وإن صفات الازدراء التي كالتها بحرية وسخاء المراسلات الهولندية الرسمية والخاصة ضد الكاثوليك الرومان صبوا مثلها على انصار الاسلام – حتى بلغ الامر حداً جعلهم يصفون فقهاء الإسلام، وبخاصة الحجاج، بنعوت لا تتفق مع عقيدتهم كأن يسمونهم «البابوين المسلمون». وتحالف الهولنديون في البداية مع المسلمين في ملقا ضد البرتغاليين. ولكن ما أن تم طرد الكاثوليك الرومانيين من جزر التوابل حتى شرع الكالفنيون في مناصبة المسلمين العداء. وانحاز كثيرون من البروتستانت انحيازا كاملاً ضد المسلمين على نحو ما قيل في جابارا عام ١٦١٨. ودخل الهولنديون في مناقشة مع خصومهم المسلمين أو منافسيهم التجار في جاوا وسومطرة، وملقا وسليبيس. وأثرت

هذه المنافسة تأثيراً قوياً على موقفهم من المسلمين في أماكن أخرى ومن ثم سنوا القوانين التي تحظر أداء الشعائر الإسلامية تماما مثلما فعلوا مع أتباع كنيسة روما، وحينما رأوا أن بالإمكان فرض هذه التشريعات. وسرعان ما أدركوا، مثلما أدرك من قبلهم البرتغاليون. أن لا مجال لتحويل المسلمين الى المسيحية في أعداد لها قيمتها ووزنها. ولهذا ركزوا جهودهم لهداية الناس على «الوثنيين الضالين» وعلى الطوائف الكاثوليكية الرومانية في المجتمعات التي استولوا عليها من البرتغاليين.

وبعد أن تم اخضاع ماكاسار نهائيا في عام ١٦٦٩، أصبحت السلطات الهولندية تدريجيا اكثر فأكثر تسامحا مع الإسلام، وتراخى تزمتها رويدا رويدا ازاء المسلمين في الأراضي الأندونيسية، وظلت القوانين المناهضة للإسلام ضمن مجموعة قوانين باتافيا. ولكن كلما حاول القساوسة الكالفنيون فرض هذه الأحكام، صادفوا تعاونا ضئيلاً من جانب الحكومة. وأعلن مجلس إدارة الـ ١٧ موقفه الرسمي من هذا إذ قرر عدم ممارسة أي ضغوط ضد الاندونيسيين لحثهم على تغيير دينهم. وبعد سبع سنوات رفض كامفيوس الحاكم العام (وهو كالفاني صادق العقيدة) احتجاجاً من كنيسة باتافيا بسبب المعابد الصينية والمساجد الاسلامية المحلية «التي كثر عددها» ويتعين إزالتها. وأبلغ كامفيوس رجال الدين الكالفنيين أن الخير في دعوة المسلمين والوثنيين إلى المسيحية بالكلمة الطيبة والقدوة الحسنة. أما حكومة باتافيا التي كانت في البداية تأبى السماح للمسلمين الراغبين في السفر إلى مكة للحج بالسفر على متن سفنها التجارية الى البحر الأحمر، فقد غيرت اتجاهها الى العكس تماما ودخلت في منافسة من أجل نقل الحجاج. وخلال القرن الثامن عشر أصبح التسامح مع ممارسات الشعائر الدينية غير المسيحية قاعدة عامة، على الرغم من أن هذا استغرق قرنا كاملا ليصل إلى غايته في سيلان حيث التجار المسلمون كانوا بأعداد غفيرة يعملون تجار تجزئة أو تجارا جائلين. واتخذ الهولنديون هنا، مثلما اتخذوا في أماكن أخرى، إجراءات

وتدابير قاسية ضد أنصار الإسلام، بل كانت أشد قسوة من إجراءاتهم ضد الهندوس والبوذيين. وامتدت التفرقة تشريعيا واقتصاديا ضد المسلمين زمنا طويلاً، إذ أكرهوا على دفع رسوم وضرائب أعلى من غيرهم.

ولم تحقق البعثات التبشيرية الكالفنية سوى نجاح متواضع في أماكن ثلاثة فقط، وبتأييد من شركة الهند الشرقية، وهي فورموزا وأمبوينا وسيلان. ولم يدم هذا النجاح بعد انتهاء الشركة إلا في أمبوينا ولفترة محدودة. ولقد كان جورجيوس كانديديوس، أول واعظ في فورموزا (١٦٢٧-١٦٣١)، على صواب إذ تنبأ بوجود فرصة طيبة لغرس المسيحية في هذه الجزيرة نظراً لأن سكانها الأصليين لم يخضعوا لأي مؤثرات دينية خارجية، ثم ان ديانتهم هي العقيدة الاحيائية البدائية التي تقوم عليها قسيسات أو ساحرات يسمين انيبس Inips. وفيما بين عامي ١٦٢٧-١٦٦٢ عمل اثنان وثلاثون واعظا في المناطق الساحلية الخاضعة لسلطان الهولنديين وساعدهم عدد كبير من المقرئين العلمانيين ومعلمي القرية. وأحرزوا في البداية تقدما بطيئاً على الرغم مما أبداه كانديديوس من تفاؤل حين أعرب عن اعتقاده بأن أطفال مدارس فورموزا يمكنهم أن يتعلموا خلال ثمانية أيام ما يتعلمه صبية هولندا أو جاوة في اسبوعين. واعتمدت الارساليات الكالفنية على مساندة السلطات العلمانية لرفض مستوى من تحولوا الى عقيدتهم على أيديهم وذلك بجعل الالتحاق بالمدارس الزاميا وتغريم من يتغيب منهم وحظر ممارسة شعائرهم. وفي أوائل العقد الخامس من القرن السابع عشر أبعدت السلطات المئات من الاينبس الى خارج المناطق الخاضعة لسلطان هولندا وبذلك خلقت فراغا روحيا بين السكان الأصليين مما سهل عمل الوعاظ.

ومثلما اكتشف الرواد من أعضاء الارساليات التبشيرية البرتغالية في أماكن أخرى، تبين ان الفرصة مهيأة أكثر لتحويل الأطفال عن عقيدتهم، ذلك أن تحويلهم أيسر من تحويل آبائهم. ولهذا ركز القساوسة الكالفنيون جهودهم على الجيل الصاعد. وكانت أداة التعليم في مدارس القرية اللهجات

المحلية الســائدة في هذه القرية أو تلك ثــم بدأت الجهود الراميــة الى استخدام الهولندية في النجاح منذ عام ١٦٥٠. وأصبح بعض الوعاظ خبراء متميزين في اللغات وألفوا كتابا في الصلاة بخمس لغات محلية على الأقل. ولم يكن الحكام الهولنديــون في كاستل زيــلانديــا على ثقة من استمــرار العديــد من عمليات التحول العقيــدي التي ادعاهــا الوعــاظ. مثال ذلك ان الحاكم نيقــولا فيربرج أعلن في عام ١٦٥٤ أن الأطفال يتعلمون العقيــدة كالببغاوات دون أي فهم لما يرددونــه. وقال أيضاً أنــه إذا ما أفرزت الآلاف المؤلفــة واحدا فقط تحول عن فهم وأصالــة، فإنني وبفرحة مسيحيــة صادقة سأهدي الكنيســة ومدارس فورموزا ألف جلدر». ونعرف أن فيربرج كــان مناهضا لرجال الدين ومن ثم فإن نقــده لهم غير منزه عن الهوى. وأنــه لصحيح انه حينما غــزا الصينيون بقيادة كوشينجا (شن شن كونــج) الجزيرة في عام ١٦٦١ تضامنت الأغلبية الساحقــة من سكان الجزيرة الاصليين مع الغزاة ضــد سادتهم الأوروبيين، ولكن من الصحيح أيضا أنهم أسفوا لإبدال الملك لــوج بالملك ستورك. وجدير بالذكر أن المبشر الجيزويتي دي ميلا الذي زار الجزيرة عام ١٧١٥وجد آثاراً واضحة للمسيحية البروتستانتية التي غرسها الهولنديون. ولا يزال كثيرون من السكان الأصليين يحتفظون بكتب هولنــدية يستطيعون قراءتها كما وأن بعض الأحرف الــرومانيــة التي يستخدمهــا الهولنديــون في كتابــة اللهجات المحلية ظلت باقية حتى النصف الثاني من القرن التاسع عشر.

ولكن الطبيعــة الثلاثيــة لمهام القســاوسة الكــالفنيين في الجزيرة عــاقت جهودهم هناك. إذ علاوة على مهمتهم التبشيرية كان عليهم الوفاء بالمتطلبات الروحية للمقيمين الهولنــديين ورجال الحاميات الهولنديــة، ثم مهام التفسير (حتى عــام ١٦٥١) وجباة ضرائب ومنح تــراخيص للاتجار في جلــد الغزال الذي كــان أحد اقتصاديــات الجزيرة الأساسيــة. وباستثنــاء هذا المزيج من الأعمال الدينيــة والدنيويــة فإن جهود الــوعاظ عاقهــا واقع أنهم لا يبقون في مكانهم بالجزيرة لأكثر من إحدى عشرة سنة، وأكثرهم لا يبقى سوى عامين

أو ثلاثة. وإذ تصادف أن كان بعض الحكام المحليين عونا للمهام التبشيرية فإن بعضهم الآخر وجهوا سهام نقدهم لجهود الوعاظ. والحق يقال، إنه على الرغم من كل شيء، فإن النجاح الذي تحقق في هذا المجال يرجع الفضل فيه إلى الوعاظ ومعلمي القرى ومساعدي الوعاظ. وان الواعظ الذي زعم انه وحده ضم الى عضوية الكنيسة الاصلاحية اكثر من خمسة آلاف شخص من كبار السن في فورموزا، كان يستهين بسامعيه أو أنه على أحسن الفروض مبالغا في تفاؤله. بيد أن الشواهد التي حكاها الجيزويتي دي ميلا عام ١٧١٥ تبين أن جميع سكان البلاد الأصليين الذين ارتضوا المسيحية دينا إنما فعلوا ذلك لمغانم فردية.

وعندما حل الهولنديون محل البرتغاليين في أمبوينا في عام ١٦٠٥ اكتشفوا ان الارساليات التبشرية للجيوزويت حولت ما يقرب من ١٦٠٠٠ من سكان الجزيرة والجماعات المجاورة لها، على الرغم من أن معظم الناس كانوا لا يزالون على دينهم إما مسلمون أو مؤمنون بالعقيدة الإحيائية. وبعد أن طرد الهولنديون الارساليات التبشيرية الكاثوليكية الرومانية، أصبحوا على ثقة من أنهم قادرون على منعهم من العودة ثانية إلى هذه المنطقة سواء عادوا علانية أم متنكرين – وهو ما لم يتحقق لهم في سيلان أو ملقا أو باتافيا. وبعد أن انقطعت صلة الكاثوليك الرومان بزعمائهم الروحيين بدأوا في التحول تدريجيا الى الكالفنية – أو إلى الإسلام – على الرغم من مضي عقود كثيرة قبل الارتباط بهذه العقيدة الجديدة. ويقدم لنا دو ميني فالنتين الذي خدم في هذه الجزيرة فيما بين عامي ١٦٨٦ و١٧١٢، شهادة بأنه لم يحدث سوى تقدم ضئيل جدا في نهاية القرن السابع عشر وأن أهالي جزيرة أمبونيا لا يعرفون شيئاً عن قواعد ديننا». ووجه اللوم في هذا الشأن إلى سلطات باتافيا والى التنقلات المستمرة بين الوعاظ قبل ان تتاح فرصة التعرف على اللغة أو على الناس. وهناك أيضا ستافورينوس الذي زار جزيرة أمبوينا بعد ذلك بثلاثة أرباع القرن وتحدث عن الوضع بلغة أكثر ازدراء. ولام في هذا

الشأن الـوعاظ المحليين «لاهمالهم وعـدم حماسهم». علاوة على أن النتيجـة السيئة للتحولات المتعاقبة التي طـرأت على عقيدة سكان الجزيرة سببها أنهم بعد أن كانوا وثنيين ضالين تحولوا أول الأمر إلى الكاثوليكية الرومانية ثم إلى البروتستانتية ولكن في صورة سيئة. وواضح ان هذه الانتقادات غير منصفة ولا عادلة أو لنقل إنها تنطوي على مبالغة. ذلك أن أهـالي جزيرة أمبوينا الذين تنصروا خلال فترة سيطـرة الشركة انما ارتبطـوا بالكالفنيـة ارتباطـا وثيقا. وهذه عملية بلغت أوجها في القرن التاسـع عشر وأدت إلى اتساع الهوة الفاصلة بينهم وبين زملائهم المسلمين من سكـان الجزيرة. وان تزايد ولائهم لـديانة حكـامهم البيض خلق تدريجيـا أواصر قويـة وتعاطفـاً بين سكان الجزيـرة المسيحيين وبين الهولنديين. وامتدت هذه الرابطة الى وقتنا هذا وهو ما تؤكده الآلاف من أهـالي جـزيرة امبـوينـا الذيـن لجأوا إلى الأراضي المنخفضة بعـد استقلال أندونيسيا.

وبـدا لحين من الوقت ان وضـع الكنيســة الكـالفنية في سيـلان مبشر في فورموزا على نحو أفضل مما هو في أمبوينا. ولكن العائد كان مخيبا للآمال. إذ عندمـا استطاع الهولنـديون أخيراً طـرد البرتغاليين من سيـلان عام ١٦٥٨ وجـدوا حـوالي ربع مليـون من أبنـاء سيـلان الأصليين يـدينـون بـالمذهب الكاثوليكي الـروماني، وأغلبهم في مملكة التاميل. وبينما كـان عدد من هؤلاء هم من المتنصرين ابتغـاء منفعة، أي قبلـوا الكالفنيـة وفاء لمصلحـة وتركـوا عقيدتهم في سهـولة ويسر بقي عدد كبير جـدا، وهو الأمر المثير للـدهشة على ولائه لإيمانه الجديد على الرغم من طـرد جميع القساوسة البرتغاليين فضلاً عن العوائق القانونية التي فـرضتها السلطات الجديدة وحالت دون الاعتراف العلني بديانتهـم. وتعززت قوة هذه النواة الصلبـة من المؤمنين وزاد عددهم. وان أسباب بقاء الكـاثوليكية الرومانيـة وصمودها في وجه المعـوقات المدنية والقانـونية. التي تعرض لها رعايـاها - وإن خفت حدتها تدريجيـا مع مرور الأيـام خـلال القرن الثـامن عشر - إنما هي أسبـاب واضحـة لا تخفى على

الباحث. فإن المظاهر الخارجية للطقوس والاحتفالات الدينية للكنيسة الكاثوليكية الرومانية تشبه كثيراً، وبصورة لافتة للنظر، مظاهر الطقوس والاحتفالات في العقيدتين البوذية والهندوسية التي سعت الكنيسة لتحل محلها. مثال ذلك استخدام الايقونات والمسابح وتقديس القديسين.. الخ. وان اجلال وتوقير البرهمانيين أو رجال الدين الهندوس وكذلك رجال الدين البوذيين يماثل توقير المسيحيين الكاثوليك الرومان لقساوستهم. ويختلف هذا اختلافا بينا بالنسبة إلى الوعاظ الكالفنيين ومن ثم فإن العناصر التقديسية – السحرية في الديانات الثلاث أوحت للمؤمنين من أبناء هذه الديانات بشعور من الأمن الروحي الذي عجز الكالفنيون عن أن يهيئوا مثله لأبناء مذهبهم بل ولم يكونوا راغبين فيه.

كان نشاط التبشير الهولندي موجها كله ضد الطائفة الكاثوليكية الرومانية ذلك لقلة عدد الوعاظ الهولنديين وجهلهم إلى حد ما بأسلوب العمل الملائم والمثمر بين الهندوس أو البوذيين أو المسلمين. واستطيع أن أقول في حدود معلوماتي المؤكدة أنه لم يكن في أي وقت من الأوقات ما جملته عشرون واعظا في سيلان. ونادراً ما نجد من بينهم من لديه القدرة أو الرغبة في دراسة لغات وديانات السكان الأصليين. نعم كانت هناك بعض الاستثناءات، مثل القسيس نيليبوس بالا ديوس الذي تعلم لغة التاميل، والقسيس جوهانز رooيل الذي تعلم اللغة السنهالية. ولكن جهودهم المبعثرة لم تكن لتؤثر على عقائد راسخة وبعيدة الجذور تاريخية مثل البوذية والهندوسية. علاوة على هذا، فإن موظفي الشركة وعلى الرغم مما أبدوه من رغبة شديدة في تحول الكاثوليك الرومان عن مذهبهم إذ كانوا يرون فيهم طابورا خامسا محتملاً، إلا أنهم كانوا عادة شديدي الحذر بالنسبة للتدخل في الشعائر الدينية والممارسات الاجتماعية للهندوس والبوذيين طالما وأن هذه الشعائر وتلك الممارسات لا تشتمل على مواكب ومظاهر احتفالية ضخمة أو غير ذلك من الطقوس «الوثنية» تقارب الكنائس المسيحية.

ونظراً لنـدرة الوعـاظ الأكفاء الذين هم على درايـة بلغة التـاميل أو اللغة السنهاليـة، فضلاً عن صعـوبة الاحتفاظ بهم لفترة طـويلة في الجزيـرة، لذا أقيمت حلقتان دراسيتـان لتدريب رجال الدين المحليين. وانعقـدت أول حلقة في تالور قرب جافينا باتام من ١٦٩٠ إلى ١٧٢٣، بهدف توفير الأعداد اللازمة للمنطقة التـي تتحدث لغـة التاميل. وانعقـدت الثانيـة على فترات متقطعة في كولـومبو وامتدت قـرنا كـاملاً (١٦٩٦-١٧٩٦) واستهدفت تـوفير الأعداد اللازمة في المنطقة التي يتحدث أهلها السنهالية في الجزيرة. وواضح أن هاتين الحلقتين لم يكن الهدف منهما تدريب وتخريج وعاظ مبشرين دينيين فحسب بل وأيضاً معلمين للمدارس ومفسرين للكتاب المقدس وكتبة العمل في دواوين الحكومة. واشتملت المقررات الدراسية على تعليم اللغات الهولندية واللاتينية واليونانية بل والعبريـة. والجدير بالذكر أن البارون جـوستاف فان يمهوف سـانـد بقـوة حلقـة كـولامبـو الـدراسيـة وقتما كـان حـاكماً لسيـلان (١٧٣٦-١٧٤٠) ثم أقام حلقـة أخرى في باتافيـا ولكنها دامت لفترة قصيرة (١٧٤٥-١٧٥٥). وأبدى سروره واغتباطه للسهولـة التي يثرثر بها الزملاء السود حين يتحدثـون اللاتينية أو يحاولون صيـاغة عبارات يونـانية. ولكن على الرغم من أن بعض خريجي هذه الحلقات الدراسيـة عملوا وعاظا وسافر أكثـرهم بعد ذلك إلى الأراضي المنخفضـة للحصول على درجـة علمية في فقـه الالهيات، إلا أنهم لم يكونوا بالكثرة التي عقد عليها أصحاب المشروع آمالهم. مثال ذلك أن حلقة باتافيا الدراسية تخرج منها واحد فقط على مدى السنوات العشر التي هي عمرها. وكانت حلقتا سيـلان الدراسيتان أفضل انتاجا ولكن في مجال التعليم الـديني الشفهي وتخريج معلمين للقـرى وكتبة حكـوميين. وتخرج منهـا عـدد مـن الـوعـاظ لا يكـاد يفي بـاحتيـاجـات الهولنـديين والبرجـوازيين من سكـان المدن هناك. ولم يتخـرج منهـا أي واحـد للعمل في مجال التبشـير. والملاحظ أن أبناء التاميل والسنهاليين الذين اعتنقوا الكالفنية، إنما فعلوا ذلك أساسا لعلمهم ان هذا سبيلهم لشغل وظائف رسمية أثناء فترة سيطرة الشركة. ولهذا فإن بضعة آلاف من التاميل والسنهاليين المؤمنين اسما

بالكالفنية سرعـان ما تخلوا عن مذهبهم اثر غزو الانجليـز للجزيرة وبعد ان تخلت الدولة عن مساندة هـذا المذهب وبدا واضحا ان الكالفنية لم تحدث أي اثـر حقيقي أو راسخ على الـديـانــات التي تنـافست معهـا. وان الطـوائف البروتستانتية الموجودة الآن في الجزيرة هي مـن غرس الارساليات التبشيرية الأمـريكية والأوروبيـة خلال القـرن التـاسع عشر. ولن نجد غير حفنـة من أفرادهم نتاج العقيدة المسيحية الاصلاحية الحقة التي سيطرت على سيلان في ظل الحكم الهولندي على مدى قرن ونصف القرن.

وإذا لم يكن دور الكالفنية كقوة مساعدة لشركة تجارية كبرى في الشرق دوراً مهماً، فإن الشيء نفســه يمكن أن يصـدق أيضـاً على منطقــة المحيط الاطلسي حيث كان نشاط شركة الهند الغربيـة الذي امتد من غرب أفريقيا الى الأمريكتين. ففي هولندا الجديـدة أو الأراضي المنخفضة بالبرازيل التي عاشت فترة محفوفة بـالأخطار من ١٦٣٠ إلى ١٦٥٤ اضطر الوعـاظ الى الدخول في منافسة حادة ليس فقط مع المستوطنين البرتغاليين من الكاثوليك الرومان بل وأيضاً ضد اليهود الذين هاجروا الى هناك بأعداد غفيرة من أوروبا. وغالبا ما كان كبار موظفـي الشركة في رسيف مثلما كانوا في باتافيـا يتصفون بالفتور والتراخي ازاء فرض قوانين التمييز ضد الكاثوليك وضد اليهود (ولكن بدرجة أقل حدة). ونخص بـالذكر هنا الكونـت جون موريس الذي حكم بـرنامبكو وحقق نجاحاً كبيراً خلال الفترة من ١٦٣٧ الى ١٦٤٤. ذلك أنه عمد الى اغفال، أو اغماض عينه عـن طلبات المجامـع الكنسية المحليـة المتكررة التي طـالبته بضرورة الحزم في منع الممارسات العامة العلنية للخرافات والوثنية البابوية. ووجد مسانـدة لموقفه من جانب أغلبية مديري الشركـة في أرض الوطن الذين يفضلـون «الكسب المادي على التقوى والـورع»، على الرغم من وجـود بعض الكالفنيين المتزمتين بينهم. ووجد الوعاظ في امريكا الجنوبية، مثلما هو الحال في آسيـا، أنهم عاجـزون عن الدخـول في منافســة متكافئـة مع «القساوسـة الكاثـوليك» طالما وأن هؤلاء يحظـون بقدر من التسامح من جـانب السلطات

المحلية. ومن هنا فإن البرازيل الهولندية لم تشهد على مدى عمرها الذي امتد أربعة وعشرين عاماً سوى تحولات نادرة جداً من الكاثوليكية الى الكالفنية. وزاد الطين بلة حسب وجهة نظر الوعاظ ان الكثيرين من الرجال الهولنديين الذين تزوجوا بنساء برتغاليات محليات تخلوا عن مذهبهم واعتنقوا مذهب زوجاتهم. وحدث الشيء نفسه أثناء فترة احتلال هولندا لكل من لواندا وبنجويلا من ١٦٤١ إلى ١٦٤٨.

وأحرز الوعاظ نجاحاً أكثر بفضل جهودهم من أجل إنشاء مجتمعات كالفنية بين الهنود الحمر الأمريكيين الذين هم على معتقداتهم القديمة سواء بين القبائل المتحدثة بلغة التوبي Tupi أو (وهم أقل عدداً) قبائل تابويا Ta-puya أكلة لحوم البشر. والسبب هنا هو نفس السبب بالنسبة لصيادي رؤوس الأعداء من أبناء فورموزا – ألا وهو عدم وجود عقيدة دينية منافسة «أرقى». إذ تم ارسال بعض هؤلاء الفتيان البرابرة إلى الأراضي المنخفضة لتعليمهم. ومن عام ١٦٤١ طبع كتاب ديني من نوع السؤال والجواب بلغة توبي ووزع في انخويزين بين المهتدين من الهنود الأمريكيين في البرازيل. ولسوء الحظ أننا لا نملك نسخا من هذا الكتاب. ويبدو أن مشروعا بشأن ترجمة الكتاب المقدس الى لغة توبي لم يكتمل، وارتد عديدون من أبناء قبيلة تابويا الذين تعلموا في هولندا الى الحياة البربرية ثانية بعد عودتهم الى البرازيل وان احتفظوا في ذاكرتهم بقدر كبير مما تعلموا مع قدر من الحب له. وحدث أن زارت ارسالية جيزويتية برتغالية بعض قرى الهنود الحمر الأمريكيين بعد طرد الهولنديين وروعها ان وجدت «الكثيرين من السكان كالفنيين ولوثريين كأنهم ولدوا في انجلترا أو ألمانيا». وسرعان ما عمد بادر أنطونيو فييرا ورفاقه الى استئصال آثار البروتستانتية والذي كان بالامكان ان تبقى، لولا ذلك في شمال شرق البرازيل أسوة بما حدث في فورموزا.

ولقد كشف تطور الكنيسة الاصلاحية الهولندية في نيوينذرلاند (١٦٢٤–١٦٦٤) عن العديد من القسمات التي ميزت نشاطها في جزر الهند

الشرقية والغربية. إذ كـان من العسير الحصول على وعاظ للتبشير عن طريق التطوع في تلك الأماكن النائية وغير الملائمة أحياناً. وحافظ مجلس الـ ١٩ على أن تظل الكنيسة في شمال أفريقيا تابعة وبطريقة صارمة للسلطة المدنية وان كان هذا في النهاية حقق نتائج ايجابيـة. فلم تكن البابوية تمثل تهديداً في هذه المنطقة ذلك لأن الاتصالات بارساليات الجيزويت التبشيرية في كندا الفرنسية انما كانت اتصالات عابرة. وقضى القساوسة الكـالفنيون وقتا طويلاً وطاقة كبيرة في الصراع ضد وجـود المنشقين البروتستانت وكذا بعض اليهـود (بعد عام ١٦٥٤). وكتب واعظان من رجال الدعوة والتبشير في نيوينذرلاند في عام ١٦٥٧ «ليس لدينا ما نقوله سـوى كلمات قليلة عن هداية الوثنيين أو الهنود الحمر هنا، ولا نرى من سبيل لانجاز ذلـك ما لم يتم اخضاعهم بقوة شعبنا وكثرة عدده. ونسبـغ عليهم قدراً من الحضارة، وكذا مـا لم يقدم لهم شعبنا قدوة حسنـة خيراً مما فعلوا قبل ذلك. ولقـد كان بيتر ستوى فيسـانت، آخر حاكم هولندي للمستعمـرة كالفنيا غيورا، واعتاد مسانـدة جهود القساوسة المحليين من أجل إبعـاد أو قمع جميع أشكـال الانشقـاق الـديني، غير أن المديـرين تحلـوا بأفق فكري أرحـب. وأبلغوه في ابـريل ١٦٦٣ بأن عليـه ان يتجنب الصرامة الشديدة من البروتستانت المنشقين نظراً لما قد يترتب على هذا من مضـار ترتد آثارها إلى المستعمرة وتعوق الهجرة وتحفز الموجودين بالفعل الى ترك المكـان. وألزموه بالتغـاضي عن غير الكالفنيين الذين يقيمـون مراسم الاحتفال بعباداتهم شريطة ان يفعلوا هذا بصورة متحفظة للغاية ودون اثارة حفيظـة جيرانهم التقليـديين. وذكّر مجلس الــ ١٩ حـاكمهم بأن التسـامح الديني اسهـم كثيراً في رخاء امستردام، وقالـوا له أيضـاً انه لا بـد وان يكون مفيداً بنفس القدر ايضا لنيوينذرلانـد ولم يكن هذا درسا في التسامح منعزلاً وخاصا بالحاكم ذلك ان مجلس الـ ١٩ والمسئولين في امستردام تدخلوا مرات عديـدة لحماية اللوثريين واتبـاع منوس والكويكرز واليهـود من غلواء بعض القساوسـة الكالفنيين في المستعمرة ومـؤيديهم من أعضـاء المجـامع الكنسية وزعماء الطوائف في هولندا ذاتها.

أمـا عن تقدم الكـالفنيــة، أو إن شئت الـدقة عـدم احـرازها للتقـدم، في سورينـام وفي المستعمرات الهولنديــة في جزر الهنـد الغربية خــلال القرنين السابع عشر والثامن عشر، فإن قلة الكلام قد تكون أفضل وأبلغ. إذ لا مراء في أن سورينـام هـي النقطة السوداء في الامبراطوريـة الهولندية الاستـوائية من الزاوية الانسانية، وازاء القسوة الســادية والأنانية الحمقاء، والجشع الأعمى للأجيـال المتعاقبة من أصحـاب المزارع ونظار المزارع ممـا جعل انتشار أي شكل من أشكال المسيحيــة أمراً شديد الصعـوبة للغاية. ويشهـد على هذا ما قالـه واحد من حكام سورينـام في القرن الثامن عشر، إذ قال: «هنـا، كما هو الحال في أماكن أخـرى قلة قليلـة من وعاظ الدعـوة والتبشير الذين يـؤيدون واجبهم والمنشقون البروتستانت معروفون بأسماء «اللاباديين» Labadist الذين اعتادوا ممارسة نوع من المشاعية المسيحية و«الهرنهترز» -Herrnhut ters وهم فرع من كنيسة مورافيا أو الأخـوة المتحدين الذين عملوا على فترات متباينـة في المستعمرة. غير أن أمـراض المنطقة الاستـوائية فضـلا عن العداء الصريح من جـانب أصحـاب المزارع منعهم من احـراز نتـائج تتنـاسب مع جهودهم المضنية. كذلك وللأسباب نفسهـا لم تحرز الارساليات الكاثوليكية الـرومانيـة التي عملت في ســورينام لبضع سنـوات (١٦٨٤٣–١٦٨٦) أي نتائج راسخــة قبل ان يلقوا حتفهم بسبب الحمى. ولم تقم لهذه الأرســاليات قائمة إلا في عام ١٧٨٦. ولكن مما هو جدير بـالذكر ان سورينام كانت ملاذا لطائفة هامة من اليهود السيفارديم الذين استقروا فيها خلال النصف الثاني من القرن السابع عشر وأصابوا نجاحا ورخاء خلال القرن التالي.

كذلك يمكن الاجتـزاء بأسطر قليلة عن دور الكالفنيــة في ممتلكات شركة الهند الغربية في أفريقيا. أوفدت الشركـة عديداً من وعاظ الدعوة والتبشير الى الحصـون والمراكز التجارية الهولندية في ساحل الذهب في مطلع القرن السابع عشر، والتمست هدفين اثنين: الـوفاء بالحاجـات الروحية للتجـار الهولنديين وتبشير الـزنوج الـوثنيين. ولم تحقق جهودهم نتـائج ذات بال، وعـادوا الى

الأراضي المنخفضــة بأسرع مـا يمكن محبطين بسبب المناخ القـاتل وظـروف الحياة القـاسية. ومنذ عام ١٦٤٥ تقـريباً وما بعده بـات من العسير ان نجد واعظـا ارتضى التطوع للخـدمـة في غرب أفـريقيـا، ولم يعد يمثل الكنيسـة الاصلاحيـة الهولندية بعـد ذلك سوى تـاجر أو تاجـرين علمانيين في القلاع الأساسيـة الثلاث في المينا ونـاسو واكسيم. وتولى هـذان الرجلان مسئـولية إمـامة النـاس في صـلاة الصباح والمسـاء وتـلاوة الكتاب المقـدس أو بعض العظات على مسـامع المقيمين الهولنديين مرتين كل اسبـوع، وكان هذا غـاية المرام من أداء مهامهم ولم يحاول أي منهما القيام بعمل تبشيري.

وثمة استثناء لهذه القاعـدة العامة جدير بأن نشير اليـه، ويمثله الداهية المبشر الـزنجي القح القسيس جاكـوب اليزا جـوان كابيتين. إنـه عبد المولـد وأصبح هناك حـرا تلقائيـاً. ودفع سيده الأسبق وبعض أصـدقائه من ذوي النفوذ نفقـات تعليمه الذي اشتمل على قدر لا بأس بـه من التدريب في مجال الالهيات في جـامعة ليدن. وتخرج في عـام ١٧٤٢ بعد أن أعـد رسالة بـاللغة اللاتينية يثبت فيها مشروعية الـرق وفقا لنصوص الكتاب المقدس. وصدرت من الرسالـة طبعات عديدة بـاللغتين اللاتينية والهولنديـة وأصبحت مرجعاً يقتبس منه جميع المدافعين عن الـرق وتجارته. وفي العام نفسه بعث مـديرو شركة الهنـد الغربيـة كابيتن الى مستعمـرة المينا بعـد ان تلقى في امستردام تدريبـا كافيا للعمل داعية وواعظـاً. واستقبله استقبالاً حسنـا هناك كل من المقيمين الهولنديين وابناء بلدته في بداية الأمر، ولكن سرعان ما واجه مشكلات كثيرة. وأفـاد في كتابـاتـه أن القليلين جداً من الأوروبيين هـم الذين اعتـادوا حضور دروسـه الدينيـة «نظراً لأن أغلبيتهم هنا من الكـاثوليك الـرومان أو اللوثريين، كما وان اتباع الكنيسة الاصـلاحية فهم دائماً مشغولون بأعمالهم اليومية». وهذه ملاحظة يمكن أن تفسر لنـا اخفاق الكالفنية في مناطق أخرى من العالم الاستوائي. وأنشأ كذلك مدرسة للزنوج والأطفال المولدين، وترجم صلوات المسيح التي علّمها لتلامـذته والوصايا باللغـة المحلية لبلاده. وأبدى

بعض الأوروبيين تعصبا بسبب اللون في تعاملهـم معه. ولكن الحاكم سانده واستطاع التزوج بفتاة هولنديـة من أوترشت بعد فشل قصة حب له مع فتاة أفريقية غير مسيحية وكادت تتحـول الى فضيحة كبرى. وخابت آماله بسبب النتائج الهزيلة التي جناها ثمرة لجهده الكبير في حديقة الرب سواء بين السود أم البيض. وازاء ذلك أهمل العمل في مجال خـدمة الـرب واتجه إلى خدمـة إله المال. ولكنه مات مفلساً في الأول من فبراير عـام ١٧٤٧ بعد مغامرات تجارية متعثرة. ولم تتكرر محاولة تدريب واعظ زنجي آخر.

يبدو واضحاً مما سلف ان الكالفنية أثـرت تأثيراً ضئيلاً، أو لم تؤثر أبداً على سكان البلدان الاستوائية حيث بشّـــر بها هناك دعاتها على مدى القرنين السابع عشر والثامن عشر. فحينما وجدت عقيدة دينية مؤثرة مثل الاسلام في أنـدونيسيا، والهنـدوسيـة في الهنـد، والبوذيـة في سيـلان، أو الكـاثوليكيـة الرومانية في المناطق التي أقام فيهـا البرتغاليون، عجزت الكالفنية عن إحداث تأثير باق ودائم إلى ما بعـد سقوط مساندة الدولة لها. وواقع الأمـر أن مكانة الكـالفنية في الشرق كـانت سلبية. إذ لـو كان ثمـة أثر للكـالفنية، فهـو شأن الكاثوليكيـة الرومانية السـابقة عليها التي صمـدت لتحديها في جنوب شرق آسيـا، أنها عززت أسـاسا قبضـة الإسـلام وبسطت نفوذه في المنـاطق التي تلاقى فيها الهلال مع الصليب.

لقد تـزايدت سرعة تغلغل الإسـلام في الأرخبيل الأندونيسي خـلال القرن الســادس عشر كـرد فعل للكـاثـوليكية الـرومـانيـة النشطـة التي روج لها البرتغاليون من مواقعهم في ملقا وملوقاس. ولم يحقق الغزاة الأوروبيون أي نجـاح يذكـر إلا في أمبوينـا وسولـور. إذ نظر الأنـدونيسيون المسلمـون إلى الهولنـديين الكالفنيين بـاعتبـارهم كفارا، ولم يكـونـوا في هذا أقل شأنـا من البرتغاليين الكاثوليك. والملاحظ أن اطراد نمو السلطة الهولندية بعد تأسيس باتافيا والغزوات المتعاقبة لكل من مولـوقاس وماكاسار وبانتام ثم أخيراً ما تارام، كل هذا أثار انـزعاج حكام أندونيسيا والكثيرين من رعايـاهم أكثر مما

أثـارهم تقدم البرتغـاليين المحدود نسبيـا. وحفزهم هـذا الخوف إلى تعزيـز روابطهم مع الحكـام المسلمين في الهند وفي مكـة المكرمـة، وأيضاً مع حـاكم بانتام قبل أن يغزوها الهولنديـون ويطيحون بحاكمها في عام ١٦٨٤. تماماً مثلما فعل المرابطـون في مـراكش إذ ألهمـوا ونظمـوا وقـادوا المسلمين ضـد البرتغاليين الغـزاة خلال القرن السـادس عشر. كذلك كان القـادة والمفكرون المسلمون في أنـدونيسيا هم القـوة المحركـة لكل جهود المقـاومة ضـد توسع سلطة الشركة الهولندية، وأسبغوا على هذه المقاومة صفة الجهاد المقدس. وإن أغلبية هـؤلاء المفكرين والقادة كـانوا من أصل عربي وهنـدي وفارسي ولكن معهم آخرون أندونيسيون حجوا إلى الكعبـة أو تلقوا تدريباً متميزاً في مملكة أشين Achin المسلمة، وقد كانت مركزاً مـزدهراً للدراسات الاسلامية. وعلى الرغم من أن القوة البحرية والعسكرية لشركة الهند الشرقية الهولندية وجدت عوناً قوياً لها في الانقسامات التي وقعت بين صفوف القادة الأندونيسيين مما يسر لها الغلبة على القادة المسلمين الأساسيين - بـاستثناء مملكة أشين دائماً - إلا أن الاسـلام واصل زحفه وتعـززت قوتـه بين العـامـة والخاصـة من الأندونيسيين.

الباب السادس

إلّه الحكمة وإلّه التجارة

في أغسطس ١٧٨٥ انتهت مدة رياسة اسحق تيسنغ رئيس الوكالة الهولندية. وقبل أن يغادر منصبه نصح بأن يتم اختيار خلفائه من بين رجال «يجمعون بين الكفاءة التجارية والدراية بالفنون والعلوم». ولكن الحاكم العام ومجلسه في باتافا عقبوا على هذه النصيحة بالقول «كم هو جميل أن نسلم تسليما مطلقا بجدوى هذا الاقتراح، إلا أن الوفاء به أمنية تقصر دونها الامكانات، نظراً لأن القاعدة العامة هنا في هذه البلدان هي التقرب إلى إلّه التجارة دون إلّه الحكمة.» ويمثل هذا تباينا مثيراً، إن لم نقل غير متوقع، مع الموقف في المقاطعات السبع خلال القرن الذهبي من حياتها، وقتما وقف مبعوث برتغالي في لاهاي ليقارن جهل أبناء بلدته بثقافة الهولنديين وقال: «لا تجد اسكافيا هنا في هذه البلاد لا يعرف الفرنسية واللاتينية بالاضافة الى لغته الأم». لا ريب في أن فرنسيسكو دي سوسا كوتينو كان مبالغا في حديثه، وإن لم يخل قوله من إشارة إلى ارتفاع نسبة المتعلمين في الأراضي المنخفضة قياسا إلى أي بلد آخر في أوروبا، وأن أغلبية الهولنديين على حظ ما من التعليم. وكما لاحظ سير جورج كلارك مؤخراً «إن الهولنديين على حظ وافر من التعليم بكل المقاييس إذ أن مستوى تعلم القراءة والكتابة مرتفع نسبياً هنا، كما يبدو أن المعارف العامة شائعة على نطاق واسع.» وثمة ملاحظة قالها أرازموسى منذ عام ١٥٢٥: «لن تجد في أي مكان آخر من العالم عدداً أكبر من عدد الذين حصلوا على تعليم متوسط هنا.»

وتحتل مدارس القرية قاعدة سلم التعليم. وكانت جميع هذه المدارس تقريباً ملحقة بالكنيسة الكالفنية المحلية حيث يعمل المدرس عادة كاتبا وقائداً لجوقة المرتلين. واقتصر التعليم على تعلم القراءة والكتابة ومبادىء الحساب

ودروس من الكتاب المقدس. وضمت بعض القرى وأكثر المدن مدارس ابتدائية خاصة تعلم الفرنسية علاوة على القراءة والكتابة والحساب. وحرصت السلطات البلدية والكنيسة على مراقبة هذه المدارس لضمان انها تعمل بإذن منها وأن جميع المعلمين العاملين بها من أتباع «الديانة المسيحية الاصلاحية الحقة». وتلي هذه المدارس الابتدائية صعوداً، سواء أكانت خاصة أم تابعة للكنيسة أو البلدية، المدارس اللاتينية. وتوجد واحدة من هذه المدارس في جميع مدن المقاطعات المتحدة تقريباً. وهي في أغلبيتها امتداد للمؤسسات الكاثوليكية الرومانية التي صودرت في السنوات الأولى للثورة في الأراضي المنخفضة. ويجري الانفاق على صيانتها من عوائد الكنائس الكاثوليكية الرومانية سابقا والتي خصصت لمصلحة مجالس المدن أو مجالس الكنائس الكالفنية للانفاق منها على أغراض التعليم. وركزت المدارس اللاتينية، كما توحي أسماؤها، على تعليم اللغة اللاتينية، ولكنها استهدفت أيضا تلقين تلامذتها المعارف العامة عن الأساسيات الكلاسيكية للعصور القديمة. ولم يكن مسموحاً بالتحاق الفتيات بهذه المدارس، أما الأولاد فيلتحقون بها ابتداء من سن التاسعة أو العاشرة وحتى السادسة عشرة أو السابعة عشرة. وصدر من ولايات هولندا مرسوم في عام ١٦٢٥ ينظم هذه المدارس اللاتينية ويحدد طبيعة مقرراتها الدراسية. وعلى إثر سريان هذا المرسوم أصبح تعلم اللغة اللاتينية ممتداً إلى ما بين عشرين وثلاثين ساعة خلال السنوات الثلاث الأولى، وما بين عشر وثماني عشرة ساعة خلال السنوات الثلاث الأخيرة. ويتعلم تلاميذ الصفوف النهائية اللغة اليونانية ومبادىء الخطابة والمنطق. ولكن لم يكن التعليم الديني يحتل مثل هذه المكانة البارزة كما كان متوقعا عند بداية تأسيس هذه المدارس خلال الأعوام ١٥٨٨-١٦٢٥ وبناء على الحاح مجالس الكنائس الكالفنية. إذ خصصت هذه المدارس ٦ بالمئة فقط من مجموع ساعات الدراسة لتعليم الدين وفق نظام السؤال والجواب، وتاريخ الكتاب المقدس .. الخ هذا على الرغم من أنه بعد عام ١٦١٩ كان من المفترض أن يوقع جميع المدرسين الجدد على شهادة تؤكد قبولهم لقواعد ونظم المجتمع

الكنسي المقدس في دور درشت. واشترطت بعض هذه المدارس اللاتينة ان الأبناء لآباء ليسوا أعضاء في الكنيسة الاصلاحية الهولندية ليسوا بحاجة لحضور حصص تعلم الدين. وساد مثل هذا التسامح في كثير من المدارس الأولية. وزعم القسيس جود فريد أوديمانز (١٦٣٠-١٦٥٥) أن بعض نظار المدارس الخاصة اعتادوا تملق الآباء الكاثوليكيين الرومانيين وغير الكالفنيين واسترضاءهم عن طريق إغفال التعليم الديني التقليدي «الأرثوذوكسي» والذي يكاد يكون إغفالاً تاماً. وطبيعي أن تتباين ساعات الدراسة من مدرسة إلى أخرى، ولكن حيث كان التلاميذ يخرجون لتناول غذائهم بالبيت فقد كانت دروس الصباح تبدأ من الساعة السابعة أو الثامنة إلى الحادية عشرة، ودروس المساء من الواحدة إلى الرابعة أو من الثانية إلى الخامسة مساء.

ولا غرابة في أن مستوى المدارس اللاتينية خلال القرن السابع عشر كان في متوسطه أعلى كثيراً من مستوى المدارس الابتدائية. ولعل ديرك أدريانسون مؤلف كتاب Regel der Duytsche School Meesters (١٩٩١) كان مبالغاً حين قال: «إن من يستطيع بصعوبة أن يكتب أحرف أسمه، ومن يستطيع فقط أن يرتل مزموراً بصوت نشاز يعمل فوراً معلماً بالمدرسة ويطمح في أن يكون في وضع استاذ كبير». وكثرت الشكاوى بشأن سوء الإسكان والازدحام، إذ كانت بعض المدارس عبارة عن غرف نوم معتمة رطبة، وأرضيتها من الحجر. ويتقاضى معلم الابتدائي أجراً زهيداً، خاصة معلم الأرياف، وأي زيادة تطرأ على راتبه تنتقص من المصروفات المدرسية التي يدفعها أولياء الأمور. ويحدد مجلس الكنيسة المحلية في المقاطعة الأجر الثابت للمعلم. ونظراً لانخفاض المرتبات اضطر اكثر المدرسين الى أداء أعمال أخرى اضافية، لذا نرى منهم من يعمل جندياً أو حلاقاً، أو اسكافياً أو حفار قبور .. الخ. ولعل هذه المهن الاضافية التي كان يحترفها المدرسون هي التي دعت فرانسيسكو دي سوسا الى الظن بأن كل الناس، بما في ذلك الاسكافي في هولندا يتحدثون الفارسية واللاتينية.

وكان التعليم العالي في الجمهورية الهولندية متاحاً في جامعات خمس مقاطعات، جامعة ليدن (١٥٧٥) وجامعة فرانيكر (١٥٨٥) وجامعة هاردرويك (١٦٤٨) وجامعة جرونن‌جن (١٦١٤) وجامعة أوترشت ١٦٣٦، وأهمها الأولى والأخيرة. وكان علاوة على هذا مدارس تسمى «المدارس اللامعة» التي يتمتع بعضها بمكانة الجامعة. وأشهرها مدرسة «أثينا امستردام» Athenaeum of Amsterdam التي أسسها عام ١٦٣٢ بعض قادة تيار المعترضين وأنصارهم، وهي السلف المباشر لجامعة امستردام الحالية. والفرق الرئيسي بين الجامعات الرسمية والمدارس اللامعة ان هذه المدارس لا تقدم سوى الآداب والقانون والطب بينما تقدم الجامعات علاوة على هذا فقه الالهيات وتمنح درجة الدكتوراه وهو ما تفعله المدارس أيضاً. ولا يقتصر عمل هذه المدارس على اعداد الشباب للالتحاق بالجامعات في مقاطعاتهم وهم في سن ما بين السادسة عشرة والعشرين، بل تهيء لهم أيضاً الفرصة لتحصيل تعليم مكافىء لتعليم الجامعة إذا لم يرغبوا في ترك بلدتهم. وتميز مستوى التعليم في أغلب الجامعات والمدارس خلال القرن السابع عشر بارتفاع كبير، غير أن المدارس أخذت في الضعف والتضاؤل إلى أن أصبحت على حافة الانقراض خلال القرن الثامن عشر. هذا على الرغم من شهادة مقيم انجليزي كان يقيم في هولندا عام ١٧٤٠ قال إنها تمثل بديلاً يثير الاعجاب لجامعة رسمية.

ولم تكن جامعة ليدن فقط هي أقدم جامعات المقاطعات الخمس وأفضلها وأشهرها بل وأشدها ارتباطا بمشروعات هولندا فيما وراء البحار حتى وان كان الرباط غير واضح ومتقطعاً. ولقد اشترك رؤساء المدن ومندوبو ولايات مقاطعات هولندا في هيئة أمناء تصبح الجامعة في الأساس مؤسسة لتخريج قساوسة كالفنيين وهو الهدف الرئيسي الذي تصوره مؤسسو الجامعة. وسرعان ما تم تعزيزكليات اللاهوت والفلسفة والقانون والطب في ليدن، وهي كليات تقليدية موروثة عن العصر الوسيط، بمدارس تعلم الهندسة والزراعة

علاوة على مرصد فلكي ومطبعة فاخرة للجامعة. واعتمدت اللغة اللاتينية لغة تعليم وان لم تدرس في مدرسة الهندسة. واستطاع مجلس الأمناء بفضل الرواتب السخية ان يجتذب اساتذة وباحثين متميزين أتوا اليه من المقاطعات المتحدة ومن غيرها للعمل في هذه الكلية. واجتذبت شهرة هؤلاء الأساتذة بدورها طلابا من جميع أنحاء أوروبا، من الكاثوليك الرومان ومن البروتستانتيين على حد سواء وان كانت الغلبة لهؤلاء. وبلغ عدد الطلاب المسجلين بجامعة ليدن ٢٧٢٥ على مدى الأعوام الـ ٢٦ الأولى من عمر الجامعة، وكان ٤١ بالمائة منهم من خارج المقاطعات. وبلغت نسبة الأجانب المقيدين خلال الفترة من ١٦٠١-١٦٢٥ أكثر قليلاً من ٤٣ بالمائة، وزادت خلال الربع التالي من هذا القرن بحيث أن أكثر من ٥٢ بالمائة من جملة الطلاب البالغ عددهم ١١٠٧٦ كانوا وافدين من الخارج.

وفي السنوات التالية فقدت ليدن بعض بهائها وجاذبيتها، ولكن وليم كار يشير في عام ١٦٨٨ إلى أنه كان بها حوالي ألف طالب أجنبي «من جميع البلدان، مثل المجر وبولندا وألمانيا بل ومن الامبراطورية العثمانية ذاتها الذين يدعون انهم يونانيون، علاوة على الطلاب الانجليز الاسكتلنديين والايرلنديين الذين بلغ عددهم في ذاك العام أكثر من ثمانين. ويحكي لنا القنصل الانجليزي انه سأل أحد أعضاء مجلس الأمناء لماذا مقاطعة ثرية مثل مقاطعة هولندا لم تشيد بيوتاً للطلاب في ليدن أسوة بما تفعله اكسفورد وكيمبريدج». وأجاب عضو الأمانة: «لو أننا شيدنا مثل هذه البيوت لملأها رؤساء المدن والحكام بأبنائهم وأبناء اصدقائهم الذين يعيشون حياة كسل وفراغ وجدة ولن يكونوا قادرين على خدمة الأمة». ويمكن النظر إلى هذه الاجابة وكأنها صدى لمرارة في النفس ولكن ليس ثمة ما يبرر الشك في دعوى الأمين من أن الاساتذة وفقا للنظام القائم يحرصون على متابعة الطلاب ويشددون على التزامهم بالحضور والاستماع الى المحاضرات العامة منها والخاصة.

والجدير بالذكر ان الدراسات عن الكتاب المقدس حفزت جامعة ليدن

اكثر من أي جامعة أخرى الى استحداث الدراسات الاستشراقية. وها هو جوزيف جوستوس سكاليجر، الفرنسي المولد والملقب «أعظم باحثي العصر الحديث»، وعمل استاذا غير متفرغ في جامعة ليدن من عام ١٥٩٣ إلى أن وافته المنية في عام ١٦١٩، يشدد على الحاجة إلى أن نقصد المصادر الكلدانية والعربية وغيرها من مصادر الشرق الأدنى للحصول على المعلومات الأساسية اللازمة والتي تمثل عونا لفقهاء المذهب الكالفني في جدالهم ومناظراتهم مع الكاثوليك الرومان. ولعل نفوذ سكاليجر الأدبي في ذروته فاق كثيراً نفوذ ايرازموس، فضلاً عن أنه بلغ بالدراسات اللغوية والاستشراقية شأوا بعيدا في جامعة ليدن مما جعلها منهلاً يقصده الباحثون على مدى قرن من الزمان. وأصبح تلميذه وخليفته جوليوس مرجعاً رسمياً في الدراسات الاستشراقية ومسئولاً عن تفسير ما يتعلق بها لادارة عموم الولايات ويقال ان رسائله التي كتبها بالعربية إلى الحكام والولاة المسلمين أثارت اعجابهم. وأنشأت جامعة ليدن في عام ١٦٢٥ مطبعة مشرقية تشتمل على الأحرف والقوالب السريانية والكلدانية والأثيوبية والعربية والعبرية. وظلت تعمل كأحد أقسام مطبعة الجامعة إلى أن بيعت لصاحب مطبعة خاصة في عام ١٧١٢.

والتزمت المدارس الابتدائية في مناطق نفوذ شركتي الهند الشرقية والغربية بنفس النظام المتبع في الوطن الأم من حيث أنها خضعت لإدارة مشتركة علمانية ودينية. وكانت ساعات الدراسة في مدارس المستعمرات من ١-١١ص ومن ٢-٥م عدا يومي الأربعاء والسبت إذ تعمل المدارس خلالها في الفترة الصباحية فقط. ويقتصر المقرر الدراسي بوجه عام على التعليم الديني الأول فيما يختص بقواعد المذهب الكالفني، والقراءة والكتابة ومبادىء الحساب. وكان من حق من شاء ان يفتح مدرسة أولية أو رياض أطفال علاوة على مدارس شركتي الهند الشرقية والغربية، شريطة اقتناع مجلس الكنيسة المحلية بالتزامه بالعقيدة الكالفنية ومن ثم يحصل على موافقة مجلس

الكنيسة وكبار موظفي الكنيسة أيضاً. وجدير بالذكر أن مدارس المستعمرات كانت في الغالب مدارس مشتركة من حيث الجنس والعرق، حيث كانت تجمع بين أبنـــاء العبيـد والملـــونين جنبـاً إلى جنب مع أبنـــاءالبيض والأوروبيين الآسيـويين ونذكـر على سبيل المثـال أن حوالي ٢٠٠ من أبنـاء العبيـد كانـوا يتلقون تعليمهم في مدرســة شركة الهند الغربية في كولـومبو. وينهي الصبية تعليمهم بـالمدرسة عـادة في سن الخامســة عشرة أو السادســة عشرة. ولكن مـدارس سيلان كـانت تفصل البنات خـلال القرن الســابع عشر حين يبلغن العاشرة من العمـر تجنباً لأسبـاب الفتنة والغوايـة نتيجة السلـوك الفاضح للصبية أو غيرهم».

وافتتحت في باتافيا عام ١٦٤٢ مـدرسة لاتينية بهدف تقديم تعليم أرقى مستوى لأطفال كبار موظفي الشركة بدلاً من ارسالهم الى الأراضي المنخفضة. وعلى الرغم من دعم مجلس ادارة الـــ ١٧، تضاءل شأن هـذه المؤسسة حتى ألغتها السلطـات المحلية عام ١٦٥٦. وأعيـد فتحها بعـد عشر سنوات لتغلق أبوابها ثانية بعد أربع سنوات. وتكررت المحـاولة للمرة الثالثة في القرن التالي لتبقى فترة أطول (١٧٤٣-٥٦) ولكنها حين أغلقت أبـوابها هذه المرة أغلقتها بغير رجعـة. ولم تحدث محاولة ممـاثلة في المستعمـرات الخاضعة لسلطـان شركة الهند الغربية وذلك لأسباب شرحها منتزل حين حاول ان يفسر أسباب عدم وجود مدرسة لاتينية في الكاب حيث عمل من عام ١٧١٤ إلى عام ١٧٣٠. إذ قال «مثل هـذه المؤسسات لا لزوم لها، إذ ما جـدوى التعليم الذي يحصل عليه أي امرىء يعمل في بلاد لا تزال الحياة فيهـا بدائية، والقانون هو شريعة الشركة، ويشهد على صدق هذا الرأي أنه كان في جنوب أفريقيا آنذاك في القرن الثـامن عشر بعض هواة جمع الكتب، وعنَّ لأحـدهم (وهو فـون ديسين) أن يجعل من مقتنيات مكتبة عامة لسكان مدينة الكاب عام ١٧٦١ غير أنه لا أحد عمليا من المقيمين في المدينة استخدم هذه المكتبة على مدى خمسين عاما. ومن ثم فإن مـوظفي الشركة الـراغبين في تعليم أبنائهم، عن مقـدرة، تعليما رفيع

المستـوى، دأبوا على ارسـالهم إلى أوروبـا، على الـرغم من النفقـات الباهظـة وحرمانـهم من أبنائهم فترة طويلة. كـذلك كان التعليم الراقي متاحاً للراغبين في الالتحاق بالكنيسـة وذلك عن طريق المشاركة في إحدى الحلقـات الدراسية الثلاث التي أسلفنا وصفهـا، هذا على الرغم من أن هذه الـدراسات أخفقت في تخريج دعاة ومبشرين أكفاء. ولكن تظل هناك حقيقة واقعة وهي أنه في الوقت الذي ترك حكـام جمهورية هولنـدا مسئولية التعليم الابتـدائي كلية في أيدي مجالس الكنيسة الكالفنية أو لأفراد يعملـون لحسابهم الخاص، فإن مديري شركة الهنـد الشرقية عمدوا، بصـورة مباشرة أو غير مباشرة الى دعم واعـانة العـديد من المدارس الأوليـة والتي حققت، في بعض الأماكن على الأقل، نتـائج طيبة. وفي عام ١٧٧٩ بلغ اجمالي عدد الأطفال المقيدين بهذه المدارس في منطقة شرق رأس الرجاء الصـالح ٢٠٩٣٦ تلميذاً وأغلـب هؤلاء ١٩١٧٤ مـن أبناء سيلان بينما كـان هناك ٦٣٩ تلميذاً في بـاتافيا. والمثير للـدهشة أن أغلبيتهم ٥٩٣ تلميذا من تيمور.

وكان الوضـع ممـاثلاً لذلك في الأساسيات في الاقـاليم الخاضعة لسيطرة شركة الهند الغربية وخلفائها. مثال ذلك أن ناظر المدرسة المعين لادارة مدرسة في جزيرة مانهاتـان في نيو امستردام، وذلك في نوفمبر ١٦٦١، تلقى تعليمات تطالبـه بالتأكد من أن التلاميـذ يواظبون على حضور دروسـهم من الثـامنة صباحاً إلى الواحدة مسـاء. وتطالب التعليمات أيضا بتلقين الأطفال الصلوات وكتاب تعليم الدين عن طريق السؤال والجواب. ويحصل ناظر المدرسة علاوة على راتبه السنوي منحة كل ثلاثة أشـهر يجري تقـديرها وفقا لعدد التلاميذ الذين يتعلمون الأبجدية والقراءة والكتابة والحساب. أما التلاميذ الخارجون الذين يحضرون لتلقي مـزيد من التعليم خلال سـاعات خارجة عن مـواعيد الدراسـة الرسميـة فإن أغلبيتهم يتحملون نفقـة هذا التعليم ويعفـى الفقراء منهم من دفع المصروفـات وقبل انصراف التلاميـذ من المدرسة عقب انتهـاء اليوم الدراسي يصطفون ليرتلـوا بعض آياتٍ أحد المزامير. وعلى الجانب الآخر

من المحيط الاطلسي كان الـواعظ الزنجي جـاكوب اليزا كـابتين يديـر روضـة أطفال للزنوج والمولدين والبيض في بلدة المينا في عامي ١٧٤٣–١٧٤٤، حيث يتعلم الأطفال مبادىء العقيدة المسيحية الاصلاحية الحقة».

وان الارتفاع النسبي لعـدد المتعلمين في شمال الأراضي المنخفضة يفيد في تفسير أسباب ازدهـار الطباعة وتجارة الكتـب في جمهورية هولنـدا، خاصة خلال القرن الذهبي من حيـاتها. إذ طبعت هنا، مثلما طبعت في أنحاء مختلفة من غرب أوروبا، العظـات الدينية بكميات ضخمة، وأقبل العـامة على قراءتها بنهم شديـد، مثلما أقبلوا على استيعـاب كميات مثيرة من الكتـابات الـدينية المتعمقة في شئـون الالهيات وكتابات دينيـة تناقش قضايا خـلافية صريحة. وتبدي التوسع التجاري والبحري لهولندا في شيوع أدب الاسفار والرحلات، الـذي سرعان مـا ازدهر خـلال الفترة من ١٥٩٥–١٦٠٥ وهي فترة اتسمت بديناميـة واضحة. وما انفك هذا الفن الأدبي يمثل آنـذاك قسمة بارزة للنشر الهولندي على مدى القرن التالي. وطبيعي ان الهولنديين لم يكونوا هم أول من غـرس البـذرة الأولى لهذا الفن الأدبي. ذلك أن البرتغـاليين والأسبـان الـذين سبقوهم الى المنطقة الاستوائية أبدعوا شعـراً ملحمياً ونثراً تاريخياً وحكايات أسفـار وقصص استكشاف وهـي أعمال استوحـاهـا أصحابها من الغـزاة والملاحين والبعثـات التبشيرية من أبنـاء شبه جـزيرة ايبيريـا وكانـوا روادا لعمليات التـوسع الأوروبي. وبالمثـل حقق الانجليز والفـرنسيون أمجادا في مجال الأدب أسوة بمنافسيهم الهولنديين. ويشهد على هذا المجموعات المثيرة للإعجاب لكل من ريتشارد هاكلوتي وصمويل يوركاس ومليكادك تيغينوت، ولا يسعنا أن نغفل أيضـا دور الايطاليين في هـذا المجال ذلك لأنهم أعظم من ارتاد أدب الـرحلات متمثلاً في مـاركويولـو وراموسيو. وكـانت هذه الأعمال أساسا لاسهامات رائعة قدمها الناشرون وأصحاب المطابع الألمان. ونذكر من بين هذه الاسهامات السلسلة الموسوعية من اعداد دي بري بعنوان «الرحلات العظمى والصغـرى» التي صدرت في فـرانكفورت فيما بين عـامي ١٥٩٠ –

١٦٣٤. ولكن مع تقديرنا الحقيقي لكل ما صدر من كتيبات وكتب وخرائط التي طبعت في البلدان الأخرى، سوف تظل الحقيقة الواقعة وهي أن ما صدر في المقاطعات المتحدة للأراضي المنخفضة الحرة كان له قصب السبق والريادة نوعا وكما على مدى القرن السابع عشر كله.

ولعل أشهر أدب الرحلات الهولندي هو قصة مغامرات ومآسي سكيبر اسبرانت بونتكوي في بحار الشرق (١٦١٨-١٦٢٥) التي صدرت خلال هذه الفترة وصدرت منها خمسون طبعة على الأقل فيما بين عامي ١٦٤٠-١٧٥٦. كذلك صحف السفن التي كانت مع طاقم السفن التجارية الضخمة وركابها وجدت سبيلها الى الطباعة قبل ١٦٥٠، وتم تجميع أشهرها في مجموعة من مجلدين صدرت في امستردام عام ١٦٤٥. وهذه الصحف ليست مجرد سجلات لحالة السفينة بل تسجيل للموانىء والأماكن التي تمر عليها أو ترسو عندها السفينة وطرق التجارة المنيعة هناك، وأخلاق وعادات سكانها. وأفاضت هذه الصحف في الوصف والتصوير - على نقيض أدب الرحلات الاسباني البرتغالي إذ نادرا ما تناول هذه الجوانب - ومن ثم أفادت هدفين معا بأن قدمت معلومات علمية للتجار والبحارة مثلما اتحفت أصحاب الفضول الشغوفين بإمتاع خيالهم بالرحلات وهم قعود في بيوتهم. ومن أوضح النقط التي تبرزها هذه الصحف قدرة البحارة الهولنديين على الارتجال في أحلك الظروف عند انقاذهم من الغرق أو بين الواح الجليد الطافية أو وسط أعاصير المحيط الهندي. وثمة طراز آخر حقق شهرة وذيوعا استنادا إلى حكايات الرحالة وذكرياتهم وهو ما تجسد في أعمال فنية منقوشة على ألواح من النحاس أو محفورة في نحت خشبي.

ونظراً لأن قلة من الناس من خارج الأراضي المنخفضة كانوا يعرفون الهولندية لذا صدرت أكثر هذه الكتب كذلك باللغات اللاتينية أو الألمانية أو الفرنسية أو أحيانا قليلة بالانجليزية وذلك بهدف كسب السوق الأجنبية. ونذكر هنا اسم اثنين من أبرز المؤلفين لمثل هذه الأعمال واستهدفا تحقيق

رواج في السـوق الأوروبيـة وهما جوهـان دي لايت والفيرت دابـار. والأول مولود في مقاطعة انتويرب، وعمل مديراً لشركة الهند الغربية وأصدر عدداً من الكتب الـوصفية عن أوروبـا وآسيا وأمـريكا. وعلى الـرغم من أنه لم يغـادر الأراضي المنخفضـة، بذل جهـودا مضنية في سبيل تسجيل وقـائع صادقـة، وأفاد من مكتبتـه الخاصة الـرائعة فضـلاً عن مكتبة جـامعة ليـدن ووثائق ومحفوظات شركة الهند الغربية. وتتحدث أشـهر أعماله عن أمريكا غير أن دقة وصفه لامبراطورية المغول العظمى De Imperio Magni Magolis الصادر في عام ١٦٣١ صـادفت ثناء من كتاب القـرن العشرين المتخصصين في علوم الهند. أما دابـار فلم يكن ندا لجوهان دي لايت ككاتب نقاده. غير أن كتـاباته عن أفريقيـا وبعض بلدان آسيا والشرق الأوسط ظلت طويـلاً أفضل ما كتب عن هذه المناطق ولا تزال مرجعاً يوثـق به بالنسبة لبعض النقاط على نحو ما يرى المؤرخون المعاصرون لغرب أفريقيا. واشتملت هذه الكتابات على خرائط عديـدة وصور كثيرة، منها ما هـو خيالي ومنها ما هـو تسجيل دقيق للواقع. وبغض النظر عن نوعية هذه النقـوش الفنية إلا أن وجودها بكمية كبيرة كان عاملاً أساسيا في دعم شعبيتها سواء داخل الوطن أم خارجه.

وأفضل أمثلة على انتـاج الكتاب الهولندي في هذا المجـال نجدها في عملين لاثنين من رجال الـدين الكالفنيين. الأول وهو مجلـد من القطع الكبير بعنوان Rerum Per Octennium in Brasilia وأشرف على تحريره القس كاسبار بـارلايـوس ونشره بلايـو في امستردام عـام ١٦٤٧. وبـارلايـوس واعظ من المعترضين وواحـد من البـاحثين والمفكـرين الكـلاسيكيين الـرواد في عصره واستاذ بجـامعة أثينـا يوم في امستردام. وصـدر هذا الكتـاب اللاتيني تحت رعاية جـون موريس، كونت ناسـا وسيبجين. ويحكى الكتاب عن عهده حين كان حاكما للأراضي المنخفضـة في البرازيل «١٦٣٧-٤٤» ويمتدح هذه الفترة بأسلـوب غير ممجـوج. ويعتمـد النص هنا على الأوراق الـرسميـة للكـونت ورسـائلـه. ويشتمل الكتـاب على لـوحـات وخـرائط قيمـة رسمهـا الفنـان

فرانــزبوست. وإذ كان هذا الكتــاب يعبر عن الذروة التي بلغتها شركــة الهند الغربيــة فإن ذروة شقيقتها الشرقية تتبــدى في كتاب القس فرانســوا فالنتين بعنوان: الجديــد والقديــم في جزر الهنــد الشرقية Oud en Neiuw Dost-Indien الصــادر في دوردرشت في ثمانيــة مجلــدات تقع في ٤٨٠٠ صفحــة علاوة على مئات الرسوم والخرائط، هــذا على الرغم مما نسب إليه من انتحال بعض فصول هذا الكتاب القيم حقا. إذ أن هذا الاتهام إنما يؤثر فقط على قيمة الكتاب في مــواضع قليلة أخطأ فيها الكــاتب قراءة أو فهم مصــادره الأصلية. نعم أن فــالنتين لم يركن تمامــا إلى خبرته الخاصــة عن جزر الهنــد الشرقية، حيث عــاش سنوات طــويلة، خاصــة في جزر التــوابل وجاوة، بــل ولم يعتمد بشكل أساسي على اختلاس بعض نصوص كتب منشورة لكتاب سابقين عليه على أساس من المحــاباة والانحياز (وان لم يعترف بــذلك أحيانا). كــذلك أفاد على نحو جيد بالكثير من المواد غير المنشورة التي وفرها له كبار المسئولين في الشركة، بما في ذلك يوميات وكــلاء ديشيما في نجازاكي. وبغض النظر عن أي شيء آخــر فإن نشر هذا السفــر الموسوعي الضخم يكــذب الزعم الشــائع بأن مديري شركة الهند الشرقية عمدوا جميعاً وبشكل دائم إلى الحيلولة دون نشر أي معلومات عن ممتلكــاتهم في الشرق. حقا إن مجلس ادارة الــ ١٧ ومجلس ادارة الــ ١٩ أعــاقوا أو عطلــوا نشر المعلومات الفنيــة التي ظنوا أنها قــد تفيد خصومهم ومنــافسيهم ولكنهم في غير هذا الصــدد، لم يحاولوا التــدخل ضد مــوظفيهم، الحاليين والســابقين، الذيــن نشروا دراسات تصف جــزر الهنــد الشرقية والغربية.

وبغض النظــر عن أدب الــرحــلات، ثمــة فــرع آخــر للنشر حقق فيــه الهولنديون تفــوقا سريعا استمر قــرابة قرن كامل. ونعني بــه انتاج أطالس وكتيبات الملاحة البحرية. ففي عــامي ١٥٨٤-١٥٨٥ نشر لوكاس جانسون فاجنر أطلســاً من مجلدين تحت عنوان Spleghel der Zeevaerdt ويضم مجمــوعة من الخرائط المحفــورة على لوحــات من النحــاس تصور الســاحل

الغربي لقارة أوروبا مع التعليمات البحرية الوثيقة الصلة. وترجم هذا العمل الى الانجليزية ضمن الكتـاب السنوي للأسطول تحت عنـوان «مرآة البحار» ويمثل الكتـاب تطوراً رائعاً فيما يختـص بالتعليمات الملاحية المحـدودة التي سبق اصـدارها وظلت زمنـا طويـلاً نموذجاً تحتـذي به جميـع الاصدارات المماثلة له التي صدرت في انجلترا بعـد ذلك تحت اسم «الفاجنوريات» Wag-goners حتى نهاية القرن الثامن عشر. ويعتبر كتاب فاجنر أول كتاب يطبع الرموز المعيارية المتعارف عليها لعـوامات الارشاد الملاحية والمنارات البحرية والمرافئ الآمنة والصخور المغمورة الخطرة. وعلى الـرغم من أن الأسبان كانوا قد شرعوا في حفر ونشر خرائط ملاحيـة قبل كتاب فاجنر بسنوات قلائل، إلا أن خرائط هذا الكتاب تعتبر أول خـرائط شاع استعمالها في البحار. ويتحدث عنهـا القـائد البحري د. و. ووتـرز فيقـول: «تنبع قيمتهـا من أنها أسقطت الأخطاء التقليـدية وتتمثـل ميزتها في أنها قننت المعـارف الخاصة بجغـرافيا البحار واشتملت فقط عل الوقائع المؤكدة للمـلاحة البحرية الجيدة. ويتحدد انجـازها في أنها أرست الملاحـة البحريـة على قـاعدة راسخـة تفوق كل مـا سبقها.*

وواصل عمل فاجنر العديـد من دور النشر الهولندية التي تخصصت في انتاج الخرائط المحفورة حفراً دقيقا وكتب الملاحة التي تصدر بلغات أوروبية عديـدة. وأشـهر هذه المؤسســات دار بلايـو للنشر في امستردام التي ازدهرت فيما بين عام ١٦٢٠ وعام ١٦٧٣. وأشـهر اصـداراتها الأطلس العالمي الفاخر الـذي صـدر في أحـد عشر مجلـداً من الخرائط في عـام ١٦٦٢. واحتفظ الهولنديون لأنفسهم بـالريادة في هذا المجال الـذي أسسوه حتى عام ١٦٧٥ تقريباً. والجدير بالملاحظة أن الأطلس البحري الانجليزي الذي وضعه جون سيلار، الصـادر في لندن في هذا العام واعتبره البعض أفضل عمل من نـوعه،

* D. W. Waters, the Art of Narigation in England in Elizabethan and Earcy Stuart Times; London, 1958; pp. 168-175.

إنما كان اختلاساً مخزياً من أطلس آخر عنوانه «أطلس البحار أو أطلس العالم» Zeeatlas ofte Water-Wereld الذي وضعه بيتر جوز. ولكن بعد وفاة جوهان بلايو في عام ١٦٧٣ انحسر نشاط صانعي وناشري الخرائط الهولنديين وقنعوا باستنساخ أصول أعمال القرن السابع عشر. ونلحظ أن جوهانس فان كولي الذي ورث عن جوهان بلايو رصيده الضخم من الكتب الملاحية والجغرافية، والذي أسس أيضاً مؤسسة تخصصت في انتاج الخرائط والنماذج الجغرافية للكرة الأرضية على مدى قرنين تقريباً، أصدر في عام ١٦٨٢ نموذجاً للكرة الأرضية لم يشر فيه إلى اكتشافات فاسمان التي تحققت قبل ذلك بأربعين عاما على الرغم من أنها وردت في كتابات كثيرة سابقة نذكر منها على سبيل المثال كتاب «الرحلات» تأليف ثيفينوت. واعتادت بيوت برجوازية كثيرة ان تستخدم الخرائط والرسوم الجغرافية، كما اقتنت دور كثيرة الخرائط الكبيرة التي تعلق على الجدران وكذلك النماذج الجغرافية للكرة الأرضية. وأنفق هواة جمع الخرائط من الهولنديين أموالا باهظة في سبيل اقتناء أطالس فاخرة الاخراج والطباعة والتجليد. وكان الناس يكدون بحثا عن منتجات مؤسسة باليو ويلتمسون أغلاها ثمنا التي قل ظهورها في صالات البيع. واستطاع الانجليز والفرنسيون خلال القرن الثامن عشر أن يكونوا ندا للهولنديين في هذا المجال ثم تفوقوا عليهم بعد ذلك في انتاج النماذج الجغرافية الدقيقة للكرة الأرضية والخرائط والرسوم. واحتفظوا لأنفسهم بالريادة في هذا المجال على الرغم من أن ديرك فان هوجندروب كان مبالغا شيئاً ما حين قال في عام ١٧٩٢: «لا نجد خريطة هولندية واحدة مقبولة عن جزر الهند، بينما نجد لدى الفرنسيين والانجليز خرائط متميزة».

أما عن الكتيبات الفنية المتعلقة بعلم الملاحة في أعالي البحار فقد اعتمد الهولنديون بشأنها، ولزمن طويل، على ترجمات الكتاب الاسباني الكلاسيكي «فن الملاحة» Arte de Naregar لمؤلفه بدور دي مدينا الصادر عام ١٥٤٥. وقد صدرت نسخة منه باللغة الفلمنكية في مقاطعة انتويرب عام ١٥٨٠.

وقبل أن يحين عام ١٦٤٢ كانوا قد أصدروا كتـاباً خاصا بهم يضارع كتاب مدينا من حيث شهرته وشيوعه وهو كتاب «وصف صناعة الملاح» -Beschrij vinge Van de Runst der Stuerlieden تأليف س. أ. لاستمان. وتلت هذا الكتـاب مـؤلفـات أخـرى كثيرة ممـاثلـة. ونجـد في جميع الموانىء الكبرى، وبخاصة امستردام عددا من قدامى البحـارة ذوي كفاءات متباينة يدرِّسون علم الملاحـة في بيوتهم للشباب مـن البحارة المتطلعين للالتحـاق بهذا العمل. وتكثـر هذه الـدروس في الشتـاء خاصـة حيث تـرسـو أغلبية سفن التجـار وتتوقف بـلا عمل. وعلاوة على هؤلاء الـرجال ذوي الخبرة العملية بـالملاحة البحرية نجد آخرين ممن لم يركبوا البحر ساعة من الزمن في حياتهم ولكنهم يـرون في أنفسهم كفاءة تـؤهلهم للعمل معلمين لفن الملاحـة طالما وأنهم قـد درسوا الرياضيات والملاحة البحرية النظرية. ويقف موقف النظير لهؤلاء، أو لنقل النـد لهم في انجلترا وليم بـورن، وهـو صـاحب حـانـة وعلم نفسـه الـرياضيـات وتخصص فيها. وقـد ألف وليم بـورن كتابـه «رهط الملاحين البحـريين: يشتمل على اكثـر قواعـد الملاحـة فـائدة، والخبرات الريـاضيـة والمعارف الكاملـة عن الملاحة البحرية الى جميع السـواحل والأقطار». (لندن ١٥٧٤) وحقق الكتـاب نجـاحـا عظيما يستحقـه عن جـدارة داخل انجلترا وخارجها. وصدرت منه ثلاث طبعات باللغة الهولندية فيما بين عامي ١٥٩٤ و١٦٠٩.

واحتدمت المنافسة بين الهولنديين القـائمين بمهمة تعليم الملاحةالبحرية وكثيراً مـا تبادل هـؤلاء الاتهام بالانتحـال والتزييف والعجـز. وعمد هـؤلاء المعلمون، رغبة منهم في اجتذاب الزبائن، إلى الإعلان عن مهارتهم وذلك بلصق إعلانـات من الورق فوق أبواب بيـوتهم. واشتملت هذه الاعلانـات عادة على ألغـاز ريـاضية معقـدة مع حلـول لها. واشـهـر كتـابين من بين كتب كثيرة أصدرها هؤلاء المعلمون كتاب «الضـوء الذهبي للملاحة البحرية Vergulde Licht der Zeevcart تأليف كلايس هندريكس جيتير مـاكر، وكتاب «الكنز

أو فن ملاحــة البحار» Schatkamer ofte Konst der Stuerluyeden تأليف كلايس دي فرايس. وصــدرت من الكتاب الأول أربع عشرة طبعة فيما بين ١٦٦٠ و١٧٧٤. وصدرت من الثـاني احدى عشرة طبعة فيما بين ١٧٠٢ و١٨١١، هذا علاوة على الطبعات التي صدرت بلغات أخرى. وعلى الرغم مما حققه هـذان الكتابان من شهـرة وشيوع على مـدى أجيال كثيرة من الملاحين والبحارة الهولنديين والألمان والاسكندينافيين إلا أنــه كان يعوزهما قدر كبير من الـوضــوح والتفصيل والتبـويب. ذلك أن مـادة الكتـابين اتسمت بســوء التبويب والعــرض فضلاً عن الاسهـاب المفرط والغموض والتكـرار والحشو واشتمالها على قواعد معقدة ومرهقة. ونعرف أن حساب المثلثات الكروى كان لا يزال لغزا غامضا بالنسبة للملاح الهولندي المتوسط في عام ١٧٤٠. بيد أن هذه الكتيبات العتيقة ظلت مستخدمة على نطاق واسع في الوقت الذي تيسرت فيــه كتب أخرى أفضل وأحـدث مثل مؤلفـات عالم الـرياضيـات في بحريـة امستردام كورنيليس دوويس (١٧١٢-١٧٧٣).

وثمــة مجال كـان الخبراء الفنيـون الهولنديـون ســادتــه دون منــازع وباعتراف الجميع خــلال القرن الســابع عشر وهو الهنـدسة الهيـدروليكية واصــلاح الأراضي. وكان هـذا المجال المفضل لاستثمار رأس المال الهولنـدي والافادة بالخبرة الهولنـدية في الصرف وبناء السدود وتشييـد القنوات وهي الخبرة التي توفـرت للهولنديين من خلال استصلاح المستنقعـات وترويض مصبات الأنهار، منذ بدايات العصر الوسيط وحققوا من خلالها مهارات فنية فائقة لا ينافسـهم فيها أحد. وأبرز المهندسين الهولنديين في هذا الفن هو جان أدريـانسون ليجـووتـر (١٥٧٥-١٦٥٠) الـذي استحدث طـريقـة الضخ بواسطة طواحين الهواء. ونجح في تصريف مياه مســاحات واسعة في مقاطعة هولندا، هذا على الرغم من أن خطته الطموحة لاستصلاح بحيرة هارليم في عام ١٦٤١ كــان لا بد وأن تنتظـر لأكثر مــن قرنين إلى أن تيسر تنفيـذها. ودعــا جيكس الأول ملك انجلترا كورنيليـس فير ميودين من أبناء مقـاطعة زيــلاند

لزيارة انجلترا حيث حقق وخسر ثروة نتيجة مشروعات الصرف التي اضطلع بها في منطقة هاتفيلد شيز. وعمل مهندسون هولنديون آخرون متخصصون في الهيدروليكا في كل من ألمانيا وفرنسا وبولندا وروسيا وايطاليا. وظل الهولنديون حتى نهاية القرن الثامن عشر الخبراء المشهود لهم والمعترف بهم في العالم الغربي في مجال تشييد وتشغيل طواحين جميع أنواع طواحين الهواء. وعندما قرر جون الخامس ملك البرتغال اقامة مؤسسة لنشر الأخشاب في غابة الصنوبر في ليريا لنشر الواح من الخشب لاستخدامها في بناء السفن الحربية أرسل إلى هولندا في طلب بعض الفنيين الهولنديين لاقامة وتشغيل هذه المؤسسة التي استمرت تعمل إلى أن دمرها حريق هائل في عام ١٧٧٤. ولقد تولى الهولنديون حيثما ذهبوا من جزيرة مانهاتن إلى فورموزا مهام حفر القنوات وبناء السدود. كذلك فإن أعمال المساحة التي هي نتيجة لازمة عن كل الأعمال الهندسية من هذا النوع شجعت استحداث وظهور اعداد كبيرة من المتخصصين في فن خرائط المساحة. وحققوا درجة عالية من التميز في عملهم هذا سواء من حيث فن الرسم ودقته معا مما يذكرنا بما حققه الهولنديون من مهارة وحذق في مجال الخرائط والرسوم الملاحية.

وحيث ان هولندا هي أول أمة ارتادت البحار في القرن السابع عشر. فلا غرابة في أن تكون لها الريادة في مجال انتاج الخرائط والرسوم والكتيبات عن الملاحة البحرية وأدب الرحلات. ولكن، وكما ذكرت آنفا لم تكن هذه الكتب هي الأكثر شيوعا في السوق المحلي. وباستثناء فوندل نجد أن أعلام الأدب في هولندا لم يبدوا اهتماما بجهود أبناء جلدتهم في أعالي البحار أكثر مما أبدى غيرهم من أمثال سير فانتس أو ملتون أو موليير بالنسبة لنشاط مواطني كل منهم. فكما كان الحال في جميع أنحاء أوروبا خلال النصف الأول من القرن السابع عشر كان الدين وفقه الالهيات هما أفضل الموضوعات التي يقبل الناس على قراءتها ويليهما القانون والسياسة والكلاسيكيات. واشتملت مكتبة بلدية امستردام في عام ١٦١٢ على سبعة كتب فقط باللغة الهولندية،

وأغلبية الكتب الـوارد ذكرهـا في قائمـة كتب مكتبة أوتـرشـت في عام ١٦٠٨، وعـددها ٣٠٠٠ كتـاب هي كتب في فقه الـدين. وبدأت تشيع خـلال النصف الثاني من القرن السابع عشر المسرحيـات والأدب الفرنسي بين أوساط الطبقة الحاكمـة والبرجـوازيين. وبدا واضحـا حتى بين أوسـاط المتعلمين أن الكتب الهولندية والفرنسية تتزايد على حسـاب الكتب اللاتينية. ونعرف أن مؤسسة ايلزفـر التي تخصصت في نشر الكتب للباحثين والمفكرين والمحـامين ورجال الدين، وذاع صيتها في أوروبا وغزت أسواقهـا أصدرت أكثر من ٩٦ بالمئة من منشوراتها باللغة اللاتينية فيما بين عام ١٥٩٤ وعام ١٦١٧. ولكن مؤسسة ايلزفير التي تطبع أيضا كتب جامعة ليدن لم تنشر خلال الفترة من ١٦٢٦ إلى ١٦٥٢ سوى واحد بـالمائة من منشوراتها (في هذا الاطار) بالفـرنسية خلال السنوات الخمس الأولى من تعـاقدهـا مع الجامعة، وأكثـر قليلاً من خمسين بالمائة خـلال السنوات الخمس الأخيرة من هـذه الفترة. وفي عام ١٦٨٥ كتب الفيلسوف والناقد البروتستانتي الفرنسي بيير بايل من ملاذه في روتردام عن الأراضي المنخفضة الشمالية فقال: «اللغة الفرنسيـة شائعة في هذا البلد حتى ان حجم مبيعات الكتب الفرنسية هنا أكثر منه في أي بلد آخر».

ومنـذ عام ١٦٥٠ تقـريبـاً زادت أيضاً بـدرجـة ملحـوظة أعـداد الكتب الصادرة بـاللغة الهولنديـة، إذ بلغت خلال النصف الثاني من القـرن حوالي ثلاثة أمثال ما كانت عليـه في النصف الأول منه. ولكن أيا كانت درجة شيوع قصص الرحـلات والأسفار البحـرية إلا أنها لم تنـافس في شيوعهـا الكتاب المقدس والشعر الهزلي للشاعر جاكوب كاتس. وليس من قبيل المبالغة في شيء إذا قلنا إن أي مكتبة في منازل الهولنديين المتعلمين لم تكن تخلو من عدة نسخ من هذه الأعمال. وطبيعي ان الكتـاب المقدس هو أكثرها شيـوعاً، ولكن نلحظ أيضاً ان ثمة طبعـة مصورة لأشعار كاتس، وهي طبعة بـاهظة الثمن نسبياً، بيع منها ٥٠٠٠٠ نسخـة حتى عام ١٦٥٥ مما جعلها بحق واحـدة من أكثر الكتب رواجـا في القرن. ونجـد أن أهم صناعـات التصديـر في هولنـدا آنذاك

تصدير الكتــاب المقدس باللغتين الانجليزية والألمانية. وهــا هو ناشر كبير في امستردام يفخر قائلاً: «إنني وعلى مدى سنوات عديدة طبعت أكثر من مليون نسخة من الكتاب المقدس لانجلترا وسكوتلندا. إنك لا تجد صبيا وراء المحراث أو خادمة صغيرة إلا ومع أي منهما نسخة من الكتــاب المقدس». وقد ينطوي هذا الكلام على قدر من المبالغة، ولكن النــاشرين الذين كانوا يعملون لحساب الملك شارل الثاني في عام ١٦٧٢ اشتكوا من أنه «بسبب ما يصبه الهولنديون دائماً من أعــداد كبيرة من الكتــاب المقدس أصبحــوا هم أنفسهم لا يبيعــون سوى عشر ما كانوا يبيعونــه قبل ذلك». وتؤكد جميع الشواهد أن عدد الكتب التي تطبع في جمهوريــة هولنــدا إلى ما قبل نهاية القــرن كانت اكثــر منها في جميع بلــدان أوروبا الأخــرى، وأن أغلبيــة هذه الكتب المطبــوعــة في هولنــدا مخصصة للسوق الدولية».

ويمكن القــول بمعنى من المعاني أن الأدب الهولنــدي الــذي ساد خــلال القــرن الذهبــي لا يزال مثلما كــان حتى الآن: كتــاب مغلق على الجميع دون الهولنديين والفلمنك والهولنديين من سكان جنوب أفريقيا. وبالمقارنة بالكتب الهولندية عن الأسفار والرحلات والجغرافية والملاحة البحرية التي سرعان ما كانت تترجم الى اللغــات الأوروبية لأسبــاب عملية، نجــد أن الأدب الهولندي، نثراً ونظماً، لم يثر اهتماما خــارج الأراضي المنخفضة سوى اهتمام ضئيل في المانيا. وان جــوست فان دن فــوندل الــذي أجمعت الآراء على أنه أعظــم أدباء هولندا وحظى بالتكــريم فيها شأنه شأن شكسبير في انجلترا، وسرفانتيس في اسبانيا، وكامويس في البرتغال، لم يجد من تطوع لترجمته ولم يجد رواجا في الخارج مثلما حــدث لــلآخريــن، وليس يسيرا فهم سبب ذلك وتفسيره، ومن المسلم به أن الفرنسيين والانجليز جيران في هولنــدا، اعتادوا النظر باستعلاء مفرط الى اللغــة الهولنديــة، وانتقاد مــا سموه مخارجهــا الصوتيــة الخشنة. ونذكر في هذا الصدد أن كاتبا وأديبا من كتاب هولندا خلال القرن الذهبي هو بيتر سكريفــر (١٥٧٦–١٦٦٠) نظم قصيدة امتدح فيها لغتــه التي وصفها

بقوله: «لسان تفوق حلاوتـه الوصف، وسيدة اللغات جميعها» بينما وصفها كاتب انجليزي معاصر بقوله: «الضفدع النقاق عندليب هولندي». وإن الجهل باللغة الاسكنديناقية أو الروسية على سبيل المثال لم يحل دون شيوع ترجمة أعمال كير كجورد وابسن وتولستوى ودستـويفسكي، والنظر بعين التقدير والاكبار لترجمة اعمالهم. ولقد كان فوندل عضوا في حلقة تحمل اسم Muid-en-Kring التي تضم مثقفين من الجنسين وهـواة نثـر وشعر ومـوسيقى، واعتادوا اللقاء بصفة دورية فيما بين عـامي ١٦٠٩ و١٦٤٧ في قلعة مويدن حيث كان أمينهـا هو الشاعر والموسيقي والمؤرخ ب. ك هـوفت. وضمت هذه الجماعة هـوجو جروتيوس الـذي وضـع مع سلفه الاسباني فـرنسيسكو في فكتوريـا أسس القانون الـدولي، ولورنس رايل الحاكم العـام السابق لجزر الهند الشرقية والذي تبادل الرسائل مع جاليليو بشأن قضايا علمية؛ وحـب سويلنك عـازف الأورغن الشـهير، وكوستـانتين هوجنز الـذي عمل سكرتيرا لأثنين من أمراء آل أورانج فضلا عن انـه شاعر عرف بغزارة انتـاجه للشعر باللغات الهولندية واللاتينية والفرنسية، وشقيقتان حسناوان فنانتان هما آنا وماريـا رويمرز. وتـرجم كوستـانتين هوجنـز بعض أشعـار جون دون الى الهولندية، ولكن لم يرد الجميل أي انجليزي من معاصريه.

وان الثروة التي حققتهـا طبقتا الحكـام والتجار بصـورة مباشرة أو غير مباشرة عن طريـق التجارة عبر البحار لم تخلق فقط سوقـاً رائجة للمطولات الشعرية الـدافقة للشاعر كـاتس والمجلدات والخرائط المصورة التي نشرتها دور نشر بـلانتين وايلزفير وبـلايـو، بل سـاهمت أيضـاً في ازدهار الفنـون بصورة عـامة وفن الرسم بصـورة خاصـة، ولم يقبل الهولنديون الأثـرياء وحـدهم على الأعمال الفنية لتـزيين منازلهم، بل أضحت اللـوحات ممتلكـات ثمينة يحرص على امتـلاكها الجميع فيما خلت بيوت الفقراء. ونكـاد نقول ان جميع البلـدان، باستثنـاء اليـابان، اقتنت أعمال رمبرانت – ان لم نقل دعـوا الفنان نفسه لـزيارتهم – وأضحى فن رامبرانت أكثر شيوعاً فيهـا مما هو في

بلده. وتحدث الرحالة الخبير بيتر مونـدي عن فن الرسم وحب الناس للوحات في هولنـدا وذلك عقب زيارته لها في عام ١٦٤٠ فقـال: «لا أحسب أن هناك في العالم كله فنانين يبـزون فناني هولندا براعة ومـوهبة خاصة رمبرانت الآن. والناس جميعاً يتهافتون على تزيين بيـوتهم، خاصة غرف الاستقبال بأعمال نفيســة غـاليــة الثمن: الجميع بمن فيهم الجزارون والخبــازون وغيرهم حريصـون على اقتناء بعض الصـور. هذه هي الفكرة العامة التي تولدت عندي عن مواطني هذا البلد: حب اللوحات والابتهاج بها.

وزار جون ايفلين هـولندا بعد عـام واحد من زيارة بيتر مـوندي وأعجب مثله بما شاهـده. أعجبه إلى درجة الذهول السوق السنـوية في روتردام التي ازدانت بأعداد كبيرة من اللوحات والرسوم خـاصة مشاهد الطبيعة. وقال ان سبب هـذا الكم الهائل من الـرســوم وسبب رخصـهـا، نـابع من الحاجـة الى مساحة واسعة من الأراضي للإفـادة بها واستخدامها. لذا فإن من المألوف ان نجد الفلاح البسيط يخطط لانفاق ثلاثـة أو أربعة آلاف جنيه في هذه السلعة. وتـرى بيوتهم زاخـرة بها ثم يبيعونها في أســواقهم بما يعود عليهم بأربـاح طائلـة. «ويبدو واضحـا أن التفسير الذي يقدمـه ايفلين لشيوع هـواية جمع اللــوحـات تفسير غير مقنع طالما وأن هنـاك مجالات استثمار تعـود بأربـاح أضخم كثيراً مثل سندات الحكومة والبلـديات. والأرجح عقلا ان الناس اقبلوا على شراء اللوحــات لأنهم يحبونها على نحو مـا لاحظ بيتر موندي. ونـادراً ما أخطأ الزوار الأجـانب للمقاطعـات السبع ملاحظـة حب الهولنديين للـوحات والرسوم، حتى أن وليم كار قـال في عام ١٦٨٨ أن جميع البيوت، بما في ذلك بيوت الخير لرعاية الفقراء، تزدان بالعديد من اللوحات.

وحظي الرســامون الهولنديـون بتقديـر كبير خارج حدود الجمهـورية ونشأت تجارة تصـديـر واسعــة ورائجـة في أعمالهم. وتخلت أنترويب عن الصـدارة في مجال الفنون لامستردام بعـد وفـاة روبنـز مثلما فقدت مكـان الصـــدارة لها أيضاً في مجال التجـارة والبنـوك. وأضحت المراكـز الرئيسيـة

لـرعايـة – ومن ثم انتـاج – الفنـون هي المدن الهامة مثل امستردام وليـدن وأوترشت وهارلم ودلفت. وكانت لكل مـدينة في الأراضي المنخفضة الشمالية فنانوها من الرسامين. وربما اتخذت الكنيسـة الكالفنية موقف اللامبالاة من الفن حيث لم يكن له منها موقف معاد واضح. غير أن غيـاب الرعاية الكنسية للأعمال الفنية وأذنته أو عوَّضت عنه بأكثـر منه رغبة العامة من سكان المدن في اقتناء بعض اللوحات. وسافر كثيرون من الرسامين الهولنديين الى الخارج للعمل، عـلاوة على غيرهم ممن قصدوا ايطـاليا في شبـابهم للدراسـة هناك. وهاجر بعضـهم هجرة نهائية ومن هؤلاء الفنانان البحريان الشهيران فان دي فيلدس اللـذان استقرا في انجلترا أثنـاء الحرب الانجليزية الهولنـدية الثـالثة. ونذكر بهذه المناسبة أن هذين الفنانين وغيرهما من الفنانين الهولنديين الذين برعوا في رسم السفن لم يحققوا نفس القدر من النجاح في رسم البحر.

وعلى الـرغم مـن ميل الأثـريـاء مـن أبنـاء الطبقـة الحاكمـــة والتجـار والبرجوازيين في هولندا إلى اقتناء اللوحـات الفنية إلا أنهم نظروا نظرة احتقار إلى الفنـانين كفريق اجتماعي. ذلـك أن جميع الرسـامين الهولنـديين تقريبـاً انحدروا من أسر برجوازية متواضعة أو أبناء عمال. ولم يرتفعوا عن منشئهم الاجتماعي المتواضع ليحتلـوا مكانة ساميـة مثل مكانة كل من برونـز وفان ديك وفيلاسكيز. ولقد كان الأثرياء الذين تعهدوا رمبرانت بالرعاية يحتقرونه لإفلاسه بقـدر ما يعجبون به كفنان من الطـراز الأول. واعتاد المجتمع النظر الي الرسامين باعتبارهم صعاليك يقضون اكثر وقتهم في الحانات حيث يرسم تلامذتهم عملات على الأرض لإضحاك النـاس على حساب استاذهم المخمور حين يحاول التقاط العملات من على الأرض.

ولم تكن السوق الأوروبيـة هي السوق الوحيدة أمـام الفن الهولندي، إذ جرى تصـدير الصور الى آسيـا حتى من قبل تأسيس شركة الهنـد الشرقية. وأبدى الانـدونيسيون والصينيـون اهتماما ضئيـلاً بالفـن الغربي، غير أن الولاة والحكام في بلاد الهند والفرس ألحوا في سؤالهم عن الفنانين الهولنديين

لكي يزوروا بلاطهم واستجاب المسئولون في الشركة لهذه الطلبات كلما تيسر لهم ذلك. وعلاوة على الفنانين العاملين بالشركة، جاء آخرون غيرهم للعمل لحسابهم الخاص. وفي عام ١٦٠٢ أهدى الهولنديون ملك كاندي لوحة كبيرة عن معركة نيوبروت (٢ يوليو ١٦٠٠) وتصور اللوحة الأمير موريس بحجمه الطبيعي وهو فوق صهوة جواده يتصدر جيشه في المعركة. واحتفظ قصر الحاكم السنهالي بهذه اللوحة الضخمة في قاعة العرش سنوات طويلة. وأهديت لوحة تصور ميناء امستردام إلى سلطان باليمبانج في عام ١٦٢٩، ولوحات لصور شخصيات من الحكام الهولنديين إلى أمير هندي والى ملك بيجو. ومن ناحية أخرى فإن شوجان اليابان لم تستهوه بعض اللوحات الزيتية التي أهديت اليه في عام ١٦٤٠. وخلال العام ذاته أخفقت الشركة في اقناع شاه بلاد الفرس بشراء لوحة تصور انتصار اسطول هيمسكيرك أمام جبل طارق في عام (١٦٠٧).

ويبدو أن الهولنديين كانوا في بلاد الشرق يعشقون اللوحات شأنهم شأن مواطنيهم على ساحل بحر الشمال، ذلك أن جرد محتويات بيت الحاكم في قلعة زيلانديا، في فورموزا، في عام ١٦١٤ كشف عن وجود أثنتين وعشرين لوحة منها أربع عشرة لوحة رسوم لوجوه أمراء بيت ناسو، وثمان لموضوعات من الكتاب المقدس. وخلف قائد حامية باتافيا تسعا وثمانين لوحة ما بين صغيرة وكبيرة بعد وفاته عام ١٦٩٦ علاوة على لوحة شخصية له. وكان من الشائع أن يقتني أثرياء باتافيا فيما بين ثلاثين أو أربعين لوحة. وكذلك اعتاد موظفو الشركة اقتناء أعمال من الفن الشرقي مثال ذلك أن الحاكم العام كامفيوس خلف لصديقه بيتر فان دام محامي الشركة في امستردام أربعة من كتب مزدانة بمئات الرسومات الصينية واليابانية والاسلامية وغيرها. وبعد قرن من الزمان أحضر اسحق تيتسنج من نجازاكي بعض المطبوعات اليابانية ومجلدين بهما رسوم نباتات رسمتها زوجة رئيس أطباء الشوجان. وحدث أن رأى هذه اللوحات كاتب فرنسي، فلم يتمالك نفسه وقال: «لا أظن أن

هناك مـا هو أكثر كمالا من هـذه الرسـوم». ونحن نعرف أن رمبرانت اقتنى ونسخ منمنمات مغوليـة مما دعا البعض إلى الظن بأنـه تأثر قليلاً بالـرسوم اليابانية والصينية.

وعلى الرغم من أن عشرات من الرسامين الهولنديين عملوا في الشرق خلال القـرنين السـابع عشر والثـامن عشر إلا أن القليل جـداً من أعمالهم قـدر لها البقاء. وان الفنـانين المحترفين الوحيـدين اللذين عمـلا في المنطقة الاستـوائية وبقيت أعمالهما موضـع تقدير بعـد وفاتهما هما فرانزبوست والبرت ايخوت. انهما لم يعمـلا في منطقـة آسيـا الموسميـة فقط، بل عمـلا أيضـا في الأراضي المنخفضـة البرازيلية أيـام ولاية الكـونت جون مـوريس (١٦٣٢-١٦٤٤). وعنى مؤرخـو الفن في السنوات القليلـة الماضية بـدراسة رسـومهما دراسة مدققـة وتفضيلية. وسـواء أكانت القيمة الفنيـة لأعمالهما جديـرة بالاهتمام الذي تحظى به الآن من الدارسين أو تستحق الأثمان الفلكية التي يدفعها ثمناً لها هـواة الفن، فإن هـذا أمـر تتبـاين بشأنـه الآراء. ولكن الشيء المؤكـد أن اعمالهما حظيت في حياتهما بقدر متواضـع من الرواج. والجدير بالملاحظة أن الموضوعات والأفكار الرئيسيـة المستمدة من المنطقة الاستوائية والتي تخللت أكثـر أعمالهما بعد عـودتهما من البرازيل لم تكن محصورة في مـوضوعـات وأفكار من أمريكا الجنوبية وغرب أفـريقيا، بل وامتزجت بأفكار وموضوعات من شرق آسيا على نحو ما نرى بوجه خاص في رسوم ايخوت.

ونجد هذا المزيج بين الشرق والغرب تمثلـه بعض اللوحات الجدارية التي رسمها هذا الاستـاذ المتوسط القدر على جدران القلاع الألمانيـة. ولكننا نشـهد أفضل مثال لها في تصميمات سجاد جوبلن الذي تحمل اسم «رسوم الهند». وقد أعدها بتكليف من لويس الرابع عشر - بعد محاولات تشجيعية مكثفة من جانب الكونت جون موريـس - وصادفت رواجا في أوساط البلاط حتى انها تكررت على المنوال نفسه على مدى فترات متقطعة خلال المائة والعشرين عاما التالية.

وإذا قلنا إن المنمنمات المغولية والرسوم الصينية والمطبوعات اليابانية لم تقتنها سوى قلة مميزة من موظفي شركة الهند الشرقية، وإذا قلنا كذلك إن التأثير الجمالي لهذه الأعمال من الفن الشرقي بعد أن عرفت طريقها إلى أوروبا كان تأثيراً لا يستحق الذكر إلى حد ما، فإن الأمر على غير هذا النحو بالنسبة لأثر فن الخزف الوارد من الشرق الأقصى. إذ وردت بعض منتجات هذا الفن إلى أوروبا عن طريق البرتغاليين (عبر جوا) والاسبانيين (عبر المكسيك) خلال القرن السادس عشر. بيد أن جميع هذه المقتنيات جرى تسويقها في شبه جزيرة ايبيريا أو في المستعمرة الأمريكية. والهولنديون هم أول من استورد الخزف الصيني والياباني بكميات كبيرة إلى شمال أوروبا والمنطقة المحيطة بجبال البرانس. وتولد الحافز الى هذا العمل إثر أسرهم سفينتين شراعيتين برتغاليتين من النوع المسمى الكراك، الأولى سنة ١٦١٢ والثانية بعدها بعام واحد. واشتملت حمولتهما على كميات هائلة من الخزف الصيني الذي بيع في مزاد علني في امستردام بأسعار عالية جداً. ومن هنا جرت على الألسن عبارة «خزف الكراك» ويشار بها إلى خزف منج الذي يجمع بين اللونين الأبيض والأزرق. وكشف الإقبال الشديد على شراء هذا الخزف عن حاجة السوق الأوروبي اليه ومن ثم سارعت شركة الهند الشرقية الى تلبية هذا الطلب. ونجد كتابا صدر في عام ١٦١٤ يصف امستردام آنذاك ويؤكد من خلال الوصف أن الخزف «بات له استعمال يومي بين العامة». وبعد ستة وعشرين عاما أكد بيتر موندي «أن أي بيت مهما كان قدره ومستواه يقتني الخزف الصيني».

ولكن هذا المطلب الحيوي للبلاد تجاوزته تلك الكميات الضخمة التي كان يعاد تصديرها من أرض الوطن إلى البلدان الأخرى. ولهذا زادت سريعا قوافل الشحن الوافدة من الشرق الأقصى إلى شمال الأراضي المنخفضة. وحملت السفن الشراعية الضخمة لشركة الهند الشرقية الهولندية فيما بين عامي ١٦٠٢ و١٦٥٧ شحنات تربو على ثلاثة ملايين قطعة من الخزف الصيني، وتبعتها شحنات تصل إلى ١٩٠٠٠٠ قطعة من الخزف الياباني فيما بين

عامي ١٦٥٩ و١٦٨٢ وهي الفترة التي وقعت خلالها اضطرابات وصراعات أهلية في الصين. وعلاوة على هذه الصادرات المتجهة الى أوروبا كانت مئات الملايين من القطع (الخزف الصيني أساسا) يجرى تحميلها على سفن أخرى في باتافيا لعرضها في أسواق أندونيسيا والملايو والهند وفارس وغيرها. ويحدثنا المؤرخ لهذه التجارة من الصادرات عن ملاحظاته فيقول: «إن تمييز الخزف الصيني من حيث الجودة وعدم نفاذيته ونقاؤه وجماله العملي ثم رخص ثمنه نسبياً» عناصر كافية تفسر لنا أسباب شيوعه على نطاق واسع بصورة مطردة. وكان كل الخزف المستورد من الشرق الأقصى خلال القرن السابع عشر هو تقريبا من النوع الذي يجمع بين اللونين الأبيض والأزرق، سواء أكان واردا من الصين أم من اليابان. ولكن خلال القرن الثامن عشر بدأت الأسواق الأوروبية يزداد اقبالها باطراد على الخزف المتعدد الألوان ووحيد اللون والمغطى بطبقة من الميناء. وان كان هذا لا يعني في الوقت ذاته تراجع الخزف ذي اللونين الأبيض والأزرق عن مكانته الكبيرة في الحياة داخل هولندا نفسها.

ومنذ عام ١٦١٤ بدأ الهولنديون يقلدون صناعة السيراميك ذي اللونين الأبيض والأزرق المعروف باسم سيراميك منج. وخلال خمسين عاما أصبحت الأواني الخزفية المعروفة باسم دلفت تحاكي تماما الأواني الخزفية الصينية واليابانية واستمر الهولنديون في انتاج هذا النوع الذي اشتهر باسم خزف دلفت على مدى مائة وخمسين عاما على الرغم من أن أول خزف حقيقي تم تصنيعه في أوروبا هو الخزف المصنع في ميسين عام ١٧٠٩. ولم تكن جميع المنتوجات من خزف دلفت تقليدا أعمى للمنتوجات الأصلية المصنعة في الشرق الأقصى، ذلك لأن بعض رسامي الخزف في دلفت أدخلوا في رسومهم عناصر يابانية وصينية وهندية في زخارفهم. ومنذ عام ١٦٦٠ وما بعده أنتج الهولنديون تصميمات تحمل طابع الزخارف الصينية والأسلوب الصيني الذي شاع للغاية في القرن الثامن عشر. وقد يبدو غريبا أن نعرف أن

الهولنديين في عـام ١٦٣٤ عقدوا الآمـال على خلق سوق لتسـويق منتجاتهم الخزفية في اليابان. ولم تكن ثمة فرصة كبيرة لتحقيق الأمل نظراً لأن المشترين اليابـانيين أرادوا أواني تلائم الغـرض في حفلات الشـاي الخاصة بهم وهـو ذوق فني له تراثه الجمالي الشعبي الذي يتعذر على المنتج أو المورد الأوروبي أن يطمح في ادراكه وفهمه. وعلى أيـة حال فقد تلاشى هـذا الأمل بعد التوسع الكبير في صناعة الخزف اليابـاني بعد عام ١٦٦٠ وان استمر بعض المعجبين بحفلات الشـاي الياباني في اقتناء القطع الغـربية من خزف دلفت وكولـونيا. وحدث أن قلد صناع الأواني اليابـانية بدورهم، في بعض الأحيان، تصميمات خـزف دلفت التي هي في الأصـل محاكـاة أو استلهـام لخزف مستـورد من الشرق الأقصى، وهكذا نجد عجلة التذوق الفني دارت دورة كاملة.

وثمة خاصيتـان تميز بهما خزف الشرق الأقصى، ألا وهما رخص الثمن وقابليته للغسيـل، يفسران لنا الطلب الكبير والمتزايد لأوروبـا على أجود أنواع المنسوجات والأقمشة القطنية الهندية خلال النصف الثاني من القرن السابع عشر. واستوردت شركتـا الهند الشرقية الهولنديـة والانجليزية خـام الحرير وخيوط الحريـر من الصين مباشرة أو بطـريقة غير مباشرة ثـم بعد ذلك من بـلاد فـارس والبنغـال. وقبل عـام ١٦٦٠ كـان الهولنـديـون والانجليـز يستوردون المنسوجات الهندية لأسـواق أوروبا غير أنها كانت خامات رديئة المستوى، وانما كانـوا يستوردونها بقصد اعادة تصـديرها ثانيـة إلى أمريكا وغرب أفريقيـا. أما الألياف الجيدة المتميزة كانت تستخـدم لصناعة الملابس الـداخليـة بدلاً مـن الملابس الخارجية. وتميـزت العقـود الأخيرة من القـرن السابع عشر بما يسمى «الهوس الهندي» وهو النظير والنذير بما عرف باسم «الهوس الصيني» في القرن الثـامن عشر. وكتب مديرو شركة الهنـد الشرقية الانجليزية الى وسطائهم التجـاريين في البنغال في عام ١٦٩٢ ما يلي: «لكم أن ترسلوا الينا كل ما هب ودب طالما وان كل ما هو هندي بات مطلوبا بالحاح». وهو قول أمّن عليه منافسوهم الهولنديون في امستردام. ولكن دعاة الأخلاق

في المقاطعات المتحدة وانجلترا استهجنوا واستاؤا لما تلقاه هذه المصنوعات الهندية من حفاوة وتكريم ابتداء من أرقى سادة المجتمع الى ابسط الناس وباتوا جميعاً لا يرون شيئاً ملائما للتزيين به سوى النسيج الهندي. ولم تكن التصميمات والرسومات المطبوعة على هذه المنسوجات هندية الروح بالضرورة بل غالبا ما كانت طرزاً أرسلها الأوروبيون الى الهند ليحاكيها أو يوائمها الصناع الهنود. ووصل الأمر إلى الحد الذي نجد فيه رسوماً يابانية في بعض منسوجات كوروموندل التي تصنع خصيصاً للسوق الهولندية.

وفي عام ١٦٩٧ استوردت شركة الهند الشرقية الهولندية منسوجات آسيوية وسلعا بالقطعة تزيد قيمتها على خمسة ملايين فلورين، ثلثها فقط منسوجات وسلع من البنغال. ومن هذه الفترة كانت الريادة لا تزال للشركة الهولندية قياسا الى الشركة الانجليزية المنافسة لها. ولكن انعقد لواء السوق للشركة الانجليزية في أوائل القرن الثامن عشر. وقبيل عام ١٧٣١-١٧٣٥ أصبحت شركة الهند الانجليزية تحصل على ضعف كميات الحرير التي تشتريها الشركة الهولندية المنافسة لها. وإن نجاح الشركة الانجليزية هو الأمر المثير للانتباه أكثر نظراً لأن استيراد السلع والمنسوجات الهندية لم يواجه مقاومة قوية أو فعالة من عمال ورجال صناعة النسيج في المقاطعات المتحدة مثلما واجه في انجلترا. إذ بينما تصاعدت القيود القانونية التي فرضتها انجلترا على مثل هذه الواردات حتى بلغت ذروتها في صورة حظر كامل لخام الأقمشة القطنية الهندية في عام ١٧٢٠ نجد بعد ثلاثين عاما أن سلع التجزئة الهندية التي جرى استيرادها على متن سفن شركة الهند الشرقية لا تزال تعامل على قدم المساواة مع «الخيوط والمصنوعات والمنتجات الوطنية» من حيث التعريفة الجمركية في هولندا. ونلاحظ في كلا البلدين أن قيمة السلع الآسيوية التي يعاد تصديرها تجاوزت كثيراً قيمة السلع التي تستهلكها سوق كل منهما. ولكن بينما كانت شركة الهند الانجليزية واقعة تحت ضغط ثابت ومستمر من منتجي الصوف وتجار الأقمشة ورجال

السياسة من أجل العمل على بيع الأقمشة الانجليزية في أسواق آسيا لم يبذل مديرو شركة الهند الشرقية أي مجهود من أجل معاملة السلع الهولندية الطريقة نفسها.

وثمة وسيلة أخرى ساهمت من خلالها شركتا الهند الشرقية الهولندية والانجليزية المتنافستان في إحداث تحولات عميقة وراسخة في العادات الاجتماعية الأوروبية ابتداء من عام ١٦٦٠ فصاعداً ألا وهي توسيع نطاق مبيعات الشاي والبن وتشجيع استهلاكهما. مثال ذلك أن طبيب امستردام الشهير دكتور نيكولاس تولب نصح باستخدام الشاي باعتباره العلاج الأول والأفضل لجميع الأدواء. ولكن حماسه للفضائل الطبية المزعومة لهذا الشراب تجاوزه حماس زميله دكتور ديكار، واشتهر باسمه المستعار بونتيكوي، إذ حث مرضاه التعساء على ان يتجرعوا ما بين ٥٠ إلى ٢٠٠ كوب شاي يومياً. وأصدر دكتور بونتيكوي أيضا كتابا بعنوان «رسالة من عشب الشاي الرائع» في عام ١٦٧٥ والذي قيل ان مجلس ادارة الـ ١٧ دعم اصداره بقوة. وظل الشاي لعدة سنوات المشروب المفضل لدى الأغنياء ورمزا للتمييز طالما وأنه قدم اليهم محلى بأجود أنواع السكر وفي كوب من الخزف الياباني على مناضد مزينة بنقوش محفورة، وملاعق ذهبية. ولكن ما أن قارب القرن السابع عشر على الانتهاء حتى بات الشاي يباع ممزوجاً بالحليب على قارعة الطرقات. ولكن على الرغم من المنافسة الشديدة من جانب شركات الهند الشرقية الانجليزية والفرنسية والاسكندينافية استمر الهولنديون في استيراد الشاي بمعدلات متزايدة باطراد وفاء لاحتياجاتهم الخاصة واحتياجات أوروبا العامة. وشهدت تجارة الشاي الهولندية أعظم انتعاش لها فيما بين عامي ١٧٣٤ و١٧٨٥ وذلك عندما ارتفع اجمالي الواردات الى ٣٥٠٠٠٠٠ رطل في السنة بزيادة تبلغ أربعة أمثال، وحيث أصبح الشاي أثمن سلعة ضمن الشحنات التي تعود بها من الهند سفن شركة الهند الشرقية الهولندية منذ عام ١٧٣٩.

وجاء البن بديلاً متأخراً عن الشـاي في السوق الأوروبية، ولكن الدكتور الفاضح بـرونتيكوي وصفه كذلك بأنـه الدواء الذي لا منافس لـه لعلاج كل الأمـراض. ووصفـه لمرضـاه لاستخدامـه كعـلاج لا يخيب لشفـاء أمـراض «الاسقربـوط واحتقان الـزور والقولـون والنقرس والصفـراء، وخلوف الفم والتهاب العينين». والله وحـده يعلم أي أعراض أخـرى أضافها. وسرعـان ما شـاع استخـدام هـذا المشروب على الـرغم من أن أطبـاء كثيرين في الأراضي المنخفضة، وفي بلـدان أخرى عديـدة استنكروا الشـاي والبن وحذروا منهما باعتبارهما عقارين ضـارين. وخير ما يعبر عن درجة شيوعهما والكلف بهما تلك الشكوى التي يقـول فيها دوميني فـرانسوا فالنتين في عـام ١٧٢٤ «لقد شاع استخـدام القهوة والشـاي في بلدنا إلى الحد الـذي نرى فيـه الخادمات والخياطات يعجزن عن ادخال الخيط في ثقب الإبرة ما لم يتناولن يوميا قهوة الصباح». والجدير بالملاحظة أنه أنحى باللائمة على الانجليز لأنهم السبب في اقحام تلك العادة الضارة. وأدى تزايد الاقبال على القهوة والشاي إلى الإقلال من إدمان الكحوليات إلى حد ما في المقـاطعات المتحدة. وبعد قرن من أحاديث تولب وبـونتيكيو عن تضاؤل الشاي والقهـوة كتب طبيب آخر من امستردام يقول: يشرب كل فرد من العامة قدراً كبيراً من البراندي ويظن أنه بذلك يصلح معـدتـه ولكنه يخطـيء الظن، إذ لن يتحمل هـذا طويـلاً مـا لم يضف اليـه الشـاي».

وقد لا يكون من الانصاف في شيء ان نجمع بين الدكتور تولب والدكتور بونتيكيو، ذلك لأن الأول كان يقينا طبيبا اكثـر جدية واقتدارا. ولكن دفاعهما المطلق عن الشاي باعتباره البلسم الشافي لجميـع الأمراض يذكرنا بأن الطب كان لا يزال بعيـدا تماما عن بلوغ مرحلة العلم المضبوط أثنـاء القرن الذهبي لجمهوريـة هولنـدا – أو أنه كـان لا يزال في فترة عدم النضـج. ففي القرنين السابع عشر والثامن عشر لم تكن نظريـة الجراثيم المسببة للأمراض والبناء الخلـوى للجسم معروفـة بعـد. وعلى الرغم من أهميـة هـذه المعالم العلميـة

الأساسية مثل اكتشاف وليم هارفي للدورة الدموية واكتشاف عالم المجهريات الهولندي انطوني فان لوفنهوك لكرات الدم الحمراء والحيوانات المنوية كان تشخيص الأمراض وعلاجها طبيا لا يزال خاضعا وإلى حد كبير للآراء اليونانية الرومانية التقليدية عن الأمزجة والتي تعتبر المرض اختلالا في التوازن أو عدم نقاء الأمزجة الأربعة للجسم. واستهدف العلاج إعادة التوازن. والوسيلة الأساسية لذلك هي الحقنة الشرجية وتفريغ الأمعاء بالمسهلات والفصد أو الاستدماء والتغذية علاوة على المنبهات والمقويات والعقاقير. ونستطيع أن نقول عن يقين أن البيولوجيا العلمية لم تكن ممكنة إلا بعد التطور العظيم في مجال المجهريات في القرن التاسع عشر، ولم تبدأ صناعة العقاقير الفعالة إلا منذ ١٨٨٠ تقريباً. ومن المسلم به أن الآراء الدينية المعادية لتشريح جسم الانسان للأغراض الطبيعية ولتعلم فن التشريح لم تكن ذات سطوة في هولندا مثلما كان الحال في أكثر البلدان الأخرى مما ساعد على تقدم كل من الطب والجراحة. وشاع تلقين دروس التشريح في حلقات دراسية عامة ولم يكن رمبرانت هو الفنان الوحيد من بين أعلام الفن الذي سجل هذا في لوحاته. ومع هذا اشتملت الوصفات الطبية على كثير من المركبات عديمة الجدوى بل والضارة، كما كانت الجراحة لا تزال علما في مراحله البدائية مما يجعلنا نرد حالات الشفاء المذهلة التي تحققت على أيدي الأطباء والجراحين الى ثقة المرضى في الاطباء اكثر منها إلى أي شيء آخر. وهذا هو الحال يقينا بالنسبة للطبيب ذائع الصيت هرمان بويرهاف (١٦٦٠-١٧٣٨) الذي ترأس كرسي الطب وعلم النبات والكيمياء في جامعة ليدن وطبقت شهرته الآفاق حتى وصلت إلى الصين.

ويمكن الإشارة هنا إلى أنه باستثناء بويرهاف لم يعمل بالتدريس في الجامعات أيام الجمهورية الهولندية أي من أعلام العلوم الطبيعية أو الفلسفة. فإن سيمون ستيفن عالم الرياضيات والمهندس الذي دعا إلى تطبيق النظام العشري، ورينيه ديكارت الفيلسوف الفرنسي المولد والنشأة والذي

قضى القسط الأكبر من حياته العملية المنتجة في المقاطعات المتحدة، وباروخ سبينوزا صانع العدسات في امستردام والفيلسوف الرياضي وكرستيان هيجنز مبتكر بندول الساعة ومستحدث نظرية الموجات في الضوء، وجان سوامر دام رائد علم الحشرات من خلال استخدام العدسات المكبرة، وأنطوني فان ليوفنهوك رائد علم المجهريات الذي أسلفنا ذكره، جميع هؤلاء وآخرون غيرهم يمكن أن نأتي على ذكرهم أنجزوا انتاجهم العلمي خارج النطاق الأكاديمي وإن كانت لهم به ارتباطات بطبيعة الحال.

وإن جلال شأن كل من ديكارت وسبينوزا في ما يختص بالانجازات الفكرية لفلسفة القرن السابع عشر أمر شائع معروف يغني عن الافاضة في الحديث عنهما هنا. إذ علاوة على كل شيء، ساعدت كتاباتهما تدريجياً على تفويض الاعتقاد الأعمى بالعقيدة الدينية التقليدية المتزمتة، مثلما ساعدت على ترسيخ روح الحوار النقدي وان لم يحدث هذا، على الأرجح داخل المقاطعات المتحدة التي هي مهد كتاباتهما بنفس القدر الذي حدث خارجها. ويمكن أن نقول الشيء نفسه عن كتابات هجنوت اللاجىء في روتردام وبيير بايل صاحب «القاموس التاريخي النقدي» (١٦٩٥) الذي ذاع صيته وشاعت فيه روح النقد الشكي اللاذع التي هزت بالضرورة دعائم العقائد الدينية المحتجزة لدى الكثيرين ممن اطلعوا عليه سواء من البروتستانت أو الكاثوليك الرومان. وكان بايل كذلك داعية متميزاً للتسامح وقارن باقتدار بين تعصب لويس الرابع عشر في إبطال مرسوم نانش (وهو مرسوم أصدره هنري الرابع في عام ١٥٩٨ ويمنح بمقتضاه حريات دينية ومدنية محدودة للبروتستانت في فرنسا – مترجم) وبين رسوم كانج هسى الذي سمح بتقديم عظات مسيحية داخل الامبراطورية الصينية. وعاش بيير بايل ومات مسيحيا كاثوليكيا وان كانت أعماله مسئولة مسئولية كبيرة عن تزايد ونمو النزعة الشكية والنزعة العقلانية في القرن الثامن عشر.

ولقد كان كريستيان هيجنز في مجال العلم أعظم عبقرية دون منازع

أنجبتها الجمهورية الهولندية. ولخص انجازاته بطريقة فذة المؤرخ وكاتب التراجم الانجليزي أ. أ. بل Bell حين قال: رجل حول التلسكوب من لعبة إلى أداة بحث علمي جبارة ومن ثم أداة بحوث عميقة في علم البصريات؛ وهو مكتشف الهالة المحيطة بكوكب زحل والقمر تيتان ولفت الأنظار إلى المجرة في أوريون ودرس مشكلة الجاذبية على نحو كمي ووصل إلى أفكار صحيحة عن آثار قوة الطرد المركزية وشكل الأرض، ووضع في كتابه العظيم «رقاص الساعة» Horologium Oscilatorum أسس ديناميكيا الانساق وأوضح كل عناصر موضوع البندول، وحل المشكلات العويصة المتعلقة بتصادم الأجسام المرنة واستحدث بفضل جهد كبير متشابك ومعقد الفكرة العامة عن الطاقة والعمل. وهو الذي يعتبره العالم عن حق مؤسس النظرية الموجية عن الضوء ومن ثم البصريات الطبيعية – وان رجلاً كهذا جدير بأن يقرن أسمه في التاريخ بأسماء جاليليو ونيوتن».

وبدأ هيجنز حياته العلمية كواحد من المعجبين في حماس بالفيلسوف رينيه ديكارت وقد تأثر بعمق في شبابه بكتابه «أسس الفلسفة» (١٦٤٤). وكتب عن هذا بعد سنوات طويلة فقال: «بدا لي حين قرأت هذا الكتاب للمرة الأولى أن كل شيء في العالم بات واضحاً، وتملكني يقين بأن أي صعوبة فيه تصادفني فإنها تعني أن الخطأ خطأي إذ لم أفهم فكره. لم أكن قد تجاوزت آنذاك الخامسة عشرة أو السادسة عشرة من عمري. وبدأت اكتشف من حين إلى آخر بعض الأمور واضحة الزيف وأموراً أخرى بعيدة الاحتمال تماما، ومن ثم عدت بحماس وقوة إلى ما كان يشغل بالي ويهمني في جميع دراسات الفيزيقا والمتيافيزيقا والظواهر الجوية. ولكنه لم يكف عن الاعتراف بالحافز القوي بصورة خيالية الذي تلقاه هو وآخرون بفضل ديكارت. وأشار إلى هذا في عام ١٦٩١ حين قال: «نحن مدينون بالكثير لديكارت لأنه كشف لنا سبلا جديدة في دراسة الفيزياء وصاحب الفكرة القائلة ان كل شيء لا بد من رده الى القوانين الميكانيكية». ومع هذا وكما يوضح بل، اقتنع هيجنز بأن ديكارت

كرر أخطاء النـزعة المدرسية للقرون الـوسطى حين حاول وضـع أسس نسق برهاني استـدلالي بديلاً عنها، ومن ثـم عاد هو نفسه إلى نظـرة جاليليو. وفي واقع الأمر يمكن القول أنه من خلال هيجنز حاد التيار الرئيسي للفكر العلمي عن اتبـاع ديكارت وسار بـدلا من ذلك في القناة التـي عمقها نيوتـن بجهوده العلمية وأحالها إلى نهر».

ويمكن أن نضيف إلى ذلك أن القسط الأكبر من أفضل أعمال هيجنـز تم انجازه في باريس خلال الفترة ما بين ١٦٦٦ و١٦٨١ مشمـولاً برعاية لويس الرابع عشر، وأنـه بعد عودته نهائيـا إلى هولندا أسف أسفاً شـديداً إذ لم يجد فيها أي انســان يمكن له أن يناقش معه مـوضوعات علمية. ربما كـان ينظر دون حق نظرة استعلاء إلى معـاصريه، ذلك لأننا نعرف في النهايـة أنه كان في غرب أوروبا عدد غير قليل عـلاوة على نيوتن وليبنتس ممن يمكنه أن يتحاور معهم على قدم المساواة في مثل هذه القضايا. ولكن من الأهمية بمكان أن نشير إلى أن أباه كـونستانتين الشاعـر والأديب تمتع في المقاطعات المتحـدة بشـهرة فاقت شـهرة ابنه على الرغم من الانجازات العلمية المبرزة للابن والتي جلبت له شـهرة دولية دائمة.

وأشـهر عـالم عرفته المستعمـرات الاستوائية للجمهـورية الهولنديـة هو جـورج رومفيوس «عـراف أمبوينـا الأعمى» وهـو الماني انخرط كجنـدي في خدمة شركـة الهند الشرقية الهولنديـة وعمل كمسئول ومدير في أمبـوينا من أعمال مولـوقا من عـام ١٦٥٣ إلى أن وافته المنيـة في عام ١٧٠٢. لقـد أسرته بجمالها حيوانـات ونباتات هذه الجزيـرة ونذر حياتـه لجمع كل ما يستطيع جمعه منها وعنها ثم أثبت نتائج خبرته وأبحاثه في مخطوط ضـخم يضم عدة مجلدات غنية بالرسوم والصـور. ثم كف بصره وفقد زوجته وصغرى بناته اثر زلـزال. وشب حريق دمر جميع رسـوم مؤلفه الضخم بعد أن كـاد يفرغ منـه، غير أن هذه الكـوارث جميعهـا على قسوتها لم تثبط همتـه. ومن حسن الحظ ان كـانت لديـه رسوم أخـرى بـديلة عن تلك التي أتى عليهـا الحريق،

وأكمل مخطوطه وأرسل ستة مجلدات إلى هولندا في عام ١٦٩٢ تحت عنوان «كتاب في أعشاب جزيرة أمبوينا». وأغرق الفرنسيون السفينة ولكن لحسن الحظ ان راعيه جوهانز كامفيوس حاكم عام باتافيا كان قد استنسخ نسخة من الكتاب وهي النسخة التي وصلت بعد ذلك بأربع سنوات إلى هولندا. وصدر الكتاب بعد وفاته وقبل هذا الكتاب كتاب آخر عن «أصداف البحر والرخويات والقشريات في مولوقا» في عام ١٧٠٥. واختفى مخطوط رمفيوس عن حيوانات جزيرة أمبوينا غير ان كتاباته المتعلقة بعلم النبات وعلم الحيوان وكتاباته عن معادن مولوقا وجيولوجيتها وحفرياتها لا تزال تحتفظ بقيمتها العلمية ويرجع اليها المتخصصون في هذه المجالات.

وعنوان الدراسة التي كتبها رمفيوس «خزانة تحف جزيرة أمبوينا» في عام ١٧٠٥ يعكس اسلوبا في تجميع عينات التاريخ الطبيعي وغير ذلك من «نوادر» في «خزائن التحف» أو المتاحف الخاصة التي حرص الكثيرون من أثرياء الحكام والتجار على انشائها في مدنهم أو في بيوتهم الريفية. والملاحظ ان المعادن وأصداف البحر والطيور والوحوش والأسماك المحنطة والعملات المعدنية والميداليات والطرف الغريبة بشتى أنواعها وجدت هواة متحمسين لاقتنائها من بين من يملكون مالا لإنفاقه. وبعد صدور كتاب رمفيوس، ونتيجة له إلى حد ما، لاقت أصداف البحر في مولوقا إقبالاً شديداً عليها خلال النصف الأول من القرن الثامن عشر. وأسس دوميني فالنتين إثر عودته إلى هولندا ناديا لعلماء الرخويات في دور درشت حيث اعتاد هو وكثيرون من العائدين إلى أرض الوطن من مسئولي الشركة الشرقية أن يقضوا أمسيات شتوية ممتعة يناقش بعضهم بعضا حول مقتنيات كل منهم وتأملها. وجد كثيرون بحثا عن النباتات والأعشاب النادرة كذلك. ولعل أشهر مثال على ذلك الهوس بجمع نباتات التيوليب والذي بلغ ذروته في تلك الاندفاعة الكبرى في عام ١٦٣٧.

وكتاب رمفيوس عن نباتات مولوكا يضاهيه كتاب البارون فار ريد توت

هافارت رؤيته عن «نهوض وسقوط كورومـانـدل (١٦٩٣) وترجمته النثرية (١٦٨٨) لملحمة شعرية فارسية بعنوان «البستان» للشيخ سعدي. واكتشف آنـذاك هـربـرن دي جـاجـر العـلاقـة بين سكـان جـاوة القـديمـة وبين السنسكريتيين والتـاميل. وصنف انجلبرت كايمفر دراسته الكـلاسيكية عن اليابان التي ظلت أفضل وصف أوروبي للامبراطـورية الجزيرة الى أن أصدر فون سيبولد كتابه «اليابان» (١٨٣٢-١٨٥٢). وعني آنذاك كل من رمفيوس وفان ريـد بكتابـه أو اصدار اعمالهما سالفـة الذكر عن حيـوانات ونبـاتات المنطقة. وعكف فـالنتين على تصنيف كتابـه الموسوعي «الهند الشرقيـة قديما وحديثـاً». وتشكلت جمعيـة أدبية صغيرة عاشـت لسنوات قليلـة في باتـافيا (١٧٠٦-١٧١٢؟).

وإذا وجهنا الأنظار إلى أولئك الذين آثروا البقاء في الأراضي المنخفضة على بحر الشمال خلال القرن الذهبي سنجد أننا ازاء قصة مماثلة. وخير من يمثل الأجانـب الذين شجبـوا الهولنديين باعتبـارهم مجرد عشاق لجمـع الدولار، رينيه ديكـارت المشهود له بالمعـرفة الواسعـة وكتب من امستردام يقول: «في هذه المدينة العظيمة حيث الجميع، فيما عداي، لا يشغلهم شاغل غير التجارة، نجد كل إنسـان ساعيا يلتمس مصلحته الخاصة حتـى ان بامكاني ان اقضي حيـاتي كلها هنـا دون أن التقى بشخص واحـد». واضح هنا بطبيعـة الحال مدى بطلان هـذا الحكم المطلق عندما نتذكر أنه كـان هناك من بين معاصري ديكارت في امستردام رمبرانت الرسام وفوندل الشاعر، والعلامة في الدراسات القديمة كاسبار بارلايوس. وأما جين باريفال البروتستانتي ومعاصر ديكارت والذي عـاش ستة وثلاثين عـاما في المقاطعات المتحـدة، فقد كان أكثـر تلطفاً وأكثر دقة في كتـابه Le Delices de la Hollande (طبعة ليـدن ١٦٦٢) عندما استشهـد بهذا الشاعر العظيم بارلايوس ومكتبـات امستردام العامرة كدليل على أن أثرياء التجار والبرجوازيين في هذه المدينة لم يغفلوا عن الاهتمام بـالتعليـم وتشجيع الآداب وهم في سعيهم المحمـوم من أجـل التجـارة. وان

التعاطف والحماس والاستقبال الحار الذي لقيه جون لوك في الدوائر العلمية وقتما كان لاجئاً سياسيا في امستردام (١٦٨٣-١٦٨٨) شجعه على أن ينشر بعض أعماله هناك. ومع هذا دأب كثير من الزوار والأجانب على وصف أبناء الطبقة الحاكمة في هولندا بأنهم تجار لا يشغلهم في حياتهم غير السعي التماسا للربح في الوقت الذي كان أكثرهم وكما أكد سير وليم تمبل، سادة نجباء على حظ وافر من التعليم، وتدربوا منذ شبابهم على شغل الوظائف العامة ولم يكونوا مجرد رجال أعمال تجارية متواضعة أو آلية، «وعلى نحو ما تصور بعض الأجانب». ان بلاد رمبرانت وفوندل وهوجنز أبعد ما تكون عن وصفها بأنها بلاد منافقين أدعياء وانما ضمت من أخلصوا في عبادتهم لإله الحكمة مثلما ضمت من أخلصوا في عبادتهم لإله المال. وإذا كان من نذروا حياتهم لإله الحكمة أقلية ضئيلة فإن هذا صحيح أيضا بالنسبة لكل العصور وجميع الأمم.

وثمة انتقاد أكثر ملاءمة للأوليجاركية الحاكمة التي شكلت الطبقة الحاكمة. وينصب النقد على أن أبناء هذه الطبقة تحولوا إلى فئة منعزلة – أو لنقل أصبحوا أشبه بالطائفة من نواح معينة – وتشبعوا بالثقافة الفرنسية إلى حد إهمال ثقافتهم الخاصة. لقد كانت المؤثرات الثقافية الفرنسية قوية دائماً، مثلما غلب الطابع الفرنسي على محكمة لا هاي في عهد الأمير فريدريك هنري، ومع هذا، نقول إن ثقافة وحضارة أرض رمبرانت كانت ثقافة وحضارة هولندية الجوهر. ونجد الرسم والأدب والموسيقى والعمارة تحمل جميعها الشواهد المؤكدة لذلك حتى الربع الأخير من القرن السابع عشر. وبعد هذا بدأت المؤثرات الأجنبية وبخاصة الفرنسية تجد سبيلها بين أبناء الأوليجاركية الحاكمة وأثرياء البرجوازية على حساب الثقافة الهولندية، وقبيل النصف الثاني من القرن الثامن عشر اكتملت فرنسة «الأقلية الحاكمة» ومعهم أولئك الذين عمدوا إلى محاكاة أسلوب حياتهم. وتجاوب الآباء مع أبنائهم في ميولهم الفرنسية وكف كثيرون عن قراءة الأدب الهولندي. وها هي

اليـزابيث فان تـول المرأة المثقفة من بنـات أوترشت كتب عنهـا بل دي زولن يقول: إنها لا تحمل شيئاً يربطها بهولندا غير أسمها. ويتناقض هذا تماما مع حـال أنا ومـاريـا رويمر فيشر من حلقـة مـودن وهما من النساء المثقفـات ولكنهما لم يكونا على دراية باللغة الفرنسية.

وخلال القـرن الثامن عشر أصبحت الأراضي المنخفضـة الشمالية مـركز النشر الرئيسي «للتنـوير» الأوروبي. وصدرت طبعـات عديـدة من كتب بايل ولوك وهيـوم ومونتسكيـو وفولتير وروسو ورايـنـال في المقاطعـات المتحدة وذلك تفاديا للرقابة الفرنسية – هذا على الرغم من أن جميع الكتب التي تحمل عبارة «طبع في هـولندا» لم تطبع فيهـا، نظراً لأن بعضـها طبع سراً في فـرنسا. ولكن اذا كانت أعمال الفلاسفة العقلانيين وجـدت سوقا رائجة وقراء كثيرين في الجمهوريـة الهولنديـة فإن هذا لا يعني أن افكـارهم صادفت تـرحيبا من أبناء الأوليجاركيـة الحاكمة «الأحرار»، وكانت أقل قبـولاً لدى الأصوليين من رجال الدعـوة والوعظ. وكان كتاب روسو «العقـد الاجتماعي» وكتاب فولتير «مقال عن التسـامح» محظورين رسميـا بناء على طلب الكنيسة الاصـلاحية الهولندية، وان كان حظراً غير فعال. ولاقت الأفكار الجديدة حماسا بين أبناء الشريحة العليا من الطبقة الوسطى الذيـن استاءوا لاستبعادهم من الوظائف القياديـة في الادارات البلدية، وكذلك بين أبنـاء الطبقات الوسطى الـذين قرأوا الدوريات الهولنديـة المماثلة لمجلة سيكتاتور. والجدير بالـذكر أن أكثر هذه المجلات صدرت في فرنسا وان استهدفت فقط القارىء الهولندي. ومع هذا لم تجد هذه الأفكار رواجا كافيا لتصبح تيارا فكريا ومن ثم عاملا مهما في خلق الموقف المتعاطف مع امريكا لدى كثيرين من الهولنديين في عام ١٧٨٠ والذي يرجع في الأساس الى تنافسهم الشديـد مع انجلترا. وتزايدت بعد هذا وبسرعة عملية الاختمار الفكري. وجاء هذا جزئيـاً كنتيجة لصدمة تلك الحرب المدمرة (١٧٨٠–١٧٨٤) مثلما حدث بعد ذلك بقرن من الزمان بين المثقفين الاسبان

من جيل ٩٨ عقب الحرب الاسبانية الأمريكية. وربما ساعدت الفرنسة الثقافية لأبناء الأوليجاركية الحاكمة على توسيع الهوة بينهم وبين أبناء الطبقات الأدنى الذين كانوا يحتقرونهم من أعماق قلوبهم، الأمر الذي أسهم في انهيار الطبقة الحاكمة في عام ١٧٩٥.

وراجت كذلك الكتابات والأفكار الانجليزية في مجالات الفلسفة واللاهوت والطبيعيات بين أوساط المتعلمين في جمهورية هولندا. ووجدت هذه الكتابات والأفكار سبيلها اليهم أساسا عن طريق الترجمات الفرنسية التي طبعت هناك، ومن خلال عمليات العرض المطولة والاشارات المسهبة للكتب الانجليزية التي نشرتها الصحافة الدورية. ومن أبرز الشخصيات التي قامت بدور مهم في نشر الثقافة الانجليزية جوستوس فان ايفين (١٦٨٤-١٧٣٥) الذي كان شديد الاعجاب بكل من أديسون وستيل وأصدر مجلة Hollands-che Spectator (١٧٣١-١٧٣٥) على نمط نظيرتها الانجليزية السابقة عليها. وشاعت في هولندا خلال النصف الثاني من القرن الثامن عشر أعمال صمويل ريتشارد سون ولورنس شتيرن، حتى انه ظهرت في وقت واحد «نوادي شتيرن» حيث اطلق. أعضاؤها على بعضهم البعض أسماء مأخوذة من شخصيات كتابات شتيرن. غير أن نفوذ الأدب الانجليزي ظل أبدا ثانويا بالنسبة لنفوذ الأدب الفرنسي. وإن كاتبا عاشقا للفكر الانجليزي مثل جوستوس فان ايفين نشر القسط الأكبر من أعماله في الدوريات التي تصدر باللغة الفرنسية، وليس بلغة بلاده هو، على الرغم من أنه أعلن عن عزمه على أن يفطم مواطنيه المتعلمين عن إغراقهم في الفرنسية، والعمل على تعزيز الجهد لاستحداث اسلوب نثري هولندي خالص.

الباب السابع

القلاع والمحطات التجارية

في مقال كتبه و. هـ. مورلاند منذ أربعين سنة مؤكدا على أهمية المصادر الهولندية بالنسبة لتاريخ الهند في القرن السابع عشر، قال: «تبين لنا أن وقائع السابع عشر تقودنا من مجال التجارة الى مجال السياسة. لقد تمثلت المراحل الباكرة من هذه الرحلة المسيرة التجارية والمحطة التجارية والقلعة وبدايات كسب الأراضي. ولكي نفهم أيا من هذه المراحل يتعين علينا أن نفهم المراحل التي سبقتها. والذي حدث هو أن كلا من القلعة والمحطة التجارية جاءتا كمبادرة هولندية. ولكي نفهم تاريخ نشوء وتطور المحطات التجارية يلزم أن ندرس الرحلات الهولندية الباكرة و... ان القلعة، شأنها شأن المحطة التجارية، هي تحديدا هولندية النشأة»*

وهذه الملاحظة مثال مذهل لهفوات العلماء، ذلك لأن القلعة والمحطة التجارية اللتين أنشأهما الأوروبيون في آسيا هما من أصل برتغالي. إذ أن البرتغاليين هم أول من أنشأهما في آسيا وفي أفريقيا. وسبق أن أفاض الحاكم البرتغالي في بيان الغرض منهما، حين أخطر ملكه كيلون في عام ١٥١٩ أن ملك البرتغال لم يبن القلاع في الهند بغية الغزو «والاستيلاء على الأرض وإنما استهدف فقط حماية تجارته عند السواحل. وإن المحطات التجارية الهولندية وكذا الانجليزية، سواء كانت محصنة أم لا، إنما تنحدر مباشرة من الوكالات التجارية البرتغالية Feitorias التي تناثرت على طول شواطىء آسيا وافريقيا. وكانت البداية مع تشييد قلعة في أرجويم على الساحل المراكشي (١٤٤٥) وانتهت بالمحطة التجارية التي أقيمت في ناجازاكي (١٥٧٠).

* W. H. Moreland; "Dutch Sources for Indian History from 1590 to 1650", Journal of Indian Hist., Val III, Part 2, May, 1923.

وترجع جذور هذه المحطـات التجارية البرتغالية بدورهـا الى المراكز التجارية Fondachi للعصور الوسطى وتشترك معها في قسمات عديدة، وهي الأحياء السكنية لتجار جنوة والبندقية وغيرهم من التجار الايطاليين الذين يفدون إلى موانىء البلدان الإسلامية في شمال أفريقيا وموانىء الامبراطورية العثمانية.

وهكذا فإن «المحطة التجـارية» الأوروبية غير المحصنة والمقـامة في آسيا سواء أكانت محطة برتغالية أم هولنـدية أم انجليزية – لم تكن بطبيعة الحال بدعـة او ابتكارا بالنسبـة للحكام والولاة في البلـدان الآسيوية. فمنـذ تاريخ سحيق مـوغل في القـدم، اعتـاد التجار الأجـانب الـذين يفـدون الى الموانىء التجارية الشرقية، ابتداء من الخليج الفارسي إلى جنوب بحر الصين، العيش في أحياء سكنية منفصلة، كل منها خاضع لادارة رئيس خاص به، خاضع أيضا إلى حد ما لولاية هذا الرئيس بـاعتباره السلطة القانونية. وكان كل حي يتمتع بـدرجـة صغيرة أو كبيرة مما نسميـه اليـوم الحصـانة أو عـدم الخضـوع لتشريعات بلد الاقامة. كان هذا، على سبيل المثال، هو حال الطوائف التجارية العربية في كانتون وزيتون في أيام ماركو بولو. وكذلك بالنسبة للتاميل وتجار كوجيرات وجاوة في ملقا في العصر الوسيط، وأيضـاً مع التجار الهنود والعرب والصينيين في بانتام عندما وصل الهولنـديون الى هناك لأول مرة. ومع ذلك، وعلى الرغم من ان التجار والمسئولين في هـذه الأحياء السكنية ذات الاستقلال الذاتي بدرجة أو بأخرى، حققوا في الغـالب الأعم ثروات طائلة ونفوذا محليا، إلا أنهم كـانوا يعيشـون بالكـامل تحت رحمة الحاكم الـذي له سلطـة سبى بناتهم ليكنّ حـريما له والاستيلاء على الأمـلاك العقارية للتـاجر عند وفـاته وكانوا يتعـرضون أحيانا لابتزاز لا مبرر لـه من قبل كبار المسئولين المحليين ولأذى منافسيهم من التجار المحليين بل ولأذى العـامة ايضاً. وعلى الرغم من أن هذا النظام سار سيراً حسنا في أغلب البلدان على مدى القرون، وعلى الرغم من أن الأوروبيين لاموا أنفسهم مع هـذا النظام داخل الامبراطوريات القـوية مثل الصين واليابـان حيث لم يكن ثمة بـديل آخر أمـامهم، إلا أن البرتغاليين

قدموا في بلدان أخرى سوابق للمحطات التجارية ذات القلاع والمدن الحصينة ضمانا لتوفير أكبر قدر من الأمن لأنفسهم ولتجارتهم في بيئة تشكل خطراً حقيقياً أو محتملاً ضدهم.

واقتفى الهولنديون بسرعة كبيرة أثر البرتغاليين وحاكوا سوابقهم وللأسباب ذاتها. ولم يكن السبب فقط شعورهم بعدم الأمان في بيئة آسيوية غريبة عليهم لا يفهمونها ووجودهم بين شعوب لا يفهمون لغتهم، وقلة منهم تستطيع التحدث بلسانهم، فضلاً عن أنهم ينظرون إلى ديانتهم نظرة خوف وهلع أو ازدراء، بل ولأنهم أيضا كانوا بحاجة - أو ظنوا انهم بحاجة - إلى بعض الموانىء لا يكون فيها أشخاصهم ولا سلعهم عرضة للاستيلاء عليها بشكل تعسفي، وحيث يمكنهم تزويد سفنهم بالمؤن واصلاحها وهم في أمان تام. ومن ثم عقدوا العزم منذ عام ١٦٠٥ تقريبا وما بعده على فرض سياسة احتكار تجارة التوابل في مولوقا - وبعد ذلك احتكار الفلفل الأسود في البلدان الأخرى - واستلزم هذا وحده امتلاك قواعد بحرية للاسطول وقواعد عسكرية. علاوة على هذا فإنهم سرعان ما شعروا بالحاجة إلى «ملتقى عام» حيث يمكن لسفنهم المتجهة من وإلى أرض الوطن أن تحمْل وتفرغ حمولاتها، وحيث يمكن تجميع السلع الواردة من داخل آسيا، ويمكن كذلك تخزينها أو تحميلها فوق سفن أخرى. ولوحظ ان القلاع التي استولوا عليها من البرتغاليين في جزر التوابل كانت بعيدة جداً بحيث لا تفي بهذا الغرض، وأدركوا أن «الملتقى العام» المنشود لا بد من تأسيسه في مكان ما داخل منطقة مضايق ملقا أو مضايق سوندا حيث تتلاقى فيها طرق التجارة والرياح الموسمية. وبعد أن أخفقوا في انتزاع ملقا من أيدي البرتغاليين في عام ١٦٠٦، رنوا ببصرهم إلى ميناء جاكارتا الصغير في جزيرة جاوة. واستولى جان بيترسون كوين على هذا الميناء بالقوة في ٣٠ مايو ١٩١٩ في تحد مباشر لكل من سلطان بانتام الذي كان يعتبر المكان اقطاعية خاصة به، ولمجلس ادارة الـ ١٧ في أرض الوطن، الذي أكد على أن «الملتقى العام» المنشود

يتعين أن يكـون آمنا من خـلال مفاوضـات سلميـة وليس عن طريق القـوة المسلحة.

وتحدث كوين عن غـزوته بعبارات طنـانة تفيض حماسـة، مما يذكـرنا بكلمات استخدمها أفونسودي البوكيرك قبله بحوالي قرن من الزمان على أثر غزوه كلا من جـوا وملقا. إذ قال «جميع ملوك هذه الأراضي يعرفـون جيدا ما معنى أن نزرع مستعمرتنا هنا في جاكرتا، وما الذي يمكن أن يترتب على هذا، شأنهم في هـذا شأن أكثـر سيـاسيي أوروبـا ذكاء وأبعـدهم نظـراً. «وهـذا صحيح. ولهذا السبب تحديـدا أطلق حـاكـم شيريبـون القـديم اسم «ملقـا الجديدة» على القلعـة والمدينة الحصينة بـاتافيـا التي بناها الهولنـديون على أطلال جاكارتا. ولم يكن سلطان بـانتام وحده بل جميع حكام جاوة الآخرين قد رفضـوا بعد ذلـك السماح للهولنديين بـأن يبنوا قلعـة حجريـة أو محطة تجارية في أي من مـوانئهم خشية أن يحذو الهولنديون حـذو البرتغاليين في استيعاب الأراضي تـدريجيا التي تحيط بمدنهم الحصينـة. وكانت مخاوفهم لها ما يبررهـا تماما. إذ خـلال عام من تاريخ الاستيـلاء على جاكـارتا ادعى كوين ملكية «المملكـة» التي تحمل هذا الاسم والتي حدد حـدودها على الرغم من تعارض هذا مع الحقيقة التاريخية والـواقع العقلي: بانتام غربا، شريبون شرقا، الجزر المحيطة بالساحل شمالا والمحيط الهندي جنوبا. وظل هذا الزعم ادعاء على الورق زمنا طـويلاً، نظراً لأن الأحياء القائمة فـوق نجاد مرتفعة في برينجـر هي وحدها التي تخضـع لادارته خلال القـرن الثامن عشر. غير أن احتـلال جـاكارتـا في نظـر الحكـام والشعوب الآسيـويين المعـاصرين منح الهولنديين في أندونيسيا وضعا مماثلاً لوضع البرتغاليين في جوا. وفي هذا كتب البوكيرك إلى ملكه بعـد غزو جوا والاستيلاء عليها: «تـدرك شعوب الهند الآن أننـا مـاجئنـا إلا لنقيم إلى الأبد في هـذه الأراضي، ذلك لأنهم يـروننـا نغـرس الأشجار ونشيد المباني من الحجر والجير ونسهـر على رعاية وتنشئة أبنائنا وبناتنا».

ومن المسلم به أن كوين كان واعيا بعزمه على إقامة امبراطورية، شأنه في هذا شأن البوكيرك ودوبلكس وكليف. ولم يكن سـادته، أعضاء مجلس ادارة الـ ١٧ - وان اعطوه فيما بعد موافقتهم على غـزو جاكارتا - ولا كثيرون من خلفـائه راودتهم النية في تحويل شركـة الهند الشرقيـة الهولنـدية من شركـة تجارية خـالصة الى سلطـة اقليمية كبيرة. ولكن هـذا التحول بـات حتمياً إن آجلاً أم عـاجلاً. وتدخل الهولنديـون في شئون السلطة السياسيـة في جاوا في وقت كانت فيه مملكة مانرام تناضل من أجل ضمان سيطرتها ليس فقط على جاوة بـل والاعتراف بهيمنتها على خليج أنـدونيسيا كله، تمامـا مثلما زعمت مملكة ماجايـاهت الهندوسية قبلها بعدة قرون. زيـادة على هذا فقد سبق أن رأينا كيف أن أعضاء مجلس ادارة الـــ ١٧ في امستردام وميدلبرج لم يوافقوا إلا بعد تردد في وقت متأخر على أن تدخـل في شئون جاوة الخاصة من جانب ممثلهم الحاكم العام لباتافيا. ولكن كـوين على الرغم من هذا (مثل ريجكلوف فـان جوينـز وسبيلمان من بعده) كـان متهيئاً تمامـا ليفرض على المديـرين سياسة الأمر الواقع.

وإن أحد الأسباب التي دعت الهولنديين إلى الكف زمنا طويلاً عن بذل أي مجهود لمتابعة مذكرة كوين بشأن ضـم كل «مملكة» جاكارتا وتوسيع نطاق سلطاتهم الى داخـل الأراضي هو أنهم بـالغوا كثيراً في تقديـر القوة والتـلاحم داخل امبراطورية ماتارام. والملاحظ أن هذه المملكة الزراعية التي هيمنت على شرق ووسط جـاوة منـذ عـام ١٦٤٥، كانت لها أهميتهـا وشأنها بـالنسبـة للشركة كمصدر رئيسي لامدادها بالأرز اللازم لاستهلاكه في باتافيا ومولوقا. ويمكن تقسيم المجتمع في ماتارام، مثلما هو الحال في سلطنات جاوة الأخرى، الى أربع فئات رئيسيـة. الأغلبية العظمى من الفـلاحين ذوي البشرة السمراء الداكنة الذين يفلحون الأرض، ويعـاملهم الموظفون وأبناء الارستقراطية ذوو اللـون الأفتح بـاستعـلاء كبير والـذين يعيشـون على ثمـرة كـدهم. وهـذه الارستقـراطية كبيرة العـدد، ويتدرج أبنـاؤهـا من صغار الموظفين إلى أبنـاء

الأمـراء بحكم النسب والـدم، ويشيع بينهم نظـام تعدد الـزوجـات كما هي القاعدة العامة. وهناك الى جانب الفلاحين والارستقراطية، الزعماء الروحيون والمسلمون والكتبـة والفقهاء ورجال الـدين الذين كان يصفهم الهولنـديون بأنهم «البابويون والحثالة الأخـرى» وكان هؤلاء منتشرين في أنحاء الجزيرة ويعملـون على تقويـة قبضـة الإسلام على جماهير النـاس الـذين يؤمنـون بالإسـلام ايمانا سطحيـاً. والفئة الرابعـة من أبناء مجتمع جـاوة هم التجار والحرفيون والصناع، وهؤلاء لا نعـرف عنهم غير القليل من المعلومات. ولكن لا بد وأنهم كانوا كثيري العـدد في المدن المطلة على البحار حيث الموانىء، وقلة قليلة في القرى الداخلية حيث يعمل أهلها بالزراعة.

لقد كـانت امبراطورية مـاتارام نظامـا استبداديا من النـوع التقليدي في الشرق، حيث السلطان أو السوسوهـونان (كما كان يسمى عادة) ملك مطلق السلطة نظـرياً وعمليـاً، لم يكن يعنيه شيء مـن أمور التجـارة ولا الرفـاهية الاقتصادية لرعاياه، وانما كل ما يعنيـه هو مكانه ومكانته في الداخل وضمان التسليم بهيمنته على أقـاليم أندونيسيـا. واعتاد الفلاحـون العيش على نتاج الأرض، والارستقراطيـة على الضرائب العينية التي يفرضـونها على الفلاحين مثلما كانـوا يعتمدون على سخرة رعـاياهم، كذلك كـان دخل الملك هو بعض الضرائب العينية ومن خـدمة العمل، علاوة على مـا يتلقاه من مراكـز المكوس المقامة عنـد معابر الطرق والانهار، ثم الجزيـة التي يدفعها ويقـدمها أعضاء الـوفود الأجنبيـة. ولم تكن هنـاك دار لسك النقود حيث لا تعـامل بها وانما اعتمد الاقتصاد فيهـا أسـاسا على نظام المقـايضة. أما العملة المتـداولة (وهي أسـاسا العملة النحاسية الصينية والريـالات الاسبانية) فقد كانت مستخدمة لشراء الأسلحة والجواهـر والسلع الأجنبية الثمينة مثـل المنسوجات الهنـدية الممتازة والخزف الصيني. وحدث ان ريجكوف فان جوينز، الذي عمل مبعوثا خمس مرات لدى بلاط سوسو هونان فيما بين عامي ١٦٤٨ و١٦٥٤، اقترح ذات يوم على جلالته تشجيع رعاياه على التجارة عبر البحار على طول المناطق

الساحلية حتى يحققوا ثروات كبيرة مما يمكنهم من دفع ضرائب أكثر. ولكن أمانجكورات أجاب عليه قـائلاً: «شعبي على خلافكم لا يملكون ما يمكنهم ان يقولوا إنـه حق لهم وملكية خاصة بهم، وإنما كل شيء في حـوزتهم هو ملكي أنا، وإذا لم أقس في حكمي يوما فلن أكون ملكا في اليوم التالي».

والأمر المألـوف أن يمارس الملك المطلق، أو السوسـو هونان سلطـانه من خلال عدد محدود من كبار موظفيه الذين يتمتعون بنفوذ مختلف. ويأتي إلى الصـدارة فـريق ليحل محل فـريق آخر، والأمـر رهن بشخصيـات الفـريق ونزوات الحاكم التعسفية. وتخضع أهم المناطق وأعظمهـا شأنا لسلطة أقرب الأقرباء من أبناء الأسرة المالكة، غير أن أمانجكورات الأول أصبح في السنوات الأخيرة من حكمه طاغية نصف مجنون مثل ايفان الرهيب، وعمد تدريجيا الى استئصال أغلبيـة كبار النبلاء، وابـدلهم بموظفين يغير ويبـدل في مناصبهم مرارا وتكـرارا حتى يحول دون التآمـر ضده. واعتاد أن يعقـد لقاء عـاما في ساحـة قصره مرتين اسبوعيـاً. حيث يقيم العدالة في احتفـال مهيب ويصدر كلمته أو حكمه بإعدام أي إنسان يثير غضبـه. وكان نظام الخدمة العسكرية في امبراطورية مـاترام يقوم على أساس نظام الخدمة الالـزامية للقادرين من الـرعايـا وتتشكل الجيوش من أبنـاء القرى الأصحـاء الأقويـاء إذ يدعـوهم السلطان إلى حمل السلاح للقيام بأي حملة عسكرية. ولكن هناك أيضاً حرس ملكي خاص دائم لحراسة القصر «الكراتون». وزعم ريجكوف فان جوينز في عام ١٦٥٦ أن السوسوهونان يملك حوالي مليون مِحارب مقيّدين في سجلات الأقاليم وهـذه مبالغـة كبيرة يقينا، هـذا على الرغم من أن جيش امبراطـورية ماتـارام في القرن الســابع عشر كان أكبر عـدداً من أي جيش أوروبي خاض حرب الثـلاثين عامـا. وكانـت أسلحة جيش الامبراطـورية رمـاحا وسهـاما وسيوفا وإن كان أهل جاوة يملكـون بعض المدافع والأسلحة النارية إلا أنهم لم يكونوا مـهرة في استخدامها.

ومد السلطان أجونج من هيمنة امبراطـورية ماتارام لتشمل جميع أنحاء

جاوة قبيل وفاتـه في عام ١٦٤٥، باستثناء الجزء الداخلي المباشر من بـاتافيا وسلطنة بانتام في الركن الغربي من الجزيرة. وطبيعي أثرت قوة ماترام نسبيا في الوفود الهولندية القليلة التي زارت القصر «الكراتون» الملكي، أو الهولنديين الذين احتجزتهم السلطات هناك كسجناء فيما بين عام ١٦٣٢ و١٦٥١. غير أن جذور التحلل كانت كامنة في شخصية هذه الامبراطورية الاسلامية مثلما كانت كامنة في سـابقتها الامبراطورية الهندوسية ماجـا باهبت. إذ كان نظام الاتصالات سيئاً للغـاية، والطرق قليلة جداً وغير صـالحة في موسم الأمطار، ونعرف أن الأنهار في وسط مـاتارام تتجـه جميعها جنـوبا لتصب في المحيط الهندي حيث لا مرافىء هناك وتتوقف المراكب المحلية الصغيرة «براوس» هناك عن الابحار، وكانت هناك حركـة نقل نهري نشطة على طول أنهار جاوة التي تتدفق شمالا لتصب في بحـر جاوة، ولكن أكثـرها لا يستخـدم إلا في مواسم محددة من السنـة. وحتى في هذه المواسم فقـد تمضي أسابيع طـويلة لتأخـذ المراكب طريقها صاعدة، ثم أياما لتعود، وكانت الأقاليم الرئيسية معزولة عن بعضها جغرافيـا بسبب سلاسل الجبال، وظل الوضع على حـاله حتى القرن التاسع عشر دون استحداث أي وسائل تكنولـوجية للتغلب على هذه العقبات الطبيعية. وتم خـلال عملية التوسع اجتياح السلطنـات الساحلية في الشمال، والشرق وقـد ألحقت بها ماتـارام الهزيمة فيما بين ١٦١٣ و١٦٤٥، وكـانت شعوب هـذه السلطنات رافضة لهذا الاجتيـاح ومن ثم مستاءة أو سـاخطة. أخيراً فإنه على الرغم من استعداد السلطان أو السوسوهانان لقتل أو طرد أو نفي أي حـاكم من حكام الأقـاليم يشك في ولائه له، إلا أن حكـام المقاطعـات البعيدة عنـد الاطراف حاولوا يقينـا استعادة استقلالهم على نحـو ما أوضح ريجكوف فان جوينز في عام ١٦٨٠ حين قـال: يبدو أن حكام جاوة وخاصة حكام المنـاطق النائية يرغبـون في الاستقلال ويزعم كل منهم إن بإمكـانه أن يمضي في طريقه هذا وأن يحمي نفسه».

وحاول أمـا نجكورات الأول أن يحول دون عمليـة التحلل وذلك بـاتباع

سياسية الترويع التي طبقها دون تمييز على الأمراء والنبلاء وكبار المسئولين. بيد أن كل ما فعلته هذه السياسة هي زيادة حدة السخط ضد حكمه. وحدث أن أحد أمراء مدراس ويدعى ترونـاجـايـا رفع من حدةالتمرد ضد السوسوهونـان ووجد مساندة كبيرة وتأييدا واسعا. واضطر أما نجكورات الأول إلى الهرب من قصره ومات وهو في طريقه إلى الساحل بعد أن طلب من شركة الهند الشرقية الهولندية التدخل لمصلحته في عام ١٦٧٧. واستطاع الهولنديون بفضل تدخل سبيلمان وفان جوينز بالقوة المسلحة، أن يعيدوا وريث السلطان الراحل الى عرش ماترام، بعد قتال طويل وعلى الرغم من المعارضة القوية. ولكنهم حصلوا مقابل ذلك على تنازلات اقليمية وامتيازات تجارية ثمنا لدعمهم المسلح للسلطان الجديد، ومن ثم اتخذت العلاقات بين هولندا وماتارام مسارا ومستوى جديدين تماما. إذ بينما اعترف الهولنديون خلال الفترة من ١٦٤٦-١٦٧٧ بدعاوى السوسوهونان بسيادته على جاوة إلى الحد الذي جعلهم يرسلون إليه بصفة دورية السفراء والرسل يحملون الهدايا الثمنية الى قصره - ومثلما كانوا يفعلون مع شوجان اليابان في عصر طوكو جاوا في العاصمة يدو - بدأ السلطان أو السوسوهونان منذ عام ١٦٧٧ فصاعدا يخاطب الحاكم العام لباتافيا بلقب «الحامي» أو «الأب» وبعد ذلك «الجد». علاوة على هذا فإن تدخل الهولنديين في عام ١٦٧٧ أدى فقط إلى إرجاء عملية التحلل الحتمية لامبراطورية ماتارام. ولكن الحقد المتبادل بين مدعي الحق في العرض على اختلافهم وتمرد الاقطاعيات ضد السلطة المركزية الضعيفة في القرن الثامن عشر أديا إلى تجدد النزاعات على وراثة العرش والتي انتهت بتقسيم المملكة وقيام دولتين هما سوراكارتا وجوجوكارتا في عام ١٧٥٥، وإلى أن حان هذا الوقت كانت الشركة قد وسعت من نطاق هيمنتها على جميع أنحاء الجزيرة وهبطت بجميع سلطنات جاوة لتصبح في مستوى العميل أو الاقطاعيات التابعة.

ويجب أن نؤكد هنا أنه على الرغم من أن شركة الهند الشرقية الهولندية

أصبحت سلطة اقليمية في جاوة وسيلان وملوقا، إلا أنها ظلت دائماً جسماً غريبا على هامش المجتمع الآسيوي، حتى في الأقاليم التي خضعت لادارتها المباشرة. وطبيعي ان هذا كان أكثر وضوحاً في بلدان أخرى مثل الصين واليابان حيث لم يكن للهولنديين هناك سوى وكالات تجارية بسيطة، بل وكان الوضع كذلك في جنوب الهند حيث كان للهولنديين ذات يوم الولاية على بعض المقاطعات والشعوب في المناطق الملاصقة لقلاعهم ومراكزهم التجارية. والجدير بالذكر أن المجتمع الآسيوي سواء أكان أندونيسيا أم صينيا أم يابانيا أم هنديا أم فارسيا أم مالاويا، لا يرغب أو لا ترغب جميعها أبدا في أن تتحول عن طريق علاقاتها بأوروبا على نحو ما بدا واضحا خلال القرنين السابع عشر والثامن عشر، وإنما رغبت فقط في الاحتفاظ بأشكالها التقليدية الثابتة «الاستاتيكية». نعم حدثت بعض التحولات بطبيعة الحال، بسبب الضغط والنفوذ الأوروبيين، مثل تحول أغلبية سكان الفليبين إلى المسيحية نتيجة الغزو الأسباني لتلك الجزر، بيد أن العوامل الاجتماعية والاقتصادية والدينية الأساسية التي تحدد بنية المجتمع الآسيوي ظلت كما هي دون أي تغيير حتى القرن التاسع عشر، بل وبقيت كما هي في أكثر مظاهرها حتى القرن العشرين، بعد أن وصلت قوية إلى هذه المجتمعات أصداء الثورة الصناعية والثورتين الفرنسية والروسية.

وإذا كانت بنية المجتمع الآسيوي لم تتأثر في أساسها بأنشطة شركة الهند الشرقية الهولندية والشركات المعاصرة والمنافسة لها، فإن أثر الرأسمالية التجارية الأوروبية والملاحةالبحرية في أعالي البحار خلال القرن السابع عشر غير بالفعل من أنماط التجارة والصناعة في آسيا من بعض نواحيها. لقد اكتشف البرتغاليون واستغلوا الطريق البحري من أوروبا إلى آسيا عن طريق رأس الرجاء الصالح، ولكنهم حين وصلوا إلى جنوب شرق أفريقيا اتبعوا الطرق البحرية والموسمية القديمة التي سبقهم اليها المسلمون والممتدة من سوفالا إلى كانتون. أما الطريق البحري المألوف عبر المحيط

الهادي لمانيلا جاليون الأسبانية الذي يصل ما بين المكسيك والفليبين والذي افتتح في عام ١٥٦٤-١٥٦٥ فقد كان طريقا جديدا إلى حد ما. واستخدم هذا الطريق على مدى ثلاثة قرون تقريبا في مجال تبادل الفضة الأمريكية بالحرير الصيني. وان فرض الهولنديين بالقوة لنظام احتكار التوابل في مولوقا بحيث بات أمراً واقعا قبيل نهاية القرن السابع عشر كان عملا جديداً له أثره المعاكس على سكان تلك الجزر والمجتمعات البحرية في أندونيسيا بشكل عام. كذلك فإن ازدهار دول جاوة الساحلية تقوض بفعل غزو ماتارام لها، وهي سلطنة زراعية لا تحمل أي رغبة في تعزيز التجارة عبر البحار، بعد سقوط حليفتها ملقا البرتغالية في أيدي الهولنديين في عام ١٦٤١.

وقبيل عام ١٧٠٠ تحولت القوة البحرية لجاوة الى ذكرى من ذكريات الماضي بعد أن جاء عليها حين من الدهر كانت سفنها تمخر عباب البحر حتى مدغشقر والتي احتلت جاوة أجزاء منها في العصور الوسطى، وبعد أن كان اسطولها يمثل تهديداً خطيراً ضد ملقا على فترات متباينة خلال القرن السادس عشر، وسبق أن أشار سبيلمان في ١٦٧٧ إلى أن «أهل ماتارام في شرق جاوة أصبحوا، علاوة على جهلهم بشئون البحر لا يملكون الآن سفناً على الاطلاق خاصة بهم حتى للاستعمالات الضرورية. وحاولت بانتام بنجاح كبير خلال هذه الفترة انشاء تجارة بحرية وطنية قادرة على الابحار في المحيطات، غير أن غزو الهولنديين لهذه السلطنة في ١٦٨٢-١٦٨٤ وضع نهاية لهذا المشروع».

ولم يستطع الهولنديون اقامة احتكار للتجارة البحرية في أي أقليم خارج المياه الأندونيسية، بل ولم يحاولا ذلك بشكل جدي بعد فشل سياسة كوين القائمة على «الترويع» ضد مراكب الينك الصينيةالتي تتاجر مع مانيلا الاسبانية وحاولوا بالفعل من حين إلى آخر الضغط على الحكام الهنود، نظراً للنزاعات التجارية القائمة بينهم، وذلك بالاستيلاء على سفنهم بحمولاتها أو بالتدخل في شئون تجارتهم البحرية مثلما فعل البرتغاليون في القرن

السادس عشر. ولم تحقق جهودهم أي نجاح له قدرة على الاستمرار نظراً لأن الهولنديين لم تكن لهم قاعدة قوية في الهند مثلما كان للبرتغاليين في جوا. إذ كانت المحطات التجارية الهولندية المقامة على سواحل ملبار وكورومانديل، سواء أكانت محصنة أم لا، عرضة لأخطار العمليات الانتقامية من جانب حكام الهنود الأقوياء، خاصة وان عواصمهم الواقعة في داخل البلاد غير معرضة للأخطار من جانب القوة البحرية الهولندية على عكس مدن السلطنات الساحلية في أندونيسيا. ولم تحقق سياسة الهولنديين في إعاقة وحصار الساحل نجاحا مذكوراً إلا في سيلان، حيث أنهم هنا قادرون على قطع الطريق الموصل بين مملكة كاندي وبين البحر. ونلاحظ أن تدفق رأس المال الهولندي إلى كورومانديل لشراء المنسوجات التي تحتاج إليها أندونيسيا، قد حفز بالفعل بعض أثرياء تجار الهند (وكبار الموظفين العاملين بالتجارة) للمشاركة بأنفسهم في تجارة ما وراء البحار. وإذا بالتجارة البحرية الهندية التي ظلت حتى عام ١٦٠٠ تقريبا قاصرة على منطقة خليج البنغال وشبه جزيرة الملايو تمتد ويتسع نطاق عملياتها حتى تصل إلى جاوة ويونيو وسليبيس والفليبين قبل نهاية القرن السابع عشر. كذلك فإن الهولنديين من خلال منافستهم مع الانجليز، هيأوا الحافز من أجل تحقيق زيادة كبيرة في صناعة وانتاج المنسوجات الهندية التي وجدت الآن سوقاً رائجة لها ليس فقط في آسيا وشرق أفريقيا وانما أيضاً في غرب أفريقيا وأوروبا، بل وفي امريكا. بيد أن زيادة حجم الانتاج لم تقترن بأي تحولات مهمة في تقنية الصناعة.

وأن أحد التجديدات التي أدخلها الهولنديون على الملاحة في المحيط الهندي هي استخدام سفنهم الشراعية المتجهة الى الهند الطريق البحري المسمى طريق «الأربعينيات الهدارة» Roaring Forties وهذا الطريق البحري اكتشفه هندري بروير عام ١٦١١، واعتمده مجلس ادارة الـ ١٧ رسميا بعد ذلك بست سنوات. وبعد أن تغادر السفينة أو بعد أن تمر عبر رأس الرجاء الصالح تتجه شرقا بين خطي ٣٦° و٤٢° جنوبا إلى أن تصل الى

منطقة الرياح التجارية الجنوبية الشرقية حيث تبحر شمالا نحو مضايق سوندا. وما أن تدعم وضع الهولنديين في الشرق بعد استيلائهم على جاكارتا وتحويلها إلى مركز تجاري بحري ومركز عام للقيادة باسم باتافيا بدأت أساطيل السفن الشراعية التجارية الضخمة المتجهة إلى الشرق تغادر موانىء الوطن في ثلاثة أسراب أو أساطيل متعاقبة: أسطول كرميس (سوق موسم المرح) الذي يبحر في شهر سبتمبر، واسطول عيد الميلاد الذي يغادر البلاد في ديسمبر أو يناير، ثم اسطول عيد القيادة الذي يبحر في ابريل او مايو. ومن بين هذه الأساطيل الثلاثة يعتبر اسطول سوق موسم المرح أهمها جميعا، ذلك لأنه يصل إلى باتافيا في مارس أو إبريل وهو وقت نقل حمولات السفن الى سفن أخرى لتنقلها إلى أفضل أسواق آسيا وأقيمها - وهي أسواق اليابان والصين وخليج البنغال والخليج الفارسي - دون حاجة إلى الانتظار حتى موعد الرياح الموسمية الجنوبية الغربية في السنة التالية، واعتادت السفن التجارية العائدة الى أرض الوطن أن تغادر باتافيا في اسطولين. الأول يغادر مضايق سوندا عند نهاية السنة تماما على وجه التقريب، ويتبعه الثاني بعد شهر أو شهرين، حين وصول الحمولات من خليج البنغال والصين واليابان مع الرياح الموسمية الشمالية الشرقية. وبعد عام ١٦٥٢ اعتادت السفن، المتجهة من وإلى أرض الوطن ان تعرج على ميناء الكاب. وتستغرق الرحلة في أي الاتجاهين ما بين خمسة أشهر ونصف وسبعة أشهر، ولم يكن من المألوف القيام برحلات أطول وانما الشائع الرحلات القصيرة.

ويكتب نيكولاس دي جراف وقتما بلغت شركة الهند الشرقية الهولندية أوج سلطتها وازدهارها فيقول ان الرحلات من باتافيا الى اليابان والصين والبنغال وكورومانديل وسورات كانت أكثر الرحلات ربحا وشعبية بين التجار والبحارة على السواء. إذ ينفقون أقل الأموال في هذه الأقاليم الأثيرة لديهم حيث كل شيء وفير وزهيد الثمن كما ازدهرت بصورة مفرطة تجارة السلع المهربة أو التجارة «الخاصة». هذا على نقيض الوضع في مولوقا حيث

ارباح تجارة التوابل قاصرة تماما على الشركة والمؤن قليلة عزيزة. وكانت نسبة الوفيات مرتفعة في القلاع والمحطات التجارية في مولوقا ومن ثم كانت الخدمة هناك غير مرغوب فيها. وضاعف من هذا الوضع ان السلطات فضلت ان تترك هناك والى آماد غير محددة أولئك الذين تأقلموا على الوضع بدلا من ان تعفيهم وتخفف عنهم وتأتي بوافدين جدد ربما يلقون حتفهم.

ورأينا ان الشركة لم يكن بامكانها ان تفرض احتكار التوابل في جزر مولوقا وفي سيلان إلا بشق الأنفس، وإنها بالنسبة للأقاليم الأخرى يتعين عليها أن تضع في الحسبان المنافسة النشطة الأوروبية و/أو الآسيوية. مثال ذلك أنه بعد الاستيلاء على مناطق انتاج الفلفل الأسود في ملبار وانتزاعها من أيدي البرتغاليين في ١٦٦١-١٦٦٣، وبعد اخضاع سلطنة بانتام التي تعمل بتجارة الفلفل الأسود في عام ١٦٨٤، لم يفتأ الهولنديون يعانون من المنافسة الانجليزية الحادة بشأن ساحل الهند الغربي وسومطرة. ولم يكن بالامكان ابدا تنفيذ الخطط التي اعتاد مجلس ادارة الـ ١٧ وضعها بصورة دورية لاحتكار سوق الفلفل الأسود في أوروبا. وكانت شركة الهند الشرقية الانجليزية تستورد في عام ١٧٣٦ كميات من الفلفل الأسود لتسويقها في لندن تعادل الكميات التي كانت تتلقاها شركة الهند الشرقية الهولندية في باتافيا من كل من منطقة أرخبيل الملايو وأندونيسيا. وتميز التجار الصينيون أيضا بفعالية كبيرة في تجارة الفلفل الأسود في سومطرة طوال القرن السابع عشر. وان اقحام الصينيين لأنفسهم وتدخلهم هو الذي حال دون احتكار الهولنديين لتجارة الفلفل الأسود في بورنيو في ثلاثينيات القرن الثامن عشر.

وعلى الرغم من أن مجلس ادارة الـ ١٧ حاول يقينا ان يشتري رخيصا ويبيع غاليا حينما ووقتما استطاع، إلا أن هذا لم يكن ميسورا أو مرغوبا فيه دائما حتى مع احتكار توابل مولوقا. وكما كتب مجلس المديرين الى باتافيا عام ١٦٧٣ ان «الشركة استخدمت القرنفل (في السابق) مقابل أقساط سنوية بدلا من النقود، ولهذا انخفض سعره ولكن الاستهلاك زاد وانتشر استعماله

في جميع أنحاء أوروبا». وبعد أربـع سنوات استطاع مجلس ادارة الـ ١٧ أن يحدد سعر بيع القرنفل في أوروبا بـ ٧٥ ستويفر للرطل الواحد، وتحدد سعر جوزة الطيب بنفس المستوى منذ بداية القرن الثامن عشر. واستطاع المديرون الحفاظ على هـذه الأسعار حتى عـام ١٧٤٤. ونجحت الشركة على الـرغم من تذبذب الأسعار قليلاً، في الابقاء على احتكارهـا الفعال لتوابل جزر مولوقا الى أن حلت. ويذكـر أن مخازن الشركة في الأراضي المنخفضة امتلأت عن آخـرها حيث كـان بها ١٢٥٠٠٠ رطل فائض من جـوزة الطيب وتم تدميرهـا في عام ١٧٣٥ تماما مثلما أحرقت البرازيل الفائض عندها من البن بعد ذلك بقرنين.

لقد تأسست شركة الهند الشرقية الهولنـدية، شأن منافستها الانجليزية للتجارة أسـاسا في الفلفل الأسود والتـوابل. وظلت هاتان السلعتـان تمثلان أقيم حمولاتها إلى أرض الوطـن طوال النصف الأول من القـرن السابع عشر. بيـد أن الطلب الأوروبي على المنسـوجـات الهنديـة والسلع القطنيـة وكـذلك الحرير الصيني والبنغالي والفارسي، أدى إلى أن أصبحت لهذه السلع الأولوية على الفلفل الأسود والتوابل، شراء وبيعا ابتداء منذ مطلع القرن السابع عشر. وشهد القـرن الثامن عشر نمـواً هائلاً في تجارة الشـاي والبن. وأضحت هذه المنبهات أهم كثيراً من المنسوجات على اختلافهـا بينما تزايد انخفاض القيمة النسبية لكل مـن الفلفل الأسود والتوابل. ودخـل مجلس ادارة الـ ١٧ مجال تجارة الشاي الصيني في وقت متأخر. وبذل المجلس محاولة للهيمنة على هذه التجارة عن طريق انشاء خطـوط بحرية مباشرة بين الأراضي المنخفضة وبين كانتـون خلال السنوات ١٧٢٩-١٧٣٤ غير أن هـذه المحاولة بـاءت بالفشل ولم تحقق الهدف المقصـود منها. ومن ثم عـادت الشركة إلى أسلوبها القـديم بشحن الشاي عبر بـاتافيا، غير أنهم ظلـوا زمنا طـويلاً في وضـع من يحاول اللحاق بالانجليز. واتسع نطاق زراعة البـن والسكر في جاوة، وتزايدت أهمية هذا التوسـع كثيراً خلال القرن الثامن عشر. وفي عـام ١٧٢١ كان ٩٠ بالمائة من البن الوارد إلى أوروبـا لا يزال شركة الهنـد الشرقية الهولنديـة تجلبه من

موتشا، بينما ١٠ بالمائة فقط تجلبه من جاوة. ولكن بعد خمس سنوات تحولت النسبة إلى عكسها تماما. وما أن حل عام ١٧٨٠ حتى أصبح السكر والبن اللذان تنتجهما جاوة لهما بالنسبة لشركة الهند الشرقية الهولندية نفس الأهمية التي أصبحت لهذه المنتجات بالنسبة لمملكة الأراضي المنخفضة في القرن التالي.

وكان لا بد من موازنة متطلبات السوق الأوروبية مع متطلبات التجارة بين الموانىء في آسيا. وطبيعي أن أدى هذا إلى قدر كبير من التذبذب في العرض والطلب. ويفيد الحساب الاجمالي من خلال نظرة عامة أن حوالي ثلثي انتاج التوابل تشحنه السفن إلى أوروبا ويجرى تسويق الثلث شرق السويس حيث ظلت سورات لزمن طويل أهم محطة تجارية لنقل القرنفل. ولم يتحقق حلم كوين بشأن تمويل كل تجارة الصادرات للشركة إلى أوروبا من الأرباح الناجمة عن مشروعه لاحتكار التجارة بين موانىء آسيا. ولكن مجلس ادارة الـ ١٧ حاول دائماً تأمين الحصول على اكبر قدر من سبائك الذهب والفضة من بلدان آسيا بغية خفض شحنات المعادن النفيسة من أوروبا. وهيأ الطلب من الفضة من اليابان للهولنديين حتى عام ١٦٦٨ ميزة كبيرة على منافسيهم الانجليز نظراً لأنهم لم يكونوا مثل الانجليز معتمدين على الواردات من الفضة الأوروبية والاسبانية الأمريكية. وعندما حظرت حكومة اليابان تصدير الفضة في تلك السنة، وجهت شركة الهند الشرقية الهولندية اهتمامها الى الذهب الياباني الذي يمكن بيعه بأسعار مربحة عند ساحل كورومانديل. ولكن مرحلة انتعاش الذهب الياباني لم تدم طويلاً، وحلت محلها مرحلة النحاس منذ سبعينيات القرن السابع عشر، وأصبح النحاس أشبه «بالعروس التي نرقص لها» ، حسب التعبير المجازي الذي قاله في عام ١٧٤٥ فان اجهوف الحاكم العام. وظل النحاس الياباني أهم عنصر في التجارة بين باتافيا وناجازاكي على مدى قرن كامل تقريبا إلى أن بدأ النحاس السويدي يغزو السوق الآسيوية بعد عام ١٧٧٠.

وناور مجلس ادارة الـ ١٧ بعديد من الخطط غير العملية لضمان احتكار الحرير الصيني والفارسي بيد أنها أخفقت تماما في السيطرة على السوق في أي من البلدين وفي عـام ١٦٣٦ ظهرت في الصورة ثـالث المناطق المنتجة للحـرير وهي البنغال. ومع نهاية القرن فـاقت تجارة الحرير البرتغالي تجارة الحرير في كل من الصين وفارس. وتزايد باطراد خطـر المنافسة الانجليزية في المنطقة للشركة الشرقية الهولندية. وما أن حل عام ١٧٤٠ حتى تفوق الانجليز تماما على منافسيهم في البنغال وتكررت القصة ذاتها مع تجارة المنسوجات الهندية في كورومانديل. وهناك من تحدث في عام ١٦١٢ عن المنسوجات القطنية التي تنتجها هـذه المنطقة هي ومنطقة جـوجيرات ووصفها صادقـا بأنها «الذراع اليسرى» لتجارة الشركة الهولندية في مولوقا حيث تمثل التوابل الذراع اليمنى للشركة. إذ علاوة على بيع المنسوجات في السـوق الأوروبية كانت هناك أنواع مختلفة من المنســوجات الهنديــة ابتداء من ثياب خشنــة لاستعمالات العبيد والزنوج إلى أرق وأجمل الخيوط لملابس النساء الداخلية نجد سوقا رائجة على طول منطقــة آسيا الموسمية والســاحل الاستوائي لأفريقيـا. وهكذا أصبحت هذه السلعــة لها أهمية الـذهب والفضة في تنميــة التجارة بين مـوانىء آسيا. وحـرص الانجليـز والهولنـديـون على تأمين هـذه الموانىء أسـوة بما فعلـه أسلافهم البرتغاليـون. وبدأت الشركة الشرقية الهولندية بـداية طيبة أعطتها ميزة السبق على الشركة الانجليزية في ساحل كورومانديل ولكن سلطانها اهتز بشـــدة بسبب الحروب الشرســة الضروس التي دارت رحـــاهـا في وحـــول جـولكونـدا طـوال الربع الأخير من القـرن الســابع عشر في فترة تفوق فيهـا الانجليز على الهولنـديين من حيث رؤوس الأموال المستثمـرة وسقطت الذراع اليسرى للشركة الشرقيــة الهولندية، وهنـا ومثلما حدث في أمـاكن أخرى من الهند، انتقلت السيــادة التجارية التي كـانت تتمتع بها الشركة الهولنـدية إلى الشركة الانجليزية قبيل عام ١٧٤٠».

وطبيعي انه كانت هنـاك سلع آسيوية أخرى كثيرة تاجـرت فيها الشركة

الشرقية الهولندية علاوة على الفلفل الأسود والتوابل والمنسوجات والشاي والبن والخزف. إذ هناك أيضا النيلة والملح الصخرى أو نترات البوتاسيوم من الهند والسلع المطلية بورنيش اللك من اليابان، والفيلة من سلان، والعبيد من أراكان وبوتون وبالي، وهذا قليل من كثير. والمكان هنا لا يسمح لنا بذكر جميع فروع النشاط التجاري للشركة، غير أن ثمة جانبا واحدا يأتي ذكره عابرا في أغلب الأحيان – ونعني به شيوع ما يعرف باسم «التجارة الخاصة» جنباً إلى جنب مع الأعمال المشروعة للشركة. إذ كان مديرو الشركة اما عاجزين أو عازفين عن دفع رواتب الأغلبية العظمى من العاملين في الشركة. زد على هذا أن الشركة كانت تحتفظ بجزء كبير من الرواتب في مكاتبها في هولندا إلى حين انتهاء فترة عملهم في المنطقة الاستوائية، ومن أسباب ذلك الخوف من أن يتركوا العمل. وبدأت الشركة منذ عام ١٦٥٨ فصاعداً تتلاعب في سعر الصرف على نحو يتعارض مع مصالح العاملين بها. وتحسب الدولار المعروف باسم ركس دولار (ويساوي ٦٠ ستويفر في الأراضي المنخفضة) بـ ٦٤ ستويفر في دفتر حساب العامل الدائن. وهكذا باتت الحياة عسيرة على أي إنسان اعتماداً على راتبه الرسمي، ناهيك عن ادخار أي مبلغ من أجل المستقبل عند الاحالة إلى التقاعد ولم تكن الشركة تمنح معاشا إلا في ظروف استثنائية جدا قبل عام ١٧٥٣. والنتيجة أن كل انسان ابتداء من الحاكم العام الى الصبي شرع يعمل بالتجارة لحسابه الخاص سرا والكل يعرف ذلك.

واقتدى أعضاء مجلس الـ ١٧ بأسلافهم البرتغاليين وسمحوا لكل فرد بأن يحمل معه عند عودته كمية صغيرة من السلع الشرقية زهيدة القيمة، وان اعتادت الشركة بسهولة انتهاك هذا الامتياز. وبدأت الشكوى من غلبة التجارة الخاصة في أغسطس ١٦٠٣ ولم تكن الشركة قد تجاوزت العام الواحد من عمرها إلا بأشهر قليلة. وبعد ست سنوات لاحظ المديرون بمرارة ان التجار كبارهم وصغارهم والملاحين والموظفين والمساعدين وجميع من يعمل في خدمة الشركة يشترون مشترياتهم أو يرسلونها إلى أرض الوطن والتي تضم

«أرقى وأفخر أنواع الخزف والمشغولات الخشبيـة وغيرها من التحف الهندية النادرة وهو ما يتناقض مع قسم العمل الذي أقسموا به عند تعيينهم.» ونجد هذه الشكوى سـائدة في المراسلات الرسمية للشركة حتى آخـر أيامها. ودأب المديرون من حين إلى آخر على مراجعة وتعديل نوع وكم السلع التي يمكن أن يعـود بها الموظف دون دفع أي جمارك عنهـا (أو دفع مبلغ محدود)، ولكنهم اعتادوا ان يحتجزوا أقيم وأثمن السلع للشركة وحدها. ويحدثنا داديد هاتاي عن قوانين ممـاثلة طبقتهـا الشركة الشرقية الانجليـزية فيقـول: «ان النتائج المترتبـة عن مثل هـذا التنظيم السيء للغـايـة يمكن أن يتنبأ بها عقل سـاذج ضعيف». إن من خـاطروا بحيـاتهم للخدمـة مقابل أجـر رمزي في المنـاطق الاستوائية لم يمنوا أنفسـهم بأن يقنعوا بصيد الذباب أو أكل القش، بل عقدوا العزم على أن يثروا بأسرع وقت ممكن، ولم يكن لدى المسئولين عن الشركة أي ميل لفضح أمر مستخدميهم حيث أنهم جميعا كانوا متورطين في ذلك.

ولقد كـانت امكانـات الخداع والاختلاس لانهاية لها. فهنـاك علاوة على الرشوة السافرة والابتزاز المالي، وكانا شائعين تماما، فإن حسابات الشركة في المحطات التجارية النائيـة كان من اليسير «طبخها». إذ يتم ادخال المشتريات بأسعار عالية بصورة خيالية في دفـاتر الأستاذ، وكذلك البضائع المسروقة أو الهالكـة يجرى تقييمها بأسعـار مبالـغ فيها، فضـلاً عن المبالغـة الكبيرة في نفقات الحياة والسفـر، ثم المبالغة أيضاً في أسعار مـواد البناء وأجور العمال وتسجيلهـا بأعلى من قيمتها الفعليـة. وعمد بعض مـوظفي الشركة الشرقيـة الهولنديـة إلى اقراض الصينيين وغيرهم من التجـار الآسيويين مقـابل فائدة حتى وان أدى هذا إلى رفع أسعار الفلفل الأسـود (كمثال) عن طريق المزايدة ومن ثم يتعين على الشركة أن تدفع مبالغ أكبر مقابل ذلك في السوق المفتوحة. وتاجـر بعض الموظفين باسم تجار آسيويين، أو بـالاشتراك معهم، على الرغم من خطر هذين الاسلوبين، وسبق أن منعت الشركة الشرقية الهولندية، ابتداء من عام ١٦٥٢، مـوظفيها من تحويل أموالهم الخاصة إلى أوروبـا عن طريق

حــوالات من خــلال الشركــة الشرقيــة الانجليــزيــة، غير أن مــوظفي كل من الشركتين دأبــوا على استثمار خــدمــات الشركــة الأخــرى لتحــويل أمــوالهم الخاصة إلى أوروبا عن طريق حوالات من خــلال الشركة الشرقية الانجليزية، غير أن موظفي كل من الشركتين دأبوا على استثمار خــدمات الشركة الأخرى لتحويل مكاسبهم غير المشروعة، وتحول هذا السلوك إلى فضيحة كبرى خلال النصف الثاني من القــرن الثامن عشر. وهــا هو جوهــان روس وكيل الشركة الهولنــديــة في البنغــال، يحقق مكسبــا لا يقل عن نصف مليــون روبيــة من عمولات حصل عليها مقابل أرصدة أرسلها موظفو الشركة الانجليزية سرا إلى انجلترا عن طريق بيوت المال في امستردام وجان كومباني.

وكــانت السريــة محدودة للغــاية بشأن التجــارة الخاصــة التي شــاعت وازدهرت بين الأوروبيين في الشرق منــذ أيام فــاسكو دي جامــا وحتى مطلع القرن التاسع عشر. وان العديدين من موظفي الشركة الهولندية الذين نشروا مذكراتهم بعد عودتهم إلى أوروبا يــوضحون لنا كيف ومتى خدعوا أو رشوا خزانة مالية الشركة في باتافيا – أو كيف هربوا السلع المحرمة في أمتعتهم من خلال إدارات أقــاليم الهند في الأراضي المنخفضــة أمام بصر وسمع المديــرين المسئولين عن التفتيش، ويجب أن نسلم. على سبيل التبرير، بأن مجلس ادارة الــ ١٧ وان أدان ممارســة التجارة الخاصة بأشد الألفــاظ مع اصدار الأوامر من حين إلى آخر ليؤكــد حظرها، إلا أنه كثيراً ما عمــد إلى اغماض عينه ازاء ما يجرى. واختلف مــوقف المسئولين عن التفتيش أيضــا اختلافــا كبيراً حسب الطبيعة الشخصية لكل منهم وحــالته المزاجية. «إذ يكون أحيانا أشــد حزماً، وتزمتاً، وأحيانا أخرى متســاهلاً»، على نحو ما صرح به بيتر فان دام محامي الشركة في كتاباته السرية. ويحكى لنا أيضا ان مديري الشركة اعتادوا بشكل دوري بحث داء التجارة الشخصيــة، وإذا كان بــالامكان القضــاء عليها عن طريق دفع رواتب مجزية للعاملين في الشركة والحزم في الالتزام بالأوامر. بيد أنه يضيف قائلاً انهم انتهوا دائماً إلى نتيجة محددة وهي أنه حتى وان دفعت

الشركة رواتب عـالية فإن هذا الإجراء لن يقلل من جشع مستخـدمي الشركة ولن يحفزهم في أداء مهامهم على نحو أفضل وأكثر التزاماً».

وحدث أحيانـاً أن مجلس ادارة الـــ (١٧) في أرض الوطن، أو السلطـات المسئولـة عن الشركة في بـاتافيـا فرضوا عقـوبات بـالفعل ضد الانتهـاكات الشديدة للقواعد المفروضة بشأن التجارة الخاصة. ولكن ثبت ان هذا حماس مؤقت لا يدوم طويلاً وكانت اليابان والبنغال المنطقتين اللتين تشكلان مسرحاً لجني أكثر الأرباح غير المشروعة، ولارتكـاب أشنع الفضائع. ونظرا لأن هذين البلدين لم يكـونا خاضعين لادارة الشركة، لـذا كان من العسير تماما مـراقبة وكبح عمليـات التهـريب والاختـلاس من جـانب مـوظفي الشركـة الشرقيـة الهولنـدية، خـاصة وان هـذه الأعمال يتم التورط فيهـا عادة، بـالتواطـؤ أو التعاون من قبل الموظفين والتجار المحليين، ووصل الأمر إلى حد اقحام السلع الخاصة على السفن المحملة بـالبضائع من باتافيا ومتجهـة إلى اليابان بحيث يتعذر تحميل جميع شحنات بضائع الشركة على متن السفينة لهذه الأسباب. وها هو هندريك كانسيوس رئيس محطة دشيمي التجارية في ١٦٨١-١٦٨٢ يزهـو عند عودتـه إلى باتافيـا أنه أمكن تهريب بضائع للتجـارة الخاصة إلى اليابـان تربو على تجارة الشركة. وبعـد بضع سنوات وقعت فضيحة مـدوية على اثر الاجـراءات الصارمة التي اتخذتها السلطـات اليابانية ضـد التجارة المهربـة في ناجازاكي، أفضت إلى اعـدام ثمانية وثلاثين من اليابـانيين وابعاد المسئول عن الميناء أنـدرياس كليجر الى باتافيا مع أوامـر تقضي بعدم عودته ثانيـة إلى اليابان وإلا نفـذت فيه عقوبة الإعـدام، وحدثت فضيحة ممـاثلة في البنغال خلال العام ذاته. وكان الأفيون السلعة المفضلة في التجارة الخاصة في البنغـال حيث يمكن شراؤه بأسعـار تتراوح ما بين ٧٠ و٧٥ روبيـة، ويبـاع بأسعار تتراوح مـا بين ٢٢٠ و٢٢٥ روبية في بـاتافيا. وفي عـام ١٧٢٢ كان لدى زوار دكـرون الحاكم العام ستة وعشرون شخصـاً من بينهم أحد عشر أوروبيـا يعملون أمنـاء مخازن، نفذت ضـدهم جميعا أحكـام بالإعـدادم في

باتافيا بسبب التجارة المهربة. وفي عام ١٧٣١ استدعت ادارة الـ ١٧ الحاكم العام وعددا من كبار الموظفين وأدانتهم بالتورط في أعمال عصابة للتهريب. بيد أن هذه الفضائح والاعلان عنها وعن عقوباتها لم تكن لتدوم غير وقت قصير لتعود تجارة التهريب الى الازدهار من جديد بين صفوف العاملين من مستخدمي الشركة سواء في القلاع أم في المحطات التجارية.

وان نيقولاس دي جراف، وآخرين ممن لهم أن يتكلموا عن ثقة ومسئولية في هذه النقطة، يزعمون أن رجال الدعوة والوعظ البروتستانت خدعوا الشركة كثيراً من هذه الناحية. وقد تكون بعض المزاعم جديرة بالاهمال على سبيل انها من أساليب مناهضة رجال الدين، ولكننا إذا اسقطنا كل ثرثرة خبيثة سيبدو واضحا للعيان ان التجارة الخاصة ازدهرت بين صفوف رجال الدين العاملين في الشركة على اختلاف مستوياتهم مثلما ازدهرت بين غيرهم، والملاحظ أن أحط الآثمين بارتكابها هم الموظفون أنفسهم المسئولون عن القضاء عليها ابتداء من رجال الجمارك الأوروبيين في باتافيا وفي غيرها الى العمال الآسيويين العاملين في قوارب الحراسة التي تراقب تحميل وتفريغ السفن. لقد كان بالامكان رشوة هؤلاء جميعا على وجه التقريب دون التعرض لأي عقوبة على نحو ما وصف نيقولاس دي جراف كيف كان الراشي يلقي بالعملات الذهبية اليابانية في أيدي رجال الجمارك في باتافيا لا كرشوة بل كهدية على نحو يشبه كثيرا أسلوب الرشوة في هولندا الذي وصفه فرنسيكو دي سوسا كوتينو حين قال: «معذرة سيدي إذا كنت قد عكرت مزاجك. أعرف جيداً ان فخامتكم لستم من النوع الذي يقبل أي هدية. وهذا ليس إلا شيئاً بسيطا للذكرى من أجل زوجتك المصونة وأطفالك الأعزاء».

ان التجارة الخاصة وما اقترن بها بالحتم من سوء استغلال للوظيفة كانت من الأسباب الرئيسية في انهيار الشركة الشرقية الهولندية في نهاية القرن الثامن عشر، وهو أمر من المسلم به وعبر عنه الساخرون بالكلمات التالية Vergaan Onder Corruptie أي: «انهارت بسبب الفساد». وليس

من المعـروف عن يقين كم حجم الـخســائر الفعلية التي خسرتها الشركـة لهذا السبب. ويميل أحد المؤرخين لقصـة هذه الشركـة الى القول بأن عمليات إبدال متطلبات الســوق الأوروبية وتغير الظـروف في آسيا وزيــادة عدد الشركـات الأجنبية المنافسة هي المسئولة عن تقويض الوضـع التجاري للشركة الشرقية الهولنديــة اكثر من مسئولية الــرشوة والفساد بين موظفيهـا المتهمين بالغش والكسل وعدم الكفــاءة. ويتعين أن ننظر بحــذر وتحفظ إلى القول بأن السلـع المهربة في السفن التجارية الهولنديــة المتجهة إلى أرض الوطن كانت في الغالب تربو من حيث قيمتها على الحمولات المنتظمة للشركة. ولكننا نعرف أن مجلس ادارة الـ ١٧ بـدأ منذ عام ١٦٣٩ يشكـو من أن المحال في المقاطعـات المتحدة تزخـر بالسلـع المهربة عن طـريق سفن شركة الهند الشرقية الهولنـدية حتى باتت تمثل عقبـة أمام الغرف الاقليميـة .. وحالت دونها والوفـاء بالحصص الــرسمية المطلــوبة منهـا. وفي أواخــر القرن الثـامن عشر زعم نقاد الشركـة الشرقية الهولنـدية ان التجــارة الخاصة والفســاد المستشرى بين مستخدمي الشركـة في الشرق كانـا أشد تـدميراً من الممارسات المماثلـة في اطار الشركـة الشرقية الانجليـزية. ولكننا نعود لنقـول ان مثل هذا الزعم يعـوزه الدليل مع عدم وجود تقديرات دقيقـة وموثوق بها عن حجم التجارة الخاصة في كل من الشركتين. والجديـر بالـذكـر أيضـاً كما أكد الاستـاذ الجامعي كـولهاس أن الفساد داخل الشركـة الشرقية الانجليزية ربما بلغ أقصـاه خلال الفترة التي شهـدت فيها هـذه الشركة أوج ازدهـارها (واقعيـا أو ظاهريـاً) وذلك خلال النصف الثاني من القرن الثامن عشر.

ومن نافلـة القول ان التجــارة الخاصة راجت وازدهـرت بين مستخدمي شركة الهند الغـربية الهولندية تماما مثلما حدث بين مستخـدمي شركة الهند الشرقية ولــلأسباب الرئيسيــة نفسها بقصــور الرواتب الشهريـة، واخطار الحياة في المناطق الاستوائية، وإغراء الفرص السهلة بالثراء السريع بالوسائل غير الشريفة، والاقتناع العـام بأن «الوصايا العشر لا تصــدق على جنوب خط

الاستواء». وأصدر مديرو الشركة الغربية، مثل نظرائهم في الشرق، القواعد واللوائح التي تحظر الاتجار في السلع المهربة، وهددوا المخالفين بالوقوع تحت طائلة أقصى العقوبات إذا ما ضبطوا. ولكن ثبت ان هذه العقوبات غير رادعة ولا جدوى منها على امتداد شواطىء المحيط الاطلسي تماما مثلما كانت غير رادعة على امتداد شواطىء المحيط الهندي وبحر الصين. وهنا أيضا ومثلما حدث في الشركة الشرقية الشقيقة ثبت أن موظفي الجمارك المسئولين عن تنفيذ لوائح وقوانين حظر التهريب في شركة الهند الغربية الهولندية هم تحديدا أسهل العناصر قابلية للرشوة وجعلوا من أنفسهم مطية للفساد والرشوة على يد كل انسان وبكل الوسائل».

وطبيعي أن تقسيم مهام العمل بين العاملين في أي مؤسسة يختلف حسب حجم هيئة العاملين وأهمية المكان المنوط به أداء المهمة. مثال ذلك أن بعض الوكالات الصغرى في مولوقا لا يعمل بها غير واحد أو اثنين من الأوروبيين، بينما يبلغ عدد العاملين المئات في ميناء حصين أو مدينة بها حامية عسكرية. ويمكن أن نأخذ كنموذج لهذا؛ الخصائص التي أشار اليها دانيل هافارت في حديثه عن المحطات التجارية الهولندية الواقعة على ساحل كورو ماندل في عام ١٦٨٠ تقريبا والتي نلخصها فيما يلي: التاجر أو العميل الرئيسي هو الذي يتعامل مع التجار الهنود، يحدد الطلبات من المنسوجات، ويحتفظ بخزينة النقود ويتسلم الوارد من النقد المدفوع ويأذن للمسئول عن الصندوق بدفع المبالغ المطلوبة. يأتي بعد ذلك في المرتبة ما يعرف باسم تويد Tweede أو النائب والذي يحتفظ بدفاتر الأستاذ للأعمال التجارية، ويراقب المخازن، ويساعد في التفتيش على جودة المنسوجات ويحرر كشوف التصدير. ويتعين أن يوقع الاثنان، التاجر الرئيسي ونائبه، على جميع الرسائل الصادرة. والتاجر الثالث، إن كان هناك ثالث، يضطلع بأي مهام أخرى ضرورية، وغالبا ما يتولى شراء السلع من المدن الداخلية. أما المساعدون والكتبة فيعملون تحت إشراف رؤسائهم. وكان مبدأ الرقابة المدنية هو حجر

الزاويـة في الخدمة في كل من الشركتين، الهنـدية الشرقية والهنـدية الغـربية. ويتولى المنصب الرئاسي دائماً وأبداً تاجر يحمل عادة رتبة «كبير التجار» Op-perkoopman حتى في المستـوطنات التي تحرسهـا قـلاع كبيرة وحاميـات عسكريـة قوية مثل قلعة زيـلاندا في فورمـوزا، وقلعة بلجيكا في جزر بـاندا، وقلعة بوليكات على ساحل كوروماندال وقلعة المينا في غينيا.

ولم يكن الهولنديون في الشرق، إجمالا، معنيين ببناء القلاع والحصون أو ممن اشتهروا بها على نحـو ما كـان البرتغاليـون قبلهم، إذ عمدوا إلى خفض حجم تحصيناتهم فور الاستيلاء عليها بهدف الاقتصاد في عدد أفراد الحامية ومدافعها ولا يبقى إلا ما هو ضروري فقط للدفـاع عن أسوارها. وهذا هو ما فعلوه على سبيل المثال في كوتشين وكولـومبو على الرغم من أنهم أقاموا بعض التحصينات المثيرة في فـورموزا وفي جزر البـاندا التي ظلت أطـلالها موضع اعجاب حتى ستين أو سبعين سنة مضت. وأكثر قلاعهم تكلفة – وأقلها نفعاً في الملمات – قلعة نادرن في نيجاباتام (كوروماندل) التي كلفت الشركة حوالي مليـون ونصف المليـون جيلـدر واشتهـرت بـاسم «القلعـة ذات الأسـوار الـذهبية». ولعل الشيء الأكثـر أصـالـة من قلاعهم وحصـونهم هـو التأثير المعماري للأراضي المنخفضـة عبر بحر الشمال والذي خلفـوه في أماكن كثيرة استوطنـوها في المنطقة الاستـوائية. وخير مثـالين على هذا باتـافيا ورسيف. ولكنهم شقوا القنـوات ومهدوا الطـرقات التي تحف بها الأشجـار. ويحدثنا دانييل هافارت عن المحطة التجارية المقامة في بوليكات في عام ١٦٩٣ فيقول: «المدينة ذاتها ليست بـالشيء الذي تعزف عنه النفس وهنـاك طرقات كثيرة لا يسكنها غير الهولنديين، حيـث البيوت المبنية وفق الطراز الهولنـدي، وأمامها صفوف ثـلاثة من الأشجار. ويستطيع المرء أن يمتع نفســه بالسير الهوينى نهاراً أو مسـاء».

والتجارة بطبيعتهـا في المناطـق الاستوائيـة تجارة موسميـة في الأساس خـاصة في آسيـا حيث تسير السفن عبر الطرق الملاحيـة القديمـة خاضعـة

لتقلبات الـرياح الموسمية. معنى هـذا أن أغلبية المحطات التجاريـة تشتد بها كثافـة العمل خلال الموسم التجاري. ولكن مـا أن يتم تحميل وابحار السفن حتى لا يبقى شيء هنـاك لعملـه إلى أن يحين الموسم التـالي. وطبيعي ألا يبقى التجار عاطلين بغير عمل خلال الفترة المسماة بـالفترة الميتة أو خارج الموسم، وانما يعملـون في تجهيز وتـرتيب السلع غير المباعـة حسب ما تسنح بـذلك الفرصـة، ويحاولون تجميع السلع واعدادها للتصـدير قبل أن تصل السفن مع حلول الموسم التالي. وكانت ساعات العمل في موانىء الترانزيت مثل باتافيا تبـدأ من السـادسـة وحتى الحادية عشرة صبـاحـا، ثم من الـواحـدة حتى السادسـة بعد الظهـر وذلك منذ عـام ١٦٢٠ إلى عام ١٧٤٠. وفي هـذا العام تحددت سـاعـات عمل كبـار المسئولين من السـابعـة وحتى الحاديـة عشرة صباحا ومـن الثانية وحتى الخامسة مساء. وإن كـان كثيرون منهم اتصفوا بـالتراخي في الالتزام بـالحضـور على الرغم من التحـذيـرات المتواليـة التي اصدرتها اليهم الحكومـة. ولكن الحياة في بعض المراكز التجاريـة النائية وفي خارجهـا، لم تكن تربطهـا بالعالم الخارجي سـوى روابط واهية بعـد انتهاء الموسم التجاري، ومن ثم يمكن وصفها في عبـارة واحدة اختصارا بأنها أكثر مظاهر الحياة بلادة ووحشـة. وسبق أن وصف ثنبرج وحشة الحياة اليومية في دشيما بعـد ابحار السفن الهولنـدية من بـاتافيـا في نوفمبر ١٧٧٥ وهـو الوصف الذي ينطبق، مع وضع التغييرات الـلازمة في الاعتبار، على الحياة في الوكالات الصغرى التي لا يقيم فيها ما لا يزيد على عشرة أوروبيين وفيما يلي وصفه لهذه الحياة.

الأوروبي الذي يبقى هنا، هو بصـورة من الصور ميت ومدفون في ركن مظلم من أركان المعمورة، لا يسمـع أي أخبار من أي نوع، لا شيء عن الحرب أو الكـوارث والشرور التي ابتليت بها البشريـة وتعـاني منهـا، ولا شيء من شائعات الداخل أو هموم الخارج تبهجـه أو تؤذي سمعه. النفس هنا لا تملك غير ملكـة واحـدة هي ملكـة التمييـز (إن كـانت تملك شئيـاً على الاطـلاق).

وأسلوب الأوروبي في الحياة هو من نواح أخرى نفس اسلوب الحياة في انحاء الهند (أو آسيا) المختلفة، أسلوب يتسم بالبذخ وعدم الانتظام. وهنا مثلما يحدث في باتافيا، نقوم كل مساء بزيارة الرئيس بعد أن نقطع الطريقين الرئيسين مشيا على الأقدام جيئة وذهابا عدة مرات. وتمتد هذه الزيارات المسائية عادة من الساعة السادسة وحتى العاشرة، وأحيانا إلى الحادية عشرة أو منتصف الليل. وتمثل هذه الزيارات أسلوبا مملاً جدا في الحياة وانما يفعله الناس لا لشيء إلا لأنهم لا يملكون وسيلة أخرى لقضاء وقت فراغهم غير استخدام تدخين البايب في تراخ وكسل».

وبعد عشرين عاما كتب الكابتن روبرت بيرسيفال عن حياة الهولنديين في سيلان فقال إنهم يستهلون يومهم بشراب الجن والتبغ، ويختتمونه بالتبغ وشراب الجن. وفيما بين ذلك يأكلون بنهم، ويتسكعون هنا وهناك، ويستسلمون لغفوة القيلولة، ويتبادلون بعض الصفقات المحدودة.* ولم يكن أسلوب حياتهم ليختلف اختلافا بينا في القلاع المقامة على ساحل الذهب وفي بيوت نظار المزارع في سورينام خلال الربع الأخير من القرن الثامن عشر.

لقد كان غليون التبغ والزجاجة رفيقين لا ينفصلان عن الهولندي فيما وراء البحار مثلما هو في المقاطعات المتحدة. وفي هذا كتب جان بيرتسون كوين في عام ١٦٢٠، ولم يكن يشير فيما كتب إلى الماء حين قال: «أمتنا إما أن تشرب أو تموت». وردد كلماته ريجكوف فان جوينز حاكم سيلان الهولندية الذي لاحظ آسفا في عام ١٦٦١: «تبين لنا، وليساعدنا الرب في هذا، أن رجالنا يستحيل عليهم تجنب الشراب». وفي عام ١٦٧٤ تكشف أن ثلاثة وخمسين من بين ثلاثمائة وأربعين من أصحاب الدخول العالية من سكان باتافيا

* C. P. Thunberg; Travels in Europe, Africa and Asia; 1770-1799; Val. III, PP. 63-4.

يعملون أصحاب حانات أو تجار خمور، أي بعبارة أخرى ان واحدا من بين كل ستة أو سبعة من سكان المدن الذكور الذين لا يعملون في وظائف تابعة مباشرة للشركة يحترفون مهنة بيع الكحوليات. وأرسل مجلس ادارة الـ ١٧ رسالة الى حاكم عام ومجلس باتافيا في عام ١٦٤٧ يقول فيها أنه يتعين على الهولندي العادي أن ينفق آخر درهم يملكه لشراء قدح من البيرة. وعلم المجلس ان الانجليز كانوا يبيعون البيرة بأسعار باهظة للغاية في باتافيا وإن لم يكن بالامكان تصديق هذه المعلومات. وقيل إذا صح هذا فإنه يعني فقط أن رجالنا لا يسعهم أن ينسوا جو أرض الآباء». وفي عام ١٦٤٨ وصف البعض الكالفنيين أعضاء كنيسة نيو امستردام والبالغ عددهم ١٧٠ عضوا بأنهم «يكادون يجهلون تماما أمور الدين ونزاعون الى الأفراط في الشراب، وهو نزوع تيسره له تماما الحانات الموجودة هناك والتي يبلغ عددها سبع عشرة حانة». وفي عام ١٦٣١ قدم زائر انجليزي لزيارة جان كلايزون فان كامين ووصف الزائر الانجليزي مضيفه بأنه «الهولندي الوحيد المقتصد في شرب الخمر، دون جميع من قابلهم». وهذا لا ينفي الشواهد الكثيرة المعاصرة التي تؤكد أيضا ان الانجليز كانوا من عشاق باخوس إله الخمر شأنهم في هذا شأن الهولنديين. ولكن دانييل هافارت الذي خدم ثلاثة عشر عاما في المحطات التجارية الهولندية المقامة في كوروماندل (١٦٧٢-١٦٨٥) ينكر ساخطا ان مواطنيه كانوا مدمنين على الخمر أكثر من الانجليز في الهند. وها هو وليام بوسمان، صديق هافارت والذي كان يعمل في غرب أفريقيا سببها الرئيس «إسرافهم في معاقرة الخمر» وبخاصة شراب لعين شيطاني يعرف باسم بانش. ولكن بوسمان يعترف بأن الأفراط في الشراب بين الهولنديين المقيمين في المحطات التجارية في غينيا «رائج للغاية وكلما زاد راتب المرء كلما زاد ظمأه للشراب».

ولا شيء أيسر علينا من أن نورد الكثير والكثير من هذه الأخبار التي تضمنتها رسائل رسمية وخاصة كما تضمنتها كتب تعالج حياة الأوروبيين

في المنطقة الاستوائية، خلال القرنين السابع عشر والثامن عشر، ناهيك عن الاحصائيات التي تكشف بوضوح ضخامة استهلاك النبيذ والبراندي والعرقي والجن. ولا أحسب أننا نبالغ إذا قلنا إن أغلبية الرجال من الهولنديين والانجليز الذين ماتوا في المنطقة الاستوائية إنما لقوا حتفهم بسبب إدمان الشراب حتى وإن هيأوا بإدمانهم الفرصة للخسارة الفادحة في الأرواح نتيجة الاصابة بالملاريا والديزنتاريا. واليك سطران منقوشان على شاهد قبر منذ القرن السابع عشر في كوروماندل، يشيران إلى هذا الواقع الأليم، ولا يميزان بين الانجليز والهولنديين من حيث إفراطهم القاتل في شرب الخمر.

الانجليز والهولنديون أقاموا هنا
وعبوا شراب التودي بسبب نقص البيرة

صفة أخرى اتصفت بها حياة الهولنديين في القلاع والمحطات التجارية في المناطق الاستوائية التابعة للشركتين الهندية الشرقية والهندية الغربية ألا وهي الاهتمام المفرط من جانب كبار موظفي الشركتين بالوضع الوظيفي الرسمي وبالمكانة الاجتماعية. لقد كان الوعي الطبقي متطوراً جداً بين الهولنديين في بلدهم، ومن عهد قريب كانت المرأة المتزوجة تخاطب باحدى العبارات التالية ميفرو Mevrouw أو جيفرو Jufrouw أو فراو Vrouw وذلك حسب وضع زوجها إذا كان مثلاً طبيبا أو بقالا أو عاملاً. ولكن في ممتلكات الشركتين فيما وراء البحار عامة، وفي باتافيا خاصة، كان التمييز الطبقي والمراتب الاجتماعية مبالغاً في تطبيقها والالتزام بها على نحو غريب، خاصة خلال النصف الثاني من القرن الثامن عشر. والملاحظ أن السلم الهرمي الوظيفي في شركة الهند الشرقية الهولندية كان متدرجاً بطريقة صارمة مع الالتزام به بدقة شديدة كما كان متبعا في الكنيسة الكاثوليكية الرومانية. وكان التمييز على أساس المنزلة والأسبقية في حياة الأوروبيين في باتافيا. ويشير الى هذا ستافورينوس في عام ١٧٦٨ فيقول «كل فرد رسمي وشكلي بصورة جامدة ويشعر أنه يحيا دفاعا ضد أي انتهاك لامتيازاته،

وكأن سعادته وبؤسه رهن الالتزام بها. ونجد ملاحظات أخرى كثيرة مطابقة لهذه جاءت على ألسنة زائرين آخرين زاروا باتـافيا خلال القرن الثامن عشر. لقد كانـت كل صغيرة وكبيرة في الحياة يجرى حسابها بدقـة وفقا للمستوى الـوظيفي والمنزلـة الاجتماعيـة هناك ابتـداء من لبـاس مستخدمي الشركـة (وكذلك لبـاس زوجاتهم) وعدد المركبات التي يحق لكل منهم أن يستخـدمها ودرجة الـزينة المسموح بها وغيرهـا من مئات الأمـور الشخصية. وتحددت كـذلك بدقـة متناهيـة أوضاع الأسبقيـة عند الاستقبـال، وفي حفلات الغـداء والجنائز. وأدت هذه المسائل إلى إثارة مشكلات ومشـاحنات شخصية بالغة القسوة كلما حدث انتهاك لأي من هذه الترتيبات.

وإذا كـان لنـا أن نثق في شهـادة الكثيرين من النقـاد القسـاة الـذين لا يرحمون فإننـا نستشهد بالسيدات الـلائي كن نزاعات إلى تأكيـد أي امتياز والتشبث بأي منصب أو ميـزة للأزواج. ويحكى لنا ستـافورينـوس فيقول «يحدث كثيراً ان تلتقي سيدتان متكافئتان من حيث المنزلة، وتقابل كل منهما الأخـرى وهي في عربتهـا وإذا بكل منهما تـرفض التنـازل وإفساح طـريق للأخـرى حتى وان اضطـرتا إلى البقاء في الطـريق على هـذا النحو سـاعات. وحدث قبل أن أغادر باتافيا بوقت غير طويل أن التقت في الطريق سيدتان هما زوجتان لاثنين من رجال الدين وتقابلت عربتاهما صدفة وجها لوجه في طريق ضيق. ولم تشأ أي منهما أن تفسح الطـريق للأخرى. بـل عطلتا المرور ربع سـاعة كـاملة. وتبـادلتـا خلالها أقـذع الصفـات وأقسى النعوت مثـال ذلك «العاهرة» و«ابنة العبد». واتسم السباب بينهما بالحدة والقسوة دون رحمة. ويبدو أن أم إحدى هاتين السيدتين كانت عبـدة فعلاً، والثانية، حسب ما قيل لي، لم تكن بعيـدة عن الشبهات بحيث تستحق الصفـة الأولى: وأخيراً سارتـا جنبا إلى جنب وكل منهما تكيل للأخرى السبـاب إلى أن غابتا عن الأنظار. بيد أن هذا الحدث كان مناسبة لاتخاذ اجراء بعد عرض الأمر على المجلس، وجرى تنفيذ الاجراء بكل قسوة والتزام.

قسمة أخرى من قسمات الحياة في باتافيا، بل ومن القسمات المميزة للمستوطنات الأوروبية في المناطق الاستوائية بدرجة أو بأخرى. ونعني بها أهمية الكشف عن مظاهر الأبهة والاحتفال، بهدف التأثير أساسا على السكان الوطنيين المحليين لتأكيد ثروة الرجل الأبيض وسطوته. وسبق أن استن الهولنديون هذه السنّة في «جوا الذهبية»، حيث كان نائب الملك يعقد البلاط في مظاهر أبهة يحسده عليها ملوك أوروبا. وهذا هو النهج الذي اقتدى به الهولنديون في باتافيا، والانجليز في كلكتا. وسرعان ما ذوت وتلاشت كل مظاهر البساطة الكالفنية في هذه الأجواء، ونجد حاكما عاما يتظاهر بالتقوى مثل بطرس البرتوس فان دير بارا (١٧٦١-١٧٧٥) ويعيش في مظاهر ثراء وتفاخر مثيرة. إذ كلما خرج الحاكم العام في مركبته أحاط به وتبعه ركب طويل من رجال تزينوا بلباس فاخر، وعديد من الحراس. ويتعين على كل من يمر به الحاكم في الطريق أن يترجل تاركا مركبته لينحني إلى درجة الركوع أو تطأطيء رأسها إن كانت سيدة) وقد حسر رأسه، إلى أن يمضي الركب. وكذلك الحال بالنسبة إلى رؤساء المراكز التجارية، بل والمراكز التجارية الثانوية، إذ يظهر الرؤساء في الطريق العام وهم في أزهى لباس مع قارعي الطبول وأكثر من اثني عشر حارساً من الجنود الهولنديين.

ولا شك أن حياة الأبهة والترف التي اسلفنا وصفها كانت قاصرة على بضع مئات من التجار وكبار موظفي الشركة. ولم يكن يشارك فيها صغار الكتبة والجنود والبحارة ممن تحدثنا قبلا عن بعض مصاعب حياتهم. ويمكن أن نضيف هنا أن العقوبات المفروضة على الجنود العاملين في خدمة الشركة اتصفت بالقسوة والغلظة شأن العقوبات المطبقة أيضا على البحارة. وشاعت إلى حد ما معاقبة رجل مدى الحياة بآلة تعرف باسم «الحصان الخشبي» أو غير ذلك من عقوبات وحشية قاسية. وفي عام ١٧٠٦ قرر الحاكم العام والمجلس الاقلال من استخدام اسلوب «الحصان الخشبي» والاكتفاء بالجلد مستقبلاً. ثم صدر قرار بعد ذلك بألا توقع عقوبات مخزية

وشائنة على الجنود أمام المواطنين «حفـاظا على هيبة الأوربيين» ولكن أغلبية الجنود المرتزقـة العاملين في خدمة شركـة الهند الشرقية الهولنديـة وكذلك في خدمة شركة الهنـد الغربية الهولندية ظلوا يلقون معاملـة قاسية شأن العبيد الزنـوج. ولعل خير ما يوضح لنـا ذلك تلك الشـهادة التي أفضى بها ثنبرج إذ قـال: «أدركت الآن أيضـا السبب في تلك المعـاملة القـاسيـة التي يعـامل بها الأوروبيون جنودا وبحـارة، بحيث انها أشد. قسوة من المعاملـة التي يلقاها العبيد أنفسـهم. فبالنسبة للعبيد نجد مالكهم لا يحرص فقط على التأكد بأنهم يلبسـون ويطعمون جيـدا بل والتأكد إذا ما مرضوا بأنهم يلقون رعـاية طبية ملائمة، أما الجنود والبحارة فليحدث لهم ما يحدث، عراة أم يرتدون ملابس ممزقـة أو غير ملائمة. وإذا مـات أحدهم تسمع عادة عبـارة ان الشركة تأتي بغيره مقابل تسعة جلدرات».*

وإذا كان هناك عـدد غير قليل من جنود الشركة قد نشروا مـذكراتهم عن الحياة العسكـرية في الشرق، فضلاً عما توفـر لدينا من معلومـات جيدة عن حياة التجار والموظفين والبحارة بفضل أدب الـرحلات آنذاك ومن المراسلات الخاصــة والرسميـة، إلا أننا لا نعـرف غير النـزر اليسير عن فريق آخـر من مستخـدمي الشركـة، ألا وهم من يعرفـون بـاسم Ambachtslieden أو الحرفيين المهرة والعمال اليدويين. ويبدو أن الهولنـديين استخدموا على نطاق واسع الحرفيين الأوروبيين المهـرة في جزيـرة الهنـد الشرقيـة اكثر ممـا فعل البرتغاليـون أو الانجليز. وأغلب هـؤلاء الناس هم في الأصل نجـارو سفن أو مختصـون بسـد حزوز المراكب أو صنـاعة وتـركيب الأشرعة ومـا يمكن ان نسميهم اليوم عمال اصـلاح وترميم السفن. وكـان لكل حرفة صنـاعية من يمثلها بين مئات الحرفيين الأوروبيين العاملين في باتافيا منذ عام ١٦٨٢ وما بعده. إذ كان هناك نجارون ومشتغلون بحفر وتشكيل الخشب، وصناع أثاث

* C. P. Thunberg; Travels .... Val. I; p. 277.

وحدادون وصنـاع أقفال وصنـاع أسلحة وسباكـون ونحاتـون وعمال بناء وعمال تلميع ونقاشـون وأساكفة وخياطـون وصباغون وجوهـريون وغير ذلك من حرف ويعيش أبناء كل حرفة ويعملون ويتجمعون معا تحت رئاسة عـريف أو رئيس طـائفـة يتـولى مسئـوليـة الاشراف على العمال الأوروبيين ومراقبة عبيد الشركة الذين يتدربون على أيدي العمال الأوروبيين ويعيشون بجوارهم. وأصبح أكثر هؤلاء حرفيين ذوي مهارة عاليـة جداً. وجدير بالذكر ان الأثـاث المصنوع من خشب الأبنـوس حسب الطـراز الباروكي إنما نحتـه عبيد من عبيد شركة الهنود والاندونيسيون وتميز بمستوى فني وتقني رفيع جداً. ومثل هؤلاء الحرفيين المتميزين من العبيد كـانوا ينعمون بلباس وطعام وسكن أفضل من غيرهم من العمال العبيد، وازداد عـددهم بمضي الأيام حتى أصبحوا اكثر عددا من الأوروبيين. وبلغ عددهم في باتافيا وحدها عام ١٧٩٥ حوالي ٤٠٠ حرفي مـاهر. وضمت العديد من المستوطنـات الهولندية الكبرى، خـاصـة المحطـات التجـارية في كـورومـانـدل وسيـلان وعمالها الحرفيين الخـاصين بها حيث يعمل الحرفيـون الأوروبيـون الآسيـويـون معـا تحت إشراف رئيس العمال الهولندي. وكان هناك كذلك عمال وحرفيون أوروبيون في القـلاع والمحطات التجـارية في المنـاطق الاستوائيـة التابعـة لشركة الهنـد الغربية الهولندية. ولكنهم لم يكونـوا بالكثرة الواضحة في الشرق، فضلاً عن أن مهارتهم الفنية لم تكن بنفس القدر من الاتساع والتباين.

وبالاضافة الى الحرفيين الذين تستخدمهم شركة الهند الشرقية الهولندية كان هنـاك عدد من الحرفيين الـذين يعملون لحسـابهم الخاص. وهؤلاء هم عمال أوروبيون أتوا الى الشرق للعمل في خدمة الشركة، ولكنهم بعد أن انتهت مدة خدمتهم المتعاقد عليها افتتح كل منهم لنفسه «دكاناً»، ملكاً شخصياً له. واستخدموا بـدورهم العمال المهرة من العبيد، واتسع نطـاق هذه المشروعات الخاصة على مـدى القرن الثـامن عشر، وسانـده الكثيرون من كبار مـوظفي الشركـة في تحد لرغبـات مجلس ادارة الـ ١٧. وشيئـاً فشيئاً أصبحت هـذه

المشروعات الخاصة منافسا ناجحاً للحرفيين العاملين لدى الشركة. ونشط أيضاً الحرفيون الصينيون خاصة في باتافيا، حيث ذاع صيتهم واشتهروا بالصناعات الخشبية الجميلة. ولكن أفضل الأعمال من هذا النوع كان يصنعها عمال سنها ليون أحرار وحرفيون من التاميل في سيلان على ساحل كورومانديل. وشهدت هذه المنطقة أجمل نحت خشبي للأثاث الهندي الهولندي حسب الطراز الباروكي حتى انه تفوق كثيراً على أفضل ما يصنعه العمال العبيد التابعون للشركة. ولقد كانت مشكلة التجار البيض الأحرار والعمال المهرة المنافسين للنظام الصناعي والتجاري الخاص بالشركة مشكلة دائمة ومستعصية. ولعل من الأفضل أن نتناولها في ارتباط بمخططات اجهاض الاستعمار الأبيض في المناطق الاستوائية، وهو ما سوف نناقشه في الباب التالي.

الباب الثامن

الاستيعاب والفصل العنصري

يحدثنا دافيد هاناي في اشارة مثيرة إلى رواية De Stille Kracht للروائي الهولندي كوبيروس Couperus فيصف الرواية قائلاً: «إنها دراسة مقنعة عن تلك القوة الخفية للشرق التي تنفذ إلى داخل الأوروبي وتحلله، ذلك الأوروبي الذي لا يستطيع أو لن يقف بمعزل عن أعراق الجنس البشري ويسمو عليها، والتي أيا كانت ميزاتها الطبيعية، لن تتآلف مع ميزاته بل تفسدها وتدمرها». إن هذا التعريف لمعنى الفصل العنصري، والدفاع عنه، جاء قبل تطبيقه الرسمي في جنوب أفريقيا بزمن طويل، ويعكس مدرسة فكرية يمكن تتبع تاريخها إلى الأيام الأولى للاستيطان الأوروبي في المنطقة الاستوائية. ولكنه يبدو قويا عميقا بين الهولنديين والانجليز اكثر منه عند البرتغاليين والأسبان الذين سبقوهم إلى هذه المنطقة. والاعتقاد بأن الرجل الأبيض، سواء أكان تاجراً أم بحاراً أم مستوطناً، يتعين عليه أن «يسمو بنفسه ويقف بمعزل» عن الأعراق الملونة التي يعيش بين ظهرانيها ويتحرك بين أبنائها، وأن يكون له كيانه الخاص المميز إنما هو اعتقاد يفيد ضمنا، بحكم طبيعته، أن النساء البيضاوات عليهن أن يهاجرن بأعداد كافية إلى المناطق الاستوائية في صحبة بعولتهن. بيد أن هذا كان أمراً تحجم عنه أكثرهن. كما وان الشركات الكبرى سواء الهولندية أو الانجليزية أو الفرنسية لم تضع تنظيما يشجع هجرة النساء زد على هذا انه كان هناك دائماً كثيرون ممن يؤكدون أن المرأة البيضاء نادرا ما تستطيع التأقلم مع المناطق الاستوائية. ولهذا اعتقد هؤلاء ان الأمل الوحيد في اقامة وتأسيس مجتمعات مستقرة ومضمون ولاؤها في تلك المناطق هو تشجيع التزاوج المتبادل أي الزواج بنساء مواطنات من بنات تلك المناطق، وهو ما يفضي إلى اعتناقهن

المسيحية -أي، بعبارة أخرى، إنها سياسة للاستيعاب بدلاً من الفصل العنصري.

وعلى الرغم من أن المديرين الأوائل للشركتين الهولنديتين الشرقية والغربية كانت لديهم خبرة قرن كامل هي حصاد تجربة شبه جزيرة أيبيريا والتي يمكن الاسترشاد بها في هذا الصدد، إلا أنهم فيما يبدو لم يولوا الأمر أي اهتمام وقت صياغة الاطار العام للائحة كل من الشركتين. وظل موقف المديرين من مسألة الهجرة مذبذبا حتى علمتهم الخبرة أن لا أمل في أن تهاجر نساء هولنديات محترمات بأعداد كافية إلى البلدان الاستوائية التي يظن انها بلدان تقصر عمر من نشأوا في مناخ المناطق الشمالية. كذلك فإن المشاق الحادة للحياة على متن البواخر في الرحلات الطويلة كانت عائقاً كبيراً. وقد تفاقم الوضع اكثر بعد ان طالت مسافة الرحلات البحرية بالمرور حول رأس الرجاء الصالح. وأخيراً فإن من الواضح أن الظروف التي منعت كثيرين من الهولنديين من أبناء الطبقتين العليا والمتوسطة من المشاركة في الخدمة في الشركتين الهولنديتين الشرقية والغربية، كانت لا تزال تمثل أكبر عقبة في سبيل هجرة نسائهم. وكما أن أغلبية الرجال العاملين في الشركتين كانوا ممن لا مورد رزق آخر لهم، كذلك فإن معظم النساء اللاتي ذهبن إلى المناطق الاستوائية إنما ذهبن استجابة لنوازع المغامرة بحثا عن الرزق بأي وسيلة أكثر مما هو استجابة لنوازع اخلاقية.

ومنذ عام ١٦١٢ نصح بيتر بوث، أول حاكم عام لجزر الهند الشرقية، مجلس ادارة الـ ١٧ بالكف تماما عن السماح لمزيد من «النساء المستهترات» بالهجرة من أرض الآباء «خاصة وأن أعدادا كبيرة جداً منهن موجودات هنا بالفعل». وان هؤلاء النسوة يعشن حياة شائنة غير مهذبة مما. يشكل عارا خطيراً على أمتنا». ودعا بوث الى الزواج بمواطنات أسوة بما فعل من قبل الرومان والبرتغاليون كبديل أفضل. وأضاف قائلاً، موضحاً اقتراحه، ان النساء المسلمات لن يكنّ عرائس ملائمات، لأنهن يعمدن إلى إجهاض أنفسهن

والتخلص من أي طفل يحملنه عن طريق زواجهن من رجال مسيحيين. ولكنه حث على الزواج بنساء «وثنيات» أو نساء مـن بنات أمبوينا اللاتي تحولن إلى المسيحية. ونجد اقتراحـات أخرى مماثلة على لسان عديـد من موظفي شركة الهند الشرقية الهولندية. وفي عام ١٦١٢-١٦١٣ خول مجلس الـ ١٧ للحاكم العام ومجلسه السماح ببقاء المتزوجين من الرجـال الذين انهوا مدة تعاقدهم للعمل في الشرق. وسمحت لهم السلطـات المسئولة بـالاتجار في بعض السلع المحددة مثـل الأرز والساغو والمواشي وهـي السلـع التي لا تؤثـر على احتكار الشركة للتجارة المربحة في سلع بعينها مثل التوابل. وكان الأمل معقوداً على أن يؤدي هذا إلى خلق طبقة برجوازية حرة مماثلة لفئة الكاسادو Casados (أي الـرجـال المتـزوجـون) أو المورادور (أي المستـوطنـون) في مستعمـرات الامبراطورية البرتغاليـة ويشكلون اضافة للحاميات التـابعة للشركة في وقت الحرب. وكان المقرر أن يبقى هؤلاء البرجوازيـون الأحرار تابعين تبعية كاملة لموظفي الشركة وخاضعين لقـواعدها ولوائحها، ويقتصر وجودهم في مـولوقا فقط. وسمح بعد ذلك بوجـودهم في باتافيا وفي أماكن أخرى، خـاصة في ملقا وسيلان.

وفي عام ١٦١٧ أصدر مجلس ادارة الـــ ١٧ قرارا يحظر على سكان المدن البرجوازيين الـزواج دون موافقة السلطات المحليـة للشركة، وان ليس لهم ان يتزوجوا إلا بنساء آسيويات أو مولدات «آسيويات أوروبيات» شريطة أن يكن قـد تم تعميـدهن مسيحيـــات أو تحولن إلى العقيـدة المسيحيـة، وأن يكـون أطفـالهن «وكذا عبيـدهن حسب الامكان» قـد نشأوا على العقيدة المسيحيـة. وصدر بعـد ذلك قرار ينص على ضرورة أن تكـون هذه الزوجـات على دراية جيدة باللغة الهولندية دون الاقتصار على اللغـة البرتغالية وحدها التي كانت اللسان الأوروبي الســائد في سواحل آسيا على مـدى ثلاثة قـرون. وفرضت الشركة قيـودا صارمة على حصـولهم على الذهب أو الأحجار الكـريمة، وعلى تحويل رؤوس أموالهم إلى أوروبـا. ولم يكن مسموحا لسكـان المدن الأحرار

المتزوجين بآسيويات بالعـودة إلى أوروبا، بل وان اولئك الذين تزوجوا بنساء بيض ليس لهم أن يحملوا أكثـر من حقيبة واحـدة فيها مـلابسهم وشئونهم الخاصة عند السفر على متن سفينـة متجهة إلى أرض الوطن. وفي عام ١٦٥٠ تجدد الحظـر عند السفـر على متن سفينة متجهـة إلى أرض الوطن. وفي عـام ١٦٥٠ تجدد الحظر المفروض على النساء الملـونات والذي يمنعهن من السفر إلى أوروبا ثم أعيد تجديده في عام ١٧١٣. ولكن على الرغم من تجديده مرتين إلا أنـه حدث تـراخ في تنفيـذه بالنسبـة لبعض الحالات الفـردية. وفـرضت السلطات أيضـاً قيوداً كثيرة على الإقامـة ووسائل العيش والارتـزاق وسلوك سكان المدن الأحـرار، حتى أن صفة «أحـرار» ظلت صفة على غير مـوصوف طوال الفترة التي سـادت فيها سلطة الشركة. إذ كـان سكان المدن هؤلاء دون موظفي الشركة من حيث الظروف المواتية المحيطة بهم في جميع المجالات حتى في مجالات التهريب والتجارة الخاصة.

ومعظم سكـان المدن الأحرار هم من التجـار والكتبة والجنـود والبحارة الذين انتهت مدد تعاقدهم مع الشركة، ولم يطرأ أي تحسن ملحوظ على مسار حيـاتهم غير المنتظم بعـد الزواج، هـذا إذا أخـذنا بما ذهبـت إليه الشكـاوى المتكررة على لسـان الحكام المتعاقبين. فقد زعم الحاكم العـام رينست في عام ١٦١٥ أن «حثالة المجتمع في بلادنا «يتزوجون» بحثالة المجتمع في جزر الهند الشرقية». وبعده بقليل زعم كل من لورنـس رايل وستيفن فان دير هاجن أن الأغلبيـة العظمى من سكـان المدن الأحـرار (بغير زوجـاتهم) هم سكيرون غـارقـون في ملـذاتهم حتى الآذان، بحيث لا يقبل أي أب آسيـوي محترم أن يزوج ابنتـه بأحدهم - أسوة بما فعلوا في مـولوقا مع البرتغاليين الـوقورين الـذين أتـوا قبل الهولنـديين. وسكـان المدن غير المتـزوجين متهمـون أيضـا بالتـورط في أعمال القرصنـة والاتجار مع الانجليز ومع غيرهم مـن منافسي الشركة، فضلاً عن تهريب التوابل وغير ذلك من السلع المحظور الاتجار فيها.

وإن مواطن الضعف الحقيقيـة أو المزعومة التي كان يعـاني منها سكان

المدن العزاب حفزت الكثيرين من كبـار المسئولين على تشجيع هجرة الزوجين معا أو الأسرة جميعهـا من الأراضي المنخفضة، بـاعتبار ان هـذه هي السبيل الـوحيـدة، لبناء مجتمـع هولنـدي مستقـر ويمكن الاعتماد عليـه في الشرق. وتحمس كوين لهذه السيـاسة في عام ١٦٢٣ ودعا إلى تنفيـذها. وظن ان من اليسير نسبياً تنظيم هجرة واسعة إلى جزر الهنـد الشرقية والغربية. وأعلن في حماس وتفاؤل قائلاً: «إن هنـاك مكانا في جاوة الغـربية يسع مئات الآلاف». وأضاف إلى ذلك قوله: «وإن التربة خصبة على نحـو فريد، والمياه عذبة طيبة، والهواء صحي والمنـاخ معتدل والبحـر غني بـالأسماك، والأراضي الزراعيـة ملائمـة لرعي كل أنـواع الماشية». وشارك كـوين الحكام السـابقين عزوفهم وازدراءهم لحالـة الضعـة التـي يتصف بها سكـان المدن الأحـرار أو غير المتزوجين المعاصرين له، وأكـد على الحاجة إلى تشجيع الأسر من سكان المدن المشهـود لهم بحسن الخلق على الهجـرة من الأراضي المنخفضة بممتلكـاتهم. وانتقل حماسه مـؤقتا إلى مجلس ادارة الـ ١٧ الذي حـاول تشجيع وحشد الأسر الملائمة وحثها على الهجرة إلى الشرق، غير أنه لم يجد استجـابة جديرة بالذكر.

ولكن حصـار سـوسوهانـان أو سلطان ماتـارام لباتافيـا في عام ١٦٢٨ وارتفاع نسبة الوفيات بين الهولنديين بسبب الملاريا والديزنتاريا وغيرها من أمراض المنطقة الاستـوائية اقنعت بالضرورة كوين بأن تفـاؤله بشأن جاوة الغربية كمكان ملائم لاقـامة الأوروبيين لم يكن في محله على الاطلاق. علاوة على هذا فقـد بدا واضحـا أن الأوروبيين من سكـان المدن الأحرار لم يكـونوا أندادا لمنافسيهم من التجار الصينيين. ثم إن عمـداء الأسر الثرية أو الميسورة في المقاطعات المتحدة لم يكن لديهم أي حافز للهجرة إلى المناطق الاستوائية إذ كان بالامكان أن يجنـوا أرباحاً ويدخروا مالا من التجـارة الشرقية عن طريق الاستثمار في شركـة الهند الشرقيـة الهولنـديـة (بل وشركـات الهند الشرقيـة الأجنبيـة) وهم على أرض الـوطن دون حـاجـة إلى السفـر. أمـا «الفقـراء

الكادحـون» وأغلبهم ممن لا يجد عملاً داخل أرض الوطن، فقـد آثروا البحث عن الـرزق أو الثروة في بلـدان أقـرب إلى أرض الوطـن بدلاً من أن يجشمـوا أنفسـهم عنـاء السفـر في رحـلات قـاسيـة إلى الشرق الأقصى. وهكـذا فإن العناصر التي كـان من المتوقع لها أن تهاجر اقتصرت على أولئك الـذين قبلوا الخدمة في الشركة والعمل بها تجارا أو جنودا أو بحارة. ولم تكن في نية معظم هؤلاء أن يقضوا بقيـة حياتهم في جزر الهند ولكنهم عقـدوا العزم على العودة إلى أرض الـوطن بأسرع مـا يمكن. وفي هـذا الصدد نجـد أن الهولنـديين على النقيض تماما من أسلافهم البرتغاليين، وكذا على النقيض من معاصريهم، إذ عمد هؤلاء وهؤلاء إلى أن يضربوا بجذورهم عميقة كبناة لمستعمراتهم، والبقاء فيها. وهـا هو جـوهان سـار. وهو عـريف بالجيش، يكتب بعـد سنوات من الخدمة ضد البرتغاليين في سيـلان فيقول عنهم في عام ١٦٦٢: «حيثما حلّوا نجـدهم عاقـدين العـزم على البقاء بقيـة حيـاتهم، ولا يفكر أي منهم أبـدا في العودة ثانية إلى البرتغال. ولكن الهولنـدي ما أن يصل إلى آسيا حتى يقول في نفسه: بعد أن تنتهي سنوات خـدمتي سأعود فوراً إلى أوروبا. وأخيراً وليس آخراً فإن مجلس ادارة الـ ١٧ كـان عازفا عن ترك التجـارة بين موانىء آسيا مفتـوحة على مصراعيهـا على أي مستـوى كـان لسكان المدن الأحـرار وفقـا لمشورة بعض مـؤيدي بنـاء المستعمرات. وإن القيود المعـوقة التي فـرضها المجلس على النشـاط التجاري لسكان المدن كانت كـامنة للحيلولة دون نشوء مجتمع مزدهر.

وثبت فشل الخطط التي استهدفت تشجيع الاستيطان وتنمية مجتمعات زراعية هـولنديـة في المناطق الاستـوائية. إذ أحجمـت أسر المزارعين، لأسباب مفهومة، عن الهجرة من الأراضي المنخفضـة إلى هذه الأنحاء غير المألوفة وغير الصحيـة. ثم إن الجنـود والبحـارة والكتبة الـذين انهوا مـدد تعـاقـدهم لا يصلحون لفلاحة التربة الاستوائية. وليس بإمكانهم مناقشة الصينيين الذين يجيدون زراعة الخضراوات للسوق وعرفوا كيـف يستقرون سريعا في باتافيا

وفي غيرها، تماما مثلما عجزوا عن المنافسة الفعالة مع العمال الآسيويين المهرة، سواء منهم الأحرار أم العبيد، وقد كانوا كثيرين في مجال التجارة والحرف الفنية. والحقيقة أن أكثر الدعاة المتحمسين من أجل إنشاء مزارع أوروبية في المناطق الاستوائية لم يدر بخلدهم أن الفلاح الأوروبي المهاجر سوف يفلح التربة بنفسه، وإنما سيكتفي باعطاء تعليماته ويشرف على العمال من الصينيين أو العبيد الذين يتعين عليهم العمل حسب توجيهاته. بيد أن جميع الخطط التي استهدفت تنفيذ هذا الاقتراح لم تجد سبيلاً إلى التطبيق العملي في المناطق الواقعة شرق رأس الرجاء الصالح، وواقع الأمر أن المهنة الوحيدة التي اضطلع بها سكان المدن الأحرار وأبدوا ازاءها حماسا ملحوظا هي العمل أصحاب حانات. وهذا هو ما بدا واضحا من الشكاوى المستمرة على لسان كبار المسئولين في الشركتين الشرقية والغربية لقد كانت حانات بيع وتقديم الخمور هي السمة البارزة لحياة الهولنديين في المستعمرات ابتداء من مانهاتان وحتى مولوقا.

وعلى الرغم من اخفاق مخططات كوين الطموحة، إلا أن فكرة الاستيطان الهولندي على نطاق واسع كانت تلوح من حين إلى آخر، سواء في الأراضي المنخفضة أم في جزر الهند. ولكن هذه الاقتراحات لم تجد سبيلها إلى التنفيذ. وفي عام ١٦٦٢ صرح بيتر دي لاكور في كتاب له بأن الهولنديين، وأهم فضائلهم أنهم عباقرة دؤوبون ومقتصدون، هم أقدر الشعوب على بناء مستعمرات والحياة فيها إذا ما توفرت لهم الحرية التي تهيأت لهم لاكتساب رزقهم. وفنَّد الرأي الشائع الذي يقول إن «أمتنا تعادي بطبيعتها الزراعة وأنها لا تصلح البتة لزراعة المستعمرات وإنما تصلح فقط في أعمال التجارة». وأكد أن ليس هناك فقط فائض من القوة العاملة من السكان، سواء من المهاجرين الهولنديين أم الأجانب (والألمان أساساً) ويسعدهم أن يهاجروا إذا ماوجدوا مساعدة في سبيل ذلك، بل إن كثيرين من أبناء الطبقة الحاكمة الذين حرموا من المساهمة بنصيب في حكومة الأقلية الغنية سوف يهاجرون

طواعية وعن طيب خاطر ومعهم رؤوس أموالهم إلى المستعمرات حيث يمكنهم استثمارها وفق رغباتهم. وإن ما منع الهولنديين المحترمين، سواء أكانوا من البرجوازيين أم الحرفيين أم المزارعين، من الهجرة إلى المناطق الخاضعة لسلطة الشركتين الشرقية والغربية إنما هي القيود التي تفرضها السياسة التي يتبعها المديرون». حقا ان مديري (حكام؟) هاتين الشركتين وبحارتهما وجنودهما وغير هؤلاء من المستخدمين إنما استأجرتهم الشركتان وفق قواعد صارمة وشروط قاسية، وتطالبانهم بأن يقسموا أيمانا كثيرة على نحو يحمّلهم عبء خسارة الشركتين من أجور وديون وأعباء مالية. ومثل هذا الوضع العبودي القاسي لا يرتضيه أحد سوى قلة قليلة من أبناء هولندا، بدافع الحاجة والضرورة أو بعض الفقراء الجهلاء ذوي العقول الساذجة والأجانب الفسقة. وزعم أن كبار موظفي الشركتين هم فقط من تسنح لهم فرصة تكوين ثروات كبيرة عن طريق التواطؤ المشترك من خلال صفقات مالية غير مشروعة أو تجارة خاصة.*

ولم يكن مجلس ادارة الـ ١٧ رافضا دائماً وأبدا فكرة تعزيز بناء المستعمرات على نحو ما زعم دي لاكور. وإذا كانت مساندة المجلس لمخططات كوين في عام ١٦٢٣ قصيرة الأمد، إلا أن المجلس أبدى عناية وتعاطفاً (ثم تأييداً فعالاً) لخطة أكثر تواضعاً هي خطة جوهان مايتسوكر التي استهدفت اقامة مستعمرات هولندية في كل من باتافيا وسيلان. ولقد اعترف مايتسوكر صراحة في مرحلة باكرة من حياته العملية في المستعمرات، بأنه معجب بالنظام البرتغالي الذي استهدف تعزيز بناء المستعمرات عن طريق تشجيع الرجال البيض على التزوج بنساء آسيويات أو مولّدات من العنصرين الآسيوي والأوروبي والاستيطان في الشرق. وأكد أن الأطفال الذين يأتون عن طريق هذا الزواج المختلط سيكونون أقدر على التأقلم المناخي من الأطفال أبناء آباء

* The Interest of Holland; 1702, pp. 139-55.

وأمهـات أوروبيين خلّص. وأضـاف إنـه بعد الجيل الثـاني أو الثالث سـوف تختلف بشرتهم قليلاً، أو كثيراً عن بشرة الأوروبيين. وقال كذلك إن الكثيرين من السلالة المولـدة الآن دون المستوى المأمول. لكنه عزا مـا يتصفون به من فساد الى التراخي في تنشئتهم داخـل البيوت حيث العبيد، كقـاعدة عـامة، هم المسئـولون عن تـربيتهم، وليس السبب عيوبـا أصيلة في العـرق أو العنصر البشري الـذي انحدروا عنـه. وأوضـح ان عـلاج هذا الـوضـع يكمن في تـوفير مدارس جيـدة والاشراف الملائم على الأبوين. وأكد مـايتسوكر انـه إذا قدمت الشركة التشجيع الملائم عن طريق كبار موظفيها – الذي لا يزال قاصراً للغاية حتى الآن – فإن سكـان المدن الأحرار أو غير المتـزوجين سيفكرون جـديا في البقاء والاستقرار والعمل اساكفة أو خياطين أو حدادين أو صنـاع أسلحة، أو جوهريين أو نجارين أو بنائين أو جـراحين. ووصل به الأمر إلى حد الزعم أن بإمكانهم منـافسة الصينيين في مجال الـزراعة. وزعم أكثـر من ذلك أن كبار مـوظفي الشركـة هم أسـوأ أعـداء سكـان المدن الأحـرار نظـراً لأنـهم آثـروا منـافسيهم الصينين والآسيـويين ابتغاء الـرشي التي يحصلـون عليهـا من هؤلاء.

وسعى مـايتسوكـر جاهـدا لكي يضع نظـريته عن الاستعمار مـوضع التنفيذ خلال ولايته حـاكما على سيلان (١٦٤٦– ١٦٥٠). ولكنه اكتشف أن سكان المدن الأحـرار عاجـزون تماما عـن المنافسـة في أي شيء على مستوى التجار المسلمين المحليين والجديـر بالذكـر أن دعوتـه إلى إقامة المستـوطنات الاستعمارية عن طريق الزواج المختلط صـادفت تأييدا نشيطا من مجلس الـ ١٧ في تلك الفترة. ولكن على الـرغم من هذا لم يتـزوج في الجزيرة غير ثمانيـة وستين من البرجوازيين الأحرار طـوال فترة ولايته التي انتهت في عام ١٦٥٠. وجاء خليفتـه فان كيتينستـاين الذي ينتمي إلى مدرسـة فكريـة مناوئة ولها مؤيـدوها على نطـاق واسع. وتؤكد هـذه المدرسة أن المستـوطنين الهولنديين ليس عليهم أن يؤدوا أي عمل شـاق في آسيا، وأن زوجـاتهم من المواطنات أو

المولدات هن في الأصل نساء فاسدات بلا أخلاق. وبعد انتزاع كولومبو وجافنا من أيدي البرتغـاليين في ١٦٥٦–١٦٥٨ تزوج حوالي مائتي هـولندي بنساء هجينات من الجنسين الهندي والبرتغالي وعاشوا (سواء برغبتهم أم غير ذلك) في الجزيرة. ولكن ريجكـوف فان جوينز غـزا جافنا وفتحها، وتـولى بعد ذلك حاكما عـاما على سـاحل سيلان لسنـوات طويلة كـان داعية آخـر متحمساً لاقامة مستعمرات هولندية. ونظراً لعدم وجود زوجات أوروبيات لكي يتزوج بهن البرجوازيون الأحرار فإنه كـان مستعداً للسماح بالزواج المختلط بنساء سنهاليـات أو تاميل أو مـولدات من العنصرين الأوروبي والآسيـوي. ولكنه اشترط أن تتزوج بنات هـذه الزيجات المختلطة من رجال هـولنديين «حتى لا يتدهور عنصرنا إلا بأقل قدر ممكن».

وعلى الرغـم من جهود شخصيات مـن ذوي القوة والسلطان مـن أمثال مايتسوكر وريجكوف فان جـوينز، بل وعلى الرغم من مساندة مجلس ادارة الـ١٧ وقراره بصرف «منحة» تساوى راتب شهـرين أو ثلاثة لكل جندي أو بحار هولنـدي يتزوج «امرأة مواطنة» من سيـلان، إلا أن النتائج حتى نهاية القـرن السابع عشر كـانت مخيبـة للآمـال. وبدا واضحـا تمامـا أن إقامـة مستعمـرات استيطانيـة هولنـدية على النمط البرتغـالي كان نصيبهـا الفشل وأخفقت الأغلبيـة من البرجوازيين الأحـرار في بنـاء حياة تفي بـالمراد، أو أن يتحولوا الى طبقة وسطى نشطة لها دور وذات رخـاء. وها هنا في سيلان مثل أي مكان آخر كانت مهنة ادارة الحانات هـي المهنة الوحيدة التي أبدوا ازاءها حماسا كبيراً على نحو مـا أشار آسفا ريجكوف جـوينز. وثبت أنهم في جميع فـروع التجـارة والأعمال الأخـرى ليسـوا أنـدادا على الاطـلاق لمنـافسيهم الآسيويين؛ وأنهم في بيوتهم عاجزون أو عازفون عن مواجهة ومقاومة النفوذ الهنـدي البرتغالي والآسيـوي المستمد من زوجـاتهم والذي أكـد قدرتـه على الاستمرار والصمـود. أو لنقل بعبارة أخرى أن البرجوازيين الأحـرار أخفقوا في أن يصنعوا من أنفسـهم مستعمرة هولنـدية الطابع والجوهر، مثلما أخفقوا

في أن يكونوا نواة «لهولندا الجديدة» في جاوة أو سيلان أو فورموزا.

والملاحظ أن نقاد هذه الخطط الفاشلة الداعية إلى إنشاء مستعمرات يعزون فشلها إلى عادات السكر والفساد (أو الكسل والاسراف) التي أدمنها الهولنديون هناك. بيد أن هذا حكم غير منصف تماما. أولا إن المصالح الاقتصادية لسكان المستعمرات تصادمت في الغالب مع مصالح الشركة، وحيث يقع هذا التصادم تكون الغلبة بطبيعة الحال لمصالح الشركة. وإذا كان مجلس ادارة الـ ١٧ قد نزع بين الحين والآخر إلى ايثار البرجوازيين الأحرار بسبل مختلفة دون المستوى، إلا أنه لم يحاول أن يقدم الى المستوطنين أي حوافز حقيقية تشدهم وتستهويهم مثل المشاركة في تجارة التوابل أو المشاركة بنصيب في النقل البحرى إلى اليابان والبنغال وسوارت وفارس، وهي جميعها أعمال تدر أرباحا مغرية. ثانياً لم يكن من المتوقع أن يقدر البرجوازيون الأحرار على الدخول في منافسة فعالة مع التجار الآسيويين والتجار الجوالين، وقد كانوا أقدر على التلازم والتآلف مع مواطنيهم من حيث الديانات واللغات والأهواء والبيئة. وحدث أحيانا أن أصدرت سلطات باتافيا وسيلان تشريعات تقوم على التمييز العنصري ضد التجار المواطنين في محاولة لمساعدة البرجوازيين الأحرار في أعمالهم التجارية. بيد أن هذه السلطات عجزت عن المضي في هذا الطريق الى مدى بعيد نظراً لأن المسئولين أنفسهم كانوا يعتمدون على مساعدة وخدمة التجار الصينيين والمسلمين الى حد ما. علاوة على هذا أن مثل هذه التشريعات يمكن التهرب منها وتفاديها عن طريق الرشوة على نحو ما اكتشف ستافورينوس عندما قدم شكوى إلى أحد المسئولين في باتافيا ضد رجل صيني صاحب بيت للقمار. إذ أجاب المسئول على الشكوى بقوله: «لا استطيع أن أفعل لك شيئاً في هذا الطلب، فها أنت تسمع الصيني ينكر ذلك تماماً». وأضاف ستافورينوس وقد استبد به السخط. «وهذه هي الاجابة الوحيدة والإجراء الوحيد الذي يمكن الحصول عليه في مثل هذه الحالات من المسئول عن تنفيذ القانون حسب خبرتي

الشخصية». أما عن الأعمال الزراعية فقد كانت الفرص شبه معدومة أمام الجنود السابقين الأوربيين للمنافسة بنجاح ضد الصينيين وأبناء جاوة والتاميل والسنهاليين والملاويين في العمل الشاق الذي يقصم الظهر في حقول الأرز تحت شمس المنطقة الاستوائية الحارقة. وليس لنا أن ندهش لفشل جهود الحاكم العام البارون فان ايمهوف حين حاول توطين فلاحين ألمان في المناطق الداخلية في باتافيا والملاحظ أن البرجوازيين الأحرار الذين استطاعوا جمع ثروات - خاصة في باتافيا - إنما كانوا موظفين سابقين في الشركة وتقاعدوا عن عملهم بعد أن جمعوا ثروتهم. ثم ضاعفوها، أو حافظوا عليها عن طريق الأقراض بالربا او استثمارها في التجارة الخاصة.

ووضح تماما فشل البرجوازيين الأحرار الهولنديين، أو فشل مستخدمي الشركة في حفز نسائهم الآسيويات أو الأورو - آسيويات في الاقلاع عن اخلاقياتهن الهندية البرتغالية، أو تبني الاسلوب الهولندي في الحياة. وفي ضوء نتائج الخبرة البرتغالية السابقة في الزواج المختلط بين الأعراق الأوروبية والآسيوية والتي رأى فيها مجلس ادارة الـ ١٧ تحذيراً ونذيراً لما هو محتمل مستقبلاً، شدد المجلس في دعوته (عام ١٦٤١) الى الهولنديين الراغبين في الزواج من آسيويات أن يختاروهن من بين نساء الطوائف الاجتماعية الراقية أو المشهود لهن بالسلوك الاجتماعي الطيب. ولكن ما أيسر القول دون الفعل ذلك أن هؤلاء النساء، سواء منهن الهندوسيات أو المسلمات أو البوذيات، كن يعشن في مجتمعات تجيز الزواج فقط داخل اطار مجموعات معينة ومحددة المعالم بوضوح كامل. إذ باستثناء بعض النساء الصينيات أو اليابانيات اللائي يؤمن بالبوذية، (وهو استثناء محتمل وغير مؤكد) فإن أي أمرأة آسيوية تتزوج من رجل من خارج عرقها أو طائفتها أو دينها، تخسر كل حق لها في أن تحظى باحترام أسرتها ومواطنيها - تماما مثلما كان يحدث لأي امرأة أوروبية تتزوج بارادتها من رجل (لنقل) تركي أو هندي أو اندونيسي. ولهذا كان محتما على الهولنديين في الشرق أن يصحبوا رغما عنهم زوجاتهم

ومحظياتهم أو خليلاتهم من بين نساء إما أوراسيات أو من أصول لطبقة فقيرة أو عبيد، تماما مثلما فعل البرتغاليون من قبلهم. علاوة على هذا أصدر مجلس إدارة الـ ١٧ قرارا يقضي بأن من حق مستخدمي الشركة الزواج فقط بنساء على المذهب الكالفني. وأدى هذا القيد تلقائياً الى استبعاد الآسيويات من بنات الطبقة العليا اللائي نادراً ما يتحولن إلى المسيحية.

وهكذا كانت زوجات –أو خليلات – الهولنديين الذين تزوجوا في آسيا هن في الغالب من سلالة هندية برتغالية. وكانت اللغة البرتغالية شائعة على ألسن أولئك الذين لم يتربوا في ظل أجواء تسودها المؤثرات الثقافية الهندية البرتغالية، وذلك لأسباب أوضحها الحاكم العام مايتسوكر ومجلسه في عام ١٦٥٩ إذ قال: «اللغة البرتغالية لغة سهل تعلمها والتحدث بها. وهذا هو السبب في أننا لا نستطيع أن نمنع العبيد الذين جيء بهم إلى هنا من أراكان ولم يسمعوا اللغة البرتغالية اطلاقا (بل ولا أن نمنع أيضاً أطفالنا) من ايثار هذه اللغة على جميع اللغات الأخرى والتحدث بها وكأنها لغتهم». وظل مايتسوكر وأعضاء مجلسه على موقفهم الانهزامي هذا في عام ١٦٧٤. ونجد لكل من نيقولاس دي جراف وجوهان سبلنتر ستافورينوس وغيرهما كثيرون ممن زاروا باتافيا في القرنين السابع عشر، والثامن عشر تعليقات على مدى انتشار اللغة البرتغالية واستمرارها باعتبارها اللسان المشترك في المستوطنات الهولندية، على الرغم من الجهود التي بذلتها الحكومة بصفة دورية لابدالها باللغة الهولندية. والملاحظ أن عددا غير قليل من النساء الهولنديات اللائي ولدن ونشأن لأبوين أوروبيين في باتافيا، كن يتحدثن لغة برتغالية خليطا ويؤثرنها على لغتهن الأم التي كن يستطعن التعبير بها عما في نفوسهن ولكن بلسان غير طلق.

ولعل البعض توقع أن يشدد أزواجهن أو آباؤهن عليهن لاستخدام اللغة الهولندية في بيوتهن، بيد أن الشيء الواضح ان هذا لم يحدث، وأحد الأسباب (كما لاحظت سلطات باتافيا في ١٦٧٤) أن أغلبية أبناء الأراضي المنخفضة

ظنوا «بغباء» أن من مظاهر التكـريم والشرف القدرة على التحدث بلغة أجنبية – على خلاف البرتغاليين من قبلهم أو الانـجليز والفـرنسيين من بعدهم الذين جاءوا لبنـاء امبراطوريـة. وسبب آخر، ولعلـه أكثر صوابـا، هو الـذي ذكره ستافوريـنـوس في عام ١٧٧٨ حين قال: «الرجال المتزوجـون لا يبالون كثيراً بزوجاتهم ولا يبدون نحوهن أي اهتمام. إذ نـادراً ما يتحدثون اليهن، أو على الأقل لا يتحـدثون معهن في أي من الأمـور المفيدة، أو في أمـور تهم المجتمع. ولهذا فإن السيـدات نجدهن بعـد سنوات من الـزواج بهن، جاهلات بـأمور العالم وبقواعد السلوك مثلما كن ليلة زفافهن. وليست المشكلة انهن لا يملكن القدرة على التعلم بل لأن أزواجهن ليست لديهم رغبة في تعليمهن»*

وهكذا كـانت باتـافيا، والمستـوطنات الهولنـدية الأخـرى في آسيا ولكن بدرجات متفاوتة، صورة لافتة للنظـر بغرابتها لمجتمع رجل هولندي كالفني مربوط، على نحـو قلق غير مستقر، بمجتمع أنثوي تغلب عليـه المرأة الهندية البرتغالية – وطبيعي ان البنات نتائج هذه الزيجات المختلطة كن يسرن مسار امهـاتهن – أو مسار المربيـات من الرقيق الـلائي تـرعاهن – وليس مسـار آبائهن. ومـن ثم فإن عناصر الثقافـة الاستعمارية الهنـدية البرتغـالية التي حملتها النساء الأوليات معهن دامت واتصلت وانتقلت عبر الأجيال التالية على مدى قـرنين تقريباً. والملاحظ أن العناصر الآسيـوية لهذه الثقافة الهنـدية – البرتغـالية في المجتمع، مثل الغـذاء واللباس ونظـام الحريم لم تضعف كثيراً بمرور الوقت. وأثر هذا المنـاخ الخاص. والغريب حتما على الأزواج إلى حد ما على المدى الطويل. وهكذا نجـد أن المستوطنات الهولنديـة في آسيا بدلاً من أن تشكل وتبني «هولندا الجديدة» في المنطقة الاستوائية بعدت أكثر من المؤثرات الثقافية لأرض الوطن.

وتزداد سورة غضب نيكولا دي جراف في شجبـه لمظاهر الكبرياء والبذخ

---

* J. S. Stavorinus; Vayages to East Indies; Val. I; PP. 313-314.

والعهر عنـد نساء باتافيـا المتزوجات سواء الأوروبيـات أم الأوراسيات – أم الآسيويات خلال الـربع الأخير من القرن السابع عشر. إنهن، وعشرات العبيد زّهن اشارتهم في بيوتهن، اتخذن سيماء الأميرات حتى أن الواحدة منهن تعف عن أن تلتقط من على الأرض منديلاً سقط منهـا. واعتمدن في حياتهن اعتمادا كاملا على العبيـد الذين يعاقبوهن عقـابا قاسيا لأقل هفـوة تصدر بل ودون سبب أو خطأ مـا على الاطـلاق. واتبعن أو احتفظن بـالعـادات الشرقيـة مثل الجلوس جلسة القرفصاء على الأرض، بدلاً من الجلوس فوق الكراسي، وتناول الأرز والكـاري بأصبعهن بـدلاً من الشـوكـة والملعقـة. ويقللن من التحـدث بالهولنـدية فيما بينهن، وربما لا يتحدثن بها على الاطلاق، ويـؤثرن الحديث بلغة برتغالية هجين شائهة. وموضـوع ثرثرتهن الوحيدة هو أخطاء وهفوات عبيـدهن وأطباق الطعـام الشهيـة التي أكلنهـا. وإذا خرجن الى الكنيسـة أو ظهرن في الأمـاكن العامة أسرفن في مظـاهر الزينـة واللباس الحرير الفـاخر والمجـوهرات ووراء كـل منهن صفوف من العبيـد. وإذا بقين داخل بيـوتهن جلسن القـرفصـاء أو تـربعن على الأرض وهـن في مـلابسهن الـداخليـة أو قمصانهن الشفافة. ولم يكن كبرياؤهن وغطـرستهن أمراً محتملاً. وفاقم من هذا السلوك جهلهن بأصول المجتمع المهذب. وقد يقال ان دي جراف بالغ إلى حد ما، غير أن ديرك فان هوجندروب الذي تـزوج هو نفسه بفتاة من باتافيا قال بعد قرن من الزمـان: «إن التعليم في باتافيا شر أسوأ من الجحيم، وإنني أؤثـر أن أقطع رقبـة أي طفل وليـد لي على أن أدعه يقـاسي شرور التنشئـة في باتافيا».

واضح أن هذه الثورات الغاضبة يجب ألا نـأخذها بمعناها الحرفي، ولكن ثمة شواهـد أخرى كثيرة معاصرة تبين لنا أن أخـلاقيات وسلوك كثيرات من النساء الهولنديات – الأوراسيات لم تكن جميعهـا مرفوضة. ويصدق الشيء نفسه بدقة على نساء جوا الهنديـات – البرتغاليات اللاتي لهن عيوب مماثلة. وقد حكى هذه العيوب وقص تاريخها بأسلوب خيالي مروع لينشوتن وبيراد

دي لا فال، وجين موكيت وغيرهم كثيرون ممن زاروا «الهند البرتغالية».
وواضح أن الأسباب الرئيسية واحدة في كلتا الحالتين. إذ كانت النساء المعنيات إما إنهن نُشئن في بيت أهله من العبيد، أو أنهن تحللن من أشكال الرقابة الاجتماعية المتبعة في المجتمعات الوطنية التي انحدرن منها. وإن التحلل الأخلاقي الذي أصابهن يمكن أن يتغير مع الزمن ومع توفر الظروف المواتية لذلك. بيد أن بيئتهن اليومية وأسلوب حياتهن لا يمكن وصفها بأي شيء إلا أن نقول إنهما يساعدان على التحول. ومما زاد الطين بلة أن شاع اعتقاد بأن الأطفال نتاج هذا الزواج المختلط يرثون رذائل كلا العنصرين دون فضائلهما. وعزا أصحاب هذا الرأي نواقص الأطفال إلى دمهم الأوراسي دون ظروف تنشئتهم القاصرة. والنتيجة أن جميع من ولدوا في أوروبا ونشأوا وتربوا في هولندا اعتادوا النظر إلى هؤلاء الأطفال بازدراء كبير الأمر الذي أكمل الدائرة الخبيثة وجعلها دائمة متصلة. وتعددت الصفات الأليمة المؤذية ممن امتزج دمهم بالدم الهندي مثل وصفهم بـ «المولدين أو الملونين» و«الأقطان غير المبيضة». و«الغربان» بل و«الصراصير».

ويحكي لنا نيكولا دي جراف - وهي حكاية لنا أن نصدقها تماما - أن نساء باتافيا المتزوجات اللواتي ذهبن إلى أوروبا (أو عدن منها) بصحبة أزواجهن عجزن، إلا في النادر، عن التلاؤم مع أبسط طرق الحياة في المقاطعات المتحدة. إذ سرعان ما كن يشعرن بالاحباط والخزي إذا ما حاولن إصدار أوامر في استعلاء إلى خادمات هولنديات على نحو ما كن يتصرفن مع عبيدهن. ومن ثم كان عليهن إما أن يغيرن سلوكهن أو أن يعشن في بيوتهن بدون خادمات. وشعر أكثرهن بالأسى والأسف لأنهن تركن حياة البذخ والترف في الشرق؛ وشاركهن أزواجهن في هذا الشعور. وفي اكتوبر ١٦٥٦ بعث مجلس ادارة الـ ١٧ رسالة تنطوي على لهجة نصح وتحذير إلى مايتسوكر ومجلسه في باتافيا يقول فيها: «لاحظنا باستياء شديد وصول عدد كبير من العائلات على متن الأسطول الأخير من السفن العائدة إلى الوطن.

إن أغلبية هذه العائلات سوف تندم بشده لذلك، إذ لم يكد أكثرها تطأ بقدميها أرض الشاطىء حتى تغلبت عليه الرغبة في العودة إلى جزرالهند ثانية، دون أن تتوفر الفرصة دائماً لعودتها. والغـريب ان أفراد هذه العائلات لم يتعلموا من خبرة من سبقوهم خـلال السنوات السـابقة، سواء أكـانوا مـوظفين كبارا أم صغـارا، أو بـرجوازيين أحـرارا ممن أتـوا إلى هنـا على التعـاقب ولكنهم الآن يعضون على النواجذ ويبذلون كل جهـد ممكن ليشدوا الرحال عائدين .. كل شيء هنا نادر باهظ الثمن، وليس أمامهم غير القليل الذي يرتزقونه، أو لا شيء على الاطلاق – نـاهيك عن الترف الـذي يخطف الأبصار – والـذي اعتادوه في جزر الهنـد وليس له وجود هنـا». وهذا الأمر دام واستمـر مع دوام واستمرار شركة الهند الشرقية.

ومن ناحيـة أخرى فإن القول بـأن النساء البيض من أصول متـواضعة لديهن فرصة طيبة لزواج ثري في الشرق حفز بقوة كثيرات من البغايا للسعي من أجل الذهاب إلى هناك تحت ستـار العمل كبحارة أو أي قناع ذكوري آخر. وهذا النمط من النساء المغامرات وغير المرغـوب فيهن وهاجرن إلى هناك، هو النمط الذي أشار إليه جـاك سبكس الحاكم العام في رسالته إلى مجلس ادارة الـ ١٧ في الأول من فبرايـر ١٦٢٩ بعد أسبوع من مغـادرة تكسل. «البحارة جميعهم بحـالـة جيـدة وأكفاء، ولا ينقصنـا شيء سـوى الكثير من الفتيـات والزوجات الأمينات بدلاً من تلك الأبواق القذرة والمتسكعات اللواتي يملأن كل جنبات السفينة (ولعل الله يصلح الحال). مـا أكثرهن وما أبشعهن حتى أنني أخجل من ذكر أي كلمة عنهن». وأصدر المديرون بعد ذلك قرارا يحد من عدد النساء المسموح لهن بالسفر إلى باتافيا ويـؤكد لنا دي جراف أنه لو لم يتخذ مجلس الادارة هذا القرار لتجاوز عدد النسـاء الرجال على ظهر السفن. وهذه مبالغة واضحة. ولكن يبدو نسبيا ان عدد النساء الهولنديات اللواتي سافرن (أو حاولن السفر) على متن السفن المغادرة أرض الـوطن كن أكثر من النساء البرتغاليات أو الانجليزيات أو الفرنسيات اللواتي شرعن في هذا.

ولعل نقص النساء الهولنديات المحترمات وعدم توفر العدد الكافي منهن كزوجات للجنود والتجار والموظفين والمستوطنين في المستعمرات الهولندية في البرازيل كان بالمثل أحد أسباب سرعة زوال مستعمرة، «نيوهولاند»، في برنامبوكو. إذ مثلما حدث في الشرق تزوج الهولنديون المقيمون في البرازيل وأنجولا من نساء برتغاليات استوطن هناك ويحملن عرقا هنديا امريكيا أو دما زنجياً. ونظر رجال الدعوة والوعظ وكبار الموظفين شزرا إلى هذه الزيجات إذ توقعوا عن حق ان هؤلاء الأزواج أقرب إلى التحول أو الردة الى المذهب الكاثوليكي الروماني بدلاً من أن تتحول زوجاتهم إلى المذهب الكالفني. والجدير بالذكر ان الكونت جون موريس الذي حكم نيذرلاند البرازيل من ١٦٣٧ إلى ١٦٤٤، لم يكف عن تحذير رؤسائه في لاهاي وامستردام من عواقب ذلك مؤكداً لهم أنه ما لم يرسلوا أعداداً كافية من الأسر البروتستانتية الهولندية أو الألمانية أو الاسكندنافية ليحلوا محل أو للامتزاج بالمستوطنين البرتغاليين المحليين سيظل هؤلاء والى الأبد برتغاليين حتى النخاع وربما يتمردون عند أول فرصة تسنح لذلك - وهو ما حدث بالفعل في يونيو ١٦٤٥، إذ أنه خلال الحرب التي نشبت في هذا التاريخ اختار الكثيرون من الموظفين والتجار الهولنديين الذين يشغلون مناصب قيادية في برنامبوكو ولواندا وبنجويلا والمتزوجين من نساء برتغاليات، الوقوف إلى جانب زوجاتهم ومساندة عقيدتهن الدينية عندما كان على الأزواج أن يختاروا بين الاعتراف بسلطان الملك جون الرابع وبين استمرار ولائهم لادارة عموم الولايات. وإن الأسر الباقية في بلدة واندرلي في برنامبوكو، وكذلك في بلدة فان دون في لواندا إنما ترجع في أصولها إلى أسلافها الذين اختاروا تحويل ولائهم.

وإذا كانت «نيو هولاند» عجزت بسبب افتقارها أساسا إلى العدد الكافي من المهاجرين البروتستانت، عن أن تصمد على المدى الطويل أمام الضغوط العسكرية والاجتماعية والدينية التي مارسها ضدها أهالي برنامبوكو الكاثوليكيون الرومان فان نيونيذر لاند المقامة على ضفاف نهر هدسون

وشـواطىء جزيـرة مـانهاتان تهيأت لها على مـا يبـدو فرصـة أفضل. إذ لم يضطر المستعمـرون الهولنديـون هنا إلى الـدخول في تحد مع التربـة والمناخ الاستوائيين، أو مع أغلبية من سكان يدينون بـالمذهب الكاثوليكي الروماني. بل دخلوا في صراع مع ظروف طبيعية تشبه ظروف بلدهم من بعض النواحي. وهنا كـان بالامكـان إذا صدق العـزم تأسيس مستعمرة يقيـم فيها الـرجال ويعملون ويتعبـدون بنفس الطريقـة المتبعة في أرض الوطـن وعلى الرغم من السياسة المتـذبذبة لمجلس ادارة الـ ١٧ بشأن خطط اقـامة المستعمرات التي كانت تظهـر اقتراحاتها بين الحين والآخر، وعلى الرغم من تـردد بعض حكام المستعمرات واحجامهم عن السماح للمستوطنين بهذا القدر من الحكم الذاتي في الشئون المحلية والمخول لهم به فقد قيل ان المستعمرة كانت تضم ١٠٠٠٠ نسمة عندما استولى عليها الانجليـز في عام ١٦٦٤. وهذه يقينا مبالغة كبيرة إذ الحقيقة هي أن نيـونيذرلاند كانت مقـاطعة آهلة بسكان قليلين متنـاثرين وسط مستوطنات نيـو انجلاند الأكثر سكانا واتسـاعا وحركية وان القليلين من المقيمين على جانبي المحيط الاطلسي هم الذين ظنوا ان ادارة عموم الولايات عقدت صفقة خاسرة بتنازلها عن مطالبتها بشأن نيو نيذرلاند مقابل حيازتها لمستعمـرة سورينـام الاستوائيـة بناء على معـاهدتي بـريدا (عـام ١٦٦٧) وويستمنتر (١٦٧٤). غير أنـه يمكن القـول ان نيـونيـذرلانـد تـوفـرت لها الأسباب التي تبرر لها اسمها هذا وبفضل مسـاندة صادقة من مجلس ادارة الـ ١٩ وحكومة أرض الوطن عشية ان تركها الانجليز. لقد التزم المستوطنون من أبنـاء مقاطعـة والون وغيرهـم من المستوطنين غير الهولنـديين، وكانـوا كثيرين، باللغة الهولندية، مثلما التزموا بعقيدة الكنيسة الهولندية الاصلاحية والأخلاق والأعراف الهولندية، وهو ما لم يكونوا قد التزموا به قبل ذلك. وظل كثيرون من أجيالهم التالية يتحدثون الهولندية حتى سنوات طويلة من القرن الثامن عشر، ولم تسقط «الكنيسـة الاصلاحيـة في امريكا». من اسمهـا كلمة «الهولندية» إلا في عام ١٨٦٧.

ونظـراً لاعتدال منـاخ نيونيـذرلاند فإننـا نجـد عددا كـافيا من النســاء الأوروبيات هاجـرن الى هناك، هذا على الرغم من وجـود خليط عرقي يقينا في الأيـام البـاكـرة من انشـاء المستعمرة وهـو مـا يشهـد عليـه الأسم «معين العاهـرات» الذي أطلق على موقع كان «الهنـود كرماء بما فيه الكفـاية بحيث كانوا يقدمون نساءهم الصغيرات وبنـاتهم إلى مواطنينا أبناء هولندا هناك». ولقـد اضطـر الهولنـديون الـرجـال إلى اتخاذ خليـلات لهم من بين النســاء المواطنـات في المناطق الاستـوائيـة حيث يقل عـدد النساء البيض هنـا. وفعل البعض ذلك مضطـرا وعن غير رغبـة مصـداقـا للقول المأثـور «الحاجـة أم الاختراع وأب الأوراسيـة». وعلى الــرغم من أن الـرجـــال من أبنـاء الأراضي المنخفضة المقيمين في الشرق نـادراً ما كـانوا يقبلـون على الزواج بـأي امرأة آسيوية (تمييزاً لها عن المرأة الأوراسية) إلا أنهم قـل ما كانوا يعترضون على اتخاذها محظية حتى وإن لم ينغمسوا في هذا السلوك على نطاق واسع مثلما فعل من قبلهم البرتغاليون. وكان الهولنديـون في القرن الثامن عشر يؤثرون اتخاذ النساء من رقيق بـوجينا في سيليبيس محظيات لهم لأسبـاب أوضحها ستافوريـنـوس بأسلوبه الفريد حين قـال: «نساء بوجينا يتميّزن بـوجه عام بأنهن أكثر أناقـة من النساء الهنديات (الآسيويـات) الأخريات. وان البعض منهن يتحلين بوجـه جميل يجعلهن موضـع اعجاب وتقديـر كبيرين حتى في أوروبا ذاتها. وآه لو أنهن تزين بأزهـار الزنبق وورود الشمال لكن على قدم المسـاواة مع أكثـر بنـات جنسهن أنـاقـة. إنهن يعشقن متع الحب الحسيـة وتستثيرهن أشـد نيران الشهوة حـرارة، مبـدعات لكل فنـون ومتع العشق، ولهذا يفضل الرجال الأوروبيون والهنود بنات بوجينا كمحظيات دون جميع نساء الشرق. وعـرفت من السيد فان بلـورين الذي أقام هنـا ثماني سنوات، ومن كثيرين غيره من الثقـــات، أن من بين هـــؤلاء النسـوة ومن بين نســـاء ماكـاسار أيضا، كثيرات يمتلكن، هن وبعض النســاء البرتغاليات في باتـافيا، سرا يمكنهن بفضل بعض الأعشاب ووسائل أخرى من أن يستعدن عشاقهن إذا مـا قاطعـوهن وابتعدوا عنهن، إذ يستطعن أن يجردنهم من أي قـدرة على

تكـرار هذا العمل الجارح لمشـاعرهن، بل قـد يصل الأمر إلى درجـة حرمـان الرجل من قدرته الذكورية وغير ذلك من أمور يقتضي واجب الأدب والاحتشام الامساك عن الكلام فيها.

وطبيعي أن اتخاذ السادة الأوروبيين من نساء العبيد محظيات أفضى إلى انجاب عدد كبير من الاطفال الأوراسيين غير الشرعيين. وحدث في عام ١٧١٦ أن أعرب الحاكم العـام ومجلسه في بـاتافيـا عن قلقهما الشديـد لهذا الوضـع وأصدر الحاكم أمـراً يقضي بحرمان الآباء: البيض لهؤلاء الأطفـال من العودة ثـانية إلى أوروبـا وأن عليهم البقـاء في الشرق. وأصدر مجلس ادارة الـــ ١٧ تشريعا يحرم ابتداء من عام ١٦٤٤ وما بعده جلب الرقيق والملونين إلى أوروبا على متن السفن التجـارية المتجهة إلى أرض الـوطن. ولم يطبق التشريع بـدقة وصرامة. وفي عام ١٦٧٢ حظـرت سلطات باتافيـا تشغيل كتبة آسيويين، إلا بإذن خـاص، بحجـة أن «الهنـد (آسيا) زاخـرة بأطفـال من أمتنـا». وليس واضحاً إن كان الأطفال المولودون يدخلون ضمن هذه الفئة من الأطفال أم لا. ولكن المؤكد أن الشركة حظرت تماما تعيينهم في الأعوام ١٧١٥-١٧١٧ إلا في حالة عـدم توافر أوروبيين صالحين للعمل. وامتد هـذا الحظر في عام ١٧١٨ ليشمل الأطفـال المولودين لآبـاء بيض في آسيـا. وبعـد تسع سنوات أصـدر مجلس الــ ١٧ مرسومـا يقضي بأفضليـة التعيين دائماً للأفراد المولـدين في أوروبا دون المولـدين في آسيا أيا كانـت أصول هؤلاء. وقد يـراودنا الشك في الالتزام الدقيق في تطبيق هـذا القانون، ولكن نعرف أنـه منذ عام ١٧٢٩ أذن الحاكم العام ومجلسه بتعيين بعض الكتبة الآسيويين، «نظراً للنقص الشديد في عـدد الكتبة الأكفـاء». وفي عام ١٧٥٦ أمـر مجلس ادارة الـ ١٧ حكومـة باتـافيا بالتـوقف عن ارسال المزيد من العمال والصنـاع الحرفيين إلى القلاع والمحطـات التجاريـة الموجودة خـارج جـاوة، حيث يتعين من الآن فصاعـدا تدريب العمال المهرة من بين الأبناء المحليين المواطنين والأوراسيين.

وإذا كان مـوقف أهل الأراضي المنخفضة من نظـرائهم الأوراسيين يغلب

عليه طابع التنازل أو الازدراء السافر، فإن الأمر كان أوضح في تعاملاتهم مع الآسيويين في مجموعهم. حقا كان مجلس ادارة الـ ١٧ يشدد بين الحين والآخر على ضرورة معاملة الآسيويين بعطف وانصاف، ومن المؤكد بالمثل ان حكومة باتافيا أصدرت أحيانا تعليمات بهذا المعنى. غير أن رعاياهم نادراً ما أبدوا قدراً ملحوظاً من الاهتمام والاعتبار للمواطنين ونادراً ما كشفوا عن أي قدر من التفهم الودي لوجهة نظرهم. وها نحن نطالع مجوعة المراسيم التي صدرت في باتافيا ضمن مجلد ونراهاكثيراً ما تشير الى الاندونيسيين والصينيين والمسلمين وتنعتهم بصفات مثل «الخسيس» و«الوضيع»، بل ان رجلاً مثل كرونليس سبيلمان الذي كان يتحدث لغة الملايو بطلاقة واتخذ من السلوك والاخلاقيات والمعتقدات والأعراف الآسيوية موضوعا لدراسته في كل بلد حل فيه سواء في الهند أم في اندونيسيا يشير ساخرا إلى الحسناوات اليابانيات ذات اللونين «الأصفر والبني» واللاتي اتخذ منهن خليلات له في أغلب الأحيان. وطبيعي كان هناك دائماً رجال ذوو فكر مفتوح وعقلية متسامحة مثل ستيفن فان دير هاجن ولورنس رايل في مولوقا، أو دكتور جاوكوب بوتيوس في باتافيا الذي احتج ضد طرد الأوروبيين للآسيويين لأنهم «وثنيون متعصبون» و«خونة» و«همج بلداء». والجدير بالذكر أن حجة قوية تدعو إلى «أن نرى أنفسنا مثلما يرانا الآخرون» يمكن أن نعزوها إلى القائد البحري العظيم بيت هاين الذي خدم بامتياز في كل من جزر الهند الشرقية والغربية ويعرف بوضوح دون أي أوهام أسباب مشاعر العداء التي غالبا ما يبديها سكان المناطق الاستوائية تجاه الهولنديين، إذ يقول:

إنهم يشعرون في أعماقهم شعوراً حاداً بالخطأ الذي وقع في حقهم، وهذا هو السبب في أنهم أصبحوا أكثر شراسة وعدوانية عما هم في حقيقتهم. إنك إذا وطئت دودة بقدميك فإنها تتلوى وتلتلف حول نفسها ألما؟ ومن ثم هل لنا أن ندهش لأن هندياً يثأر لخطأ في حقه ارتكبه شخص أو آخر؟ ... الصداقة يجب أن تبدأ من جانبنا نحن، لأننا نحن الذين سعينا إلى هؤلاء الناس وليسوا هم

الذين سعوا إلينا. ربما حدث، ولا بد وأنه قد حدث في بعض الأماكن وبسبب سوء التفاهم ان أبدى الهنود نحونا مزيدا من مشاعر العداء أكثر من مشاعر الود والصداقة في أول الأمر. ولكن ليس هذا سببا يدعونا إلى أن نغرق في أعمال عدائية ضدهم، أو أن نرد عليهم بالمثل .. إننا إذا ما عاملنا الهنود بقسوة وشراسة فإننا نقدم لهم السبب والمبرر لكراهيتنا وهذه الكراهية ستحفر سريعا جذوراً عميقة وتحول عواطفهم ضدنا .. ولنكن على يقين من أننا نغضب الله بأعمال ظالمة، وبدلاً من أن نخدم الله ونحن أداة عقاب وقسوة لمصلحة الآخرين (الاسبانيين والبرتغاليين) لنسأله تعالى (العون على تحمل عناء المسئولية).

بيد أن الكالفنيين أصحاب البصيرة الثاقبة من أمثال بيت هاين كانوا قلة ضئيلة دائماً. ونجد النظرة الأكثر شيوعا هي تلك التي عبّر عنها رجل الدعوة والوعظ الهولندي المقيم في سيلان، والذي أنقذ العريف سار من تقديمه لمحكمة عسكرية على إثر قتله خطأ لرجل سنهالي إذ أخبر قائده أن هذا أمر لا يدعو الى القلق «حيث أن حياة الهندي لا تساوي شئياً ذا بال». وحسم الأمر وانتهت القضية بدفع مبلغ نقدي زهيد الى أرملة القتيل خصما من راتب سار الضئيل. ولكنه قال صراحة لو أن الضحية أوروبي لما استطاع ان يفلت من عقوبة الاعدام. والجدير بالذكر ان جوهان مايتسوكر عندما تخلى عن منصبه كحاكم عام لساحل سيلان في عام ١٦٥٠ اكد على خليفته بضرورة معاملة الرؤساء السنهاليين بما يليق من اعتبار وتقدير «حيث انهم حساسون جداً ازاء كل ما يمس كرامتهم. وحري بسعادتكم أن تولوا هذه النقطة كل الاهتمام نظراً لأن هناك الكثيرين منا ينظرون اليهم نظرة قائمة على الانحياز مؤكدين أن هؤلاء «الكلاب السوداء» كما يسمونهم قصد الاهانة، يجب ألا نسمح لهم بأن يحظوا بمثل هذا الشرف والجميل». وان رجلا على حظ كبير جداً من العلم والثقافة وهو دوميني فرانسوا فالنتين الذي كان يزهو ببراعته في التحدث بلغة أهل الملايو، وأبدى اهتماما عميقا وأصيلاً بجوانب كثيرة من الحضارات

الآسيوية، نراه يصف أمير ترناتن كـاتشيل سايدي، الذي قتل غيلة وبقسوة سادية على يد الهولنديين في عـام ١٦٥٦ فيقول «انها نهاية رقيقـة ومريحة للغايـة لرجل كان يستحق ان يعيش أطول لينـال ميتة أشد إيلامـا» وإن هذا الخلط البغيض بين الكالفنية والسادية لم يكن بـالشيء النادر الوقوع. إذ نراه مطبقا على يـد جان بيترزون كـوين حينما استأصل البانـدانيين وحين أساء بقسوة معاملـة سارا سبيكس وهي فتاة أوراسية تبلغ من العمـر ثلاثة عشر عاما، وجريمتها أنها سمحت لنفسها بان تقع في حب خطيبها الشاب الذي تم إعدامه بأوامر من كوين.

لقـد كان الهولنـديـون في الشرق يستبد بهم حتـى النخاع ذلك الاعتقـاد الفطري بتفوق الرجل الأبيض. وهو الاعتقاد الذي كان الحافز والقوة المحركة وراء مفكرين وأدباء برتغاليين من أمثال أفونسو دي ألبوكيرك، وكذلك جورج أورويل حيث تجسـد هذا الاقتناع لـدى شخصيته الخيـالية في روايـة «أيام بورما». إذ تقول هذه الشخصية «تذكري يا سيدتي دائما ولا تنسي أبدا نحن أطهـار وهم أقـذار»، البرتغـاليـون والأسبـان والهولنـديـون والانجليـز والفـرنسيون كـانـوا جميعـاً على وجه التقـريب مقتنعين تمام الاقتنـاع أن المسيحي الأوروبي بحكم واقعـه وطبيعتـه أرقى من عـرق آخـر - حتى من تحولوا إلى المسيحية غير مستثنين من هذه القاعـدة عمليا، مهما كانوا نظرياً، وإذا كان هذا هو الاقتناع السائد بين جميع المسيحيين على اختلاف طوائفهم، فإنه أشد رسوخا وعمقا حتما بين الكـالفنيين الذين كانوا على اقتناع كامل عن وعي أو عن غير وعي، بأنهم الصفـوة التي اختـارهـا الله، وأنهم ملح الأرض. وواضح ان هـذا الاتجاه لا يعبر عنه أصحـابـه في وضوح وسفـور في جميع الأقطار حيث توجد حكومات قـوية ترفض وتتصدى بقوة لمثل هذا الهراء على ألسنة التجار الأوروبيين عنـد الأطراف الساحلية. مثـال ذلك أنه يبين لنا من كتاب دانييل هـافارت. صعـود وانهيار كورومـاندل (١٦٩٣) أن العـلاقات الاجتماعيـة التي تـربط الوكـلاء التجـاريين الهولنـديين بالتجـار والموظفين

ورجال البلاط الهنود في جولكوندا سواء من المسلمين أو الهندوس، كانت بشكل عام علاقات ودية وغير متشددة نسبياً. ولم يستطع الهولنديون أن يبدوا أي مشاعر قوية تكشف عن نوازع التفوق العرقي في المراكز التجارية المنعزلة مثل مراكز ديشيما في اليابان أو كانتون في الصين. غير أن مثل هذه المظاهر تتكرر كثيراً في اليوميات والمراسلات السرية التي تستهدف مخاطبة أوروبيين فقط ولا يطلع عليها غيرهم. وطبيعي أنه كانت هناك استثناءات لهذا الاقتناع العام بالتفوق الأوروبي، ولكنها ظلت استثناءات فقط دون أن تتجاوز هذه الحدود.

ونحن لا نملك الوثائق الكافية التي تبين لنا نظرة الآسيويين إلى الأوروبيين وفكرتهم عنهم بوجه عام، وعن الهولنديين بوجه خاص، فيما خلا بعض الأمم مثل الصين واليابان التي تملك سجلات تاريخية تضارع سجلات الغرب حجما ونطاقا. أما كيف نظر المسلمون المعتدلون إلى الأوروبيين المشاكسين مدمني الخمر والذين تسلطوا على مولوقا، فهذا يمكن أن نستدله من الملاحظة التالية لواعظ هولندي في أمبوينا في عام ١٦١٥ حيث يقول: أبناء هذه الأمة السود، حيث هم كذلك، هم أهل حضارة واستقامة ونظام في سلوكهم وحياتهم اليومية، لا يعودون إلى بيوتهم مخمورين يترنحون يجرجرون أذيالهم، ويرفعون عقيرتهم، ويفرغون أمعاءهم، ويصيحون في هياج، ويضربون الزوجات وبعدها يدفعونهن إلى خارج الأبواب مثلما يفعل رجالنا في غالب الأحيان، وهذا هو السبب في أن أحدا منهم لا يقبل تزويج ابنته لرجل منا، والسبب في أن بناتهم يخفن الزواج من أحدنا».

وفي أندونيسيا حيث استقر الهولنديون وفرضوا أنفسهم بقوة السلاح كان أهل البلاد يناصبون حكم الهولنديين العداء وان عجزوا عن التعبير عن ذلك بحكم القهر الذي يخضعون له. ويعبر ريجكوف فان جوين عن هذا صراحة في عام ١٦٥٥ إذ يقول «جميع شعوب آسيا تكرهنا كراهيتهم للموت». وتؤكد هذا الرأى مصادر أخرى كثيرة معاصرة، مثال ذلك شهادة

ادوارد بارلـو وقد كـان أسير حرب في باتـافيا عام ١٦٧٣ ومـن ثم عرف عن كثب حقيقة نظرة أهـل باتافيا إلى المحتلين الهولنديين والتي تشبـه نظرة أهل أندونيسيا المحتلة، يقول: أهل جاوة يكرهونهم إلى أقصى حد. ومع هذا يمعن الهولنـديون في إخضـاعهم حتى لا يجرؤوا على فعل أي شيء لأنهم يعرفـون جيـدا أنهم إذا مـا قـدر لهم أن ينهضـوا وينتصروا عليهم فلن تأخـذهم بهم رحمة. وباتافيا جزيرة منيعـة داخليا وخارجياً بحيث لا تستطيع قوة صغيرة أن تلحق بأهلها أي ضرر». وتكشف سجلات أحداث تاريخ جاوة مدى الشك والتوجس وعـدم الثقة في نظرة معظم أهل جاوة إلى الهولنـديين وإلى أفعالهم. أما عن سيـلان فإن مشاعـر أهلها في المناطق السـاحلية الخاضعـة لسلطان الهولنديين بعـد طرد البرتغـاليين في عام ١٦٥٨ إنما يعبر عنهـا بإيجاز، كما أوضح روبرت كنوكس، المثل السائر السنهالي الذي يحكى قصة رجل أحسن فكان جزاؤه جزاء سنمار، إذ يقول المثل «أعطيته عسلا فأعطاني خلاً».

وأدت الاختـلافـات الـدينيـة الى تـوسيع الهوة بين الأوروبيين وبين الآسيويين. فإذا كان الهولنديون الكالفنيون في القرن السابع عشر شاركوا في الـرأي البرتغـاليين الكـاثـوليك الـرومـانيين اعتقـادهم في حق المسيحيين الأوروبيين المطلق في استغـلال جميع السلالات الأدنـى شأنا خـارج حظيرة المسيحية، فإن شعب أنـدونيسيا المسلم نظر بكراهيـة وازدراء إلى الهولنديين باعتبـارهم «كفارا، تمامـا مثلما فعل البرتغاليـون الكاثوليك أو أهـل بالي من الهندوس أو الوثنيون الدياكس في بورونيو. وفي سيلان حيث النظام الطائفي ضارب بجذور عميقـة الغور بين السنهاليين البوذيين مثلما هـو بين التاميل الهندوس، اكتشف الهولنديون ان أبناء الطـوائف الأدنى شأنا كانوا أميل إلي «عدم الولاء» لهم وأكثر انفتاحا إلى المؤثـرات الآتية من مملكة كاندي المستقلة على عكس أبناء الطوائف الأدنى مرتبة. علاوة على هذا كان من المحتم كقاعدة عامة أن يؤثر الآسيويون القهـر من جانب حكام من أبناء جلدتهم وعقيدتهم على قهـر من جانب غـزاة أتوا اليهم من أوروبـا عبر البحر ، لهم أنماط فكـر

وسلوك غريبة عنهم وعليهم تماما. ومـع هذا، وهو أمر طبيعي، أن الهولنديين لم يحسنوا دائماً فهم هذا الوضـع. وعندما كـان ريجكوف فان جوينز حاكما عاما على سيـلان، أحس بقلق شديد إذ وجد الأغلبيـة العظمى من السنهاليين يفضلـون حكم راجا سنهـا «الاستبـدادي القهـري» على ادارته «المسيحيـة القديمة». ونادراً ما أثبت المديرون بالبرهـان صدق هذه النظرة الأبوية داخل الوطن. ففي عام ١٦٧٥ منعوا الحاكم العام ومجلسه في باتافيا من ايفاد سفن تحمل مؤنا وأطعمة لإغاثـة شعب سيلان من المجاعة. وكتب مجلس ادارة الـ ١٧ في هذا الصدد «أحكام الناس ليست بالأمر الذي يعنينا».

وإن الهوة الواسعـة الفاصلة بين الأوربيين والأندونيسيين سـواء أكانت دينيـة أم اجتماعية أم لغـوية أو سيـاسية، لم تكن لتعني أن الانـدونيسيين يعارضون قيام جبهة متحـدة ضد عدوان الأوروبيين. بل الأمر أبعد من ذلك كثيراً. فإن أهـالي سيرام، وهم أشـد من عـانـوا من قسـوة حملات هـونجي العسكـريـة التي استهدفت استئصـال جميع أشجـار التـوابل غير المرخص بـزراعتهـا، كـانت تمزقهم عـداءات وحزازات قـديمـة بين مختلف الشيـوخ والعشائر والقرى. وساعد هذا الهولنديين إذ جعلهم يعتمدون على مخبرين في مقاطعـة ما ليأتوهم بأخبـار كاملة عن نشاط أي تهريب يجرى في مقـاطعة أخـرى. وعمد الهولنـديون في أكثـر من مناسبـة الى رشوة سفـاكي الدمـاء الـوثنيين في داخل الجزيرة للعمل كقـوات مسـاعدة ضـد القـرى الساحليـة المسلمة المتمردة أو المنشقة سواء في سيرام أو أمبـوينا. والمعروف أن احتلال مـاكـاسـار لم يكن ممكنـا إلا بفضل تعـاون الأمير اليـوجيني أور بـالاكـا ومحاربيه من بوني. ويصدق الشيء نفسه على غزو كورنيس لمنطقة الأزتكس الذي تم بفضل المساعـدات القوية التي تيسرت له نتيجـة تحالفه مع أعدائهم الألداء التلاكس كالانز. وكذلك أفـادت الشركة في حروبها لاحتلال جاوة منذ عام ١٦٧٤ بـالمساعدات التي تلقتها من القـوات العسكرية لكل من أمبـوينا وبالينـا ومادوريس. وكثيراً ما اتهم البعض الشركـة بانتهـاج سياسة مـاكيا

فيليـه التي تعتمد على مبـدأ «فـرق تسد» وواقع الأمـر أنها لم تفعل في أغلب الأحيان أكثر من استغـلال التطاحنات العدائية عميقـة الجذور والقديمة بين الفرق المختلفة المنتشرة في كثير من الجزر الأندونيسية.

وتأثر انطباع الصينيين عن الهولنديين في القـرن السابع عشر تأثيراً قويا بهجمات القرصنة التي اعتـاد الهولنديون شنها ضـد السفن التي تتاجر مع مـانيلا، وكـذلك اختطاف الصينيين عنـوة واسكـانهم قسرا في باتـافيا بعـد استيلاء كوين على جـاكارتا. وكتب مؤرخ صيني معـاصر لتلك الفترة يقول: «إن النـاس الـذين نسميهم ذوي الشعـور الحمـراء أو البرابـرة الحمـر هم الهولنديون ويعيشون عل سـواحل المحيط الغربي. إنهم نهابون يطمعون في أمـلاك غيرهم، ومخادعـون، ولـديهم خبرة واسعــة بـالبضـائع النفيسـة، وأصحــاب ذكاء وحيلـة في سبل الكسب وجمع المال. يخاطرون بحيـاتهم من أجل الحصــول على الربح. ولا يعـز عليهم الوصــول إلى أي مكان مهما كـان بعيداً. يملكون سفنا ضخمة قوية متينة والتي نسميها في الصين «السفن ذات الألواح الخشبيـة المزدوجة». وهم أصحــاب حيلة واسعـة وعقلية ابتكـارية. يصنعون أشرعةالسفن على هيئة بيوت العنكبوت والتي يمكن توجيهها إلى أي زاويـة في اتجاه الـريح. وإذا اعترضـــوا طـريق أحـد في البحر فـلا بـد وأن ينهبوه». وبعـد أن استولت أسرة مـانسو على فـورموزا، وقبـول الهولنديين الالتزام بقـواعد التجارة الصارمـة في كانتون على قدم المســاواة مع الانجليز والفرنسيين والدانمركيين وغيرهم نظر الصينيون إلى أبناء الأراضي المنخفضة نفس نظرتهم إلى هـؤلاء «الشياطين الأجـانب» ، ومن ثم اقتصرت الاتصالات على العلاقات التجارية فحسب.

والجاليـة الصينية الضخمـة التي نمت في بـاتـافيا وفي منـاطق أخـرى خاضعة لحكم الهولنـديين في أندونيسيا، تناسلت وتكـاثرت عن طريق زواج (أو اتخاذ محظيات) الـرجال الصينيين بنســاء أندونيسيـات نظراً لأن عـددا قليلاً جداً من النســاء الصينيات هن اللاتي غادرن المملكة الزهـرية الوسطى

آنذاك. ونظرت الحكومات الصينية المتعاقبة سواء حكومات أسرة منج أو مانتشو، إلى الصينيين في أندونيسيا باعتبارهم فئات منبوذة اجتماعيا، نظراً لأن هؤلاء المهاجرين ارتضوا أن يهجروا موطن ميلادهم وتخلوا عن رعاية مقابر أسر أسلافهم. وعندما ارتكب الهولنديون مذبحة اجتماعية ضد الجالية الصينية وراح ضحيتها أغلب أبناء هذه الجالية في باتافيا في عام ١٧٤٠ إثر تصور خاطىء بأن الصينيين على وشك التمرد ضدهم، خافوا الانتقام منهم ومن تجارتهم مع كانتون. ولكن لم يحدث أي شيء يعكر صفوهم وأوضح بلاط أسرة مانشو في بكين أنه غير مبال تماما ولا يعنيه مصير الصينيين المقيمين فيما وراء البحار. وهذا هو نفس ما فعله أباطرة أسرة منج عندما اعتاد الأسبان ارتكاب مذبحة بصورة دورية ضد الصينيين المقيمين في مانيلا.

وثمة تأريخ صيني لأحداث باتافيا تألف في عام ١٧٩٣ اعتمادا على سجلات حفظها الأمناء المتعاقبون للجالية الصينية هناك. ويهيء لنا هذا التأريخ رؤية عن كبار الموظفين الهولنديين، وهي رؤية من المفيد مقارنتها لرسوم الشخصيات التي رسمها فالنتين والمؤرخون الهولنديون المحدثون للحكام العامين. ويصف الصينيون الحاكم العام جوهان مايتسوكر (١٦٥٣-١٦٧٨) بأنه «رجل ذو شخصية مشاكسة غير محببة. ولذلك لا يجرؤ أبناء الطبقات الدنيا على المرور أمام بابه. وإذا حدث ومر من أمامه أحدهم عن غير قصد، فقد يقبض عليه ويعاقبه. ولم تبذل الشركة أي جهد لإيقاف هذا العمل». وينتقد الصينيون جوهانس كامفيوس (١٦٨٤-١٦٩١) لأنه شرع في أعمال احتكارية جديدة. «جلبت الثراء للشركة والفقر للناس». ومن ناحية أخرى يمتدحون هذا الحاكم العام لأنه سمح ببناء مدرسة صينية. وأن الهولنديين كشفوا بهذا العمل عن رغبتهم» في التلاؤم مع رغبات ومعاملة الأجانب معاملة تتسم بالكرم وجدير بالذكر ان الحاكم العام فالكنير (١٧٣٧-١٧٤١) لا ينحون عليه أساسا باللائمة بسبب المذبحة الرهيبة ضد

الجالية الصينية في باتافيا في عام ١٧٤٠، بل اللوم موجه إلى خليفته جوستاف بارون فان ايمهوف الذي يوصم بأنه عار على البشرية في حياته وفي مماته. «ويصف الصينيون في هذا الكتاب بتروس البرنوس فان دير بارا، الذي يعتقد في نفسه انه أبرّ الناس، (١٧٦١-١٧٧٥) فأنه ودود في ظاهره مع الناس، ظالم في باطنه.

واتسم موقف اليابانيين تجاه الهولنديين بالجمع بين النقيضين في وحدة واحدة اكثر من مواقف سواهم. فمن ناحية، وكما نعرف من سجلات المحطة التجارية في هيرادو وفي ديشيما أن الشعبين الهولندي والياباني يجمعهما عشق المشروبات الكحولية وامكانية الانغماس في الملذات والمرح الى درجة جعلت الاسبانيين والبرتغاليين الأكثر اعتدالا يمجون هذا الطراز من الحياة خلال الفترة المعروفة باسم «القرن المسيحي» في اليابان (١٥٤٣-١٦٤٠). وخلال قرني العزلة اللذين فرضهما حكم طوكوجاوا الدكتاتوري العسكري (١٦٤٠-١٨٥٤) قام الهولنديون أيضا بدور «تجار المعرفة والتنوير» في ديشيما. وكانت هذه المحطة التجارية الهولندية هي القناة الوحيدة التي حصلت من خلالها السلطات اليابانية على المعلومات (التي يرغبون فيها وفي الحدود التي ينشدونها) عن أحداث أوروبا. وتلقى الهولنديون عبر هذه القناة أيضا الكتب الهولندية التي يمكن أن يقرأها عدد محدود من المترجمين اليابانيين من أبناء ناجازاكي. وخلال القرن الثامن عشر بدأ عدد قليل من الباحثين والموظفين بل والديميو Daimyo (أو البارونات الاقطاعيين اليابانيين) في الاهتمام فكريا بالتعليم الهولندي. ولكن شخصا أو شخصين من ذوي الاتجاهات الشاذة مثل (شيبا كوكان (١٧٣٨-١٨١٨) وهوندا توشيكاي (١٧٤٤-١٨٢١) اعتبرا الحضارة الأوروبية أرقى مرتبة من حضارة الصين واليابان من بعض الوجوه. وحققت دراسة علوم الغرب من الطب والفلك والرياضيات تقدما مذهلاً داخل الحلقات الصغيرة التي اقتصرت عليها بالضرورة.

وأعجب اليابانيون كذلك بمهارات الهولنديين كملاحين وبناة سفن وصناع أسلحة. والملاحظ أن رؤساء محطة ديشيما التجارية أو الأطباء المقيمين هناك حينما كانوا ذوي اهتمام فكري بالأحداث المحيطة بهم ومن ثم بذلوا جهدا لفهم نظرة اليابانيين إلى الحياة والمجتمع، استقبلهم الموظفون اليابانيون الرسميون وكذلك الديميو: بارونات الاقطاع استقبالاً حافلاً ينطوي على قدر كبير من الاحترام والتقدير، مما ساعد على قيام علاقات طيبة. وها هو رجل مثل ايزاك فيتسنج الذي أقام في اليابان بضع سنوات (١٧٨٠-١٧٨٣) وأجرى مراسلات ودية من البنغال مع عدد من المترجمين اليابانيين في ناجازاكي ومع اثنين من الديميو أو أمراء الاقطاع الذين تعلموا قراءة وكتابة اللغة الهولندية. وكثيراً ما كان الهولنديون في ديشيما من الطراز الذي انتقده ثنبرج في عام ١٧٧٥. إذ انتقد هذا الرحالة السويدي بقسوة «حمق بعض ضعاف الفكر من الضباط الهولنديين الذين يعملون هناك لما يبدونه من كبرياء إزاء اليابانيين، وما يكشفون عنه من سلوك ينطوي على ازدراء، فضلاً عن نظرات الاحتقار وضحكات السخرية. وأفضى هذا إلى أن استشعر نحوهم اليابانيون بدورهم كراهية واحتقارا. وزادت الكراهية كثيراً عندما لحظ اليابانيون بدورهم كراهية واحتقارا. وزادت الكراهية كثيراً عندما لحظ اليابانيون الأسلوب غير الودي واللا إنساني في سلوك الهولنديين عادة فيما بين بعضهم البعض، والمعاملة الوحشية التي يعاني منها البحارة على أيدي قادتهم علاوة عل اللعنات واللكمات التي تنهال على هؤلاء المساكين من قادتهم»*.

وإذا كان الضباط الهولنديون اعتادوا صب اللعنات والسباب واللكمات على بحارتهم فإن لنا أن نتخيل بسهولة نوع المعاملة التي يلقاها العبيد على يد أسيادهم إذا ما أخطأوا. وعلى الرغم من أن الهولنديين لم يعتمدوا في الأصل

* C. P. Thunberg; Travels .... Val. I; p. 277.
* C. R. Boxer; The Dutch in Brazil, 1624-1654.

على جهد العبيد في أداء الأعمال بنفس الدرجة عند البرتغاليين قبلهم في القارات الثلاث؛ إلا أنهم سرعان ما اكتشفوا أن لا طاقة لهم على الحياة بدونهم مهما كانت طبيعة وخزات الضمير الكالفني التي تؤلمهم بشأن هذه التجارة في الجنس البشري. وسبق أن رأينا أن التجارة الهولندية الأولى مع غرب أفريقيا استهدفت أولا وأساسا تجارة الذهب والعاج، غير أن غزو شمال شرق البرازيل في الأعوام ١٦٣٤-١٦٣٨ أفضى إلى الطلب الكبير على العبيد في «نيوهولاند»، علاوة على العبيد الذين كانوا يباعون إلى الأسبان في منطقة الكاريبي والى الانجليز في فرجينيا. وحدث أن تلاعب جون موريس حاكم ناسو - سيجين أول الأمر بفكرة استخدام العمال البيض الأحرار للعمل في طواحين السكر في برنامبوكو. غير أنه سرعان ما عاد إلى النظرة السائدة لدى كل من المزارعين البرتغاليين والهولنديين في المناطق الاستوائية وهي «أن ليس بالامكان عمل شيء مجد في البرازيل بدون العبيد ... وأن لا سبيل إلى الاستغناء عنهم في أي مناسبة من المناسبات. وإذا ما ظن أي أمرىء ان هذا رأي خاطىء فإن ظنه في غير محله.* ولقد كانت باتافيا بدون المستعمرين الوافدين من الأراضي المنخفضة، آهلة بالعبيد الذين أتي بهم من المناطق المحيطة بخليج البنغال، وكان البحث يجرى لجلب زوجين شابين مع أطفالهما لهذا الغرض. كذلك فإن مزارع ثمرة جوزة الطيب المملوكة للهولنديين في جزر باندا كان يسكنها أساسا عبيد جلبوا من الخارج وصينيون من معتادي الاجرام، بعد طرد أو استئصال السكان الأصليّين. بل إن الهولنديين حرصوا على جلب العبيد حتى في مناطق مثل ساحل كوروماندل حيث الأيدي العاملة الحرة رخيصة ومتوفرة. وإن البحث عن أسواق العبيد دفع بسفن شركة الهند الشرقية إلى مناطق بعيدة حتى وصلت إلى مدغشقر ومنداناو.

وإذا كان الهولنديون قد دخلوا سوق تجارة العبيد، سواء شرقا أم غربا مع بعض التردد والخوف في أوائل القرن السابع عشر فإنهم سرعان ما بددوا شكوكهم ومخاوفهم وأقدموا على الشروع في التجارة متأخرين. وأعرب بعض

الرحالة الهولنديين الأوائل عن شعورهم بالهلع إزاء سوء معاملة البرتغاليين لعبيدهم، ولكن سرعان ما اقترف الهولنديون الإثم ذاته وارتكبوا أعمالا وحشية مماثلة على نحو ما تكشف روايات الرحالة عن القرنين السابع عشر والثامن عشر كما كشفت عن القسوة الوحشية المروعة لتشريعاتهم الاستعمارية في هذا الموضوع. ومثلما حدث على يد البرتغاليين لاحظ كثيرون من شهود العيان ان نساء ملاك العبيد ارتكبن أفظع الأعمال الوحشية قسوة ضد عبيدهن خاصة ضد الفتيات الجميلات اللاتي راودهن شك في أن يكن خليلات لأزواجهن. وجدير بالذكر أن مديري الشركتين الشرقية والغربية منعوا لأسباب مختلفة استرقاق الهنود الامريكيين والهتونتوت وأبناء جاوة. ونعرف أن معظم العبيد الأندونيسيين أتوا من سليبس وبالي وبوتون وتيمور. وكان استيراد العبيد من ماكسار وبالي الى باتافيا محظوراً قانونا، أو يخضع لقيود قاسية في الغالب الأعم نظراً لنزوع أبناء تلك الجزر الى الاندفاع في الطرقات وقتل كل من يصادفهم أو ميلهم الى الانتقام إذا أسيئت معاملتهم. ولكن يبدو أن أوامر الحظر التي كانت تصدر بصفة دورية مصيرها إلى حد كبير الاهمال عمليا.

وضمت بيوت الهولنديين أعداداً كبيرة لا لزوم لها من العبيد، وإنما يحتفظون بهم قصد التفاخر والتباهي مثلما كان الحال في جوا البرتغالية وفي لواندا وباهيا. وها هي عروس احتفلت بزفافها حديثا تكتب رسالة من باتافيا إلى خالتها في هولندا عام ١٦٨٩ تصف فيها مهام تسعة وخمسين من العبيد في بيتها على النحو التالي: ثلاثة أو أربعة من الشباب، وعدد كبير من الخادمات يصطحبونها هي وزوجها اينما حلا أو رحلا خارج المنزل. وخمسة أو ستة آخرون يعملون في خدمة الرجال وتصطف الخادمات وراء كرسي كل منهما وقت تناول الطعام. وعندهم جوقة موسيقية عازفوها من العبيد، يعزفون على القيثارة والكمان والباسون ساعة تناول الطعام، وينتظر كلا منهما دائماً ثلاثة أو أربعة عبيد في الداخل ويجلس واحد عند مدخل البيت لا يبرحه على

استعداد لتلقي الرسائل أو للجري سريعا لإبلاغ رسائل. ويعمل بقية العبيد في أداء مهام مختلفة داخل البيت مثل تخزين الطعام والطبخ ورعاية الحديقة والخياطة.. الخ.

ولقد كانت سخرة العبيد في الزراعة على يد الهولنديين، شأنهم شأن القوى الاستعمارية الأخرى، عملا يغلب عليه طابع اللا إنسانية وبلادة الحس أكثر مما هو الحال داخل البلاد. وتملك سورينام دون شك سجلاً قاسيا في هذا المجال خلال القرن الثامن عشر. والمعروف أن أحداث تمرد العبيد انتشرت واستشرت طوال هذا القرن. ويبدو أن أصحاب المزارع في سورينام أو نظام هذه المزارع لم يستخلصوا الدرس الذي استخلصه واحد من زعماء تمرد العبيد في عام ١٧٦٠ حيث قال: «كان البيض يجدعون أنوفهم، وبهذه المعاملة السيئة للأيدي العاملة الثمينة التي تعمل في حقولهم كانوا يدفعونهم قسرا إلى التماس ملاذ لهم في الغابات». وكوّن العبيد الهاربون أو «زنوج الأدغال» كما كانوا يسمونهم مستوطنات داخل الغابات وكانت هذه المستوطنات هدفا دوريا لهجمات تشنها مجموعات من الجنود الهولنديين لإنزال العقاب بسكانها ولكن دون الوصول إلى نتائج ايجابية. وحدث أن أسر أحد القادة الزنوج ويدعى يارون ضابطا أبيض من ضباط الجيش الهولندي لم يمض عليه في سورينام سوى وقت قصير. ولكن الزعيم الزنجي أطلق سراحه وهو يقول له: إذهب لأنك لم تبق هنا في المستعمرة وقتاً طويلاً لتصبح مذنباً وتتحمل وزر اساءة معاملة العبيد».

لقد كان مجتمع سورينام في القرن الثامن عشر يشبه في بنيته مجتمع المزارع والعبيد لمستعمرات السكر للسلطات الأوروبية في جزر الهند الغربية إذ يحتل المزارعون البيض قمة الهرم الاجتماعي. ويحرصون في حياتهم على مظاهر وأبهة السادة الاقطاعيين شأن نظرائهم في أنتيل وفي البرازيل. ثم ظهر ما يمكن أن نسميه جنين الطبقة الوسطى التي تضم نظار الزراعة والكتبة والتجار وجميعهم من البيض. وتأتي بعد ذلك مجموعة الأحرار. ويحتل

قاعـدة الهرم العبيد الـزنوج الوافـدون الجدد من غرب أفـرقيا واصطلح على تسميتهم «زنوج الميـاه المالحة» لتمييزهم عن الأيدي العـاملة القديمـة الذين أطلق عليهم اسم المولّـدون. وكما هـو الحال في جميع المجتمعـات التي تعيش على جهد العبيد وسخـرتهم نجد المسافة الاجتماعية الفاصلـة بين هذه الفرق واضحة وبعيدة، والعلاقة المباشرة بين أرقى الجماعات وبين أدناها مرتبة إنما تأتي من خلال اتخاذ الرجال البيض محظيـات لهم من بين الزنجيات وكانت العلاقة المشتركة بين السادة والعبيد في ســورينام أقل من جزر الهند الغربية الانجليزيـة والفرنسيـة، وذلك لأن اللغة المشتركـة المستخدمـة هناك لم تكن الهولندية ولا البرتغاليـة بل لغة غريبة تسمى الانجليزية الـزنجية وهي بقايا موروثة عن أصول انجليزية للمستعمرة في ١٦٥٠-١٦٦٦ - ولعل العناصر الثقافية التي وفدت مع الزنوج العبيد كانت أكثر رسوخا في سورينام عنها في أي مكان آخر من العالم الجديد. وفي رأينا أن هذا يرجع جزئياً إلى أن أصحاب المزارع حالوا بصورة منظمـة دون انتشار أي شكل من أشكال المسيحية بين عبيدهم. ولكن يمكن القول إجمالا أن امتهان الانسان للانسان بلغ أقصاه في سورينـام. وقد نلتمس بعض الـراحة لنخفف عن أنفسنـا ومن ثم ننتقل إلى مجال آخر من التاريخ أقل سوءا ودناءة.*

* R. A.J van Lier; the Development and Nature in the west Indies (Amsterdam, 1950); L. L.E. Reus; The Historical and Social Background of Surinam'e Negro-English (Amsterdam; 1953).

الباب التاسع

حانة مجمع البحرين

لست على يقين لمعرفة اسم أول من أطلق على رأس الرجاء الصالح اسم «حانة المحيط الهندي» غير أن مفوض الحكومة او تنهاج دي ميست الذي استخدم هذه العبارة في «مذكراته» الشهيرة التي صدرت عام ١٨٠٢، والذي تعزى اليه على انه قائلها، لم يكن هو يقيناً أول من ابتدع هذا الوصف. ان شونبرج الذي زار الرأس في عام ١٧٧٢ كتب يقول: «يمكن تجهيز هذا المكان على نحو ملائم ليكون نزلاً للمسافرين من وإلى جزر الهند الشرقية، حيث يمكنهم بعد مشقة سفر دام شهوراً في البحر ان يلتمسوا فيه بعض الراحة والانتعاش على اختلاف صوره، وحيث يكونون في منتصف الطريق، سواء من الوطن أم إليه*» وأشك أن العبارة يرجع تاريخها إلى القرن السابع عشر، ولكن أيا كان الأمر فإننا نعرف أنه منذ أن رفع جان فان ريبيك العلم الهولندي هناك في عام ١٦٥٢ وحتى تاريخ افتتاح قناة السويس بعد أكثر من قرنين، كان مواطنو مدينة الكاب هم مضيفو الحانة القائمة عند مجمع المحيطين الهندي والاطلسي.

وإذا كان البرتغاليون هم الذين اكتشفوا الرأس وأطلقوا عليه اسمه قبل نهاية القرن الخامس عشر، إلا أن سفنهم التجارية الشرقية سواء المتجهة إلى أرض الوطن أو خارجة منها، اعتادت تجنب الرسو بها واتخذت من جزيرة موزمبيق ذات الجمال الساحر، وإن كانت غير صحية، ميناء رئيسيا تعرج عليه السفن في زيارة قصيرة. وعندما قرر مديرو شركة الهند الشرقية الهولندية تحدِّي مزاعم البرتغاليين في احتكار المحيط الهندي، حاولوا انتزاع

---

* C. P. Thunberg; Travels in Europe, Africa and Asia, 1770-79, Val. I, P. 229.

هذا الحصن من أيدي أعدائهم في عامي ١٦٠٧-١٦٠٨. ولو أنهم نجحوا في مسعاهم هذا لما قرروا أبدا انشاء محطة أو مركز للترويج في رأس الرجاء الصالح، ولسار تاريخ جنوب أفريقيا في مسار آخر مغاير تماما. ولكن بعد فشل الهولنديين في الاستيلاء على موزمبيق، استحسن كل من البرتغاليين والانجليز فكرة اقامة مستوطنة خاصة بهم في الرأس، بهدف احباط أي محاولة من جانب الهولنديين لاحتلالها. وفي يوليو ١٦٢٠ رسا قائد أسطول انجليزي عابر يتبع شركة الهند الشرقية الانجليزية عند الرأس وغرس علما مرسوما عليه صليب القديس جورج فوق كفل الأسد واعتبر هذا إيذانا بملكية رسمية لشبه جزيرة الرأس باسم الملك جيمس. ولكن لم يكن هناك من يعترف بهذا الاعلان، وظلت شبه جزيرة الرأس أرضا مشاعا غير مملوكة لأحد إلى حين جاء فان ريبيك ونفذ قرار مجلس ادارة الـ ١٧ بشأن إقامة محطة للترويج وتموين السفن هناك بعد اثنتين وثلاثين سنة.

وحري بنا أن نسلم بأن رأس الرجاء الصالح لم يحقق تماما جميع آمال المديرين نظراً لأن بحارة السفن الهولندية الذين عرجوا على هذا الميناء عانوا من أمراض كثيرة ليس أقلها النقرس وغيره من أمراض البحارة المعروفة، ونحن لا نملك إحصائيات عن نسبة الوفيات خلال فترات سابقة ولكن الاطلاع على ما نملك من احصائيات يعطينا انطباعا بأن معدل وفيات البحارة كان خلال السنوات الخمسين السابقة على تأسيس مدينة الرأس خلال الخمسين سنة الأخيرة من عمر الشركة. ويمكن القول، على أية حال، مع ضمان قدر معقول من اليقين أن معدلات الوفيات بدأت تتزايد خلال العقد الأخير من القرن السابع عشر وتدهورت باطراد (مع تذبذبات كثيرة) خلال القرن الثامن عشر، وكانت الأعوام من ١٧٦٠ إلى ١٧٩٥ هي أسوأ الأعوام جميعها.

ويقدم لنا ستافورينوس مثالا نموذجياً شاهدا على هذا بقوله «ما بين سبع وعشرين سفينة أبحرت من أوروبا في ١٧٦٨-١٧٦٩ والتي ضمت كما

تفيد سجلات العاملين عليها، ٥٩٧١ عاملاً، بلغ عدد الموتى منهم ٩٥٩، وهي نسبة تقارب كثيراً نسبة ١ إلى ٦. وفي عـام ١٧٨٢ غادرت الأراضي المنخفضة عشر سفن تابعـة لشركة الهند الشرقيـة تحمل على متنها ٢٦٥٣ رجـلاً، مات منهم ١٠٩٥ أي ٤٣ بـالمائة قبل وصـول السفن إلى رأس الـرجـاء الصـالح، وأودع ٩١٥ منهم المستشفيـات. ونـذكـر بهذه المناسبـة أن هـذا المكـان أي المستشفى لم يحظ، إلا نادراً، بسمعة طيبـة؛ بل هناك من وصفه بأنـه جبانة لدفن الموتى وليس مستشفى. ولقدكان منتسيل على صواب دون ريب عندما كتب عن الجنود والبحـارة المرضى في مدينـة الكاب، «ان الهواء النقي واللحم الطازج أسـهما في شفائهم أكثـر مما أسـهم الأطباء بكل ما قـدموه من أدوية».
وإن زيـادة معدلات الـوفيـات بين رجال سفن شركـة الهنـد الشرقية خـلال النصف الثاني من القرن الثامن عشر ربما تـرجع إلى عدم صلاحية الكثيرين من هؤلاء الـرجال – أصـلاً – أولئك الموجودون في مـوانيء هولنـدا بحالتهم الصحية المتدهـورة بسبب بيوت ايواء البحارة، وأولئك الموجودون في بـاتافيا وانهكتهم حمى الملاريا المتفشية وأحالت «ملكة بحار الشرق» إلى مقبرة. ولكن مهما كانت معدلات الوفيات خـلال السنوات ١٦٥٢–١٧٩٥ بالغة السوء إلا أنها كانت ستغـدو أشد سوءاً أو تفـاقما بدون انشـاء مرسى مدينـة الرأس ليكون استراحة في منتصف الطريق.

جانب آخر من التوقعات الأولى التي استهـدفها مؤسسو الرأس «الكاب» ولم يحققها الميناء وهـو ان منطقة تيبل باي Teble Bay تبين أنها مرفأ غير مأمون أو أقـل أمنا مما كـان متوقعـا. إذ خلال شهـورالشتاء، وبخـاصة في شهري مايـو ويونيو لا تكون منطقـة الكاب مرسى آمنا لـرسو السفن نظراً لهبوب رياح وعواصف شديدة شماليـة وشمالية غربية. وان قصص كوارث السفن على مدى مائة وخمسين عامـا كثيرة ولا يمكن سردها هنا. ولكن تكفي إشـارة عـابـرة للمآسي الرهيبـة خـلال السنـوات ١٦٩٧ و١٧٢٢ و١٧٢٨ و١٧٣٧ و١٧٩٠ وهي سنـوات شـهـدت أفظع كـوارث تحطم وفقـد سفن

تجارية محملة بأغلى البضائع وضاعت هـي ومن عليها وكل ما فيها. وفي عام ١٧٥٣ أصـدر مجلس ادارة الـ ١٧ قـرارا بحظـر رسـو السفن التجاريـة في الكاب خـلال موسم الشتـاء من ابريل الى سبتمر، وعليهـا أن ترسـو في مرفأ فولس باي False Bay لأنـه أفضل من الكاب لما يتمتع بـه من حماية تقيـه غوائل الريح الشماليـة الغربية. ولم تلتزم السفن التزاما صـارما بهذا الأمر، ولم تهتم اهتماما كافيـا بالأوامر المتكررة التي أصـدرها مجلس ادارة الـ ١٧ والتي تحد من بقاء السفن التجارية في منطقة الكاب لمدد تتراوح ما بين عشرة وعشرين عاما. ودرس مجلس الادارة إمكانيـة حظر رسو السفن التجارية في منطقة الكـاب، إلا لأسباب اضطـرارية يستحيل تفـاديها، وذلك حفـاظا على السفينة وأرواح البحارة. بيـد أن المديرين قرروا في النهـاية (عام ١٧٦٦) أن على السفن التي تغـادر باتـافيا بعـد الأول من ديسمبر ألا ترسـو للراحـة في منطقـة الكاب إذا مـا كان بـالامكـان تحاشي ذلك. ولم يكن الدافع وراء هـذه الأوامر التي تحذر من البقـاء طويلاً في المرفأ هو فقط الـرغبة في تجنب تحطم السفن بل وأيضاً الاقلال من النفقات التي تنطوي عليها هذه الأحداث، والحد، قبل هذا أو ذاك من عمليات التهريب والتجارة الخاصة.

وحاربت السلطات هنـا، مثلما حاربت في مواضـع أخرى، معـركة خاسرة ضـد هذه الآفـة التي لا خـلاص منهـا. وإن القوانين المتـواليـة ضد نشـاط التهريب، وعمليات الاستنكار المتكررة لسوء سلوك البحارة والجنود العابرين بسفنهم، تبين مدى اغفال الالتزام بهذه الأوامر والتحذيرات. وها هي ديباجة أحد هذه القـوانين الصـادرة في مدينة الكـاب عام ١٧١٩، تعترف في أسى بأنه على الرغم من قسوة العقوبات المفروضـة على كل من ينتهك القواعد المناهضة للتهـريب أو يخرق النظام إلا أن «انتهـاك البحارة للقـانون لم ينقص بـدافع الخوف من العقاب بل على العكس ازداد كثيرا. وتفـاقم الموقف كثيراً في منطقة الكاب نظـراً لأن السفن التجارية الأجنبية التـي ترسو في الميناء خـلال القرن الثامن عشر أكثر من الهولنديـة. وحاول مجلس ادارة الـ ١٧ أن يثني السفن

التجارية الأجنبية عن الرسو في الكاب بأن أصدر تعليماته بأن لا تحصل هذه السفن إلا على أقل حد ممكن من المؤن الضرورية. ولكن المديرين اتخذوا بعد ذلك سياسة أكثر ليبرالية بعد أن أدركوا أن كلا من الشركة وأهالي مدينة الكاب يمكنهم الاستفادة وتحقيق عائد من الأرباح نتيجة بيع المنتجات المحلية وتقديم خدمات للسفن التجارية الأجنبية بعد أن أصبحت المستعمرة مكتفية ذاتيا بالمواد الغذائية ابتداء من عام ١٦٨٤.

وتزايد اعتماد «حانة مجمع البحرين» على السفن الأجنبية مورداً لرخائها، وهذا ما تشهد به تعليقات زائرة انجليزية زارت مدينة الكاب في العامين ١٧٦٤-١٧٦٥، والتي تقول فيها:

«لا شيء أحب إلى الناس هنا من وصول سفينة انجليزية، إذ بوصولها تنساب النقود بين أيدي الناس. والحقيقة أن أموال الانجليز هي دعامة اكثر الناس هنا. ولا يتأتى هذا فقط عن طريق اصطحاب القباطنة والركاب وغيرهم للمبيت والخدمة في بيوت أهل البلد، بل وأيضاً عن طريق تزويد السفن بالمؤن. وترسو هنا سفن فرنسية كثيرة، وكذلك السفن الهولندية في طريقها من والى الهند. ولكنهم جميعا يتلقون الخدمات اللازمة بأسعار محددة نصت عليها تعليمات الشركة الهولندية. ونظراً لأن الفرنسيين والهولنديين لا ينفقون بحرية وعن سعة مثل الانجليز، فقد كان طبيعيا ان لا يكونوا ضيوفا مرغوبا فيهم. والعادة المتبعة هي دفع دولار يوميا عن استضافة الفرد طعاما ومبيتا فضلا عن الخدمات الأخرى. وترى الموائد حافلة بأنواع الطعام والبيوت نظيفة، والناس مهذبين، ومما يبعث على المزيد من الراحة أن معظمهم يتحدثون الانجليزية. وهنا أيضاً كثيرون يتحدثون الفرنسية، ولهذا يجد الأجانب أنفسهم في جو عائلي يحيط بهم في هذا الميناء على نحو يفوق الخيال.

وبعد سنوات قليلة أبدى كل من ستافورينوس وثونبرج ملاحظات مماثلة. ويلاحظ الهولندي أن الزائرين الانجليز «لا يعبأون بأموالهم وما

ينفقونـه منها بحرية وعن سعـة على السيدات، بينما يلاحظ السـويدي: «أن ضابطا فرنسيا، حسن الهندام متأنقا إلى أقصى حد، يزين صدره نجم علامة الجدارة والشرف ورمز تكـريم من مليكه، مثل هذا الضـابط لا يلقى التكريم والاحترام اللائقين. هذا بينما تجد بحارا انجليزيـا أشعث الشعر يلقى ترحابا وتقديراً كبيرين لكثرة نقوده وانفاقه السخـي».

وعلاوة على أهمية مينـاء الكاب كمستراح. للزيارات القصيرة عنـد مرور السفن التجارية المتجهة إلى الشرق والتـابعة لمختلف الجنسيات، تحول الميناء إلى مستعمرة ذات طابع فـريد إلى حد ما – فيما عدا نيونيـذرلاند التي عاشت لفترة قصيرة – قياسا إلى ممتلكات شركتي الهند الشرقيـة والغربية. إذ كانت بها أراض ممتدة إلى الداخل تتميز بجوهـا الصحي، ومناخها شبه الاستوائي وخصوبة تربتها جزئياً، ولم يكن يشغلها سوى بدو رحل من أبناء البوشمان والهوتنتوت والـذين لم يشكلوا خطـراً. وكان الاستعمار الأبيض هنـا ملائما مثلما كان ملائما في نيونيذرلاند علاوة على ميزة اضافية تتمثل في عدم وجود دولة أوروبية منافسة تجاورها. ولا ريب في أن ظروف رواد فان ريبيك كانت شديدة القسوة نظراً لأن كل شيء لا بد وأن يبـدأ بناؤه بالعرق والأظافر، ولم تكن الأيدي العـاملة الرخيصـة ميسورة مثلما كان الحال في القـلاع والمراكز التجاريـة المملوكـة للشركة الشرقيـة. ولم تكن أخشاب المبـاني متوفـرة مما استلـزم استيراد كميات كبيرة من اسكنـديناوة عن طـريق هولنـدا إلى أن تم اكتشاف الغـابات في مقـاطعة الكـاب الشرقية في العقـد السادس مـن القرن الثامن عشر، ولم يـدر بخلد مجلس ادارة الـ ١٧ أي امكانية لتـوسيع نطاق المستوطنة البيضـاء التي أذن المجلس باقـامتها كمستعمرة، ولذا ظل حريصا زمنا طويلاً على ابقائها في أضيق حدود ممكنة بهدف اقتصاد النفقات. وأرجأ ريجكوف فان جوينز (١٦٥٥-١٦٥٧) مشروعا لحفر قناة تصل بين فولس باي وتيبل بـاي، بقصد تحويل شبه جزيـرة الكاب إلى جزيرة يسهل الـدفاع عنها، ولكن الظـروف أرغمت الحكام المحليين (أو القـادة كما كانـوا يسمون

حتى عام ١٦٩١)، كما أرغمت مجلس ادارة الـ ١٧ من خلالهم، على توسيع المستوطنة الأولى إلى حدود لم يكن يحلم بها مؤسسوها في بادىء الأمر.

وسرعان ما أدرك فان ريبيك أن الجنود السابقين والبحارة والكتبة والصناع الحرفيين ليسوا أنسب العناصر ليكونوا عملالا زراعيين حسب ما تقضي به الضرورة اذا ما أردنا أن تزود المستوطنة السفن التجارية التابعة للشركة الشرقية بما يكفيها من مؤن تشتمل على اللحوم والخضراوات والفواكه الطازجة وغيرها. وطالب هو وخليفته زكريا فاجينايـر باستخدام العمال الصينيين وذلك لأن كليهما عملا في الشرق الأقصى وأعجبتهما النتائج التي حققها مزارعو البساتين الذين ينتجون للأسواق في فورموزا وجاوة. غير أن سلطات باتافيا عجزت عن حث الصينيين على الهجرة إلى هذه المواقع الخارجية النائية التي يجهلونها تماما. وإذا كان فان ريبيك ضغط في سبيل ارسال عبيد اليه كبديل عن الصينيين إلا أن العبيد لم يبدأ وصولهم بأعداد كافية إلا بعد أن تطورت علاقات تجارة العبيد مع مدغشقر في سبعينيات القرن السابع عشر، وكان مجلس ادارة الـ ١٧ قد حظر صراحة استرقاق السكان المحليين الأصليين. وعلى أية حال فإن الخبرة العملية سرعان ما أكدت أن العناصر الخالصة من الهوتونتوت والبوشمن غير صالحة للعمل كأجراء زراعيين، على الرغم من أن رجال الهوتونتوت يجيدون العمل رعاة وسائسي خيل وسائقين، كما عملت نساء وبنات الهوتنتوت خادمات في المنازل أحياناً.

واضطر فان رييك، نظراً لعدم وجود العبيد والصينيين إلى العودة إلى نظام البرجوازيين الأحرار الذي فشل فشلاً ذريعاً في جزر الهند الشرقية. وشجع بعض الموظفين المحليين الذين أبدوا - أو تظاهروا بأنهم أبدوا - استعداداً للعمل الزراعي وترك خدمة الشركة والحصول على هبة من الأراضي لزراعتها شريطة بيع المنتج إلى الشركة بأسعار تحددها الشركة. وسمحت السلطات أخيراً للفلاحين والبرجوازيين بالحصول على أسعار أعلى مقابل المؤن التي يزودون بها السفن الأجنبية، فيما عدا فترات القحط التي لا

يبيعون فيهـا، حسب ما هو مفترض، إلا للشركـة وحدها. وظل التقـدم بطيئاً جداً لسنـوات عديـدة... ونلحظ من ناحيـة أن السلطات بـدأت تشكو من أن البرجوازيين الأحرار ينزعـون إلى هجرة عملهم في الأرض ليعملوا بدلاً من ذلك مديري حانـات في مدينة الكاب. ونجد من ناحيـة أخرى البرجوازيين الأحرار يشكون من أنهم عاجزون عن حراثة الحقول وزراعة القمح بدون الاستعانة بثيران وعبيد، وأن الشركة تبخسـهم حقهم عند شراء المحاصيل. وبلغ الوضع أسوأ مراحلـه في عام ١٦٦٠ عندما تمكن اثنان وأربعون من بين مـا مجموعه سبعون برجوازيا حرا من السفر خلسة إلى الأراضي المنخفضة على متن سفن قادمة من جـزر الهند الشرقية، وساعـدهم البحارة على ذلك. وبعد اثني عشر عامـا كان عدد السكـان البيض لم يتجاوز بعد ٦٠٠ نسمــة من بينهم أربعة وستون فقط من البرجـوازيين الأحرار الـذكور البالغين، وأن تسعــة وثلاثين شـخصاً من هؤلاء هم المتزوجون.

وكانت نقطة التحول في ثمانينات القرن السابع عشر عندما قرر المديرون أخيراً أن مزايا تشجيع عمليات بناء مستعمرات بيضـاء في منطقة الرأس ترجح المســاوىء. وأرسلـوا فـرقـا مهـاجرة للمســاعـدة من منـافي الهوجـونـوت (البروتستانت الفـرنسيين) في فرنسـا بعد الغـاء مرسـوم نانتيس Nantes (١٦٨٥). كما أرسلوا بعض الأسر الهولندية ومجمـوعات من الفتيات اللائي في سن الـزواج من دور الأيتام إلى المقـاطعات المتحدة. وحتـى عام ١٦٩٥ لم يكن هنـاك أكثر من ٣٤٠ تقـريباً من البرجـوازيين الأحرار في منطقـة الكاب بفضل القيادة النشطة والـروح الرائدة للحاكم العام سيمـون فان ديرستيل (١٦٧٩-١٦٩٩). وأراد المهاجـرون من الهجونوت العيش معـا، والاحتفاظ بهويتهم القوميـة غير أن الحاكم سيمون الـذي كان منحازا لميـوله القـومية كهــولنـــدي أصر على تقسيمهم ووزعهم بين المزارعين الهولنـــديين. وتم استيعـابهم بـالكـــامل بعـد جيلين أو ثـلاثـــة. ولم يفتأ تيـار من الموظفين والعسكريين التابعين للشركة في منطقة الكاب يـأخذ طريقه إلى خارج الشركة،

ليترك هؤلاء الخدمة بالشركة والتحول الى برجوازيين أو مزارعين. واستوطن بهذه الطريقة عدد كبير من الألمان خلال القرن الثامن عشر. ولم تأت أغلبية هؤلاء بنسائهم معهم بل تزوجوا في الكاب بفتيات من أصول هولندية (أو مولدات تجمعن بين الدم الهولندي والدم الفرنسي) وما أن حل عام ١٧٨٠ حتى كان هناك ما بين ١١٠٠٠ و ١٢٠٠٠ من البرجوازيين الأحرار في المستعمرة، من بينهم ٣٠٠٠ على الأقل يعيشون في مدينة الكاب. ويشير ستافورينوس إلى ملاحظة له قبل ذلك بأعوام قلائل: «إذا كانت المستعمرات الأولى تشكلت هنا من قوميات متباينة، إلا أنها وبعامل الزمن. امتزج بعضها ببعض تماما بحيث يتعذر تمييز قومية عن أخرى. بل نلحظ ان من ولدوا في أوروبا والذين أقاموا واستقروا هنا لعدة سنوات قد غيروا جميعا طابعهم القومي واصطبغوا بطابع هذا البلد. أو لنقل بعبارة أخرى لقد بدأ تكوين الشعب الأفريقاني المولد الذي يجمع بين الدم الأفريقي والدم الأوروبي.

ولكن التنمية الاقتصادية للمستعمرة تعثرت إذ عاقتها القيود العديدة التي فرضتها الشركة على النشاط التجاري، ولكن بدرجة أقل على النشاط الزراعي للبرجوازيين الأحرار على نحو ما يبين من شكاواهم المتصلة. وقد كتب فان ريد رسالة إلى دراكنستين في عام ١٦٨٥ أبلغه فيها أن جميع البرجوازيين الأحرار ساخطون من حكم الشركة، فالذين يسكنون قرب القلعة ساخطون لحرمانهم من العمل بالتجارة بحرية. وأولئك الذين يعملون بمزارع انتاج أشجار الأخشاب ساخطون لأنهم لا يحصلون على أسعار مرتفعة مقابل انتاجهم، وأولئك الذين يعملون في حقل تربية المواشي ساخطون لأنه غير مسموح لهم بالمقايضة مع الهوتونتوت. وليس من المعقول ان نتوقع من المديرين الهولنديين في القرن السابع عشر أن يلتزموا بآراء التجارة الحرة التي لم تبدأ في الظهور والشيوع إلا في انجلترا خلال العصر الفيكتوري والتي عبر عنها بإيجاز سير جون باورنج حين قال «التجارة الحرة هي يسوع المسيح، ويسوع المسيح هو التجارة الحرة». ولكن

عـدداً قليـلاً من المفـوضـين التجاريين الـذين زاروا الكـاب خـلال السنـوات ١٦٥٥-١٧٩٥ انتقـدوا بالفعل القيـود المتشـددة المفـروضـة على السكـان، وأوصوا بتخفيف العبء بـوسائل بسيطة مختلفـة. ونذكـر من هؤلاء دانييل تولثنيوس الذي وصل به الأمـر في عام ١٧٤٨ إلى أن أشار بأن المستعمرة لن تحقق أي ازدهار حقيقي مـا لم تمنح السلطات المسئـولة حق حريـة التجارة والملاحة «ليس فقط لسكـان هذه المنطقة وحـدها بل ولجميع من يـرغبون في المشاركـة سواء للذين يعيشـون في أوروبا أو في آسيـا» وطبيعي أن مثل هذه النظريـة الثورية لم يكن من المتوقع أن تصـادف قبولاً لدى مديـري الشركة الذين ليس لهم من هدف غير «التجـارة والربح» دون أي شيء آخر. وان رغبة المديريـن في الحفاظ على تكاليـف صيانـة المستعمرة عند أدنـى مستوى لها، وتـزويـد السفن بـالمؤن الطـازجـة بـأرخص الأسعـار الممكنـة، تصـادمت وتعارضت مع رغبة سكان المستعمرة في الحصول على الأسعار التي ظنوا انها حق لهم والتي يمكنهم بالفعل تحصيلهـا من ركاب وبحـارة السفن الأجنبية العابرة. لقـد كان هذا صراع مصـالح والـذي لم يتسن حسمه لمصلحة أي من الطرفين خلال فترة سيطرة الشركة. وإن نظرة سريعة إلى تطور زراعة وانتاج القمح والنبيذ والصـوف في مزارع المستعمـرة قد تساعـدنا على تـوضيح ما نقصده.

وللأسباب المذكورة آنفاً. مضـى وقت طـويل أطول مما توقع المديرون في أول الأمر قبل أن تصبح مستوطنة الكـاب معتمدة على نفسها وتفي بحاجتها من المواد الغذائيـة. وسرعان مـا أنتجت بساتين الخضراوات التي زرعهـا فان ريبيك كميات كـافية من الخضراوات الطـازجة لبحارة السفن التجـارية، كما أمكن الحصـول على ما يكفي من اللحـوم الطازجة عـن طريق المقايضـة مع الهتونتوت. ولكن الكـاب ظلت قرابة ثلاثين عـاما معتمدة على استيراد القمح والأرز من باتافيـا ومن غيرها. وتحسن الوضع مع اتسـاع رقعة المستعمرة، وكانت درجـة الخصوبـة الطبيعية للتربة تختلف من مكـان إلى آخر اختـلافا

واضحا، ولكن، وكما أشار منتزيل، لم تكن هنـاك سوى مزارع قليلة جدا هي المحرومة من مساحات ذات تربـة خصبة تتداخل مع رقع من الأرض الرملية والحجـرية. واعتـاد الفلاحـون جني المحـاصيل ثلاث سنـوات متتابعـة ثم يتركـون الأرض مراحـا السنة الـرابعة. واستخـدموا محارث تجرهـا ثيران يتراوح عددها ما بين ستة أو ثمانية أو عشرة ثيران مع فريق من ثلاثة رجال. والمحاصيل الأساسية هي القمـح والشعير والجاودار. وموسم الحصاد عادة في أيام عيـد الميلاد حيث تتكـاتف جميع الأيدي، بما في ذلك الأطفـال والعبيد، للعمل داخل الحقـول ابتداء من الفجـر حتى الغسق مع استراحـة للإفطـار الساعة السـابعة صباحاً، واستراحـة أخرى للقيلولة من السـاعة العاشرة إلى الساعة الرابعة حيث يتعذر العمل بسبب شدة الحر.

وعندما انتجت الكاب أول فائض من القمـح يصلح للتصدير طرأت فكرة تخصيص هذا الفائض لتصـديره إلى الأراضي المنخفضة، غير أن مجلس ادارة الـ ١٧ رفض هذه الفكرة باعتبـار انها غير عملية نظراً لأن تكلفة انتاج القمح في الكـاب تصل تقـريبـاً إلى ضعف تكلفتـه في أرض الـوطن. ومن ثم حـاول المديريـون تشجيع تصدير فائض انتـاج الكاب من القمح إلى باتـافيا. ولكن السلطات هناك أوضحت ان بإمكانهم الحصول على قمح أفضل وأرخص من البنغال وسـورات فضلاً عن أن أرزجـاوه متوفـر بين أيديهم. غير أن الموقف تغير بسبب الحروب المتعاقبـة بين أهالي جاوة والتي اقترنت بتحلل مـا تارام (١٧٠٤-١٧٥٥) وأدت إلى إهـدار وتبـديد مسـاحـات واسعـة من الأراضي المزروعـة. وقبل ان يحل عام ١٧٥٠ أصبحـت الكاب تصـدر سنـويا حـوالي ٢٠٠٠ طن من القمح إلى بـاتافيـا، علاوة على كميـات أقل إلى سيلان. وبعـد ١٧٧٢ أصبح في استطاعة فلاحي الكاب تزويد جميع المستوطنات الهولندية في آسيا بحـاجتها من القمح، فضلاً عن تصديـر القمح إلى الأراضي المنخفضة بعد الارتفـاع الكبير في أسعار القمح في سوق أرض الـوطن عقب عام ١٧٦٧. وأن الحرب الهولنديـة الانجليزيـة المدمرة التي دارت رحـاها خـلال الأعوام

١٧٨٠–١٧٨٤ وضعت نهاية لعملية التصدير إلى هولندا مثلما قضت على الكثير من أسباب رخاء المستعمرات الهولندية. ونشأت مشكلة محورها ما العمل بفائض انتاج القمح المخصص للتصدير. وظلت هذه المشكلة بدون حل إلى أن انهار حكم الشركة في عام ١٧٩٥. وطوال هذه الفترة عجزت الشركة عن أن تدفع للفلاحين في الكاب ثمناً مرتفعاً لانتاجهم من القمح يضاهي الثمن الذي يدفعه سكان مدينة الكاب. ولهذا آثر البرجوازيون الأحرار بيع قمحهم إلى الأجانب على الرغم من اللوائح والأوامر التي تصدرها الشركة بصورة دورية وتحذر من هذا الإجراء وتطالب بأن تكون الأولوية للشركة.

ويمثل انتاج وتصدير النبيذ مشكلة أخرى لم تتفق بشأنها آراء الشركة مع المنتجين. أدخل فان ريبيك عنب النبيذ وتم اختيار عديد من المهاجرين الهوجونوت في ثمانينات القرن السابع عشر لجذبهم في هذا الشأن ولكن مضى وقت طويل قبل أن تحظى أنبذة الكاب بقبول العملاء في بلدان أخرى. وعلى الرغم من تحسن نوعية النبيذ، وزيادة انتاجه باطراد، بل وتضاعفه فيما بين ١٧٧٦ و١٧٨٦، إلا أن الصادرات لم تتزايد بنفس القدر. وأقبل أغلب الزوار بشهية على أنبذة الكاب بعد رحلاتهم البحرية الطويلة، ولكن ما أن استقر بهم المقام في باتافيا أو كلكتا أو غيرها حتى يعودوا إلى سابق عهدهم واستحسانهم للمشروبات الفرنسية. واتفقت آراء دي لا كيل ومنتزيل وغيرهما من المراقبين الأجانب على امكانية تطوير وتحسين انبذة الكاب إذا ما حظيت مزارع الكرم بقدر أكبر من الرعاية. إذ أن معظم منتجي عنب الأنبذة لا يعرفون كيف يعالجون أنبذتهم بطريقة جيدة وسليمة. وإن من أجاد زراعة كرم الأنبذة وأجاد صناعتها احتفظوا بسر المهنة بغية الحصول على أسعار أعلى من الشركة أو من السوق السوداء. واضطر منتجو النبيذ إلى بيع انتاجهم للشركة بأسعار محددة. وأكد منتزيل ان احتكار الشركة لانتاج النبيذ لم يكن مثيراً لمشاعر الزراع، غير أن هؤلاء كانوا دائمي الشكوى من أن أسعار بيع أنبذتهم تعتمد إلى حد كبير على قرارات حفنة من سادة الشركة وأصحاب

الامتيازات.

ومن بين المشكلات التي أخرت تطور مزارع القمح خلال القرن السابع عشر ايثار أغلب المزارعين العمل في مجال تربية الأغنام والماشية نظراً لأن هذا المجال يحتاج إلى أيد عاملة أقل فضلاً عن توفرها. واعتمدت الشركة منذ البداية على نظام المقايضة في التجارة مع الهوتونتوت للحصول على حاجتها من الأغنام والماشية لتزويد سكان المستعمرات والسفن باللحم الطازج. وتغيرت هذه السياسة بسبب المشكلات الدورية التي كانت تنشب مع قبائل الهوتونتوت – وان لم تتفاقم لتصل إلى حد الحروب الطويلة – علاوة على مرض الجدري الذي كان يحصد أبناء القبائل. وعلى الرغم من أن السلطات أعطت الأولوية لانشاء مزارع لانتاج الأخشاب إلا أنها لم تضع العقبات في طريق اشتغال البرجوازيين بتربية الماشية. وزحفت مراعي الأغنام والماشية بعيداً إلى داخل الأراضي مما دفع المزارعين إلى البحث عن مراع جديدة في أرض شحيحة بمائها والتربة عاجزة عن توفير الكلأ. وضمت مراعي الكاب الأغنام وهي التي تشكل الغذاء لسكان المدينة. ولقد كان الزوار من ركاب وبحارة السفن التجارية الذين يعرجون على المدينة للبقاء فيها بعض الوقت يشكون من طبق الضأن اليومي وطريقة طهيه حيث يكثر الدسم. ويستخدم جلد الأغنام لصناعة الأحذية، غير أن الصوف غير ذي فائدة إذ كما يقول عنه منتزيل انه شعر وليس صوفاً».

وبذلت السلطات بين الحين والآخر جهوداً لتحسين السلالة عن طريق استيراد كباش فارسية وأخرى من نوع المارينو. غير أن هذه الجهود لم تحقق حتى نهاية سلطة الشركة نتائج ذات قيمة كبيرة بالنسبة لانتاج الصوف بحيث يصلح للتصدير. وفي عام ١٧٨٢ التمس بعض البرجوازيين والموظفين «السماح لهم بادخال صناعة خامات من الصوف». غير أن الجهات المالية المسئولة في الشركة رفضت التماسهم موضحة أن اقامة مثل هذه الصناعات يتعارض تعارضا مطلقا مع الرفاهية الحقة والنظام السياسي

السديد اللذين تستهدفهما هذه الحكومة، نظراً للآثار المعاكسة التي تؤثر بها هـذه الصنـاعة على الجهـود المبـذولـة لانعاش صنـاعـة النسيج في الأراضي المنخفضة. ومع هذا فإن تربية الأغنام من أجل لحم الضأن كان عملاً مربحاً ومنتجاً. إذ كـانت القطعان التي تضم ألفا من الأغنام تعتبر قطعـانا صغيرة. ونعـرف أن ثوبنـرج أقام مع مـزارع في بوكفيلـد يملك ثلاثـة آلاف رأس من الماشية واثني عشر ألف رأس من الأغنام. وقبيل نهاية القرن الثامن عشر كان في المزرعـة اكثـر من ١٢٥٠٠٠٠ رأس من الأغنـام على الـرغم من أن ٧٠٠٠ رأس منها فقط من النوع المنتج للصوف*.

وإذا كان اتجاه الشركة نحو تطوير الزراعة في الكاب تأثر أساسا برغبتها في الحفاظ على الأسعار منخفضة مع ضمان رخص أسعار الامدادات الغذائية اللازمة لسفنهـا قدر المستطاع، إلا أنه لم يكن اتجاها معوقـا تماما. ففي عام ١٧٠٦ ونتيجة لشكاوى كثيرين من سكـان المدن البرجوازيين ضد الحاكمين سيمون وفان دير ستيل لأنهما، كما قيل، استأثرا لأنفسهما بمساحات كبيرة من أجود الأراضي لتكـون مزارع خـاصة بهما (١٦٨٥-١٧٠٥)، فقـد حظر مجلس ادارة الـ ١٧ على مـوظفي الشركة وجميع العـاملين بها امتلاك أراض واسعة أو العمل بالزراعة. ولم يكن هنـاك التزام دقيق بهذا القانون طالما وأن بالامكان التهـرب منه عن طريق زواج يجرى اختياره بطـريقة حكيمة. ولكن القانـون ضمن بأن البرجوازيين الأحـرار العاملين في مجال الزراعـة أو انتاج النبيـذ لن ينافسـوا الموظفين من كبار مـلاك الأراضي. وضمن البرجوازيـون والمزارعون في الكاب حصة معقولة لمنتجاتهم في سوق أرض الوطن حتى وإن لم يتسن لهم الحصـول على الأسعار التي طلبوهـا ثمناً لانتـاجهم من القمح والنبيذ والصـوف، بل وحتى ان لم يستطيعوا دائماً تصدير فـائض انتاجهم من هذه السلع.

---

* O. F. Mentzel; Description of the Cape; Val. III; pp. 210-12.

ومـا أن انتهت الأيـام الطليعيـة الـرائدة للحـاكم فـان ريبيك وخلفـائه المباشرين حتى بات بالامكـان تقسيم المجتمع الأبيض في الكاب إلى مجموعات ثلاث رئيسية! البيروقراطيون أو موظفو الشركة، سكان المدن (البرجوازيون) الأحرار سكان مدينة الكاب، وسكـان الريف الأحرار أو البوير. ويشكل كبار موظفي الشركة الثمانيـة ما عرف باسم «مجلس الحكومـة» برئاسة الحاكم. ويجتمع هـذا المجلس (بـاستثنـاء الحاكم) أيضـاً مرتين أو ثـلاث مـرات في الأسبوع باعتباره هيئة العدالة. وابتداء من عام ١٦٨٥ انضم الى عضوية هذه الهيئة اثنـان (ثم ثلاثة بعـد ذلك) من ممثلي سكان المدن» البرجوازيـة، وكان يسمح لهم أحيـانا بتمثيل زملائهـم من المواطنين في مجلس الحكومـة» أيضاً وكـان بعض كبـار الموظفين، وهم دائما على وجه التقـريب من أبنـاء الأراضي المنخفضة المولـودين في أوروبا، على وعي بتميزهم الثقافي المزعـوم على سكان المدن البرجوازيين وأكثرهم من هـولنديين أو فرنسيين أو ألمان أو محليين من أصـول متـواضعة. ولكن من المؤكـد أيضـاً وبنفس الـدرجة ان العـلاقـات الاجتماعية بين البيروقراطيين وبين سكان المدن البرجـوازيين أقل توتراً وأقل شكلية مما كانت عليه في باتافيـا. وان منتزل الذي أشار إلى التوتر القائم بين الهولنـديين المولودين في أوروبـا وبين المولـودين الـذين يجمعون بين الـدم الأوروبي والأفـريقي، لاحظ أيضـاً أنه «في المنـاسبـات العامـة مثل حفـلات الـزفاف ومـا شاكلهـا غـالبا مـا كنت أشـاهد صغـار التجار بل ومـوظفين يرقصون مع بنـات اساكفة بينما ترقص بنـاتهم مع أبناء تجار. وتمتع كبار التجار بحق التميز والتبجيل لعضويتهم في الحكـومة ومجلس رئاسةالدولة. ولكن لا أحد سواهم ينظـر إلى نفسه باعتباره أفضل من جيرانـه. ولقد كانت الأرامل ذوات الثراء في باتافيا مولعات بالـزواج برجال الدعوة والوعظ، ونجد لهذا الميل نظيره في منطقة الرأس، كما يحكى منتزيـل» حيث أن رجال الدعوة والوعظ يحتلون مـرتبة أعلى من التجار العاديين، ويتقاضـون مرتبات كبيرة ومنحا وعـلاوات اضافية سخية، فقـد كان باستطـاعتهم دائماً أن يكون لهم

السبق على نظرائهم»*

وحوّل أغنياء البرجوازيين في مدينة الكاب بيوتهم إلى دور ضيافة لضباط وركاب السفن التجارية التي تعرج للـراحة في مدينة الكاب، بينما فعل «أبناء العامة» الشيء نفسه من أجل البحارة والجنـود. ولوحظ أن أغلبية زوار مدينة الكاب في القرن الثامن عشر امتدحـوا الإناث من طبقة البرجوازيين لما تتحلين به من ميزات في نظرهم على الذكور، زاعمين أنهن أكثر حيوية وذكاء ولكن هذا قبل الزواج. ولم يكن ستافور ينوس وحـده الذي استنكر كسل وجهل أثرياء الذكور من أبناء طبقة البرجوازيين الذين اعتادوا حياة الخمول شأن نظرائهم في باتافيـا. «الرجال الذين هم من أحرار المدينـة نادراً ما تقع عليهم العين على متن السفينة! إنهم عادة قعيدو البيت، يخلعـون لباسهم، ويقضون وقتهم في تدخين الغليون، والمشي في تراخ وتلكؤ ذهابا وجيئة داخل بيوتهم. وبعد الغداء يقيّلـون حسب العادة الهنـدية وفي المسـاء يلعبون الـورق. إنهم لا يدأبـون القراءة، ومن ثم يغلب عليهم الجهل، ولا يكادون يعـرفون شيئاً عما يدور في أنحاء المعمـورة، إلا سمعوه على لسـان الأجانب الـذين يزورونهم بين الحين والآخـر». ويرسل بعض البرجـوازيين الأثريـاء أبنـاءهم للتعلم في جامعـات هولندا أو ألمانيـا، ويعود هؤلاء ولديهم حصيلة مـن المعارف أفضل من كل ما كان يمكن تحصيلـه في مدارس الكـاب الابتدائيـة أو مما يمكن تعلمـه على يد الجنود الألمان والضبـاط الذين كـانوا يعملون أحيـاناً معلمين لحسـاب كبار البرجوازيين والمزارعين.*

وأن القيود التي فـرضها ستافورينـوس لم تطبق بحذافيرها كـاملة على فقـراء البرجـوازيين الـذين يستضيفـون في بيـوتهم بحـارة وجنـود السفن التجاريـة ويمارسون عـلاوة على هذا حـرفة منتظمـة مثل الحدادة والنجارة والخياطة وغيرهـا. وحققت زوجات هؤلاء عادة؛ كما لاحظ منتـزيل، مكاسب

---

* J. S. Stavorinus; Vayages, 1768-1778, Val. III, pp. 435-42.

مــالية عن طــريق تـهريب البضــائع مع ضيــوفهم من النزلاء أو مع الفــلاحين القادمين من داخل البــلاد لزيــارة مدينة الكــاب. وفي هذا الصــدد يلاحظ أن جميع سكان المدينة سواء الفقراء أم الأغنياء، اشتغلوا بالتجارة الخاصة سواء مباشرة أو (وهو الأغلب عادة) عن طــريق زوجاتـهم. وتشتمل تجارة التـهريب على عنصر للمضــاربــة يتمثل في اعتمادها على وصـــول ورحيل السفن التي لا يمكن التكهن بدقــة حمولاتها، والسوق الســوداء عرضـــة للتقلب بين حالتي التخمة والنــدرة. ويمكن القول بوجــه عام أن تلك المؤن التي يجري انتــاجها محليــا تميــزت برخص أسعــارهــا الشــديــد في الكاب، أمــا السلع المصنعــة المستوردة فكانت باهظة الثمن. واعتاد ركاب وبحارة السفن المتجهة إلى أرض الوطن ان يحملوا معهم الشاي والبن والخزف الصيني والحرير والمنسوجات القطنية وغير ذلك من سلع شرقية لبيعها لحسابهم الخاص، أما ركاب وبحارة السفن المغــادرة أرض الــوطن فكانــوا يحملــون معهم سلعــا وأطعمة معلبــة أوروبية. ووجــدت جميع السلع الأوروبية ســوقا رائجــة لها في الكاب بما في ذلك البيرة والجبن الهولنــديــان نظــراً لــرداءة الأنــواع المحليــة ولحسن حظ مضيفي «حانة مجمــع البحرين» أن البحارة والجنود من زوار المنطقــة كانوا مطلقي اليد في إنفاقهم، ويبددون القسط الأكبر من مــدخراتهم التي ادخروها على مدى أعوام خلال أيام قلائل من إقامتهم في الكاب.

ولم يغب عن نظــر أي زائر يزور الكــاب زيارة غير قصيرة وجه التبــاين والمقارنــة بين البرجوازيين وسكــان مدينة الكــاب وسكان الــريف في المناطق الــداخلية والمعــروفين باسم البــويــر. وكلمة بــوير هي في الأصل ذات دلالــة استهجانية على نحو ما تبين من الترجمات الانجليــزية في القرن السابع عشر لكلمتي «جلف» و«مهــــرج». ورأى فــان ريــــد في عــام ١٦٨٥ ضرورة تغيير مصطلح «البرجوازيين الأحــرار» إلى «المزارعين وأجراء الفلاحيين» مستهــدفاً التأكيد على أن دورهم هــو العمل في مجال الزراعة دون التجــارة. ومع مرور الوقت انقسم البويــر إلى فئتين. فريق عاش قريباً من مدينــة الكاب وتيسر له

العمل في زراعة كرم النبيذ ومزارع لأشجار خاصة بانتاج الأخشاب فضلا عن تربية الأغنام والماشية. والفريق الثاني يسكن مقاطعات الحدود المتغيرة ويقتصر عملهم على تربية الماشية نظراً لطبيعة التربة ونقص الأيدي العاملة وبعد المسافة عن مدينة الكاب وقلة الطرق فضلاً عن رغبتهم هم أنفسهم في العيش بحرية بعيداً عن القيود التي تفرضها بيروقراطية المدن.

والجدير بالذكر ان قطاعا كبيراً من مساحة أرض قطرها حوالي خمسين ميلاً من مدينة الكاب تحولت إلى مزارع حرة تفصل بين الواحدة والأخرى مسافة يقطعها الراكب في ساعة كاملة، أما المقاطعات النائية فقد حصل عليها حائزوها على سبيل الإعارة أو الإيجار، إذ يستأجر حائز الأرض من الشركة «الأرض والتربة» مدى الحياة، ودون أي ضمان بأن الحكومة تكفل استمرار المنحة لمصلحة ورثته. وإذا أقام المالك مباني على الأرض تكون ملكاً له، وله حق بيعها هو أو ورثته إذا ما طرد من الأرض. ومع زيادة نسل الأسرة وكثرة عددها يخصص عادةالفلاح نعجة لمصلحة المولود الجديد عند ولادته وتكون ذريتها المتوالية هي وأولادها ملكا للطفل. وهكذا تتكون لكل طفل نواة لقطيع كبير يزداد عددا بمرور السنين. ولهذا يتوفر الحافز الذي يحفز كل شاب للاستقلال عن مزرعة الأب لكي يقيم مزرعته المستأجرة في مكان مستقل. وصدرت تعديلات جديدة للتشريعات الخاصة بالأرض في عام ١٧٤٩ تسمح بتحويل ستين مورجن من كل مزرعة معارة إلى حيازة حرة ويظل الباقي على وضعه القديم عارية قابلة للرد إلى الشركة عند طلبها.

وكثيراً ما أهلك الجفاف والفياضانات والأمراض والكوارث الطبيعية على اختلاف أنواعها القطعان الأولى. ولكن الطبيعة عادة ما تعوض سريعاً الخسائر الناجمة عن مثل هذه الظروف. وكان أغلب البوير أحسن حالا من نظرائهم في أوروبا، على نحو ما أشار عن حق منزل حين قال: «يملك الكثيرون من البوير ما بين ٢٠٠ إلى ٣٠٠ ثور و١٠٠ إلى ١٥٠ أو أكثر بقرة، و٢٠٠٠ إلى ٣٠٠٠ من الأغنام و٤٠ إلى ٥٠ من الخيل، و٢٠ إلى ٣٠ أو أكثر

من العبيد الأرقاء، واقطاعية واسعة. لذلك فإن الرجل من البوير الأفارقة لا بد وأن يفكر مرتين إذا ما عرض عليه أن يغير مكانه ويبدله مع نبيل ألماني.*

وهنـاك غيرهم بطبيعة الحال، خـاصة من يعيشـون على حافـة الحدود المتغيرة، ليسوا في ميسرة شأن أولئك القـريبين من مدينة الكاب. قـد يملكون، وهم بالفعل كانـوا يملكون أعدادا كبيرة من الأغنام والماشيـة. ولكن نادراً ما يملكـون أكثـر من ستـة من العبيـد والهوتنتـوت للعمل في خـدمتهم، وربما يملكـون عبـداً واحداً أو اثنين فقط. وكـان بعض الموظفين والبرجـوازيين من سكان مـدينة الكـاب يملكون اقطـاعيات صغيرة من الـريف وبيوتـا جميلة يسكنـونها ونجد رسـومـا تصـور بيوتهم في كتب من تأليـف أليس تروتـر ودوروثيا فير بريدج. ولم يحقق أي من هؤلاء الفلاحين أو ملاك الأراضي ثروة طائلة، نظراً لأن مدينة الكاب لا تتوفر فيها الظروف التي تسمح بتراكم الثروة أو تحتاج إلى اتفـاق كبير، ناهيك عن دورات الكساد المتواليـة التي تعاقبت في ظل سيطرة الشركة.

وطبيعي انـه كلما بعدت المسـافة عن مـدينة الكـاب كلما كانت ظـروف المعيشة أكثر بـدائية. ونجد آخر البيوت المكسـوة بالجص في منتصف القرن الثامن عشر بـالقرب من خليج مـوسيل أما الرعـاة وصيادو الحيوانـات فقد كانـوا يعيشـون في أكواخ متـواضعة أو خيـام ويجمعون قطعانهم ليـلاً بعد الرعي. وكثيراً ما اتهم سكان مدينة الكاب الزوار الأجانب البوير الموجودين في المقـاطعـات الحدوديـة بأنهم يعيشـون على طريقـة الهوتنتـوت. وهـا هـو ستافـورينوس، على سبيل المثال، بعـد أن قضى الليل في مزرعة بـالقرب من الكاب يتحـدث بحماس عن مضيفـه في صحيفته في اليوم التـالي حديثـا يليق بأحد المعجبين برجل مثل روسو أو رانيال. «يا لهم من مخلوقات سعيدة بكل مـا تعنيه السعـادة، أولئك الـذين يقيمـون هنالك عنـد الطـرف الأقصى من

O. F. Mentzel Life at the Lape; pp. 39-129-30.

المعمـورة وسط بـراري أفريقيـا التي كـانت قبل ذلك أرضـا عـارية جـرداء معزولة. إنهم يستطيعون أن يحيوا حيـاة القناعة والرضا والبراءة». ولم يكن مجاملا بهذه الطـريقة في حـديثة عن البويـر الذين يسكنـون منطقة الحدود النـائية والـذين يصفهم بقـولـه «إنهم في سلـوكهم ومظهرهـم أكثر شبهـا بالهوتنتوت دون المسيحيين»*

أما ثونبرج الـذي توغل في الداخل أكثر مما فعل ستافـورينوس فقد كتب يقول عن البوير: سكان الريف لديهم وفرة من المؤن، ونقص في الأثاث. كثيراً ما تقع العين على كراسي ونضد صنعها الفلاح بنفسه، يغطيها بجلد العجل أو يصنعها من طبقـات الجلد. وأرضية البيـوت من تراب مدكـوك وناعم. ولكي تكون الأرضية صلبة متماسكة فإنهم يدكونها بمزيج من الماء وروث البهائم أو بـدم العجول، وهي طـريقـة تجعلها زلقـة في الوقت نفســه. أمـا النوافـذ الزجاجية فهي من الأمور الشديدة الندرة، ولا تجد في بيوت الفلاحين شرفات أو علّيّات أو اسقفاً خشبية، وترى أشعة الشمس مستقرة دائماً على الجدران. والبيوت، أو إن شئت الـدقة الأكواخ التي من هـذا النوع مبنية بـالطوب اللبن الذين يشكلـونه على هيئـة قوالب ويجفف في الهواء وهـذا هو النـوع الشائع والنمطي للبيـوت التي يسكنها البـوير الـذين لا يعـرفون البيـوت الفاخـرة الموجودة في جروت كـوستانتيا، أو جروت شير التي تحظى بـاعجاب السياح هذه الأيام*. والطرقات نادرة مما جعل نقل السلع الثقيلـة بالعربات أمراً غير عملي سواء من المزارع أو إليها، فيما عدا فترة الصيف عندما ينخفض منسوب ميـاه الأنهار ويغـدو من السهل على الثيران الخوض في المياه الضحلـة وجـر العـربات. والأخشـاب نـادرة كـذلك في كثير من الأحياء، ممـا اضطـرهم الى استيراد الفحم من أوروبا ليستخدمه الحدادون.

* J. S. Stavorinus; Vayages, Val. II, P. 71-2.
* C. P. Thunberg; Travels, 1770-1774 Val. I. pp. 256.

واعتاد أبناء الفلاحين على شظف العيش خارج دورهم منذ سن الشباب الباكر حيث يعملون بحراسة قطعان آبائهم والطراد والتجارة (غير المشروعة) في قطعان الماشية مع الهوتونتوت. ومع مرور السنين وتوالي الأجيال شعر أبناء سكان مناطق الحدود بالحاجة الملحة إلى الزحف إلى داخل الأراضي. وبهذه الطريقة تجاور الرعاة والصيادون من البوير مع الهوتونتوت عند أفضل مراعيهم ثم تجاوروا معهم في الأراضي الزراعية التي لا تعنيهم كثيراً. وهكذا توغل البوير اكثر فأكثر حتى جاوروا قبائل البانتو المتجهة جنوبا في سبعينيات القرن الثامن عشر. ونشبت حتما صدامات مسلحة بسبب المراعي وسرقة قطعان الماشية، هذا على الرغم مما بذلته حكومة الكاب من محاولات يغلب عليها الطابع الشكلي لتثبيت خط الحدود بين البيض والسود على طول امتداد نهر السمك العظيم أو .Great Fish River

واتجه موظفو الشركة أحيانا باللوم إلى بوير الحدود واتهامهم بأنهم هم الذين يثيرون تلك النزاعات، ورفضوا اتخاذ اجراءات عدوانية ضد البانتو وأثار هذا الموقف ضيقا شديدا لدى البوير الكالفنيين في منطقة جراف رينت. واقتفى أثرهم بوير منطقة سويليندام. ومن ثم أعلن هؤلاء وهؤلاء تخليهم عن ولائهم الإسمي لشركة الهند الشرقية في عام ١٧٩٥. وحدث ذلك في الوقت الذي آل فيه نجم الشركة إلى الأفول. وأعلنوا أيضاً ولاءهم كرعايا لمجلس عموم الولايات ولكن مع حقهم في الاستقلال الذاتي لإقليمهم بالكامل. وحري ألا نأخذ اعترافهم بالولاء لمجلس عموم الولايات مأخذاً جادا على الاطلاق، ذلك لأن كثيرين ممن زاروا منطقة الكاب في أواخر القرن الثامن عشر لحظوا أن البوير اعتادوا النظر إلى جنوب أفريقيا باعتباره أرض الآباء وليس الأراضي المنخفضة المطلة على بحر الشمال التي لم تكتحل عيونهم بها. وإن السهولة التي احتل بها الانجليز منطقة الكاب مرتين (١٧٩٥و١٨٠٦) مؤشر آخر على الضعف النسبي في مشاعر الأفارقة المولدين تجاه هولندا. وهناك من اتّهم الرائد جيمس بريور بالمبالغة قليلاً عندما أشار بعد ذلك بسنوات قلائل إلى

مشاهداته وقال: «حسب معلـوماتي فإن البوير (الأجلاف) لا يعنيهم في كثير أو قليل من الذي يملك مدينة الكاب هل هم الانجليز أم الصينيون طالما وأنهم يتمتعون بميزة بيع قطعانهم ويربحـون من ورائها، وطالما أنهم بعيدون عن تطبيق القيـود التشريعيـة عليهم. وانما يجب أن نضيف أن بعض جـاليـات الحدود كانوا واعين بعزلتهم الثقافية واعتادوا تقديم التماسات بشكل دوري إلى السلطات لكـي ترسل اليهم قســاوسة كالفنيين مقيمين ومـدرسين. ولكن قليلين جداً من قبلـوا التطوع للعمل في هذه البراري النائيـة حتى حينما أبدت الشركة استعدادها لتحمل النفقات.*

وهنـاك عـلاوة على فئـات البيروقراطيـة والبرجـوازيين أو سكـان المدن والبويـر، فئة رابعـة من البيض في الكاب تستحق أن نعـرض لها هنا بإيجاز. ونعني بهذه الفئة المستخدمين بعقود ويسمون نخت Rnechts وأغلبهم من العاملين في الحاميـة العسكرية. إذ حينما يجد الفـلاح نفسه عـاجزا عن ادارة مزرعته أو مـزارعه بنفسه فإنه يتقـدم إلى سلطات مدينة الكـاب بطلب يعرب فيه عن حـاجته لخدمـات جندي من جنود القلعـة أو (وهو نـادراً ما يحدث) بحار من العـاملين بالمستشفى، وإذا ما تطـوع للعمل في خدمتـه رجل ملائم للخدمات المطلوبـة واتفق مع المزارع على شروط العمل، تسرحه السلطات من خدمة الجيـش - وان ظل بالامكان استدعـاؤه للخدمة العسكرية ثـانية وقت الطوارىء ومـن ثم «تعيره» السلطات للفـلاح لمدة عام. ويمكن تجديـد عقده سنويـا والأجر شهـريا عـلاوة على المأكل والمبيت. أما من يستـأجره المزارع للعمل معلما لتعليم أطفـاله فيبـدأ راتبـه بـ ١٤ فلـورين شهـرياً مع زيـادة سنويـة. ويشير منتزل الذي عمل هو نفســه مستخدما إلى هذا فيقـول: «هذا الشكل من العمالـة كان بمثـابـة خطـوة على الطريق نحـو الثـروة بالنسبـة للأكفاء. وكثيراً ما كان الرجل من هذا النوع من الرجال يتزوج بابنة سيده أو

* J. Prior, Vayages Along the Eastern Coast of Africa [London, 1819] p. 11.

بأرملته. ولقد عرفت في واقع الأمر حالات عمدت فيها الأرامل إلى استخدام رجال بهدف الزواج منهم». وطبيعي ان تحقيق ثروة أو الاستفادة من هذا الاسلوب لم يكن ميسوراً لجميع المستخدمين، ولأولئك الذين لم يهبطوا إلى مستوى «البيض الفقراء» الذين كسبوا مالا أقل من الملونين الأحرار المهرة بل وأقل من بعض العمال من العبيد».

ولكن تشكيل الجنود السابقين نظارا أو مشرفين لم يحل مشكلة الأيدي العاملة بالنسبة للمزارعين. وأمكن حل المشكلة جزئياً عن طريق استيراد العبيد. ونظراً لأن مجلس ادارةالـ ١٧ حظر بشدة استرقاق الهوتونتوت والبوشمان، فقد اضطرت سلطات مدينة الكاب إلى جلب حاجتها من العبيد من أماكن نائية. وأصبحت موزمبيق ومدغشقر أهم سوقين للرقيق. واستوردوا أيضا الكثير من العبيد من خليج البنغال ومن اندونيسيا، وكان عددهم قليلاً أول الأمر. إذ كان هناك في البداية حوالي ٨٠٠ من الرقيق البالغين في مدينة الكاب خلال القرن الثامن عشر، ثم وصل تعدادهم إلى ٤٠٠٠ بعد خمسين عاما، وبعدها إلى ١٠٠٠٠ في عام ١٧٨٠. وخلال القرن السابع عشر تزايدت سريعاً أعداد سكان المستعمرات عن أعداد العبيد، غير أن الوضع انعكس خلال النصف الأول من القرن الثامن عشر. وكان كثيرون من العبيد الهنود والأندونيسيين فنانين أو حرفيين مهرة، ولوحظ أن بعض الأندونيسيين الذين يوصفون عادة باسم أبناء الملايو، حرصوا على أن يميزوا أنفسهم ويعيشوا بمعزل عن جمهرة الملونين، ولا يزالون على عادتهم هذه حتى اليوم. والجدير بالذكر ان دمهم به مزيج قليل من الدم الزنجي، وحافظوا على بعض الأغاني الفلولكلورية الهولندية القديمة، كما التزموا بعض طرق التعبير الهولندية في النطق والتي لا نجدها الآن بين البيض المولدين.

وناقش الحاكم ومجلسه في عام ١٧١٦ مسألة ما إذا كانت الأيدي العاملة البيضاء الحرة أفضل اقتصاديا أم العبيد والملونون. وأيد أعضاء المجلس بقوة

ودون تردد، فيما عدا قائد الحامية، تشغيل العبيد. وزعم أحد أعضاء المجلس ان دارسة دفاتر حسابات الشركة كشفت عن أن تشغيل العبد يتكلف سنوياً ٤٠ فلورين بينما تكلفة العامل الأبيض تصل الى ١٧٥ فلورين. وقيل أيضاً أن العبيد أكثر طواعية وأقدر على تحمل العمل الشاق على أمل اعتاقهم فيما بعد، بينما العمال البيض أميل إلى معاقرة الخمر والتعطل، وطعن قائد الحامية في دقة هذه المعلومات، وأكد بقوة أن العامل الأبيض سيكون أرخص تكلفة على المدى البعيد، وأكثر فائدة من أجل تنمية المستعمرة تنمية صحية سليمة. وقال ان العبيد سيظلون دائماً عبئاً مكلفا وبغيضا بسبب التكلفة الكبيرة لرحلات جلب العبيد، ومعدلات وفياتهم العالية ونزوعهم إلى الهرب فضلاً عن ضرورة توفر عدد كاف لإلزامهم بالانضباط ومتابعتهم. ووقف الحاكم مع الأغلبية، وأضاف إلى ما قالوه أن أي إنسان يشك في ضرورة الرقيق كأيد عاملة «عليه أن يلقي نظرة ليتبين كيف يجري العمل، بكل أنواعه، في جميع أنحاء آسيا وفي جميع المستعمرات في جزرالهند الغربية وفي سورينام وغيرها. وكان لهذا القرار أهمية حيوية نظراً لأن مجلس ادارة الـ ١٧ وافق عليه ولا سبيل لبذل جهود إضافية لتشجيع هجرة المزارعين الأوروبيين بأحجام كبيرة. وتزايدت أعداد العبيد باطراد، وبدأت مزارع أشجار الأخشاب تعتمد أكثر فأكثر على العبيد طوال الفترة التالية من القرن*.

كان العبيد في منطقة الكاب طائفتين رئيسيتين: طائفة تتبع الشركة، وأخرى تتبع الأفراد من موظفين وبرجوازيين والبوير. ومن المقدر نظرياً ان عدد عبيد الشركة ينحصر في ٤٥٠ فرداً، ولكنهم عمليا يتراوحون ما بين ٦٠٠ و ٨٠٠. ولم يعمل هؤلاء لدى الشركة حمّالين وبنائين وطحانين وصانعي أوان وعمال ملبنة وساسة خيل وممرضين وبستانيين وعمال تسقيف أو تجليد كتب .. الخ الخ. لحساب الشركة فقط بل كانت تعيرهم أو تؤجرهم للعمل في الخارج لحساب مختلف الموظفين الذين كانوا يسيئون استعمال هذا الحق

V. de Rock; those in Bondage. (Cape Town, 1950).

بتشغيل الرقيق وقتا أطول مما هو مسموح به. واعتمد أكثر المقيمين في مدينة الكاب في أداء أسباب معاشهم على عبيدهم الذين تدربوا على مهن وأعمال مختلفة ويؤجرون للعمل باليوم أو بالشهر. وتميز العبيد الذكور الأندونيسيون كعمال بناء ونقاشين وصانعي حلوى وطهاة وصيادي أسماك، وتميزت أكثر النساء في أعمال الخياطة. وعمل العبيد الزنوج في الأعمال الشاقة مثل تحميل وتفريغ السفن، وفي مزارع الكرم والمزارع العادية ومزارع الخضراوات المملوكة للمستعمرين.

وإحدى القسمات المميزة للحياة في مدينة الكاب والتي استحوذت على إعجاب كثيرين من الزوار الموهبة الموسيقية التي تحلى بها العبيد من أبناء الملاوي ومهارتهم في العزف السماعي للموسيقى. وكتب في هذا الصدد ليخت نشتين عام ١٨٠٣ فقال «أعرف الكثير من البيوتات الكبيرة التي لا يوجد بها واحد من بين العبيد لا يعرف العزف على آلة من آلات الموسيقى، وحيث يمكن تشكيل جوقة موسيقية على الفور إذا ما طلب أهل البيت ذلك عند زيارة بعض معارفهم لهم بعد الظهر وأرادوا التسرية عنهم بالرقص لساعة أو ساعتين. والأمر لا يحتاج غير إيماءة بالرأس حتى يغيِّر الطبّاخ المغرفة التي في يده ويبدلها بفلوت، ويترك السائس مشط الخيل ويمسك الكمان، ويسقط البستاني الفأس من يده ويجلس إلى آلة التشيلو». وها هو وليام هيكي الذي كان يزهو بنفسه كواحد من خيرة العارفين بفنون الموسيقى ومعرفته بالخمر والنساء ويؤكد أن العبيد عازفي الفلوت الذين صاحبوا فرقته قدموا أعذب الألحان التي سمعها في حياته».

واستحسن معظم الزوار الأجانب معاملة ملاك العبيد في الكاب لعبيدهم فيما عدا ذلك الشكس جون بارو. وإن كابتن جيمس كوك الذي شاهد أغلب بلدان العالم وتفوق في هذا على معاصريه وآراؤه جديرة بالتقدير والاعتبار كتب يقول في عام ١٧٧٢ «كبار القوم من سكان الكاب يملكون أحيانا في بيوتهم ما بين ٢٠ إلى ٣٠ عبداً والذين يعاملون عادة في لين ورفق كبيرين،

ويصبحون أحياناً أثيرين لدى سادتهم الـذين يمنحونهم ملابس جيدة جداً، ولكنهم يلزمـونهم بعدم استخدام أحـذية أو جوارب – إذ أن الأقدام العـارية هي شعار العبـودية. وطبيعي أن كانت هناك استثنـاءات، وربما كان السادة القساة الغلاظ اكثر عدداً نسبياً بين المنـاطق العليا التي يسكنها البوير منهم بين البرجوازيين سكان مدينة الكاب، وان تنـاقضت الشواهد ازاء هذا الواقع. ولم يكن العبيد محرومين تماما من أي وسائل مشروعة للقصاص، ولهم حق التماس اعفائهم إذا ما عوملوا بغلظة وقسوة أو لم ينالوا كفايتهم من الطعام. ولا ريب في أنهم لم تـواتهم الجرأة دائماً وأبدا على تقـديم مثل هـذا الالتماس ولكن ثمة شـواهد مسجلة لبعض الحالات التي التمسوا فيهـا ذلك. مثال ذلك أنه في عام ١٦٧٢ اشتكى العبيـد العاملون في شركة الى المفوض العـام ارنولد فان أو فربيك أثناء زيـارته للمنطقة من نقص حصصـهم من التموين ونقص الملابس. وتم بحث الشكوى وتبين انهم على حق، وصـدرت الأوامر بضرورة تحسين حالهم مستقبلاً من حيث الطعام واللباس.

أما الأفـراد من ملاك العبيد الـذين أصبحوا مكـروهين بسبب معاملتهم السيئة لعبيـدهم فقد كانوا عـادة – وليس دائماً – يلقون العقاب جـزاء هذه المعاملة. وفي حالات قليلة بالغة القسوة تم ابعاد الرقيق عن سيطرة أصحابهم المعـذبين الساديين. ويمكن القـول بـوجـه عام أن حظ الـرقيق في الكـاب من الطعام واللبـاس كان كافيا تمامـا طوال القرن الثـامن عشر، كما انه اتخذت اجراءات لتعليم أطفـالهم. إذ أنشأت الشركة مدرسة أوليـة لتعليم أبناء بعض العبيد من العاملين لديها مبادىء القـراءة والكتابة والحساب علاوة على اللغة الهولندية. وحدث أحيانا أن بعض ملاك العبيد الأفراد علّموا أبناء عبيدهم مع أبنـائهم سواء في المدرسـة الأوليـة أم في بيوتهم. ولم يكن من غير الشـائع أن تعتق الشركـة أو يعتق ملاك العبيـد الأفراد من رقيقهم وفق ظـروف وشروط معينة مع ضمان انهم لم يشكلوا عبئاً على المجتمع. ولكن العبيد الذين ارسلوا مباشرة إلى المقاطعات المتحدة فقد حصلوا على حريتهم إذ اعتقوا فور وصولهم

بناء على قاعدة وضعها مجلس ادارة الـــ ١٧ في عام ١٧١٣، أي قبل ٦٠ عاماً تقريباً من صدور حكم لورد مــانسفيلد الذي يقول فيه ان العبد يغدو حرا في اللحظة التي تطأ فيه قدماه أرض انجلترا.

وعلى الرغم من أن العبيد كانوا، على الأرجـح، يلقون معاملة في الكاب أقل منها في أي مكـان آخر، إلا أن هذا لا ينفي حقيقـة أنهم كانوا يعـاقبون بسبب جرائمهم بقسوة ووحشية وفق سياسة معتمدة. ويحكى منتزل كيف أن أحد رجال الحكومـة منعه زملاؤه في مجلس العدالة من إساءة استخـدام سلطاته القضائية بصورة مبالغ فيها، إذ كان مسموحاً له أن يفعل ما بدا له مع العبيد الهاربين أو غيرهم من المجـرمين من أبناء هـذه السلالـة، وذلك لأنه لا أمــان لحيـاة أي إنســان مـــا لم يتم ردع المواطنين لمنعهم من اقتراف الجرائم وذلك بتطبيق العقوبات القاسية عليهم مثل الشنق والخوزقة وغيرها. أما الأوروبي فلا بد وأن يكـون قد ارتكب جريمة شديدة الخطـورة لكي يصدر ضده حُكم بالإعدام. وخلال السنـوات الثماني التي قضيتها في الكاب (١٧٣٢–١٧٤٠) لم يصدر حكم بـالإعدام إلا على ستة مــن الأوربيين فقط، وكانوا يستحقـونه بالفعل». وهنــاك من تشكك في دقة هـذه الملاحظة. ونحن نعـرف ان التعذيب كان شائعاً ومشروعا بموجب القانون الروماني الهولندي، وكان يطبق أحيانا على البيض، ولكن شهادة منتزل أكدها ستــافورينوس الذي كتب بعد أربعين عاما تقريباً كما تؤكدهــا القراءة المتفحصة للمراسيم والأحكام التي تضمنها كتاب Kaapse Plakaatbook عن الأعـوام ١٦٥٢–١٧٩٥. ومن المسلم بـه حتما أنه في أي مجتمع عبـودي يلقى العبيد عقــابا أشد قســوة ووحشية من الأحرار جزاء الجرائم ذاتها – وإن تصادف وقوع أمثلة مناقضة أحياناً.

وكان معدل الوفيات بين العبيد في الأغلب مرتفعاً، خاصة في القرن السابع عشر حيث كان الوافدون الجدد من العبيد يعـادلون تقريبا المتوفين ولكن زاد كثيراً معدل المواليد بين السكان العبيد خلال القرن الثامن عشر، «حيث ساهم في زيـادته المواليـد غير الشرعيين نتيجة العـلاقـات غير الشرعية بين الجنـود

والبحارة وبين الاناث من العبيد»، كما أوضح منتزل. إذ كان الجنود والبحارة يصطفون كل مساء لهذا الغرض خارج مسكن العبيد العاملين في الشركة قبل أن تغلق البوابة الساعة التاسعة مساء. ويؤكد بعض المؤرخين المحدثين المولّدين أن «سكان الكاب الملونين» جاءوا جميعاً من آباء من هذه العناصر العابرة المشاكسة، بل ويضيفون إلى هذا قولهم إنه لا البرجوازيون ولا البوير انغمسوا في عمليات التزاوج المختلط بنساء سوداوات سواء كن من الرقيق أم حرائر. وهذه مزاعم لا يمكن قبولها إزاء شواهد موثقة تناقضها. ولقد صدرت مراسيم حكومية متوالية في مدينةالكاب أدانت «الناس غير المسئولين سواء من بين مستخدمي الشركة من الحامية العسكرية لهذه القلعة أو من المستوطنين الأحرار أو السكان الذين يقطنون هذا المكان» لأنهم يعيشون حياة صداقات مفتوحة مع نساء من الملونات أو نساء من الرقيق يتخذونهن خليلات لهم، وينجبون منهن أطفالاً غير شرعيين» باتوا يملأون أحياء العبيد التابعين للشركة أو الأفراد». وإن بعض هؤلاء الأوغاد، ومن بينهم كثيرون من البرجوازيين سكان مدينة الكاب، لم يجشموا أنفسهم مشقة الاعتراف كتابة بأنهم آباء لأطفال تم انجابهم عن هذا الطريق غير الشرعي». والأسوأ من هذا، أنه في عام ١٦٨١ اكتشفت السلطات ان بعض الجنود والبرجوازيين اعتادوا الانغماس اسبوعيا في علاقات عربدة جنسية مع نساء من الرقيق اللائي يتبعن الشركة، صباح كل أحد، حيث يخلع الجميع ملابسهم كما ولدتهم أمهاتهم ويرقص بعضهم مع بعض على مرأى من جميع الحضور. وهددت السلطات المخالفين بتوقيع أقسى العقوبات عليهم مثل الجلد والكي. ولكن يبدو واضحاً أن التزاوج المختلط استمر طوال القرن الثامن عشر وإن ظل في طي الكتمان.

ويحكي منتزل أن أبناء البرجوازيين في سن العشرينات كانوا ينتقون بنات العبيد الجميلات في بيوتهم وغالبا ما تنجب البنات نتيجة لهذه العلاقة. ونادراً ما كان المجتمع يعترف بالأبوة لهؤلاء الأطفال السفاح، ومع هذا لم يكن

ينظـر إلى هـذه الأمـور على أنها ذات خطـر». تتلقى الفتـاة اللـوم والتعنيف لاستهتارهـا، وتجد من يهددها بأشـد العقاب إذا مـا جرؤت على فضح السر وكشفت عن الشخص المسئول عن الـوضع الذي هي فيه. وأحيانـا يدفع لها الشخص رشوة لتُلقي باللوم على شخص آخر. ولا ريب في أن هذا كله لم يكن ليخفي الحقيقة ذلك لأن البنـات زميلاتها من العبيد يعرفن حقيقـة ما جرى. ومن ثم تتسرب القصة ليعرفها الجميع. ولا يحدث شيء إذ الأمر لا يعني أحداً. وقد يكـون من العسير تماما إثباتـه، هذا علاوة على أن الجريمـة من الأمور التي يغفرهـا المجتمع. انها جريمة لا تـؤثر على مستقبل الولـد، بل إن طيشه يغدو موضوعا للتسلية ويقال إنه فتى غر وكشف عن طبيعته.

وتكرر الشيء نفسـه في المزارع، وإذا كان لنـا أن نثق في مـا قالـه ثونبرج (وهو شاهـد موثوق به عـادة) فإن بنات البوير كن يحملن أحيـانا من عبيد آبائهن السود. وفي هذه الحالـة يجرى تدبير زوج للفتاة مقابل مبلغ من المال، ويتم إرسال العبيد بعيداً عن هذه المنطقة. وكانت من الأمور الشائعة في مدينة الكاب أن يسمح مالك العبيد لإحدى الاناث من عبيده بأن تعاشر رجلاً أبيض كزوجـة له. ويجرى تعميـد وعتق الأطفال نتـاج هذه العـلاقة، ولكـن الثمرة تكشف دائماً من نـوع الشجرة. فإن أكثـر الأطفـال الذين حملتهم انـاث من العبيد لهم آباء بيض «وغالبا ما يحملـون وجه شبه لافت للانظار» كما يقول منتزل. وتشكلت طبقة من العبيد. وأصبحت هذه الذرية هي المفضّلة اكثر من غيرها في نظر البرجوازيين والبويـر في النصف الثاني من القرن الثامن عشر، وكما هو الحال في المجتمعـات الأخرى التي يسود فيهانظـام الاسترقاق، مثل مجتمعات البرازيل وسورينام، نجد أن الطـراز السائد من الأعراق في المزرعة هو في الغالب مالك أبيض للمزرعة ومشرف مولّد، ورقيق سود.

وعلاوة على الـزواج المختلط بإناث العبيـد في البيت، اللائي كن عـادة من أصول آسيوية، كانت هناك زيجات كثيرة بين رجال البوير ونسـاء الهوتنتوت خاصـة في الأحياء الحدودية النائيـة التي لم يكن أحد يرى فيها بنـات الملايو

الجميلات من العبيد اللاتي يعشن في مدينة الكاب. وأكد سبارمان أن مزارعي هذه المنــاطق من البوير حتى وان كانت لـهم زوجــات بيض «متسامحات» إلا أنـهم يميلون إلى مضـاجعة نساء الـهوتنتوت ومن ثم ينجبون أطفالاً يشبهون الأب أكثر مما يشبهون الأم. وهذا الزواج المختلط يثير الدهشة حيث ان الـهنود اعتــادوا النظر إلى الـهوتــونتــوت باعتبــارهم أحط أجنــاس البشر، باستثنــاء البوشمن. ولقـد مضى وقت طويل قبل أن يستطيع الأوروبيون التفـرقة بين الـهوتونتوت وبين البوشمن،. ولكن البوشمن أضيروا تماما على يد الـهوتونتوت والبويـر والبانتو الـذين اغتصبوا على التــوالي أراضيهم واستأصلوا شأفتهم وكأنـهم جرذان. ونعرف آن أيضــاً، وهـي امرأة شـهيرة من الـهوتنتوت وعملت مترجمة رسمية وتزوجت ثلاثة رجال من الـهولنديين، كانت أشبه بالعصفور المعتزل الذي لا عش له. وإذا كان رجال البوير يرفضـون تماما الزواج بنساء من الـهوتــونتوت، إلا أنـهم اختلطــوا بـهن اختلاطــا واسعا في منــاطق الحدود وتشكلت نتيجة لذلك مجتمعات كــاملة مثل مجتمع الجريكا Griquas وهؤلاء هم ســلالــة التـــزاوج المختلط بين التريكبــويــر Trekboers وبين نســـاء الـهوتونتوت، ويجري فيهم قــدر كبير من الدم الأبيض ولـهذا أطلق عليهم زمنا طويلاً كلمــة «أبناء السفاح». وان القلة الباقيــة منهم، والعدد الكبير الآخر من الشعوب الملــونة في الكاب يمثلون في آن واحــد سبباً للحرج والعــار لكل دعاة العزل العنصري الموجودين اليوم.

وإذا كان جنــوب أفريقيا شـهد تــوتراً دائماً بين البيض والملونين فإنــه قد مضت أجيال غير عديدة قبل أن يشعر الرجال والنساء من أبناء الآباء البيض في الكــاب أنـهم على نحو أو آخـر يختلفــون عن الموظفين والبرجوازيين الــذين ولــدوا ونشأوا وتربــوا في أوروبــا. ويبدو أن كلمــة أفريكــاني Africanes استخدمت لأول مرة في عــام ١٧٠٧، وفي وقت اجتمع فيه شمل الأبناء البيض سواء مــن أصل هولنــدي أو الماني أو هوجــونوت (البروتستانتــي الفرنسي) للدفــاع عما ظنوه حقوقهم الموروثة ضــد زمرة فان دير شتيل الــرسمية ذات

السطوة. وعلى الرغم من أن مجلس إدارة الـ ١٧ فصل فان دير شتيل وساند البرجوازيين الأحرار في موقفهم هذا، إلا أن التنافس بين مواليد أوروبا ومواليد جنوب أفريقيا لم ينته بل تفاقم. ومنتزل له رأي يفيد هنا لما يلقيه من ضوء كاشف على هذه المشكلة، وان بدا مضحكاً، كيف ان هذا الجندي البروسي المغمور أدان أول حاكم من مواليد جنوب أفريقيا ونعني به هندريك سويلنجريبل لأنه آثر أصدقاءه الأفريكانيين (المولدين والذين ولدوا بالطبع في جنوب أفريقيا) على الأوروبيين. لقد كانت المسألة مسألة عقيدة عند منتزل بالنسبة لاعتقاده أن الأفريكاني أدنى ثقافة وذكاء من الأوروبي. ولا ريب في أن هذا الاعتقاد يشاركه فيه عدد من الموظفين الهولنديين. حقاً إذا كان هناك من وثق في رأي منتزل في هذا الشأن، فقد شاركه فيه بالمثل كثيرات من النساء الأفريكانيات من أهالي مدينة الكاب. إذ بعد أن أشار إلى أن الكثيرين من عامة الجنود ذوي الخلق الحسن قد تزوجوا ببنات برجوازيين، يضيف الى ملاحظته هذه قوله: «أي فتاة دون استثناء تفضّل أن يكون زوجها رجلاً من مواليد أوروبا وليس من مواليد المستعمرة». وحتى إذا كان هذا هو الرأي السائد أيام منتزل فإن الكراهية التي يكنها الموظف الأوروبي المولد تجاه البوير الأجلاف كانت لها ما يقابلها في نفس هؤلاء أيضاً، الذين يبدون نوعاً من الكراهية المكتومة تجاه الأوروبيين.

والذي لا شك فيه أن سكان الحدود من البوير جهلاء أجلاف، ولكنهم يتصفون بالاعتماد على النفس في تزمت كالفني وروح استقلالية وهي صفات أكدتها ورسختها طبيعة حياتهم الشاقة القاسية. والجدير بالذكر أنه ابتداء من ١٧٥٠ تقريباً فصاعداً، بدأت لهجتهم تختلف باطراد عن الهولندية الحقّة، وإن البدايات الأولى للغة الأفريكانية كلغة كلام يمكن تمييزها في النصف الثاني من القرن الثامن عشر. وبدأ البرجوازيون سكان الكاب كذلك يستخدمون شكلاً بسيطاً وشائعا من اللغة الهولندية، وجاء ذلك من ناحية نتيجة للحديث اليومي مع عبيدهم. ولا تزال الأصول الأولى الحقيقية للغة

الأفريكانية موضع خلاف. ولكن ثمة رأي راجح يؤكد أنها نشأت كلسان مولد أو مختلط نتيجة التفاعل الاجتماعي بين الهولنديين من المستوطنين البيض، سواء البوير أو البرجوازيون، وبين اللغات المنطوقة التي يتكلمها الهوتونتوت والعبيد. ونعرف عن يقين أن لغة العبيد اشتملت على مزيج غني من اللغتين المولدة والبرتغالية.

وأيا كان الأمر فإن اللغة الأفريكانية أضحت أشبه باللسان أو اللغة الأم للشعوب الملونة، ولا تزال حتى اليوم. ونذكر في هذا الصدد أن جنوب أفريقيا بالمثل كان مستعمرة فريدة في ذاتها ولها طابعها المميز. وبينما أخفق الهولنديون في غرس لغتهم لتكون لغة راسخة بين شعوب جزر الهند الشرقية والغربية فإنهم نجحوا في هذه المهمة بين شعوب جنوب أفريقيا. بل ان حقبة السيطرة البريطانية في القرنين ١٩، ٢٠ - قرن الخطأ - لم تحل دون تأكيد وتدعيم ونمو اللغة الأفريكانية كلغة حديث أولا ثم كلغة مكتوبة.

الباب العاشر

«القرن الذهبي» و «حقبة الركود والادعاء»

ج. ك فان ليور كـان موته في معركـة بحر جاوه (ينايـر ١٩٤٢) خسارة كبيرة ومؤسفة للـدراسات التاريخية الاندونيسية وهـو الذي احتج اكثر من مرة على الميل الشائع للمؤرخين الهولنديين – وغيرهم ممن ساروا على دربهم – إذ اتجهوا إلى المقارنة بين «العصر الـذهبي» للقرن السابع عشر وبين حقبة الركود والادعاء» في القرن الثـامن عشر، قصد الحط من قدر الحقبة الأخيرة. لقـد أكـد أن هذه المقـابلـة هي نتـاج اسطـورة نسج خيـوطها «الـوطنيـون الثـوريـون» في عـام ١٧٩٥ لاستثمارهـا سياسيـا ضـد النظـام القـديم في الجمهـوريـة الهولنـدية. ورسخت تلـك الاسطورة على يـد «الـرومـانسيين الـوطنيين» في القـرن التاسع عشر مـن خلال الأدب الـذي كتبـوه عن العصر الـذهبي. والقـول بأن الأراضي المنخفضـة الشماليـة لم تنجب رسـامين مثل رمبرانت أو شعراء مثل فوندل خـلال حقبة الادعاء، لا يغير من الحقيقة شيئاً وهي أن هـذه الحقبة المزدراة «جسـدت الجهد الأكبر لـوضع أسس الثقافـة البرجوازيـة الحديثة» في الأراضي المنخفضـة وفي غيرها من بلـدان أوروبا على نحو ما أكد فان ليور*.

ومع كل التقدير الواجب لمثل هذا الرأي المتميز، يبدو لي من نواح معينة ان المقارنـة التقليدية بين انجازات القـرن الذهبي وبين الركـود النسبي في حقبة الادعـاء هي مقـارنـة صحيحـة. إن تاريخهـا لا يعـود إلى عصر «الـوطنيين الثوريين» و«الرومانسيين الـوطنيين»، بل سبق أن نوقش الوضـع ذاته وأدين في منتصف القرن الثامن عشر سواء داخل الجمهـورية الهولندية أم في نطاق

* J. C. Van Leur, Indenesian Trade and Society; pp. 266, 271, 288.

شركة الهند الشرقية الهولندية، إذ كتب الحاكم العام ومجلسه في عام ١٦٤٩ «نحن نعيش، بفضل من الله، في قرن الازدهار في باتافيا». بيد أننا لا نجد أثراً لهذا الرضا النفسي الكامل في المراسلات التي كتبها حلفاؤهم بعد ذلك بمائة عام. ونجد الصحافة الهولندية الدورية الصادرة خلال النصف الثاني من القرن الثامن عشر زاخرة بالشكاوى بسبب التدهور الحقيقي أو المزعوم للطابع والطاقة القوميين بالمقارنة بما كان عليه الحال خلال قرن سابق. ومن المعروف أن بعض الأصوات الداعية إلى الانشقاق ارتفعت ضد هذا الاعتقاد الواسع النطاق. وأبرز أحد هؤلاء النقاد (في عام ١٧٦٩) أن الناس الذين يقارنون الماضي بالحاضر إنما ينتقون دائماً أفضل ما كان لدى الأجيال السابقة لمقارنته بأسوأ ما لدى الواقع الراهن. وأكد ان معاقرة الخمر والنهم في الأكل والقصف غير المنظم كل هذا قد تدهور خلال القرن الثامن عشر مقارنة بالقرن السابع عشر؛ وانتهى الى القول: «نحن لدينا قدر أكبر من الادعاء والتظاهر، وقدر أقل من النزاع والتشاجر». واتساقا مع هذا الخط استبق مؤرخ هولندي حديث ذلك بقرنين تقريباً حين قال: «نحن نعجب بشخصية وفكر إرازموس الذي عاش في عصر مضطرب ووصف حوار الأصدقاء داخل حديقة غناء بأنه ذروة التسلية الحضارية، بيد أننا نضيق بأتباعه الذين عاشوا في القرن الثامن عشر ووضعوا نظريته موضع التطبيق». نحن نناهض النزعة العسكرية ولكننا نعاف ونشمئز من المجتمع الذي ينطوي على أقل قدر من النظام العسكري في كل تاريخ هولندا. إن ثمة شيئاً عاطفياً خالصا ولا عقلانيا في موقف أغلبية أبناء الأراضي المنخفضة تجاه هذه الحقبة»* وربما كان هذا صحيحاً تماما. ولكن المتشائمين ممن عاشوا أثناء حقبة الركود والادعاء وأولئك الذين يوافقونهم اليوم على رأيهم لديهم في الماضي والحاضر بعض الحق ولديهم مبرراتهم للقول إن المجد قد زايل البلاد مع نهاية القرن الذهبي.

إن التناقض السكاني يُنظر اليه، عن صواب أم خطأ، باعتباره عرضا

لحالة تحلل قـومي. وهناك كثيرون في المقـاطعات المتحـدة عام ١٧٨٠، ومن بينهم أمير آل أورانج، رأوا أن عـدد السكان كـان أقل منه منـذ قرن سـابق. وللأسف أننـا لا نملك أرقامـا يمكن الاعتماد عليها لإجمالي سكان هـولندا في القـرنين السابع عشروالثـامن عشر، ومن ثم سوف نعتمـد لزامـا على بعض التقديـرات القليلة المعـاصرة والمتناقضـة. مثال ذلك كتـاب بيتر دي لاكورت الصـادر في عام ١٦٦٢ تحت عنـوان «مصـالح هولنـدا» ويشير إلى أن الحد الأقصى لتعداد سكان المقاطعات المتحدة ٢٤٠٠٠٠٠ نسمة، وإن أشار إلى أن هذا الـرقم تخميني إلى حد كبير. وثمـة تقديـر آخر له حـظ أكبر من الشيوع يقول إن التعداد حوالي مليوني نسمة. ويوافق معظم الكتاب المحدثين على هذا الرأي. ولم يتسن لي العثور على مصدر لهذا الرقم وعلى أي تفسير لماذ ظل هذا الرقم دون تغيير حتى نهايـة الجمهورية الهولنـدية. وإنما الملاحظ أن جميع أهل الرأي متفقون على أن هذا هو إجمالي العدد في عام ١٧٩٠. ولكن الملاحظ أن أوروبا الغربية شـهدت آنذاك زيادة سريعة في السكان بعد منتصف القرن الثامن عشر. ولذا يبقى سؤال لماذا شذت الأراضي المنخفضة الشمالية عن هذه القاعـدة خاصـة وأنها لم تتعرض لكـوارث حروب ولا أهلكتهـا أوبئة تفشت خلال حقبة الركود.

ومن الأسباب التي تقـال لتفسير النمو السكاني السريع في غـرب أوروبا خلال النصف الثـاني من القرن الثامن عشر أن هبوط معـدل وفيات الأطفال اقترن بعـادة الزواج المبكـر ومن ثم إنجاب عـدد أكبر من الأطفال (مع ثبـات جميع الظروف الأخـرى). ونحن لا نعرف إلى أي حد يصدق هـذان العاملان على وضـع المقاطعات المتحدة على الرغم من أن رجلاً انجليزيا أقام زمناً طويلاً في هولندا أشار في عام ١٧٤٣ إلى «حالة العقـم الواضـحة لدى نساء هولندا». ويسوق هـذا الرأي وكأنه واقـع معروف وشائع ولا اعتراض عليـه من أحد.

* B. M. Vlekke, Evolution of the Dutch Nation, P. 241.

ولعل الأهم من ذلك أن متوسط معـدلات الزواج السنويـة في امسـتردام خلال الفترة من ١٦٧٠-١٦٧٩ هـو تقـريبـاً نفـس متـوسط معـدلات السنـوات ١٧٩٤-١٨٠٣ وهـــو ٢٠٧٨ و٢٠٨٢ على الترتيب. ونعــرف ان متـــوسط معدلات السنوات الفاصلة بين المرحلتين كان أعلى أحيانا من ذلك ولكنه لم يزد على ٣٢٠٤ في عام (١٧٤٦) وتـراوح معدل حـالات الزواج السنـوية مـا بين ٢١٠٠ و٢٥٠٠. على أية حـال فإنه يبدو واضحـاً أن سكان امسـتردام، وهي أكثر مدن الجمهـورية سكانا وازدهـارا، زادوا زيادة سريعة فيما بين ١٥٨٠ و١٦٦٠، وزيادة بطيئة جداً فيما بين ١٦٦٢ (حوالي ٢٠٠١٠٠ أو ٢١٠٠٠٠ نسمة) و١٧٩٥ حوالي (٢١٧٠٠٠ أو ٢٢١٠٠٠) نسمة. وظل عدد البيوت في امسـتردام كما هــو فيما بين ١٧٤٠ و١٧٩٥ مما يشـير إلى عـدم طروء زيـادة كبيرة في السكان خلال هذه الفترة على الرغم من أن فان دير أو دير مولن Ou-dermeulen زعم غير هذا في عام ١٧٩٥.

وحتى عام ١٧٨٠ كانت امسـتردام لا تزال مدينة مزدهرة تنعم بقدر كبير من التجـارة فيما وراء البحـار بينما الأوضاع في بعض الأنحـاء الأخـرى من المقاطعات المتحـدة تدهورت وازدادت سوءا خـلال النصف الثاني من القرن الثامن عشر. وكتب في هذا الصدد جيمس بوسـويل من اوترشت في عام ١٧٦٤ ما يلي: «إن أغلب مـدنهم الرئيسية تحللت بصـورة محزنة، وبـدلاً من أن نجد البشر جميعاً يعملون إذا بك تصادف أعداداً غفيرة من الناس البائسين الذين أضناهم التسكع بلا عمل.

ولقد تحولت أوترشت إلى خراب. ثمة أحيـاء كاملة مكتظة ببشر تعساء لا يملكـون من طعـام يومهـم غير حبات من البطـاطس وشربـة جن وسـائلاً يسمونه شايا وقهـوة. والأدهى والأنكى، فيما اعتقد، أنهم اعتادوا هذه الحياة حتى أنهم لم يقبلوا على العمل إذا ما تيسر لهم .. وها أنت ترى الأمور اختلفت هنا كثيراً، عما تصوره معظم الانجليز، ولـو أن سير وليم تمبل زار ثانية هذه المقاطعات فإنه لن يصدق تلك التحولات المذهلة التي طرأت على البلاد. «ونجد

شهادة بوسويل تتردد مرة أخرى بعد أربعة عشر عاما على صفحات صحيفة هولندية أسمها «دي بورجر» التي تقرر (١٩ أكتوبر ١٧٧٨) أن انهيار الأمة اقتصاديا بلغ الحضيض حتى بدا وكأن هيكل الكومنولث لن يضم بعد قليل إلا أصحاب أملاك تدر عليهم دخلا وشحاذين – وكلا النوعين هما أقل الناس فائدة ونفعاً للبلاد.*

وربما نزع كل من بوسويل وصحيفة دي بورجر إلى التركيز على الجانب السوداوي من الصورة، ولكن ثمة شواهد معاصرة أخرى كثيرة تشير إلى أن سكان عديد من مدن المقاطعات نقص عددهم خلال هذه الحقبة، وأن البيوت والطرقات أزيلت لتحل محلها حدائق ومساحات خضراء. وهذا النقص كان شاملاً، ويبدو أنه كان أكثر وضوحاً في المدن البحرية الصغيرة الواقعة شمال هولندا وفي زيلانده، وفي عديد من المدن الداخلية مثل أوترشت وهارلم وليدن ودلفت. والشيء الذي لا نعرفه هو إلى أين ذهب فائض سكان الحضر (إذا كان ثمة فائض). ولقد قيل إنه ربما اتجه إلى مناطق المستنقعات في المقاطعات الشمالية الشرقية، التي بدأ استصلاحها وتطويرها آنذاك، وأنشئت فوقها قرى جديدة. ومن الأمور الواضحة ان سكان مقاطعة أوفرجيسيل الشرقية زادت بنسبة ٩٠ بالمائة فيما بين ١٦٧٥ و١٧٩٥. غير أنه من المؤكد أن هذه الزيادة الكبيرة لم يكن لها صدى في أي مقاطعة أخرى حيث ظل تعداد السكان في معظم المقاطعات ثابتا كما هو أو ربما نقص في بعضها الآخر. ومن المؤسف أن مقاطعة أوفرجيسيل، وهي الأصغر والأفقر من المقاطعات السبع الوحيدة التي تعرف أرقام سكانها بدقة خلال عصر الجمهورية. وإلى حين إجراء المزيد من الدراسات عن التاريخ السكاني للمقاطعات الأخرى، لن نستطيع أن نحدد رأيا بشأن اجمالي عدد سكان جمهورية هولندا، ومعرفة هل زاد العدد أم نقص فيما بين ١٦٠٠ و١٨٠٠ في ضوء الشواهد المتاحة

* F. A. Pottle (ed); Boswell in Holland, 1763-1764; [London, 1952]; pp. 280-1.

المتعارضة والمتجزئة.

وإذا كان ثمة شك كبير إزاء اجمالي سكان المقاطعات المتحدة خلال فترة الركود مقارنة بالقرن الذهبي؛ إلا أن ثمة شكا ضئيلاً بالنسبة للنصف الثاني من القرن الثامن عشر الذي كشف عن نقص لا تخطئه العين في الصناعة عامة، وفي صناعة صيد السمك خاصة مقارنة بأوضاع قرن سابق. إن صيد سمك الرنجة، الذي كان يعرف عادة بمنجم ذهب المقاطعات المتحدة في النصف الأول من القرن السابع عشر، كان لا يزال له وضعه المثير في عام ١٧٢٨ وقتما قال خبير انجليزي حسن الاطلاع عاش في هولندا وأعطى تقديراً يفيد بأن متوسط اجمالي سفن الصيد العاملة في مجال هذه الصناعة يصل إلى ٨٠٠ سفينة من نوع الباص والتي تقوم بثلاث رحلات سنويا. وعلى الرغم من أن هذا العدد الاجمالي أقل مما كان عليه قبل ذلك بقرن من الزمان، إلا أن إجمالي أطنان حمولة السفن العاملة في القرن الثامن عشر تراوح ما بين ٣٠ إلى ٥٠ طنا، بينما لم يزد الاجمالي قبل ذلك على ٢٠ إلى ٣٠ طنا. ويقدر بعض الثقات الهولنديين المحدثين أن مقاطعة هولندا وحدها اعتادت ان تقدم حدا أقصى سنويا قدره حوالي ٥٠٠ سفينة رنجة من السفن المعروفة باسم الباص وذلك في عام ١٦٣٠. ونقص هذا الحكم الى (٢١٩) في عام ١٧٣١. ويقدر المصدر نفسه أنه باستثناء مدينة فالاردنجن فإن عدد السفن التي احتفظت بها جميع المدن العاملة بالصيد نقص خلال القرن الثامن عشر، وبدا النقص ملحوظا بوضوح في مدينة انخوزن التي كانت تجهز ما بين ٢٠٠ إلى ٤٠٠ باص في أواخر القرن الثامن عشر، ولم يتجاوز الرقم ٧٥ باصا في ١٧٣١ و٥٦ باصا في ١٧٥٠. وزاد معدل التناقص سريعاً بعد عام ١٧٥٦. ولم يعمل أكثر من ١٥٠ إلى ١٨٠ باصا فقط في مصايد أسماك الرنجة الهولندية سنوياً عشية الحرب الانجليزية الرابعة (١٧٨٠).

وتكررت القصة نفسها مع صيد سمك البكلاة، وكان الحال أسوأ في مجال صيد الحيتان. إذ كانت مصايد سمك البكلاة في دوجر بانك لا تزال

تضم ما بين ٢٠٠-٣٠٠ سفينـة عاملة تنتج كل منها مـا بين ٤٠ إلى ٦٠ طنا في عام ١٧٢٨ حسب ما قاله أونسلو بوريش. ولكن يبدو أن هذا الاجمالي أقل كثيراً مما كان عليه في في النصف الثـاني من القرن السابع عشر. وبدا النقص في صيد سمك البكـلاة اكثر وضوحـاً في السنوات الثـلاثين الأخيرة من القرن الثامن عشر، وعنـدما انهارت الجمهورية في عـام ١٧٩٥ لم تكن تعمل في هذا المجال سوى ١٢٥ سفينـة. ووضح بالمثل النقص في صيد الحيتـان بالمنطقة القطبية. وكـان الصيد جيداً بين حين وآخـر خلال القـرن الثامن عشر إلا أن سنوات الازدهـار ١٦٧٥-١٦٩٠ لم تعد ثـانية أبـداً. وفي هذا يقـول أونسلو بـوريش في عـام ١٧٢٨ «الـرأي السائد ان هـذه التجـارة نـوع من الحظ أو اليـانصيب، ولـذلك لا يضطلع بها سـوى أشخـاص من أصحـاب الثـروات الكبيرة الذين إذا خالفهم الحظ عاما توقعوا حظاً أفضل في العام التالي دون أن يخيب هذا آمـالهم. ولكن هذه التجارة ذات نفـع عام ولا شك للدولـة بصورة عامـة نظراً لأنها تدعم نمو وزيـادة حركة الملاحة كما تـدعم استهلاك سلع تعتمد عليها.»*

وليس من المتعذر على الباحث فهم أسباب تدهور صناعة صيد الأسماك الهولنديـة على السواحل أو في عرض البحـر خلال النصف الثـاني من القرن الثامن عشر والسبب الرئيسي هو زيادة المنافسة مع صيادي البلدان المجاورة وبخـاصة انجلترا وسكـوتلندا، ونضيف اليهما أيضـاً الـدانمرك والنـرويج، ناهيك عن الصيادين الفلمنكيين من الأراضي المنخفضـة النمساوية (بلجيكا). وتزايدت أهمية هامبورج باطراد لتصبح السوق المركزية لسمك الرنجة الذي تستهلكـه مناطـق شمال المانيا واسكنـديـنـاوة. واتخذت أكثـر هذه الأقطـار اجراءات حماية لـدعم صناعتها كانت في صيد الأسماك على حسـاب هولندا. وطبقت الحكومة البريطـانية بوجه خـاص نظام الإعانات والعـلاوات لتعزيز

* Onslow Burrish; Bataria Illustrata - London, 1728, pp. 265-73.

صناعة صيد الأسماك فيها. وفرضت الحكومة الفرنسية حظراً على استيراد الرنجة الهولندية في عام ١٧٥١، واقتدت بها الأراضي المنخفضة النمساوية (بلجيكا) والدانمرك وبروسيا في الأعوام ١٧٦٦ و١٧٧٤ و١٧٧٥ على الترتيب. وقلّ الطلب على سمك الرنجة من أوروبا خلال القرن الثامن عشر، نظراً لتغيير العادات الغذائية. ومع نهاية هذه الحقبة أصبح كل ما يفي بالطلب لا يتجاوز إجمالي ٣٠٠ باص رنجة من كل أوروبا، بينما في الماضي كان حوالي ٥٠٠ باص رنجة هولندي لا يكاد يفي بالحاجة غير أن هولندا ظلت محتفظة لنفسها بالتميز من حيث نوع الرنجة والأسلوب الفني الصناعي المتبع في المصايد والتعبئة. واستمرت هولندا على تفوقها وتميزها حتى النهاية. وفي عام ١٧٨٠ كانت هولندا لا تزال تقدم حوالي نصف اجمالي الطلب الأوروبي على الرنجة المملحة. ولا تزال أسباب تدهور صيد أسماك البكلاة في هولندا غير واضحة حتى الآن، على الرغم مما كانت تتمتع به من قوة تؤهلها للتصدي للمنافسة المتزايدة مع الصيادين الانجليز والفرنسيين.

وإن تدهور المصايد الهولندية أثّر بالقطع، بدرجة كبيرة أو صغيرة على العديد من الأعمال التجارية والمهنية المساعدة والمرتبطة بها ارتباطا وثيقاً. ومن هذه تجارة الأخشاب مع بلدان بحر البلطيق، التي تورّد الأخشاب اللازمة لبناء واصلاح سفن الصيد المعروفة باسم الباص: وتجارة الملح مع البرتغال وفرنسا، التي تورد الملح اللازم لتمليح أسماك الرنجة، ومهن النجارة وجلفطة السفن والحدادة، وصناعة الحبال والأشرعة والبراميل التي كانت تنتج بكميات هائلة لتعبئة الرنجة، وصناعة الشباك وغير ذلك من الأعمال التجارية البسيطة اللازمة لتجهيز العديد من الأدوات الرياضية لمصانع تعليب الأسماك والتي أوضحها اونسلو بوريش في دراسته عام ١٧٢٨. واستنتج من دراسته ان مصايد الرنجة وحدها تهيء ظروف عمل وارتزاق لثلاثين ألف أسرة على الأقل. دون حساب العدد الهائل من الناس الذين يحصلون على معاشهم اعتمادا على استهلاك جميع أنواع الأقمشة

والمواد الغذائية والتمـوينية واذا أضفنا إلى هذا صناعـة صيد الحيتان وسمك البكلاة والمصايد الساحلية والصناعـات القائمة داخل البلاد والمرتبطة بصيد الأسماك، علاوة على صناعة الرنجة يمكن ان ندرك أن نسبة كبيرة من الأيدي العاملة الهولندية كانت تعتمـد بشكل مباشر أو غير مباشر على رخاء وازدهار هذه الصناعـات في مجموعها، حتى وان اعتبرنا التقريـر الذي انتهى اليه دي لاكـور في عام ١٦٦٢ والـذي يقرر فيـه أن ٤٥٠٠٠٠ نسمة يعتمـد اعتمادا مبـاشراً على هذه الصنـاعات تقـديراً مبـالغا فيـه. وتتضاعف فيـه مصايـد الأسماك إذا ما نظرنا اليها باعتبارهـا دار حضانة وتدريب لتخريج البحارة، ومصدرا للعمالـة لكل العاملين على الشـواطىء وهذا هـو السبب في الاحتفاظ بمصايد سمك البكلاة في بحر الشمال خلال فصل الشتاء أثناء القرن الثامن عشر، على الرغم من أنها لم تكـن تدر عائداً تجاريـا ذا قيمة جديـرة بالـذكر، بسبب التكلفـة العاليـة لـلاحتفاظ بـالسفن والمعـدات خلال طقس شتـوي عاصف.

عامل آخـر جدير بـالملاحظة عنـد الحديث عن تدهور مصـايد الأسماك الهولندية ألا وهو النقص المطرد في عـدد الصيادين العاملين في عرض البحار، والذين لم يطرأ عليهم أي عجز خلال القرن السابع عشر حسب شهادة جميع من كتبوا عن ذلك من أهالي الأراضي المنخفضة أو الأجـانب، لقد عانت المصايد معاناة قـاسية أثناء الحروب الكبرى التي تورطت فيها الجمهـورية: عمليات النهب التي شنهـا أهـالي دنكـريك فيما بين ١٦٠٠ و١٦٤٥، والهجمات التي شنها الانجليـز خلال الحروب الانجليزيـة الهولندية، ثم قبل هـذا وأهم منه القـراصنة الفـرنسيون خـلال الحرب التي دارت رحاهـا فيما بين ١٧٠١ – ١٧٠٣، وهي حروب أفضت الى تدمير مصايـد الرنجة. غير أن سنوات السلم التي تخللت هذه الحروب سـاعدت بدرجـة أو بأخرى على استعـادة الوضع الطبيعي عقب كل حرب حتى وإن كان من المتوقع أن أسراً كاملة احترفت مهنة الصيد لم تعد إلى البحر ثانية ليكون وسيلتها لكسب العيش.

والملاحظ أن شركات الصيد الأجنبية التي حاولت منافسة الهولنديين خلال القرن الثامن عشر ناورت وجاهدت في سبيل إغواء الصيادين الهولنديين المهرة من أصحاب الخبرة الواسعة في هذا المجال وذلك خلال السنوات الأولى من العمل. ولسنا نعرف عن يقين كم عدد من خضعوا واستسلموا لهذه الغواية، ولكن ما نعرفه أن اغلبية القباطنة الذين كانوا يعملون في عام ١٧٥٦ في خدمة جمعية المصايد البريطانية الحرة التي تأسست قبيل هذا العام (١٧٥٠-١٧٧٢) كان معظمهم من الهولنديين أو الدانمرك.

وأصدرت ادارة عموم الولايات بشكل دوري مراسيم تحظر على التجار البحارة والصيادين الهولنديين العمل في خدمة أمم أجنبية. غير أن تكرار اصدار مراسيم الحظر يعني ضمنا عدم الالتزام بها. ولا نملك وسيلة لحساب عدد الصيادين الهولنديين الذين خدموا على متن السفن الأجنبية في تحد واضح لهذه المراسيم ولا نعرف ما إذا كان عملهم هذا مؤقتاً أو دائماً. ولكن الشيء المؤكد أن توفير الرجال اللازمين للعمل على ظهر أساطيل الصيد الهولندية أصبح - واستمر - مشكلة خلال القرن الثامن عشر، وهي مشكلة لم يكن لها وجود في القرن السابع عشر. وثمة حسبة موثوق بها تفيد أن عمال مصايد الأسماك الهولندية على الشاطىء وفي عرض البحار في نهاية القرن الثامن عشر لم يتجاوز عددهم ثلثي العدد الذي كان لازما لمصايد الرنجة وحدها عام ١٦٠٠. ومن المؤكد بالمثل ان الأعداد المتزايدة من النرويجيين والدانمركيين وأبناء شمال ألمانيا ساعدوا في توفير العاملين اللازمين لسفن الصيد الهولندية في القرن الثامن عشر تماما مثلما فعلوا بالنسبة لأسطول الولايات والسفن التجارية المملوكة لشركة الهند الشرقية الهولندية والبحرية التجارية. وقيل إن هذه الأيدي العاملة (وأكثرها لا تزال غير خبيرة) حلت محل البحارة الهولنديين ذوي الخبرة العالية بعد أن عملوا ضمن رجال الأساطيل الأجنبية وعلى متن السفن التجارية الأجنبية. غير أننا

لا نملك برهانا على أن هذا قد حدث على نطاق واسع. ومن الثابت انهم لم يدخلوا بأعداد غفيرة في خدمة السفن التجارية الانجليزية التي نادراً ما كانت تتسع، فيما عدا زمن الحرب، لتشغيل أكثر من بضع مئات من الأجانب.

وأيا كانت الأسباب، فإنه لا خلاف على أن مصايد الأسماك الهولندية، وإن ظلت معامل تفريخ للبحارة، لم تكن في عام ١٧٨٠ ذات أهمية كبرى في هذا المجال على نحو ما كانت عليه قبل ذلك بقرن من الزمان. فخلال حروب السنوات التسع من ١٦٨٩-١٦٩٧ استطاع الهولنديون ان يرسلوا حوالى ١٠٠ سفينة حربية الى البحر كل عام مجهزة بحوالي ٢٤٠٠٠ من الرجال ناهيك عن العديد من مراكب القراصنة التي تم تعديلها وملاءمتها لهذا الغرض وآلاف البحارة العاملين على ظهر السفن التجارية وسفن الشركة الشرقية التي اعتادت أن تمخر عباب البحار السبع ومعها سفن مرافقة لها لحراستها أو بدونها. وفي أغسطس ١٧٨١ وقتما أصاب الشلل تجارة البحر ومصايد الأسماك وبات لزاما على كثيرين من البحارة أن يكونوا على استعداد لكي يدرجوا اسماءهم ضمن العاملين في الأسطول البري العسكري، لم تستطع هولندا، إلا بشق الأنفس، أن تدفع إلى البحر بأسطول شديد التواضع يضم سبع عشرة سفينة مجهزة بحوالي ٣٠٠٠ رجل حاربوا في ظروف صعبة تحت إمرة العميد البحري زوتمان. ولم تستطع هولندا أن تجهز لهذه الحرب المدمرة أكثر من ١٩١٧٦ رجلاً من بين ٣٠٠٤٦ هم عدد الرجال اللازمين لست وأربعين سفينة حربية مختلفة الأنواع. والنتيجة الوحيدة التي يمكن استخلاصها من هذا الوضع، والتي تبدت بوضوح في شواهد أخرى، هي: ان المجتمعات البحرية في كل من هولندا وزيلندا لا بد وأنها تناقصت كثيراً فيما بين ١٦٨٠ و١٧٨٠.

وإن تدهور مصايد الأسماك الهولندية ونقص أعداد العاملين فيها لم ينظر إليهما بعين اللامبالاة، المعاصرون المدركون للمشكلة كانوا في وضع يسمح لهم باتخاذ تدابير علاجية حتى وإن قصرت هذه التدابير عن تحقيق

نتائج إيجابية لها طبيعة الاستمرار. وتم وضع العديد من تدابير الحماية بهدف مساعدة صيادي الرنجة والتجار ضد منافسيهم الأجانب. ولقد اتخذت ولايات هولندا خلال النصف الثاني من القرن الثامن عشر هذه التدابير ومن بينها منح إعانات ومكافآت اقتداء بالمثال الانجليزي. وذهبت ولاية زيلاندا إلى أبعد من ذلك، وقدمت في عام ١٧٥٩ منحة مالية نقدية لجميع سفن الصيد في المقاطعة. وإذا حكمنا على النتائج في ضوء تجربة مدينة زيريكزي التي كانت واحدة من المدن البحرية الرئيسية في زيلندا فإننا نقول إنها نتائج فاشلة ومخيبة للآمال. ونعرف أن هذه المدينة كانت تحتفظ بأسطول صيد يقدر بحوالي أربعين سفينة في عام ١٧٤٥ وتناقص العدد إلى سبع عشرة أو ثماني عشرة في عام ١٧٨٥. ويوازي هذا النقص نقص آخر في عدد السفن التجارية المسجلة في الميناء نفسه، إذ نقصت من حوالي ستين أو سبعين سفينة في عام ١٧٦٠ إلى خمس عشرة سفينة فقط «ما بين كبيرة وصغيرة» بعد ذلك بخمس وعشرين سنة. ونحن لا نملك أرقاما مناظرة لهذه بالنسبة للمدن البحرية الأخرى في زيلندا، مثل مدينة فير أو فليسنجن أو ميديلبرج، وإن كان هذان الميناءان الأخيران لا يزالان يحتفظان بنصيب مهم وكبير في التجارة البحرية المتجهة إلى جزر الهند الشرقية والغربية وكذلك إلى غرب أوروبا. غير أن من المرجح أن الكثير من الموانىء الصغيرة تدهورت هي الأخرى بالطريقة نفسها التي حدثت في زيريكزي. وان ما يعرف باسم «المدن الميتة» في زيلندا وشمال هولندا والتي شكلت يوما ما ولزمن طويل واحدة من أهم مصادر جذب وإغراء السياح في الأراضي المنخفضة لا يرجع تاريخها بوضعها هذا إلى القرن التاسع عشر بل إلى النصف الثاني من القرن الثامن عشر.

وكما ذكرنا آنفا فإن صيادي سمك الرنجة الهولنديين وكذا العاملين في تمليح وتحميل وتعبئة هذه الأسماك ظلوا محتفظين بتفوقهم الفني على جميع منافسيهم من الأجانب حتى النهاية؛ حتى وإن تناقص عددهم لأسباب

حتمية. ولكن صناعة صيد الحيتان في هولندا تدهورت كما وكيفا معا. إذ بينما كان الهولنديون خلال النصف الثاني من القرن السابع عشر قادة مصايد الحيتان دون منازع، تفوق عليهم الانجليز بعد ذلك بقرن واحد. واستطاع هؤلاء تحسين تقنيات الصيد وزيادة كمياته بفضل رحلات الصيد البعيدة ولفترات زمنية أطول مع استخدام سفن أكبر وأثقل وزنا يمكنها أن تتعقب الحيتان إلى مسافات بعيدة بين جبال الجليد الطائفية. وقدم الانجليز تقنيات جديدة ومحسنة مثل الحربون «الرمح المستخدم لصيد الحيتان» الذي يعمل ميكانيكيا بدلا من الحربون اليدوي. ولم تستخدم السفن الهولندية هذه الطرق الحديثة أو أنها استخدمتها في فترة متأخرة، ولم يشارك الهولنديون في صيد عجل البحر الذي عني الانجليز والألمان بصيده ضمن رحلاتهم لصيد الحيتان.

وانعكست أيضا هذه العقلية المحافظة وغير التجارية في مجالات أخرى مهمة للغاية من مجالات التجارة والصناعة الهولنديتين خلال فترة الركود وهو ما يتناقض مع الروح التجارية والدينامية التى تحلى بها التجار والبحارة الهولنديون خلال القرن الذهبي. وسبق أن لاحظنا أن الهولنديين فقدوا زعامتهم التي انعقد لهم لواؤها في القرن السابع عشر فيما يختص برسم الخرائط البحرية والتقنيات الملاحية البحرية وانتقلت الزعامة إلى منافسيهم الانجليز والفرنسيين، وتراخى الهولنديون كثيراً في اتباع الطرق الحديثة والمحسنة في مجال بناء السفن. وهنا نجد كلا من تسافورينوس وديرك فان هوجندورب ينتقد مديري غرفة امستردام لشركة الهند الشرقية الهولندية في الربع الأخير من القرن الثامن عشر وذلك لإحجام المسئولين عن بناء سفن صيد مستوية السطح بدلاً من السفن المقعرة. هذا على الرغم من أن ستافورينوس أشار إلى هذا في عام ١٧٧٤ حين قال: لا جدال في أن السفينة المستوية السطح أقدر على تحمل ومواجهة موج البحر من السفينة المقعرة». وثمة تباين واضح أيضا بين موقف مديري ومستخدمي

شركة الهنـد الشرقية الهولنـدية من مناظـريهم ومنافسيهم الانجليـز خلال القرن السابع عشر وبين موقفهم منهم خلال القرن الثامن عشر. إذ حتى عام ١٦٧٠ تقريباً اعتبر الهولنديون أنفسهم أساتذة من حيث طاقتهم وقدرتهم، وكذلك من حيث رأسمالهم ومواردهم المادية بالمقـارنة بالانجليز. علاوة على هذا اعترف الانجليـز مرارا بأنهم أدنى مستوى نسبيـاً. ولكن في الربع الأخير من القرن السابع عشر بدأت مـواقف الطرفين المتنافسين تتحول من النقيض إلى النقيض. إذ نجـد الانجليـز يزدادون عـدوانيـة وثقة بـالنفس، بينما بـدأ الهولنديـون يتشككون في قـدرتهم على المنافســة مع الانجليز في أمـاكن مثل ساحل كوروماندل حيث شركة الهند الشرقية الهولندية لا تملك سلطة مطلقة دون تحد ومنافسة مثلما هو الحال في المياه الأندونيسية. ويبدو التحول أكثر وضـوحاً في القـرن الثـامن عشر، وفي النصف الثاني منـه بخـاصة. إذ نجـد المراسلات الرسمية لشركة الهند الشرقية الهولندية مليئة بالشكوى والتحسر بسبب تفـوق الانجليز وخطـرهم على هولنـدا في جميع الأنحاء حتى في ميـاه اندونيسيا.

ومن العسير أن نتجنب النتيجة الـواضحة وهي ان الانجليـز أصبحوا في الواقع أكثر مغامرة وقدرة واقداما من الهولنديين في الشرق. ومن المسلم به أن تقـدمهم يرجع أســاسا إلى تفـوق مواردهم الكبيرة من حيث رأس المال ومـا يتحلون بـه من مزايـا اقتصاديـة توفـرت لهم بفضل امتلاكهم للبنغـال ثم سيطرتهم على تجارة الصين. ويبدو أن ثمة قدراً مـن الحقيقة فيما قاله ديرك فان هو جندروب أن موظفي شركة جون كانوا كقاعدة عامة أقدر من موظفي شركـة جان. وهـذا هو النقيـض تماما للـوضع النسبي للشركتين في النصف الأول من القـرن الســابع عشر. وبيان أسبـاب هـذا التحـول يستلزم بحثـا وتحقيقـاً، ولكن قد يكـون من بين الأسباب التي أسهمت في ذلك زيـادة ميل شركـة الهند الشرقيـة الهولنديـة إلى الاعتماد على عاملين جهـلاء مغفلين من وسط المانيا عـاطلين من أي حافز يحفـزهم الى العمل الجاد والشاق من أجل

المديرين وأصحاب الأسهم الهولنديين. وتكررت دائماً الشكوى من انخفاض وتدني مستوى مستخدمي الشركة سواء أكانت شكاوى حقيقية أم باطلة. ولكن يبدو أنها شكاوى لها ما يبررها خلال النصف الثاني من القرن الثامن عشر على نحو ما يبين من التقارير التي كتبها نيكولا هارتنج المقيم الرسمي وحاكم شمال شرق جاوة على مدى السنوات ١٧٤٦-١٧٦١.

بيد أن تدهور شركة الهند الشرقية الهولندية في النصف الثاني من القرن الثامن عشر بدا من بعض نواحيه ادعاء اكثر منه حقيقة واقعة. ذلك لأن حجم هذه التجارة بالقياس إلى التجارة البحرية للجمهورية في مجموعها زاد بالفعل خلال هذه الفترة. ونجد هذه الزيادة واضحة من أرقام السفن التجارية التابعة لشركة الهند الشرقية المغادرة لأرض الوطن والتي تظهر لنا في الجدول التالي:

سفن شركة الهند الشرقية الهولندية
المغادرة لأرض الوطن (١٦١١ - ١٧٨١)

الفترة	السفن
١-١٦٢٠-١٢-١٦١١	١١٧
١-١٦٣٠١٢-١٦٢١	١٤٨
١-١٦٤٠-٢-١٦٣١	١٥١
١-١٦٥٠-٢-١٦٤١	١٦٢
١-١٦٦٠-٢-١٦٥١	٢٢٦
١-١٦٧٠-٢-١٦٦١	٢٥٧
١-١٦٨٠-٢-١٦٧١	٢١٩
١-١٦٩٠-٢-١٦٨١	٢٠٩
١-١٧٠٠-٢-١٦٩١	٢٤١
١-١٧١٠-٢-١٧٠١	٢٧١
١-١٧٢٠-٢-١٧١١	٣٢٧
١-١٧٣٠-٢-١٧٢١	٣٧٩
١-١٧٤٠١٢-١٧٣١	٣٦٥
١-١٧٥٠-٢-١٧٤١	٣١٥
١-١٧٦٠١٢-١٧٥١	٢٧٦
١-١٧٧٠-٢-١٧٦١	٣٠٣
١-١٧٨٠-٢-١٧٧١	٢٩٤

ويؤكد الاستاذ بروجمان من خلال هذه الأرقام أن حجم تجارة سفن شركة الهند الشرقية الهولندية تضاعف فيما بين ١٦٣١ و١٧٨٠. ولكن يبدو لي أن هذا الاستنتاج ليس مأمونا تماما على اطلاقه. إذ من الواضح أن عدد السفن التجارية التابعة للشركة التي تبحر فيما بين الأراضي المنخفضة وجاوة تضاعف من خلال هذه الفترة، ولكن عدد السفن العاملة في مجال التجارة بين موانىء آسيا قد انخفض. فبينما نجد ما بين خمس إلى عشر سفن من السفن التجارية، أكثرها ذات حجم كبير جداً، تبحر سنويا من باتافيا إلى ناجازاكي خلال النصف الثاني من القرن السابع عشر، نجد ان متوسط السفن المبحرة لم يتعد واحدة أو اثنتين خلال النصف الثاني من القرن الثامن عشر. وبالمثل فإن عدد السفن التجارية الهندية العاملة في التجارة مع الهند تضاءل جداً خلال الفترة من ١٧٥٠ إلى ١٧٨٠ بالقياس إلى قرن سابق. هذا بينما توقفت التجارة مع بعض المناطق مثل البحر الأحمر والخليج الفارسي. ومن المسلم به أن هناك زيادات طفيفة في التجارة مع مناطق أخرى، مثل التجارة مع كانتون وربما أيضاً مع سيلان. بيد أن هذه الزيادة لا تعوض النقص الشديد في أعداد السفن الهولندية العاملة بالتجارة بين موانىء آسيا من مولوقا إلى مليا اجمالا.

ففي عام ١٦٤٠، كمثال، كان هناك خمس وثمانون سفينة هولندية تجارية تمخر عباب البحار الآسيوية، مع استبعاد السفن المبحرة من وإلى أوروبا. وفي عام ١٧٤٣ تضاءل هذا العدد الاجمالي الى ثمان وأربعين سفينة دون أن يقابل هذا النقص أي زيادة كبيرة في الحمولة بالطن لكل سفينة.

وخلال القرن الذهبي وخلال حقبة الركود الهولندي كان منافسوهم التجاريون الغيورون على استعداد للقول بأن الشركتين الهنديتين الشرقية والغربية الهولنديتين - والأولى منهما بخاصة - هما عماد ودعامة وركيزة الرخاء التجاري للمقاطعات المتحدة. ولكن هذا الانطباع لا تؤكده الأرقام ذات الصلة التي لدينا وكذلك الأرقام التي ذكرها فان دير أو ديرمولن في عام

١٧٨٥ والذي كان واحدا من أعضاء مجلس ادارة الـ ١٧ وأحد من قدّموا هذا الرأي. إذ أنه يورد الأرقام التالية عن قيمة التجارة الهولندية البحرية عشية الحرب الانجليزية الرابعة:

المنطقة	القيمة بملايين الجلدرات
التجارة مع جزر الهند الشرقية	٣٥
التجارة مع جزر الهند الغربية وأمريكا	٢٨
التجارة مع البلدان الأوروبية	٢٠٠

ويذهب في تقديره لقيمة التجارة الهولندية مع بلدان أوروبا إلى ما يلي:

مع انجلترا	٤٢–٤
مع فرنسا	٣٦–٨
مع منطقة بحر البلطيق	٥٥

ومن ناحية أخرى يجب أن لا ننسى أن أغلبية السلع التي يستوردها الهولنديون من جزر الهند الشرقية والغربية لم تكن للاستهلاك المحلي في المقاطعات المتحدة بل لاعادة تصديرها إلى بلدان أوروبية أخرى. وإن المؤلف المجهول لكتاب «وصف هولندا» الصادر في عام ١٧٤٣ ربما بالغ شيئاً ما، ولكنه لم يبالغ كثيراً حين قال: «اليوم ترسل الشركة الهولندية إلى جزر الهند الشرقية ما بين مليونين أو ثلاثة ملايين من الجلدرات نقدا ويعيدون مقابلها إلى الوطن سلعاً قيمتها تتراوح ما بين خمسة عشر أو ستة عشر مليونا. ويستهلك منها في هولندا حوالي جزء من اثني عشر أو جزء من أربعة عشر ويعاد تصدير الباقي إلى بلدان أوروبية أخرى ليدفعوا مقابلها نقداً. وزعم فان دير أودرمان في عام ١٧٨٥ أن «ثلاثة أرباع وسبعة أجزاء من ثمانية من اجمالي الشحنات المستوردة من جزر الهند الشرقية يعاد تصديرها من الأراضي المنخفضة باستثناء الشاي والبن اللذين تستهلك منهما كميات كبيرة في نويزلاند وجرومنكن.» وهكذا يحق للمرء أن يقول عن يقين بأن بلدنا تستمد أغلب تجارتها من جزر الهند الشرقية مع أجانب وفاء لمصلحة كبرى

لها».

ونأسف أننا لا نستطيع أن نعرف نسبة منتجات المستعمرات الى تجارة الصادرات الهولندية مع البلدان الأوروبية الأخرى في مجموعها، ولكن لا بد وأنها كانت كبيرة جداً. وذهب فان دير أودير مولن إلى أن انهيار شركة الهند الشرقية الهولندية لم يكن ليؤثر تأثيراً مدمراً على الدولة فقط بل سيضر كذلك بكل فرد هولندي. ولكن مسار الأحداث خلال الأعوام من ١٨١٢ إلى ١٨١٤ عندما كانت الأراضي المنخفضة بدون أي تجارة مع مستعمراتها السابقة أوضح أن هذا غير صحيح. ولكن المرجح أن شركة الهند الشرقية الهولندية أسهمت في مجال الرفاهية العامة للمقاطعات المتحدة خلال القرنين السابع عشر والثامن عشر وكانت اسهاماتها اكثر مما شاء أن يصرح به بروجمان. إذ علاوة على تشغيل الشركة لآلاف من الرجال، فإنها ساعدت بشكل غير مباشر على الحفاظ على ٣٠٠٠ بحار هم عدة السفن التجارية الهولندية الذين عملوا في التجارة مع بلدان بحر البلطيق والبحر المتوسط والبلدان الأوروبية المطلة على المحيط الاطلسي. وهي التجارة التي قام بالدور البارز فيها عملية إعادة تصدير السلع مثل التوابل والشاي والبن والتبغ والمنسوجات وغيرها.

جانب آخر للتجارة البحرية الهولندية يتعين أن نلقي عليه نظرة سريعة قبل ان نتناول بإيجاز التطورات التي طرأت على الزراعة والصناعة والمال. ونعني به تجارة التهريب – ومع انجلترا أولا وقبل كل شيء. ومن الواضح أنه لا سبيل أمامنا للتأكد من مدى ونطاق هذه التجارة المحظورة. ولكن الأمر المتيقن منه أنها ساعدت على توفير أسباب العيش لآلاف الهولنديين، خاصة سكان مدن السواحل في جنوب هولندا وزيلاندا. إذ على مدى القرن الثامن عشر كله تقريبا، كانت انجلترا أفضل سوق لبيع الشاي، فضلاً عن أن الرسوم الجمركية العالية التي فرضتها الحكومة الانجليزية على هذه السلعة شجعت ولا شك عملية التهريب على جانبي بحر الشمال. والملاحظ أن حرب الأعوام ١٧٨٠–٨٤ والموافقة على القانون المعروف باسم قانون «بيت لجواز

الانتقال» في العـام الأخير، وجّها معا ضربـة قاسية للمجتمعـات الزيلانـدية البحرية في هذا المجال على نحو ما أقـره فان دير أو دير ميولن في عام ١٧٨٥. واستمر صيادو الحيتـان الهولنديون في التجارة المحظـورة مع ايسلندا ومع بلدان أخرى، وكذلك الحال بالنسبة لصيادي سمك البكلاة في بحر الشمال إذ انخرطوا لآذانهم في أعمال التهـريب إلى المناطق المجاورة. وإن شبكـة الرسوم الضريبيـة الثقيلـة الوطأة التـي أرهقت كثيراً الطبقات الفقيرة في المقـاطعـات المتحـدة كانت بطبيعـة الحال سببـا في أن كثيرين من الهولنديين العـاملين في البحر مستعدون لتهريب السلع إلى داخل موانىء هولندا وإلى خارجها أيضاً. ولكن لم يكن صغار البحـارة والصيادين هم وحدهم المذنبين الـوحيدين، ولا حتى المذنبين الأساسيين في مجال التهرب مـن ضرائب الاستيراد والتصدير. وإنما كـان نصيب الأسـد في ذلك للتجـار وأصحـاب السفن. ولهذا السبب، ضمن أسبـاب أخرى، منيت الإمـارات البحـرية بخسـائر فـادحة نظـراً لأن عوائدها كانت تعتمد أساسا على هذا المصدر غير المؤكد والمتذبذب. وزعم نقاد هذه الضرائب والرسوم أنهم لم يحافظوا فقط على تكاليف مواد التموين، ومن ثم تكاليف المعيشة في هولنـدا، بل، وإنهم بالمثل شجعوا الأجانب على الاتجار مباشرة مع بعضـهم البعض بدلاً من استخدام الهولنديين وسطاء على نحو ما فعلوا في القـرن السابع عشر. وأعطـوا مثالاً نموذجيـاً على هذه الحالـة، وهو تصدير السكـر والبن والنيلة من بوردو إلى ألمانيا والبلطيـق. وبعد أن كان في وقت ما ثلاثة أرباع هذه السلع تودع أمانة عن طريق امستردام والربع الآخر عن طريق هامبـورج فإن هذه النسب منذ ١٧٥٠-١٧٥١ انقلبت إلى العكس تماماً.

وكم من كتاب تحسروا على تـدهور التجارة البحـرية الهولندية، وهـا هو أحدهم يزعم في عام ١٧٨٠ أن المشكلة الحقيقية هي أن ملكية السفن انفصلت بوتيرة متـزايدة عن صنـاعـة البحر واستقلت عنها. ففي القـرن السابع عشر كان الكثيرون من القباطنة - التجار هم أصحاب سفنهم بأكملها أو أصحاب

جزء منهـا، ووضعوا أبنـاءهم وأقاربهم للعمل على متنها ممـا عزز امكـانات تطويرها. وأبدوا كذلك اهتماما نشطا ببيع شحنات السفن، ومن ثم كانت لهم مصلحة مباشرة في الأرباح الناجمة عن ذلك. ثم يستطرد هذا الناقد قائلاً: أما الآن فإن معظم ملاك السفن نادراً مـا يشاركون في أعمال الشحن، فضلاً عن أن شحنـات سفنهم تخص في الأساس طـرفـاً آخر من الأجـانب، وليس لهم نصيب في الأربـاح الناجمة عن النقل سـوى ما يتقاضـونه كأجـور شحن». وزعم أكثر من هذا أن المراسلين أو المشاركين الأجانب العاملين مع مؤسسات الشحن كثيراً ما يأتون بأبناء بلدتهم للعمل قباطنة وضباطاً بحريين على متن هـذه السفن. وهـؤلاء بدورهم يفضلـون ويـدعمون مـواطنيهم دون أبنـاء الأراضي المنخفضة. وأحس أبناء الأراضي المنخفضة إزاء هذا الوضع بالإحباط وفقدوا الأمل في التقـدم ومن ثم انغمسوا في الشراب وشهوات الجنس وتـركوا خدمة البحر كارهين مشمئزين.

واضح أن هذا الكـاتب، شأن آخرين على شـاكلته، يبـالغ كثيراً في تقييمه للوضع. إذ من المعروف أن ملكية السفن تحولت تدريجيا إلى مهنة بحاجة إلى تفـرغ كـامل واستقلال في الأراضي المنخفضـة الشماليـة ابتـداء من النصف الثاني من القرن السابع عشر فصاعداً بيد أن هذه العملية لم تكتمل حتى عام ١٧٨٠. ذلك أن فـروعاً عديـدة من التجـارة البحرية، مثـل تجارة الأخشاب والحبـوب مع منطقة البلطيق، ظلت تسير في الأســاس حسب النظام القـديم، وكان القباطنة لا يزالون هم التجار والوكلاء المسئولون عن شحنات سفنهم. ولكن من الواضح أيضاً، وبنفس القدر، أو هكذا يبدو لي، أن مشاركة الأجانب في الملاحة البحرية تحت العلم الهولندي بدأت تظهـر بوضوح أكثر خلال هذه الفترة. إذ بينما نجد أصحـاب السفن والقباطنـة الهولنديين يتاجـرون خلال حرب الثمانين عامـا مع شبه جزيرة ايبيريا وغيرهـا وقد تنكروا على أنهم من اسكنـدينـاوة أو غيرهـا، انقلب الـوضع إلى العكس مع حلـول عـام ١٧٨٠. واستمر هـذا الوضع الخـاطىء زمنـا طويلاً، حتى إنـه صادف في ملقـا سفنا

عديدة مملوكة لهامبورج ومزودة بوثائق هولندية. وقال إن قباطنتها يفتخرون صراحة أنهم يستطيعون بسهولة رشوة أي برجوازي في امستردام ببضعة جلدرات ليقسم اليمين بأن السفينة مملوكة لأمستردام. «واقع الأمر أن جميع ملاكها يعيشون في هامبورج» وحث دي رويتر إمارة البحر على وقف هذا الخطأ ولكنه كان أكثر شيوعاً على مدى قرن بعد ذلك. ذلك أننا نجد كلويت يشكو في عام ١٧٩٤ من أن برجوازي هولندي له أن يدعي أنه مالك لإحدى السفن، دون مطالبته بتقديم برهان على صدق دعواه، والنتيجة الحتمية لذلك أن كثيرين من التجار الأجانب عملوا في البحر تحت العلم الهولندي وهم يحملون وثائق هولندية تؤكد أو تثبت ملكيتهم لهذه السفن.

بعد أن نطرح جانبا من مظاهر المبالغة على لسان الأطراف أصحاب المصلحة، أرى لزاما أن نعترف بأن أسباب قوة البحرية الهولندية ضعفت كثيراً خلال القرن الثامن عشر. وإن أفضل ثقات هذه الحقبة – مثل فان دي شبيجل وفان دير أو دير ميولن – اتفقوا في الرأي على أن الاسطول التجاري الهولندي (بما في ذلك السفن التابعة للشركتين الهندية الشرقية والهندية الغربية) ظل حتى عام ١٧٨٠ يهيء فرصاً للعمالة لحوالي ٣٠٠٠٠ أو ٤٠٠٠٠ من البحارة، ويبدو للوهلة الأولى ان هذا لا يشير إلى حدوث تحول كبير جدا عن عام ١٥٨٨ وقتما كانت إمارة البحر في هولندا تزهو بقدرتها على حشد ٣٠٠٠٠ بحار محارب خلال اسبوعين فقط، ولا يختلف عن عام ١٦٨٨ وقتما أبحر وليم الثالث ليبدأ «الثورة المجيدة» في انجلترا. ولكن الشيء المؤكد في هذين العامين أيضا ١٥٨٨ و١٦٨٨ أن سكان زيلندا وشمال هولندا العاملين في البحر كانوا أكثر عدداً مما هم عليه في عام ١٧٨٠، وأن جمهورية هولندا وهي في فتوتها لم تكن لتستطيع، إلا بصعوبة أو بجهد، أن تحشد حوالي ٨٠٠٠٠ من البحارة الأكفاء. زد على هذا أنه وإن كانت هذه الأرقام قد تشتمل على أعداد من البحارة المولودين في الخارج وكانوا من العناصر المتاحة وقتذاك، إلا أن لدينا ما يبرر الاعتقاد بأن نسبتهم زادت كثيراً في عام ١٧٨٠

على عكس ما كان الوضع عليه قبل ذلك بقرن أو بقرنين.

وإذا عدنا من البحر إلى تربة الزرع في شمال الأراضي المنخفضة نجد أن الزراعة الهولندية أظهرت نجاحاً أكثر من صناعة البحر الهولندية في القرن الثامن عشر مقارنة بالوضع في القرن السابع عشر. إذ على الرغم من أن المصالح التجارية والمالية لجمهورية هولندا أثرت في تشكيل بيئتها الاقتصادية أكثر مما أثر قطاع الزراعة. إلا أن الزراعة أتاحت فرص عمل أكثر مما أتاحته التجارة أو الصناعة. وصدق هذا يقينا بالنسبة للمقاطعات الزراعية الخمس (باعتبار فريزلاند مقاطعة مستقلة) خلال العصر الذهبي وفترة الركود وربما صدق هذا أيضاً بالنسبة إلى زيلانده وجنوب هولندا خلال النصف الثاني من القرن الثامن عشر. وصناعة منتجات الألبان كانت أبرز جوانب انتاج المزارع الهولندية. وتفيد حسابات عام ١٧٤٠ ان الربع الشمالي من مقاطعة هولندا كان ينتج وحده حوالي ٢٠ مليون رطل من الجبن في السنة حين يكون الانتاج جيداً. ونذكر بهذه المناسبة ان سنة ١٧٤٠ كانت كارثة على الزراعة الهولندية، نظراً لموسم الشتاء الشديد القسوة والذي أعقبه صيف حار مدمر. وبلغت معاناة الأيدي العاملة أشدها حتى أن بعض الكتاب يؤرخون بهذه السنة بداية تدهور المقاطعات المتحدة. ويمثل الزبد أحد سلع التصدير المهمة من صناعة منتجات الألبان الهولندية، على الرغم من المنافسة الشديدة التي واجهتها هذه السلعة من الزبد الايرلندي فيما بين عامي ١٦٦٦ و١٧٥٧ وقتما حظرت الحكومة الانجليزية استيراد الزبد ومن ثم أرغمت المزارعين الأيرلنديين على توسيع أسواقهم وفتح أسواق جديدة لهم في أراضي الفلاندرز وفي فرنسا وشبه جزيرة أيبيريا.

والجدير بالذكر أن تربية الماشية والأغنام والخيل والخنازير احتلت مرتبة أقل أهمية بالقياس إلى صناعة منتجات الألبان. وأصيبت القطعان بأوبئة أهلكت الكثير وحصدتها حصداً في السنوات ١٧١٣-١٧٢٣. ١٧٤٤-١٧٥٥، ١٧٦٦-١٧٨٦ فضلاً عن تفشي أمراض كثيرة في مناطق

محدودة محلياً خلال السنوات الفاصلة بين سنوات تلك الأوبئة. ولم يكن مفهوماً علمياً منشأ هذه الأوبئة ولا سبل علاجها، غير أن المقاطعات أصدرت مراسيم لاتخاذ تدابير علاجية أو وقائية مشتركة فيما بينها. وكثيراً ما أهمل الفلاحون هذه الارشادات والنصائح وذلك لعدم ثقتهم من ناحية في «السادة البكوات» سكان المدن الذين أصدروها، وأيضاً لإيمانهم بأن الوباء تعبير عن غضب الله وأن مقاومته نوع من الفسوق وعدم الالتزام بقضائه وقدره. وخلال العقدين الأخيرين من القرن الثامن عشر بدأ يظهر اتجاه جديد بفضل جهود قلة من المزارعين أصحاب التوجيهات التقدمية، وبفضل الجمعيات الزراعية التي شجعت تطعيم القطعان ضد الأوبئة. وتحسن الوضع بعد بضع سنوات إثر استيراد سلالات جديدة من الخارج، وزاد انتاج تربية الماشية والأغنام فيما بين ١٧٥٠ و١٨٠٠. ومن ناحية أخرى فإن تفشي أوبئة أو طاعون الماشية حفز فلاحين كثيرين على التحول بالكامل أو جزئياً عن تربية الماشية إلى الزراعة لانتاج الأخشاب. وفي جرونتجن تحول الفلاحون أساسا إلى زراعة الحبوب، أما في هولندا فقد استهدف التحول زراعة الزهور لتسويقها. وحققت بعض المقاطعات نجاحا كبيراً في مجال تربية الماشية فكان هناك حوالي ٢٠٠٠٠ رأس من الأغنام في جزيرة تكسيل في منتصف القرن الثامن عشر.

ولكن نظام الضرائب والجمارك المرهقة كان سببا في تحول عدد كبير من الفلاحين في شمال هولندا إلى مهن أخرى خلال النصف الأول من القرن الثامن عشر. وشهد النصف الثاني من هذا القرن ارتفاعا عاما في أسعار الحاصلات الزراعية في أسواق أوروبا الغربية. وساعدت هذه الزيادة على تعويض عبء الضرائب الذي أثقل كاهل الفلاحين والمزارعين في بعض المقاطعات ومن ثم جعل الحياة ميسورة إلى حد ما بالنسبة لهم. وقد حدث هذا يقينا في مقاطعة أوفرجيسيل – وهي المقاطعة الوحيدة التي نملك احصائيات عنها – حيث أن ارتفاع أسعار الحاصلات الزراعية قلل من عبء الضرائب إلى

النصف تقريباً. بيد أن هذا لم يكن عاما وشاملاً.

ودخلت التحسينات التقنية في مجال الزراعة الهولندية خلال القرن الثامن عشر في وقت متأخر فضلاً عن أنها دخلت ناقصة بالقياس إلى التحسينات التقنية في كل من فرنسا وانجلترا آنذاك. إذ ظل الفلاح الهولندي متشبثاً في عناد بالتقنيات القديمة التي ورثها عن أسلافه في القرن السابع عشر، ونظر إلى التجديدات نظرة شك وريبة. والمعروف أن الفلاحين في جميع أنحاء العالم هم بحكم طبيعتهم محافظون في أفكارهم ومن ثم فإن الفلاح الهولندي لم يكن استثناء. وإن انتشار الأفكار بالأساليب الجديدة بين سكان الريف يعتمد إلى حد كبير على مصلحة وتعاون ناظر المدرسة والواعظ الديني ولم يكن أي منهما صاحب فكر باحثاً عن الجديد. وأجرى بعض كبار ملاك الأراضي تجارب استخدموا فيها الأدوات الزراعية الجديدة مثل آلات البذر. وفيما بين عامي ١٧٥٠ و١٧٨٤ شكل عدد من المزارعين وملاك الأراضي جمعيات لتحسين وتطوير الزراعة اقتداء بالنموذجين الانجليزي والفرنسي، غير أن نتائج دعايتهم وتجاربهم وجهودهم لم تبدأ تثمر إلا في السنوات الأخيرة من تاريخ الجمهورية. ويبدو واضحا في الحساب الختامي أن الزراعة بصورة عامة والبستنة لصالح السوق وزراعة أشجار الأخشاب بصورة خاصة بدأت جميعها في الازدهار نسبياً خلال النصف الثاني من القرن الثامن عشر، وخلال العقدين الأخيرين منه بوجه أخص على نقيض صيد الأسماك والصناعة وما شهداه من تدهور خلال هذه الفترة. وتم خلال هذه الفترة استصلاح المزيد من الأراضي التي انتزعت من البحر، واستصلاح المستنقعات ولكن أهم أسباب رخاء الزراعة هو ارتفاع أسعار الحاصلات والمنتجات الزراعية.

وان الانهيار المؤكد الذي أصاب الصناعة الهولندية في مجموعها خلال القرن الثامن عشر لم يكن انهيارا شاملاً طال جميع فروع الصناعة، فضلاً عن أن التعاقب الزمني لم يكن دائماً واحداً. مثال ذلك أن صناعة النسيج هي

من أولى الصناعات التي أصابها التدهور نظراً لأنها الأكثر عرضة للمنافسة الأجنبية الحادة. ويمكن أن نعود بتاريخ بداية التدهور إلى حوالي عام ١٧٣٠ على الرغم من أن بعض قطاعات هذه الصناعة دعمتها متطلبات تصدير شركة الهند الشرقية حتى عام ١٧٩٥. وكذلك صناعة الأقمشة في لندن التي بلغت ذروتها سنة ١٦٧١ بمعدل انتاج سنوي قدره ١٣٩٠٠٠ قطعة بدأت في التدهور الشديد والسريع بعد ذلك. ولم تنتج في سنة ١٧٠٠ سوى ٨٥٠٠٠ قطعة، وفي سنة ١٧٢٥ انتجت ٧٢٠٠٠ قطعة، وفي سنة ١٧٥٠ انتجت ٥٤٠٠٠، وفي ١٧٧٥ انتجت ٤١٠٠٠ قطعة، وفي ١٧٩٥ انتجت ٢٩٠٠٠ قطعة. ولا غرابة في أن تدهور أعظم صناعات مدينة ليدن قابله انكماش في عدد السكان العمال. ونلاحظ هنا أن صناعات التخمير والتقطير وتكرير السكر ومعالجة الملح وصناعة الصابون والمصابغ ومصانع التبغ ومحطات الزيت ومؤسسات تقطيع الماس، وهي صناعات ازدهرت جميعها خلال القرن الذهبي، لم تتدهور جميعها خلال حقبة الركود، وان حدث هذا بالنسبة لبعضها خاصة في النصف الثاني من القرن الثامن عشر. إذ حافظت صناعة تقطيع وصقل الماس على نفسها حتى آخر أيام الجمهورية، مثلما فعلت صناعة الورق. ولعل السبب الرئيسي لذلك هو الارتفاع الكبير في أسعار هاتين السلعتين. ويصدق الشيء نفسه على صناعة أجود أنواع المخمل في أوترشت. وظلت صناعات تقطير البراندي مزدهرة حتى عام ١٧٧١ وقتما كان يجرى تصدير ٨٥ بالمائة من هذا المشروب الوطني إلى الأسواق ومنها أسواق أمريكا الشمالية وممتلكات الشركتين الهندية الشرقية والهندية الغربية. وتماسكت صناعة التبغ والصباغة لأطول مدة خلال القرن الثامن عشر على الرغم مما أصابها من تدهور محلي في بعض المقاطعات. وإن صناعة خزف دلفت الشهير التي بلغت أوجها في الأعوام ١٦٨٥ إلى ١٧٢٥، بدأت في التدهور بعد ذلك ولم يكن تدهوراً مأساويا. واطرد ازدهار قمائن الطوب وكان يجري تصدير منتجاتها على ظهر السفن إلى بلدان بحر البلطيق بعد الوفاء بالاحتياجات المحلية. ومن ناحية أخرى فقد كان حتما أن تتدهور صناعة

زيت كبد الحوت مع نقص مصائد الحيتان.

التدهور الشامل الذي أصاب الصناعة الهولندية في هولندا خلال الأعوام ١٧٥٠-١٧٩٥ مثلما انعكس بوضوح في صناعة بناء السفن. ففي القرن السابع عشر كان جميع نجاري السفن الهولنديين يعملون جميعاً كل الوقت في بناء واصلاح وابدال السفن لصالح مصايد الأسماك والأسطول الحربي وتجارة النقل البحري الأوروبية وللشركتين الهندية الشرقية والهندية الغربية، فضلاً عن السفن التي يبنونها لبيعها أو لتأجيرها في الخارج. وتفيد بعض التقديرات أنه كان هناك حوالي ٥٠٠ سفينة للملاحة البحرية يجرى بناؤها في الجمهورية سنوياً. باستثناء ما يتم بناؤه لحساب بلدان أجنبية، وعلاوة على المراكب الصغيرة التي تستخدم في المجاري المائية داخل البلاد. وعلى الرغم من مظاهر الرواج والكساد الحتمية إلا أن صناعة بناء السفن ظلت مزدهرة حتى الربع الأول من القرن الثامن عشر، ثم بدأت في التناقص تدريجياً. وبدا تدهورها أكثر وضوحاً بعد عام ١٧٥٠ تقريباً ثم زاد تدهورها سريعاً خلال الربع الأخير من القرن ذاته . وإن منطقة الزان القريبة من امستردام التي كانت في القرن السابع عشر المكافىء لمنطقة كلايد البريطانية في عهد الملكة فيكتوريا، لم تكن في عام ١٧٠٧ تضم أكثر من ٦٠ حوضاً للسفن بها ما مجموعه ٣٠٦ سفن كبيرة وصغيرة تحت الانشاء. وفي عام ١٧٧٠ لم يكن بها سوى ٢٥ أو ٣٠ سفينة لبنائها هناك. وفيما بين سنة ١٧٩٠ وسنة ١٧٩٣ لم يتجاوز المتوسط خمس سفن فقط سنوياً، وأصبح المتوسط بعد ١٧٩٣ سفينة واحدة فقط. وكانت روتردام بها ثلاثة وعشرون حوضاً لبناء السفن في عام ١٦٥٠، ثم انكمشت لتصبح خمساً فقط قبيل نهاية القرن، إلا أن الوضع تحسن ثانية بعد مائة عام. غير أن هذه الصحوة لم تكن لتعوض الانهيار المأساوي الذي أصاب منطقة الزان. وسجلت فريزلاند زيادة ملحوظة في عدد السفن خلال القرن الثامن عشر، حيث كانت هناك ٢٠٠٠ سفينة مسجلة في المقاطعة عام ١٧٧٥، وهو أكبر عدد في أي مقاطعة من

المقـاطعات السبع، ولكن الأغلبيـة العظمى من هـذه السفن هي سفن صغيرة تعمل بالقرب من السـواحل وحمولتها أقل من ٨٠ طنا، ومن ثم فهي غير ذات أهمية كبرى بالنسبة للتجارة البحرية مع أوروبا.

وإن أسباب التدهـور العام في الصناعات الهولندية خـلال القرن الثامن عشر واضحـة جداً. إذ بـالمقـارنـة مع أخطر منـافسيهـا ونعني بهم انجلترا وفرنسـا، نجد أن الأراضي المنخفضـة الشمالية بـدت فقيرة للغايـة من حيث المواد الخام وأسواقها الداخلية قيـاسا إلى هذين البلدين. والملاحظ خلال فترة الازدهار التي شهدها القرن الذهبي أن صنـاعات هولندية كثيرة، علاوة على صناعـة الأقمشة في ليدن، تـوسعت كثيراً وتجاوزت حاجات السـوق المحلية واعتمدت إلى حـد كبير على التصديـر. وعندمـا طبقت البلدان المجـاورة نظام الحماية الجمـركية منذ أيـام كولبرت وما بعـدها، فإن هذا النظـام أثر تأثيراً كبيراً إذ شجع استهلاك المنتج المحلي على حسـاب الصادرات الهولنـدية. ولم يستطع رجـال الصناعـة الهولنديـة التراجع والاعتماد فقط على الطلب المحلي مثلما لم يكن بالامكان زيادة مبيعاتهم بنسبة كبيرة إلى المستعمرات في المنطقة الاستـوائيـة. علاوة على هـذا ان الصنـاعـات الهولنـدية كـانت في الأسـاس صناعات تشطيب لمنتجـات بلدان أخرى مثل المنسوجات القطنيـة والصوفية من انجلترا. غير أن هـذه البلدان الأخرى حققـت بمرور الـوقت تقدمـا تقنياً أهَّلها للقيـام بنفسها بعمليـات التشطيب اللازمـة لمنتجاتها. وبعـد أن شقت الثـورة الصناعيـة طـريقها في النصف الثـاني من القـرن الثامن عشر كـان الهولنـديون في وضع لا يحسـدون عليه بسبب نقص الفحم والحديـد. وإذا كانت صناعة النسيج هي أهم صناعـات هولندا، فقد كان حتما أن تكون هي الأكثر تضرراً. وثمـة ملاحظـة لها ما يبررهـا تقول «النسيج قلب السيـاسة التجارية في جميع الاقطار».

وان الـرسوم الجمـركية المانعـة التي فـرضتها انجلترا وفـرنسا خـلال النصف الثاني من القرن الثامن عشر على الأقمشـة الهولندية المصنعة، تبعها

بالتدريج تشريعات حماية مماثلة أصدرتها روسيا وبروسيا والدانمرك والنرويج وأسبانيا خلال الربع الأول من القرن الثامن عشر. وهكذا كان انهيار صناعة النسيج في هولندا نتيجة لذلك أمراً حتمياً.

وعلاوة على تشريعات الحماية المعبرة عن المصالح التجارية، ثمة سبب آخر يفسر لماذا استطاعت البلدان الأجنبية أن تطور صناعاتها على حساب صناعات هولندا. وهذا السبب هو أن تلك البلدان أغرت العمال المهرة العاملين في الأراضي المنخفضة للنزوح اليها إبّان المراحل الأولى لتطوير صناعاتها. والواقع أن هجرة العمال الهولنديين المهرة ظلت مطردة حتى بعد أن اكتفت الصناعات الأجنبية وأوفت بحاجتها. وسبب استمرار الهجرة هو انتشار البطالة بين العمال الصناعيين في شمال الأراضي المنخفضة خلال القرن الثامن عشر، ونحن لا نملك وسيلة لحساب عدد المهاجرين، غير اننا نعرف ان ادارة عموم الولايات أصدرت في عام ١٧٥١ مرسوما يحظر هجرة فئات محددة من العمال المهرة، خاصة عمال النسيج وصناع الحبال والعاملين في مجال قطع الأخشاب. وهذا ليس سوى مجرد مثال لهذا النوع من التشريعات، وليس هناك ما يمنعنا من افتراض ان هذه التشريعات كانت عديمة الجدوى، وكم كان يسيراً التحايل عليها من جانب الراغبين في مغادرة البلاد. وكانت السلطات أكثر عجزاً بالتالي عن منع العمال الأجانب من الخدمة في مجال التجارة الهولندية حيث يتعلمون سر المهنة ثم يعودون بخبرتهم إلى أوطانهم لاستثمار كفاءاتهم الجديدة.

سبب آخر أورده كثير من المعاصرين في معرض تفسيرهم لأسباب تدهور الصناعات الهولندية خلال النصف الثاني من القرن الثامن عشر ألا وهو أجور العمال في المقاطعات السبع، وفي هولندا بشكل أخص، حيث كانت أعلى من مثيلاتها في البلدان الأخرى. مثال ذلك أن الأجر الاسبوعي لعامل طباعة الأقمشة القطنية في سويسرا كان يعادل ٣,٥٠ فلورين في عام ١٧٦٦ و٣ فلورين في أوجسبرج في عام ١٧٦٠ و٩,١٠ فلورين في هولندا. ومن ناحية

أخرى ظهرت فوارق واسعة بين معدلات الأجور في مناطق مختلفة في المقاطعات السبع. إذ كانت بعض أحياء الريف في أماكن محددة تدفع أجوراً أعلى كثيراً من الأجور المناظرة في المدن. وكان الوضع على العكس من ذلك في أماكن أخرى. ونقل بعض رجال الصناعة الهولنديين مصانعهم من هولندا إلى شمال برابانت أو غيرها حيث الظروف المحلية تسمح باستغلال الفقراء استغلالا بشعاً، وكتب في هذا الصدد شاهد عيان في عام ١٧٨٥ فقال: «إن من يعرفون فلاحي بلدة باربانت لابد وأن يعترفوا بأنهم محرومون من كل وسائل الراحة في الحياة التي تشكل جزءاً أصيلاً وجوهرياً ليكون البشر بشراً. إنهم يشربون اللبن الرائب أو الماء ويأكلون البطاطس والخبز دون إدام من الزبد أو الجبن، ويرتدون ملابس رثة، وينامون على القش. إن السجين في هولندا ينعم بحياة أفضل من حياة فلاح برابانت*.

وكم هو عسير القول إلى أي حد كانت الأجور «المرتفعة» على حد زعم البعض، التي كان يتقاضاها بعض العمال الهولنديين المهرة شكلت عاملاً من عوامل تدهور الصناعة في هولندا. إذ مثلما اعتاد الفلاحون دائماً الشكوى من الطقس، واعتاد التجار الشكوى من الضرائب التعجيزية أو المنافسة الأجنبية غير المتكافئة، كذلك فإن رجال الصناعة على استعداد للظن بأن قوة عملهم الخاصة التي تنال حقها إنما يقتطعها العرق المبذول من قوة عمل منافسيهم الأجانب. ومنذ عام ١٧٤٠ ثمة رجل انجليزي أقام طويلاً في هولندا، ولاحظ أن كلا من الهولنديين والانجليز حققوا درجة عالية من الكمال في قمة حدادة وسباكة البنادق. ثم أضاف بعد اشارته هذه قائلاً: «وحيث إن لنا ميزة كبيرة على الهولنديين في حوض البحر المتوسط وفي المشرق، فقد ظهر من أبدى رغبة في خفض رسومنا الجمركية أو أن يحتال على عمالنا خلال ذلك على العيش عند مستوى أدنى ويعملون بأجور زهيدة مثل الهولنديين». وأكد قائلاً وإنه

---

* B. M. Vlekke, Evolution of the Dutch Nation; pp. 259-60.

في مثل هذه الحالــة سوف تسقط تجارة الأسلحة مع الامبراطوريــة العثمانية ومع ولايات المغرب في أيدي الانجليز*.

ولست أدري هل احتفظ العمال الهولنـديون في مجال صنــاعة الأسلحــة بقـدراتهم الفنيــة على نفس مستوى منــافسيهم الانجليـز أم لا. ولكن الشيء الجدير بــالذكر أنــه في أربعينيات القــرن الثامن عشر بدأ النمــو الاقتصادي لبريطانيا يسرع كثيراً وبدأت المرحلة الأولى من الثورة الصناعية. وبعد أربعين عــاما بــدأ يتعــالى نواح رجــال الصنــاعة الهولنــديين وهم يتحسرون بسبب التدهــور العام الذي أصاب الصنــاعة الهولندية، وعبروا عن ذلك بــالعبارات التالية: «لا يسع المرء إلا أن يلاحظ أن عدداً قليــلاً جداً من فروع الصناعة أو التجارة هنا هي التي لا تحتــاج إلى إدخال تحسينات عليها وتطويــرها، سواء من حيث الشكل أو أدوات التشغيل. إن عمال سباكة وتشكيل النحاس وعمال الحديد والصلب وغير ذلك من صناعات مماثلــة باتوا جميعاً عمالاً غير مهرة، وإذا ما قــارنا بين منتجــاتهم ومنتجات العمال الأجــانب نجد انتــاجهم أدنى مستــوى. لقــد أضحت الصنــاعــات جميعهــا غير متقنــة، فضــلاً عن ســوء التشطيب النهائي بالقياس إلى مــا يجري في البلدان الأخرى. ويمكن القول إن إنتاج السلعة بات أكثر تكلفة بسبب سوء التدريب». وفي العام نفسه (١٧٧٩) تحدث واحد من رجال صنــاعة النسيج في ليدن وأبدى حزنــه الشديد بسبب انتقاد المبــادرة بين رجال الصنــاعة ورجــال الأعمال الهولنديين، فضــلاً عن نفورهم الشــديد إزاء تجربة تقنيات وطــرق جديدة. إنهم يــرون أن ما صلح للسلف فهو صالح لهم أيضاً. ويبدو ان هذه كانت احدى الصفات الأساسية في المجتمع الهولنــدي خلال العقــود.الأخيرة من فترة الــركــود سواء في مــدن وحقول الأراضي المنخفضة الشماليــة أو في المناطق الداخلية مــن رأس الرجاء الصالح.

---

* A Description of Holland (1743); pp. 236-7.

وإن نقص روح المبادرة والمغامرة عند أغلبيــة رجال الصناعة الهولنديين وكذلك عند الفــلاحين الهولنديين إلى حد ما، يتبــاين تباينا شديــداً مع ما كان عليــه الــوضع قبل ذلك بمائة عــام عنــدمــا كان رجــال الأعمال والصنــاعــة والتقنيون الهولنــديون هم رواد التقــدم التجاري والتقني في العــالم الغربي. وكما أشار بصـــدق شارلس ويلسون حين قــال: «ظل التقني الهولندي حتى القرن السابع عشر في وضع المهندس الاسكوتلندي خلال القرن التاسع عشر، بل وكانت مجالات نشــاطه الاقتصادي اكثــر اتساعاً. إذ تجده حينما يــوجد عمل يربح، ومطلــوبا حيث تكون الحكــومة أو أصحــاب المشروعــات الخاصة بحاجة إلى مهارة تقنية أو إدارية». ولكنه فقد كل هذا بعد قرن من الزمان على نحو ما أقر بذلك أحد المشاركين في كتاب De Roopman في عام ١٧٧٥، حين قال حزيناً: «لم نعد مبتكرين بطبيعتنــا الأصلية؛ وأضحت الأصالة الابداعية نادرة بين صفوفنا هنا. واليوم لا عمــل لنا سوى الاستنساخ والمحاكاة بينما كنا في السابق لا ننتج غير كل مبتكر جديد وأصيل.*

ولا ريب في أن هذا قول ينطوي على قــدر من المبالغة وان رددت الصحف الهولندية نواحا مماثــلا خلال النصف الثاني من القرن الثامن عشر. وحري بنا أن نتذكر هنا ما قالــه الكابتن جيمس كوك من ثناء عند الحديث عن مهارة وكفاءة النجارين في باتافيا في عام ١٧٧٠. غير أنني قد أجازف بالقول إنه على عكس مــا ذهب إليه بعض الكتــاب المحدثين فإن حقبــة الادعاء في المقــاطعات المتحدة كانت عصر ركود لا عصر تلاحم إذا ما قارنا بانجازات القرن الذهبي في معظم نواحيه ولا أقول جميعها.

وإن المعــاصرين الــذين تحسروا على التحلل الاقتصــادي الــذي أصــاب الجمهورية الهولندية خلال النصف الأخير – أو الربع الأخير بشكل أخص – من القرن الثــامن عشر إنما نزعــوا إلى صب اللوم أســاسا حسب زعمهم، على

---

* C. Willson; Holland and Britaian, (london, 1945) pp. 14-18.

الرأسماليين وذوي الأملاك المكتفين بأنفسهم فضـلاً عن قصر نظرهم لأنهم آثروا استثمار أموالهم في الخارج بدلاً من تدعيم الصناعة والتجارة البحرية المملوكة للبلاد ومن ثم يخففون من حدة البطالة. لقد ساد الأراضي المنخفضة وممتلكاتها في المناطق الاستوائية خلال الربع الأخير من القرن الثامن عشر اتجاه اللامبالاة ازاء كل ما يخص النفس. حيث شاع قول مأثور بمعنى «الأنامالية» أو أنا ليس لي شأن أو لا شأن لي بغيري». ولو أن مثل هذا الاتجاه كان موجوداً قبل ذلك بقرن لما بدا واضحاً وملحوظاً بهذا القدر الواضح. وكتبت مجلة دي بروجر عن أصحاب الأملاك الأثرياء في عام ١٧٧٨ فقالت: «كل امرىء يقول: «أنا وبعدي الطوفان» كما يقول المثل الفرنسي الذي التزمنا به في أفعالنا دون الأقوال». وبعد بضع سنوات كتب ديرك فان هوجندورب من جاوة فقال: «إن أكثر الشعارات شيوعا بين المواطنين ذلك الشعار القائل: «غدا يظهر الغيب واليوم لي، وما سوف يحدث غداً لا يعنيني»*. ولقد رأينا كيف أن بعض هذه الشكاوى مبالغ فيها. وعلى أية حال فإن زيادة غير مستحقة لأي دخل نتيجة استثمار رؤوس أموال هولندية خلال القرن الثامن عشر انما تعوض إلى حد كبير، وربما أكثر، التدهور الحادث في قطاعات أخرى من الدخل القومي مثل مصايد الأسماك وصناعة النسيج وبناء السفن وبعض فروع التجارة البحرية. وقد قدر فان دي شبيجل فائض الربح هذا بإجمالي سنوي في عام ١٧٨٢ قدره ٢٧ مليون فلورين. وثمة أبحاث تاريخية حديثة بشأن أسباب التدهور الاقتصادي في الأراضي المنخفضة الشمالية خلال النصف الثاني من القرن الثامن عشر أكدت أن هناك عوامل اقتصادية - لم يكن من المستطاع تجنب أكثرها مثل تطور الصناعة والتجارة البحرية وبناء السفن في البلدان المجاورة - كانت هي المسئولة أولاً وأساساً عن هذا التدهور ولكن هناك أيضاً أسباب أخرى مساعدة، والتي كان بالامكان التخفيف من حدتها أو تجنبها تماما لو أن بنية مجتمع الجمهورية الهولندية كانت غير ما كانت عليه.

* C. Willson; Holland and Britaian, (london, 1945) pp. 14-18.

أولاً: (كما أشار جوهان دي فرايز) كان هناك تراث تجاري له الغلبة موروث عن القرن الذهبي، وقتما كانت لتجارة الهولنديين الهيمنة على التجارة البحرية في القطاع الأكبر من العالم، وأوشكوا على الاقتناع بأنهم من اصطفاهم الرب ومنحهم هذا الحق. وظلت دائماً مكانة التاجر اجتماعيا أرقى من مكانة رجل الصناعة، أو أرقى من كثيرين من الناس ممن هم خارج دائرة الاقلية الغنية الحاكمة. وهذا التراث التجاري وتلك المكانة الاجتماعية والنزوع العام لم تكن جميعها من العوامل المواتية التي تخلق عقلية صناعية وتنميها. والملاحظ أن من حققوا لأنفسهم ثروة أو حتى حياة ميسورة من خلال الصناعة أو الحرف المهنية الفنية كانوا مهيئين للتحول إلى العمل التجاري بعد أن يتوفر لهم رأس المال الكافي لكي يتعلموا هذا، وأن ينشئوا أبناءهم على العمل بالتجارة. ثم إن البنية غير المركزية لحكومة الجمهورية، والغيرة بين المقاطعات وبعضها البعض المسماة زيفا «المقاطعات المتحدة»، وإن لم تشكل عقبة كبيرة في سبيل النمو الاقتصادي خلال القرن الذهبي، إلا أنها أضحت أكبر العقبات بعد أن تحولت الظروف في القرن الثامن عشر، وقتما أصبحت المنافسة الأجنبية شديدة الفعالية والتأثير ... يضاف إلى هذا أن المساهمات المالية من جانب المقاطعات المختلفة لمصلحة «إدارة عموم الولايات» والتي جمدت خلال الفترة من ١٦٠٩-١٦٢١ ظلت كما هي دون تغيير إلى ان انتهت الجمهورية على الرغم من الجهود الفاشلة التي بذلها بعض رجال الدولة لمراجعتها وتعديلها حسب الظروف المتغيرة. ثم هناك الانقسامات السياسية، وعدم الثقة المتبادلة بين من هم مع أو ضد آل أورانج خلال النصف الثاني من القرن الثامن عشر. ومعنى هذا أن أي اقتراحات جادة تستهدف الاصلاح يطرحها طرف من الأطراف يرفضها أو يمنحها جانباً تلقائياً الطرف الآخر. ولقد حالت الغيرة بين المقاطعات أحيانا دون الاتفاق بينها على تحسين الطرق أو القنوات التي تصل بين حدود المقاطعات. ومن المؤكد إن الفساد والمحسوبية بين أبناء طبقة الأوليجاركية الحاكمة كانا موجودين خلال القرن السابع عشر، ولكنهما لم يؤثرا سلباً على الفعالية

الاجتماعية بنفس الدرجة التي أثرا بها من خلال سلالة هذه الطبقة أثناء الركود عندما أصبحت «عقود المراسلة» هي القاعدة وليس الاستثناء.

وساد زعم في أواخر القرن الثامن عشر يفيد بأن الرأسماليين وأصحاب الأملاك الهولنديين الذين استثمروا بعضا من رؤوس أموالهم في المؤسسات والمصارف الانجليزية والفرنسية إنما ساعدوا بذلك أخطر منافسي الجمهورية. بيد أن هذا زعم ليس له ما يبرره على الأرجح، ذلك أن هذين البلدين كانا سيطوران تجارتيهما وصناعتيهما حتى ولو بدون مساعدة رأس المال الهولندي. لقد كانت انجلترا بدورها دولة مصدرة لرأس المال وان لم تكن على نفس مستوى هولندا. وأوضح جوهان دي فرايس ان انجلترا كانت قادرة على تحمل العبء المالي لحرب الاستقلال الأمريكية دون صعوبة كبيرة حتى ولو سحب الهولنديون قسطاً من رؤوس أموالهم المودعة في لندن. ويؤكد أن الآثار المعاكسة الحقيقية لعملية استثمار الأموال في الخارج، وهي العملية التي اتسع نطاقها من قبل الرأسماليين الهولنديين خلال القرن الثامن عشر، هي أنها استمرت خلال القرن التاسع عشر لفترات زمنية أطول مما هو مقبول وسليم اقتصادياً.

وسواء أكان بالامكان الحيلولة دون وقوع بعض أشكال التدهور الاقتصادي أم لا، فإنه ما أن حل عام ١٧٨٠ حتى كانت العملية قد قطعت شوطاً طويلاً أكثر مما كان يتوقع أو يستطيع الجميع، وربما لم يتوقع التجار وأصحاب الأملاك الأثرياء أن الأمور «ستتحسن جيداً على هذا النحو بالنسبة لهم»، غير ان وضع الفقراء على ما يبدو ساء إلى أقصى حد بل وأسوأ مما كان عليه منذ قرن مضى خاصة ممن يعيشون في المدن بعيداً عن المهجر. وإن وصف بوسويل لمدينة أوترشت في عام ١٧٦٣ يمثل استباقا لملاحظة أبداها لوزاك بعده بعشرين عاما حين قال: إن أي إنسان لديه أدنى قدر من المشاعر، وبعض الحب لأرض الآباء لا يمكنه أن يمضي عبر المدن الداخلية بعينين جامدتين غير دامعتين». وفي عام ١٧٩٢ قال شاهد عيان آخر: «حيثما أمعنت

النظر حـولك تأكدت لك الحقيقـة المحزنـة وهي أن رفاهية تلـك الطبقة التي تعيش حيـاة عمادها العمل آخـذة في التدهـور باطـراد». وان الارتفاع العـام والمطرد في تكاليف المعيشة خلال النصف الثـاني من القرن الثامن عشر كان يقينا أحد أسباب هذا التدهور على نحو ما أشار وأكد كثيرون في عام ١٧٧٨. لقد كان تفشي الفقر ظاهرة واضحـة ليس فقط بين أبناء الطبقة العاملة الذين تدهـورت حياتهم في المدن مثل مدينـة ليدن ودلفت وزاندام، بل وفي مقـاطعة أوفرجيسيل الريفية، حيث اقترنت الـزيادة في تعداد السكان فيما بين ١٦٧٥ و١٧٦٧ بزيادة سريعة في الفقر. ولم تكن النتيجة الحتمية والوحيدة هي خلق هوة واسعة فـاصلة بين الأغنياء وبين الفقراء، بل وأيضـاً هو أكبر بين الطبقة العليا وبين الشريحة الدنيا من الطبقة المتوسطة في المدن.

إنـه على الرغم من زيـادة التسـامح الدينـي وانحسار التعصب الـديني الأعمى، وعلى الرغم من جهـود هيئات عديدة مثل الفـرع الاقتصادي لجمعية العلوم الهولندية في سبيل تطوير وتحسين الأوضاع الاجتماعية والاقتصادية عن طريق النصح والقدوة. وعلى الرغم من جهود بتجي وولف ومؤيديهما من أجل تعليم الجماهير ورفع مستواهم، وعلى الرغم من تـراجع الرغبة في تناول شراب الجن والبراندي وزيـادة الرغبة في تنـاول القهوة والشـاي – أقول على الرغم من كل هـذا وغيره من جوانب التنـوير التي تستهدف التطـوير والتي يمكن أن نأتي على ذكرها، أجدني على يقين لا يدانيه شك في أن وطن رمبرانت وفوندل ودي رويز كان لا يزال مكاناً أفضل وأقدر على إثارة الحوافز والرغبة للعيش فيه ممـا هو الحال بالنسبـة لوطن كورنيليس تـروست، وبيلدرجيك وزوتمان.

ملحــق
ملاحظات عن العملات والموازين والمقاييس الأساسية المذكورة في النص

الجلد أو الفلـورين الهولندي يشتمـل على ٢٠ ستويفر، ويمكـن اعتباره مسـاوياً للفلـورين الانجليزي. ولم يكـن بشكل عام هـو العملة السـائدة في الشرق. ولكن حسابات شركـة الهند الشرقية كانت مقـدّرة على أساس الجلدر ووحداته من الستويفر، ومن ثم كـانت العملات المحلية يجرى تحويلها طبقاً للأسعار السائدة للعملة والتي كـانت تتباين تباينا كبيراً. وعبارة «طن ذهب» التي تـرد كثيراً في السجلات والـوثائق الهولنـدية لا تعني سـوى ما قيمتـه ١٠٠٠٠٠ جلدر من أي شيء. وخلال النصف الأول استخدم الهولنديون على نطـاق واسع الريـال الأسباني الأمـريكي سـواء كعملة حقيقيـة أو كوحـدة حسابية يجرى تحويلها عادة إلى ما يسـاوى ٤٨ ستويفر، ويعادل ما يعرف باسم ركس دولار Rix-Dollar أي ٢,٥ فلورين. وأدخلت الأراضي المنخفضة وباتافيا سلسلة من الاصـلاحات النقدية خلال الأعوام ١٦٥٦-١٦٥٨ أدت إلى تثبيت سعر الريـال والركس دولار عند ٦٠ ستويفـر. ولكن جرى تعديل المدفوعات بالنسبة للخدمات في شركة الهند الشرقية بحيث أصبح هناك نوعان من الستويفر، «ثقيل» و«خفيف»، والخفيف يساوي أربعة أخماس الستويفر الفضي. وتعقّد الأمر نتيجة أن الجلدر أو الفلورين الحسابي ظل عند قيمته ٢٠ ستويفر على الرغم من اعتبار عملة الستويفر في الأراضي المنخفضة من النوع «الثقيل» واعتبـاره في الأراضي الممتـدة من الكـاب إلى نـاجـازاكي من النـوع «الخفيف». وهكذا، وكما أشار منتزل تم حساب الرواتب في دفاتر الحسابات على أساس سعر ٢٠ ستـويفر لكل فلورين بينما يتقاضـاه المرء محليا بسعر ١٥ ستويفـر لكل فلورين. وفي النظـام النقدي الجديد في بـاتافيـا حلت عملة

الركس دولار Rix-Dollar والتي تساوى ٣ فلورين (أو ٦٠ ستويفر) محل الريال الثماني Rial-of-Eight كعملة حسابية، مع استمرار التعامل بالجلدر حسب قيمته.

والرطل الهولندي الذي شاع استخدامه هو رطل امستردام ووزنه ٠,٤٩٤ من الكيلو جرام أو أنه يساوي عمليا ١,٠٩ رطل انجليزي.

واللاست Last الهولندي أو طن الفراغ المشغول عند شحن السفن يساوي عادة ١٢٠ قدماً مكعباً أو ٢ طن (قياسي). ويساوي اللاست أيضاً ٢ طن من الأحمال الساكنة = ٢ طن متري، أو ٢٠٠٠ رطل امستردامي = ٤,٣٥٦ رطل أوليبرا.

والميل الهولندي تغير حسابه كثيراً مع القرون، ولكنه كان يساوي عادة في القرن السابع عشر الفرسخ الانجليزي أو ثلاثة أميال.

مراجع مختارة
ضمنها المؤلف كتابه

Vlekke, B. H. M., *Evolution of the Dutch Nation* (New York, 1945).

Vlekke, B. H. M., *Nusantara. A History of the East Indian Archipelago* (Cambridge, Mass., 1945).

Vries, Johan de, *De economische achteruitgang der Republiek in de achttiende eeuw* (Amsterdam, 1959).

Warnsinck, J. C. M. (ed.), *Reisen van Nicolaus de Graaff gedaan naar alle gewesten des Werelds, 1637–1687* (The Hague, 1930).

Wilson, Charles, *Anglo-Dutch Commerce and Finance in the Eighteenth Century* (London, 1941).

Wilson, Charles, *Holland and Britain* (London, 1945).

Wilson, Charles, *Profit and Power. A study of England and the Dutch Wars* (Cambridge, 1957).
'Taxation and the decline of empires, an unfashionable theme' (*BMHGU*, Vol. 77, Utrecht, 1963, pp. 10–26).

Zumthor, Paul, *Daily Life in Rembrandt's Holland* (London, 1961).

Slicher van Bath, B. S., *De agrarische geschiedenis van West Europa, 500–1850* (Utrecht, 1960). An English translation of this book was published after the present work had gone to press in 1963.

Snapper, Frits, *Oorlogs invloeden op de overzeese handel van Holland, 1551–1719* (Amsterdam, 1959).

Sousa Coutinho, Francisco de, *Correspondência diplomática de F. de S. C. durante a sua embaixada em Holanda, 1643–1650* (ed. E. Prestage *et al.*, 3 vols., Coimbra and Lisboa, 1920–55).

Stavorinus, Johan Splinter, *Voyages to the East Indies; by the late John Splinter Stavorinus, Esq., Rear-Admiral in the service of the States-General. Translated from the original Dutch by Samuel Hull Wilcocke, with notes and additions by the translator, the whole comprising a full and accurate account of all the present and late possessions of the Dutch in India, and at the Cape of Good Hope* (3 vols., London, 1798).

Temple, William, *Observations upon the Provinces of the United Netherlands. By Sir William Temple of Shene, in the County of Surrey, Baronet, Ambassador at the Hague, and at Aix la Chappelle in the year 1668. The third edition, corrected and augmented* (London, 1676).

Terpstra, H., *Jan van Neck, Amsterdam's admiraal en regent* (Amsterdam, 1960).

Thunberg, Carl Pieter, *Travels in Europe, Africa, and Asia. Performed between the years 1770 and 1779* (4 vols., London, 1795).

Tijdschrift voor Geschiedenis (44 vols., Groningen, 1920–63). In progress.

Toit, P. S. du, *Onderwys aan die Kaap onder die Kompanjie, 1652–1795. 'N Kultuur—historiese studie* (Cape Town, 1937).

Troostenburgh de Bruyn, C. A. van, *De Hervormde Kerk in Nederlandsch Oost-Indië onder de Oost-Indische Compagnie, 1602–1795* (Arnhem, 1884).

Trotter, Alice, *Old Cape Colony. A chronicle of her men and houses from 1652 to 1806* (Cape Town, 1903).

Udemans, Godfried, *'T Geestelyck Roer van't Coopmans schip. Dat is: Trouw bericht hoe dat een coopman en coopvaerder, hem selven dragen moet in syne handelinge in pays ende in oorloge, voor Godt, ende de menschen, te water en te lande, insonderheyt onder de heydenen in Oost-ende West-Indien. Den derden druck, verbetert ende vermeerdert by den Autheur* (Dordrecht, 1655).

Unger, W. S., 'Bijdragen tot de geschiedenis van de Nederlandse slavenhandel', articles reprinted from the *Economisch-Historisch Jaarboek, Bijdragen tot de Economische Geschiedenis van Nederland*, vols. 26–8 (The Hague, 1956–61).

Valentyn, François, *Oud en Nieuw Oost-Indien, vervattende een naukeurige en uitvoerige verhandelinge van Nederlands mogentheyd in die gewesten* (5 vols. in 8, Dordrecht & Amsterdam, 1724–6).

Laet, Johannes de, *Iaerlyck Verhael van de verrichtinghen der Geoctroyeerde West-Indische Compagnie in derthien boecken* (Leiden, 1644). Quotations are taken from the 5-vol. Linschoten Vereeniging edition by S. P. L'Honoré-Naber & J. C. M. Warnsinck (The Hague, 1931–7).

Leuftink, A., *De Geneeskunde bij's Lands oorlogsvloot in de 17e eeuw* (Assen, 1953).

Leur, J. C. van, *Indonesian Trade and Society. Essays in Asian social and economic history* (The Hague, 1955).

Meilink-Roelofsz, M. A. P., *Asian Trade and European Influence in the Indonesian Archipelago between 1500 and about 1630* (The Hague, 1962).

Mentzel, O. F., *Life at the Cape in the mid-Eighteenth Century; being the biography of Rudolph Siegfried Alleman, Captain of the military forces at the Cape of Good Hope* (Cape Town, 1919).

Mentzel, O. F., *A Geographical-Topographical Description of the Cape of Good Hope* (3 vols., Cape Town, 1921–44). Publications of the Van Riebeeck Society, Vols. 2, 4, 6 and 25.

Onslow Burrish, *Batavia Illustrata: Or, a view of the policy and commerce of the United Provinces: particularly of Holland, with an enquiry into the alliances of the States General with the Emperor, France, Spain, and Great Britain* (London, 1728).

Oost-Indisch-praetjen, voorgevallen in Batavia tusschen vier Nederlanders. Den eenen een Koopman, d'ander een Krijghs-Officier, den derden een stuyrman, en den vierden of den laetsten een Kranckebesoecker (n.p., 1663). Knuttel nr. 8756.

Parival, Jean de, *Les Delices de la Hollande . . . ouvrage revue, corrigé, changé et fort augmenté* (Leiden, 1662).

Perron, *see* Du Perron.

Poelhekke, Jan, *De Vrede van Munster* (The Hague, 1948).

Ratelband, K., *Vijf Dagregisters van het Kasteel São Jorge da Mina (Elmina) aan de Goudkust, 1645–1647* (The Hague, 1953).

Raychaudhuri, Tapan, *Jan Company in Coromandel, 1605–1690. A study in the interrelations of European commerce and traditional economies* (The Hague, 1962).

Rees, O. van, *Geschiedenis der Staathuishoudkunde in Nederland tot het einde der achttiende eeuw* (2 vols., Utrecht, 1865–8).

Renier, G. J., *The Dutch Nation. An historical study* (London, 1944).

Schoute, D., *De Geneeskunde in den dienst der Oost-Indische Compagnie in Nederlandsch-Indië* (Amsterdam, 1929).

Schrieke, Bertram, *Indonesian Sociological Studies* (2 vols., The Hague, 1955).

Hogendorp, Dirk van, *Stukken raakende de tegenwoordigen toestand der Bataafsche bezittingen in Oost Indië en de handel op dezelve* (The Hague and Delft, 1801). See also under Du Perron & De Roos, above.

Hollandtse Mercurius, 1650–1690 (41 vols. in 8, Haarlem, 1651–91). First word of title variously spelt *Hollandtze, Hollandsche,* etc.

Huizinga, J., *Nederland's beschaving in de zeventiende eeuw. Een schets* (Haarlem, 1941).

Hullu, J. de, 'Ziekten en Doktors op de schepen der Oost-Indische Compagnie' (in *BTLVNI,* Vol. 67, pp. 245–72).

Hullu, J. de, 'De handhaving der orde en tucht op de schepen der Oost-Indische Compagnie' (in *BTLVNI,* Vol. 67, 1913, pp. 516–40).

Hullu, J. de, 'De voeding op de schepen der Oost-Indische Compagnie' (in *BTLVNI,* Vol. 67, 1913, pp. 541–62).

Hullu, J. de, 'De Matrozen en soldaten op de schepen der Oost-Indische Compagnie' (in *BTLVNI,* Vol. 69, 1914, pp. 318–65).

Jameson, J. F., *Willem Usselincx, Founder of the Dutch and Swedish West-India Companies* (New York, 1887).

Jameson, J. F. (ed. and trans.), *Narratives of New Netherland, 1609–1664* (New York, 1909, reprinted 1959).

Japikse, N., *De verwikkelingen tusschen de Republiek en Engeland, 1660–1665* (Leiden, 1900).

Japikse, N., *Johan de Witt* (Amsterdam, 1928).

Jonge, J. C. de, *Geschiedenis van het Nederlandsche Zeewezen* (5 vols., Haarlem, 1858–62).

Jonge, J. K. J. de, *De opkomst van het Nederlandsch gezag in Oost-Indië. Verzameling van onuitgegeven stukken uit het oud-koloniaal archief* (11 vols., The Hague and Amsterdam, 1862–83).

Kaapse Argiefstukke. Kaapse Plakaatboek, 1652–1806 (6 vols., Cape Town, 1944–51). Edited by M. K. Jeffreys & S. D. Naudé.

Kernkamp, J. H., *Johan van der Verken en zijn tijd* (The Hague, 1952).

Keuning, J., 'Ambonnezen, Portugezen en Nederlanders. Ambon's geschiedenis tot het einde van de zeventiende eeuw' (reprinted from *Indonesië,* Vol. IX, 1956, pp. 135–68).

Knuttel, W. P. C., *Catalogus van de pamfletten-verzameling berustende in de Koninklijke Bibliotheek* (8 vols. in 10, The Hague, 1889–1926).

Kock, Victor de, *Those in Bondage. An account of the life of the slave at the Cape in the days of the Dutch East India Company* (London, 1950).

Elias, Johan E., *Schetsen uit de geschiedenis van ons zeewezen, 1568–1654* (6 vols., The Hague, 1916–30).

Feenstra Kuiper, J., *Japan en de buitenwereld in de achttiende eeuw* (The Hague, 1921).

Fockema Andrae, S. J., *De Nederlandse staat onder de Republiek* (Amsterdam, 1962).

Geer, W. Van, *De Opkomst van het Nederlandsch gezag over Ceilon* (Leiden, 1895).

Geyl, Pieter, *The Revolt of the Netherlands, 1555–1609* (London, 1962).

Geyl, Pieter, *The Netherlands in the Seventeenth Century*, I, *1609–1648* (London, 1961). Part II, *1648–1715* (London, 1964), appeared after the present work had gone to press.

Geyl, Pieter, *Geschiedenis van de Nederlandse Stam* (3 vols., 1958–9). In progress. The three volumes published so far cover the period down to 1798.

Geyl, Pieter, *Studies en Strijdschriften* (Groningen, 1958).

Glamann, Kristof, *Dutch–Asiatic Trade, 1620–1740* (Copenhagen and The Hague, 1958).

Gonsalves de Mello, José Antonio, *Tempo dos Flamengos. Influência da Occupação Holandesa na vida e cultura do Norte do Brasil* (Rio de Janeiro, 1947).

Graaff, Nicolaus de, *Reysen van Nicolaus de Graaff na Asia, Africa, America en Europa, mitsgaders zijn Oost Indische Spiegel* (Hoorn, 1701 and 1703). Cf. also under Warnsinck, J. C. M. *infra*.

Groeneveldt, W. P., *De Nederlanders in China. De eerste bemoeiingen om den handel in China en de vestiging in de Pescadores, 1601–1624* (The Hague, 1898).

Haan, F. de, *Priangan. De Preanger-Regentschappen onder het Nederlandsch bestuur tot 1811* (4 vols., Batavia, 1910–12). Covers far more ground than is indicated by the title

Haan, F. de, *Oud Batavia. Gedenkboek uitgegeven door het Bataviaasch Genootschap van Kunsten en Wetenschappen naar aanleiding van het driehonderdjarig bestaan der stad in 1919* (2 vols., and album of plates, Batavia, 1922).

Haan, J. C. de & Winter, P. J. van (eds.), *Nederlanders over de zeeën. 350 jaar Nederlandsche Koloniale Geschiedenis* (Utrecht, 1940).

Hannay, David, *The Great Chartered Companies* (London, 1926).

Havart, Daniel, *Op-en Ondergang van Cormandel, in zijn binnenste geheel open, en ten toon gesteld* (Amsterdam, 1693).

Hickey, William, *Memoirs of William Hickey, 1749–1809* (ed. A. Spencer, 4 vols., London, 1919).

Carter, Alice, 'The Dutch and the English public debt in 1777' (*Economica*, May 1953, pp. 159–61).

Carter, Alice, 'Dutch foreign investment, 1738–1800' (*Economica*, November 1953, pp. 322–40).

Carter, Alice, 'The Dutch as neutrals in the Seven Years War' (*The International and Comparative Law Quarterly*, July 1963, pp. 818–34).

Chijs, J. A. van der, *Nederlandsch-Indisch Plakaatboek, 1602–1799* (12 vols., Batavia, 1885–94).

Colenbrander, H. T., *Jan Pieterszoon Coen. Levensbeschrijving* (The Hague, 1934).

Court, Pieter de la, *Interest van Holland ofte gronden van Hollands welvaren* (Amsterdam, 1662). First published under the pseudonym of V.D.H., this work was reprinted in a revised and enlarged edition in 1669 entitled *Aanwysing der heilsame politieke gronden en maximen van de Republike van Holland en West-Vriesland*, and translated into English under the title of *The True Interest and Political Maxims of the Republick of Holland and West-Friesland* (London, 1702), wrongly ascribed to Johan de Witt.

Dagh-Register gehouden int Casteel Batavia vant passerende daer ter plaetse als over geheel Nederlandts India, 1624–1682 (23 vols., Batavia, 1896–1931).

Dam, Pieter van, *Beschryvinge van de Oostindische Compagnie* (4 books in 6 vols., The Hague, 1927–54). First 5 vols. edited by F. W. Stapel, the sixth by Baron van Boetzelaer van Asperen en Dubbeldam.

Davies, David W., *The World of the Elseviers, 1580–1712* (The Hague, 1954).

Dillen, J. G. van, *Het oudste aandeelhoudersregister van de Kamer Amsterdam der Oost-Indische Compagnie* (The Hague, 1958).

Du Perron, E., *De Muze van Jan Companjie. Overzichtelike verzameling van Nederlands-Oostindiese belletrie uit de Companjiestijd, 1600–1780* (Bandoeng, 1948).

Du Perron, E. & De Roos, E., 'Correspondentie van Dirk van Hogendorp met zijn broeder Gijsbert Karel, 1783–1797' (in *BTLVNI*, Vol. 102, pp. 125–273, The Hague, 1943).

Eekhof, A., *De Hervormde Kerk in Noord-Amerika, 1624–1664* (2 vols., The Hague, 1913).

Eekhof, A., *De Negerpredikant Jacobus Elisa Joannes Capitein, 1717–1747* (The Hague, 1917).

Elias, Johan E., *Het voorspel van den eersten Engelschen oorlog* (2 vols. in one, The Hague, 1920).

Elias, Johan E., *Geschiedenis van het Amsterdamsche Regentpatriciaat* (The Hague, 1923).

Select bibliography

THIS BIBLIOGRAPHY is limited to a list of the fuller titles of the principal works cited in the footnotes, with the addition of a few exceptionally important monographs and articles. The omission of certain recent works such as Enno van Gelder's *The Two Reformations in the 17th Century* (The Hague, 1964) is explained by the fact that they only came to the author's notice after his manuscript was in the press.

I. Gosses & J. Japikse, *Handboek tot de Staatkundige Geschiedenis van Nederland* (3rd edition, The Hague, 1947), gives detailed bibliographies after each chapter. These bibliographies can be brought virtually up to date by consulting those published in the *Algemene Geschiedenis der Nederlanden*, listed below. Periodical articles published before 1954 are listed in the 10-volume work edited successively by L. D. Petit, H. Ruys, Aleida Gast & J. Brok-Ten Broek, *Repertorium der verhandelingen en bijdragen betreffende de geschiedenis des Vaderlands* (Leiden, 1907–59), which is still in progress. The excellent colonial bibliography by W. P. Coolhaas, *A Critical Survey of Studies on Dutch Colonial History* (The Hague, 1960), includes all but the most recent works in this field. These, as well as those dealing with the Netherlands, are equally well surveyed and evaluated by E. & J. Kossmann in their serial 'Bulletin critique de l'historiographie néerlandaise', which has been published annually in the *Revue du Nord. Revue historique trimestrielle. Nord de France-Belgique-Pays Bas* (Lille, 1954 to date), and long may this invaluable guide continue to appear.

Aitzema, Lieuwe van, *Saken van staet en oorlogh, in ende omtrent de Vereenigde Nederlanden, 1621–1668* (6 vols., The Hague, 1669–72).

Algemene Geschiedenis der Nederlanden (12 vols., Utrecht, 1949–1958). Vols. 5–8 are the relevant ones for the period 1567–1795.

Anon, *A Description of Holland: or, the present state of the United Provinces. Wherein is contained a particular account of the Hague, and all the principal cities and towns of the Republick . . . of the manner and customs of the Dutch, their constitution, etc., etc.* (London, 1743).

Arasaratnam, Sinnappah, *Dutch Power in Ceylon, 1658–1687* (Amsterdam, 1958).

Barbour, Violet, *Capitalism in Amsterdam in the Seventeenth Century* (Baltimore, 1950).

Bell, A. E., *Christian Huygens and the Development of Science in the Seventeenth Century* (London, 1947).

Barlow's Journal of his Life at Sea in King's Ships, East and West Indiamen and other Merchantmen from 1659 to 1703 (ed. Basil Lubbock, 2 vols., London, 1934).

Bijdragen en Mededelingen van het Historisch Genootschap gevestigd te Utrecht (Utrecht, 1878 to date). In progress. Prior to 1878, the title began with the word *Kroniek*.

Bijdragen voor de Geschiedenis der Nederlanden (The Hague and Antwerp, 1946 to date). In progress.

Böeseken, Anna J., *Nederlandsche Commissarissen aan de Kaap, 1657–1700* (The Hague, 1938).

Böeseken, Anna J., *Die Nederlandse Kommissarisse en die 18de eeuse samelewing aan die Kaap* (Cape Town, 1944).

Bosch Kemper, Jeronimo de, *Geschiedkundig onderzoek naar de armoede in ons vaderland, haare oorzaken en de middelen, die tot hare vermindering zouden kunnen worden aangewend* (Haarlem, 1851). An abridged version was published in 1860.

Bosman, Willem, *Nauwkeurige Beschryving van de Guinese goud-, tand-, en slave-kust, nevens alle desselfs landen, koningryken en gemenebesten* (Utrecht, 1704). The English translation, *A New and Accurate Description of the Coast of Guinea*, was published at London, 1705, reprinted, 1721.

Boxer, C. R. (trans. and ed.), *The Journal of Maarten Harpertszoon Tromp, Anno 1639* (Cambridge, 1930).

Boxer, C. R., *Jan Compagnie in Japan, 1600–1850. An essay on the cultural, artistic and scientific influence exercised by the Hollanders in Japan from the 17th to the 19th centuries* (The Hague, 1950). Revised edition of a work first published in 1936.

Boxer, C. R., *The Dutch in Brazil, 1624–1654* (Oxford, 1957).

Britain and the Netherlands. Papers delivered to the Oxford–Netherlands Historical Congress, 1959 (London, 1960). Edited by J. S. Bromley & E. H. Kossmann. Vol. II, *Papers Delivered to the Anglo–Dutch Historical Conference 1962* (Groningen, 1964), appeared after the present work had gone to press.

Brugmans, H., *Opkomst en bloei van Amsterdam* (Amsterdam, 1944). Posthumous edition by A. Le Cosquino de Bussy & N. W. Posthumus.

Busken Huet, Conrad, *Het Land van Rembrand. Studien over de Noord Nederlandsche Beschaving in de zeventiende eeuw* (3 vols., Haarlem, 1886).

Carr, William, *An Accurate Description of the United Netherlands* (London, 1691). First published at Amsterdam under a different title in 1688, this work continued to be reprinted under varying titles and in slightly differing editions, mostly with the omission of Carr's name, down to 1744 at least.



إمبراطورية هولندا البحرية

تأليف : ك. ر. بوكسر

ترجمة : شوقي جلال





المجمع الثقافي

ابوظبي - ص . ب . ٢٣٨٠ - هاتف: ٢١٥٣٠٠ - دولة الامارات العربية المتحدة
CULTURAL FOUNDATION - ABU DHABI- P.O BOX: 2380 - TEL. 215300 - U.A.E.